

الميزان

في تفسير القرآن

ج ٢٠

الْحَقُّ الْحَقُّ
مَكْتَابُ
الْمِيزَانِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ
لِمَوْلَاهُ
الْأُسْتَاذِ الْعَلَامَةِ
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حُسَيْنِ الطَّبَّاطَبَا

حقوق الطبع وتقليد
محمودة للنشر

منزلة الطبع ونشر

الشيخ محمد الجوزي
تهنئ

دار الكتب الإسلامية
طهران - سوق الشاهزادان
تلفن ۵۲۰۴۱۰

تمتاز هذه الطبعة عما سبقها بعناية تامة

في التصحيح وضبط الكلمات و تصرفات غير يسيرة

المؤلف دام ظله

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

شبكة كتب الشيعة

الطبعة الثالثة

١٣٩٧ هـ ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سورة الملك مكيّة وهي ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَاعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان عموم ربوبيّته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنيّة إنّ لكلّ شطر من العالم ربّاً من الملائكة وغيرهم وإنّه تعالى ربّ الأرباب فقط .

ولذا يعدّ سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق والتدبير - وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيّته - ويفتح الكلام بتباركه وهو كثرة صدور البركات عنه ، ويكرّر توصيفه بالرحمان وهو مبالغة في الرحمة التي هي العطية قبل الاستدعاء فقرا ، وفيها إنذار ينتهي إلى ذكر الحشر والبعث .

و تلخص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبيّة والقول بالمعاد .
و السورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير» تبارك الشيء كثرة صدور الخيرات والبركات عنه .

و قوله : «الذي بيده الملك» يشمل باطلاقه كلّ ملك ، و جعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلّطه عليه وكونه متصرّفاً فيه كيف يشاء كما يتصرّف ذواليد فيما بيده ويقا به كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كلّ شيء من جميع جهاته ، و يملك ما يملكه كلّ شيء .

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالملك في قوله : «عند ملك مقتدر» القمر : ٥٥ ، و أصرح و أكد من توصيفه في قوله : « له الملك » التغابن : ١ .

و قوله : «و هو على كلّ شيء قدير» إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحدّ ولا منتهية إلى نهاية و هو لازم إطلاق الملك بحسب السياق ، وإنكان إطلاق الملك هو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات .

و في الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد .

قوله تعالى : «الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور» الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد ، و الموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشأت الحياة إلى نشأة أخرى كما تقدّم استفادة ذلك من قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت .. إلى قوله - فيما لا تعلمون » الواقعة : ٦١ فلأمانع من تعلّق الخلق بالموت كالحياة .

على أنّه لو أخذ عدميّاً كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظٌّ من الوجود يصحّ تعلّق الخلق به كالعَمى من البصر و الظلمة من النور

و قوله : « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » غاية خلقه تعالى الموت والحياة ، والبلاء الامتحان ، و المراد أنّ خلقكم هذا النوع من الخلق و هو أنكم تحيون ثمّ تموتون خلق مقدّمى امتحانيّ يمتاز به منكم من هو أحسن عملاً من غيره و من المعلوم أنّ الامتحان و التمييز لا يكون إلّا لأمرّاً يستقبلكم بعد ذلك و هو جزاء كلّ بحسب عمله .

وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أنّ المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل و امتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملاً هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم .

و قد ذيل الكلام بقوله : « وهو العزيز الغفور » فهو العزيز لأنّ الملك و القدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه أغلب و ما أقدر أحداً على مخالفته إلّا بلاء و امتحاناً وسينتقم منهم و هو الغفور لأنّه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا وسيغفر كثيراً منها في الآخرة كما وعد .

و فى التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف و تطميع على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة .

و اعلم أنّ مضمون الآية ليس مجرد دعوى خالية عن الحجّة يراد به التلقين كما ربّما يتوهّم بل هي مقدّمة قريبة من الضرورة - أو هي ضرورة - تستدعي الحكم

بضرورة البعث للجزاء فإنَّ الانسان المتلبَّس بهذه الحياة الدنيويَّة المملوكة للموت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه و هو مجهز بحسب الفطرة بما لولا عروض عارض السوء لساقه إلى حسن العمل ، و قلما يخلو انسان من حصول أحد الوصفين كالأطفال و من في حكمهم .

و الوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراد غاية في وجوده مقصودة في إيجادها فكما أنَّ الحياة النباتيَّة لشجرة كذا إذ كانت تؤدِّي في الغالب إلى إثمارها ثمرة كذا يعدُّ ذلك غاية لوجودها مقصودة منها كذلك حسن العمل و الصلاح غاية لخلق الانسان ، و من المعلوم أيضاً أنَّ الصلاح و حسن العمل لو كان مطلوباً لكان مطلوباً لغيره لا لنفسه ، والمطلوب بالذات الحياة الطيِّبة التي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم فلا آية في معنى قوله : « كل نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشرِّ و الخير فتنة » الانبياء : ٣٥ .

قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » الخ أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض - على ما احتمل - و قد مرَّ في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها .

و قوله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » قال الراغب : الفوت بعد الشيء عن الانسان بحيث يتعذَّر إدراكه قال تعالى : « و إن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفَّار » . قال : و التفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر قال تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة . انتهى .

فالمراد بنفي التفاوت اتِّصال التدبير و ارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات و المنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض فاصطكاك الأسباب المختلفة في الخلقة و تنازعها كتشاجر كفتي الميزان و تصارعهما بالثقل والخفة و الارتفاع و الانخفاض فإنَّهما في عين أنَّهما تختلفان تتفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يرده من تشخيص وزن السلعة الموزونة .

فقد رتب الله أجزاء الخلق بحيث تؤدي إلى مقاصدها من غير أن يفوت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة .
و الخطاب في «ما ترى» خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية و في إضافة الخلق إلى الرحمن ، إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة العامة ، و تنكير «تفاوت» و هو في سياق النفي و إدخال «من» عليه لإفادة العموم .

وقوله : «فارجع البصر هل ترى من فطور» الفطور الاختلال و الوهي ، و المراد بارجاع البصر النظر ثانياً و هو كناية عن المداقة في النظر و الإمعان فيه .
قوله تعالى : «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً و هو حسير» الخاسيء من خساً البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب ، و قال ايضاً : الخاسر المعيا لانكشاف قواه ، و يقال للمعيا : حاسر و محسور : أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوته ، و أما المحسور فتصور أن التعب قد حسره ، و قوله عز وجل : «ينقلب إليك البصر خاسئاً و هو حسير» يصح أن يكون بمعنى حاسر و أن يكون بمعنى محسور ، انتهى .

وقوله : «كرتين» الكرّة الرجعة و المراد بالتثنية التكثير و التكرير و المعنى ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب إليك البصر منقبضة مهينة و الحال أنه كليل معيالم يجد فطوراً .
فقد أُشير في الآيتين إلى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاد .

قوله تعالى : «ولقد زينّا السماء الدنيا بمصابيح» إلى آخر الآية المصابيح جمع مصباح و هو السراج سمّي الكواكب مصابيح لأنارتها و إضاءتها و قد تقدّم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة .

و قوله : «و جعلناها رجوماً للشياطين» أي و جعلنا الكواكب التي زينّا بها السماء رجوماً يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى : «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» الحجر : ١٨ وقال : «إلا من خطف الخطفة فأتبعه

شهاب ثاقب» الصافات : ١٠ .

قيل : إنَّ الجملة دليل أنَّ المراد بالكواكب المزيّنة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإنَّ الكواكب الأصلية لا تنزل عن مستقرّها والكوكب و النجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية .
وقيل : تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً للشياطين أمّا الكواكب أنفسها فليست تنزل إلاّ أن يريد الله إفناءها .

وهذا الوجه أوفق للأ نظار العلمية الحاضرة، وقد تقدّم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب .

وقوله : « وأعدنا لهم عذاب السعير » أي وهبنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة المشتعلة .

قوله تعالى : « وللذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم وبئس المصير » لمّا أورد بعض آيات ربوبيّته تعالى عقّبها بالوعيد على من كفر بربوبيّته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار .

والمراد بالذين كفروا بربوبيّته أعمّ من الوثنيين النافين لربوبيّته غير أربابهم القائلين بأنّه تعالى ربّ الأرباب فقط ، والنافين لها مطلقاً والمثبتين لربوبيّته مع التفريق بينه وبين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله وكفروا ببعض .
والآية مع ذلك متصلة بقوله : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » وهو العزيز الغفور « لما فيها من الإشارة إلى البعث والجزاء ومتصلة بما قبلها كالتمميم بعد التخصيص .

قوله تعالى : إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ » قال الراغب : الشهيق طول الزفير وهو ردّ النفس والزفير مدّه انتهى ، والفوران كما في المجمع ارتفاع الغليان والتميز التقطع والتفرّق ، والغيظ شدّة الغضب ، والمعنى إذا طرح الكفّار في جهنّم سمعوا لها شهيقاً - أي تجذبهم إلى داخلها كما يجذب الهواء

بالشهيق إلى داخل الصدر - وهي تغلى بهم فترفعهم و تخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب .

قوله تعالى : « كَلِّمَ الْكُفَّارَ فِيهَا فُوجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ » الفوج - كما قاله الراغب - الجماعة المارّة المسرعة ؛ وفي قوله : « كَلِّمَ الْكُفَّارَ فِيهَا فُوجٌ » إشارة إلى أن الكفّار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير إليه قوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنّم زمراً » الزمر : ٧١ و إنّما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعهم في الضلال كما قال تعالى : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنّم » الأنفال : ٣٧ وقد تقدّم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال .

و الخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدّخر والمراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبّرون لأنواع عذابها قال تعالى : « عليها ملائكة غلاظ شداد » التحريم : ٦ ، وقال : « و ما أدراك ماسقر - إلى أن قال - عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » المدّثر : ٣١ .

والمعنى كلّما طرح في جهنّم جماعة من جماعات الكفّار المسوقين إليها سألهم الملائكة الموكلون على النار الحافظون لها - توبيخاً - ألم يأتكم نذير؟ وهو النبيّ المنذر .

قوله تعالى : « قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا » إلى آخر الآية حكاية جوابهم لسؤال الخزنة ، وفيه تصديق أنّهم قد جاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب واعتراف . وقوله : « ما نزل الله من شيء » بيان لتكذيبهم ، وكذا قوله : « إن أنتم إلا في ضلال كبير » وقيل : قوله : « إن أنتم » - الخ كلام الملائكة يخاطبون به الكفّار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا ، وهو بعيد من السياق ، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه الملائكة لأولئك الكفّار .

قوله تعالى : « وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجراحة وربّما يراد به ماهو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاه من الفعل و الترك ، ويطلق العقل على تمييز الخير من الشرّ

والنافع من الضارّ ، وربّما يراد به ما هو الغايه منه وهو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير والنافع واجتناب الشرّ والضرّ قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ » الأعراف : ١٧٩ . وأكثر ما ينتفع بالسمع عامّة الناس لقصورهم عن تعقّل دقائق الأمور وإدراك حقيقتها والاهتداء إلى مصالحها ومفاسدها وإنّما ينتفع بالعقل الخاصّة .

فقوله : « لو كنّا نسمع أو نعقل » أريد بالسمع استجابة دعوة الرسل والالتزام بمقتضى قولهم وهم النصحاء الأئمّة ، وبالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون إليه من الحقّ بتعقله والاهتداء العقليّ إلى أنّه حقّ ومن الواجب أن يخضع الإنسان للحقّ . وإنّما قدّم السمع على العقل لأنّ استعماله من شأن عامّة الناس وهم الأكثرون والعقل شأن الخاصّة وهم آحاد قليلون .

و المعنى لو كنّا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجّة الحقّ ما كنّا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبو النار المخلّدون فيها . وقيل : إنّما جمع بين السمع والعقل لأنّ مدار التكليف على أدلّة السمع والعقل .

قوله تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » كانوا إنّما قالوا : « لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » ندامة على ما فرطوا في جنب الله وفوّتوا على أنفسهم من الخير فاعترفوا بأنّ ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به ، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم . وإنّما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر . وقوله : « فسحقاً لأصحاب السعير » السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم .

قوله تعالى : « إنّ الذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » لما ذكر حال الكفّار وما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأنّ المقام مقام الإنذار والوعيد .

وعدّ خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب .

قوله تعالى : « وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد وذلك أنَّهُ تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيّته لكلّ شيء المستتبعة للبعث والجزاء وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقهم وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو ممّا لا يتمّ البعث والجزاء بدونّه .

وكان من الممكن أن يتوهّموا أنّ الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتّى ضبطها وخاصة ما تكنّه الصدور منها فإنّ الإنسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية وخاصة أعمال القلوب المستكنّة في زواياها .

فدفعه بأنّ إظهار القول وإخفائه سواء بالنسبة إليه تعالى فإنّه عليم بذات الصدور ، والسياق يشهد أنّ المراد استواء خفايا الأعمال وجلالها بالنسبة إليه ، وإنّما ذكر إسرار القول وجهه من حيث ظهور معنى الخفاء والظهور فيه بالجهر والإسرار .

قوله تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » استفهام إنكاريّ مأخوذ حجّة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرّها وجهرها وذلك أنّ أعمال الخلق - ومن جملتها أعمال الإنسان الاختيارية - وإن نسبت إلى فواعلها لكنّ الله سبحانه هو الذي يريدّها ويوجدّها من طريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء والمقدّر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها إلى آثارها قال تعالى : « الله خالق كلّ شيء وهو على كلّ شيء وكيل » الزمر : ٦٢ ، وقال : « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ فهو سبحانه محيط بعين من خلقه وأثره ومن أثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسرّه وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه .

وفي الآية إشارة إلى أنّ أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنّه

تعالى استبدل بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال .
على أن الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والذي ينتسب إليه وجود الشيء ينتسب إليه آثار وجوده .

وقوله : « وهو اللطيف الخبير » أي النافذ في بواطن الأشياء المطلع على جزئيات وجودها وآثاره، والجملة حالية تغلغل ما قبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذبلت بهما الآية لتأكيد مضمونها .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينه عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » قال : ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والخشية .

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل .
ألا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمداك عليه أحد إلا الله ، والنية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل . ثم تلا قوله : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته .

وفي المجمع قال أبو قتادة : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « أيكم أحسن عملاً » ما عني به ؟ فقال : يقول : أيكم أحسن عقلاً . ثم قال : أنتم عقلاً وأشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً . وفيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك - إلى قوله - أيكم أحسن عملاً » ثم قال : أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً » قال : بعضها طبق لبعض .

وفيه في قوله تعالى : « من تفاوت » قال : من فساد .
 وفيه في قوله تعالى : « ثم أرجع البصر » قال : انظر في ملكوت السماوات والأرض .
 وفيه في قوله تعالى : « بمصابيح » قال : بالنجوم .
 وفيه في قوله تعالى : « سمعوا لها شهيقاً » قال : وقعاً .
 وفيه في قوله تعالى : « تكاد تميز من الغيظ » قال : على أعزاء الله .
 وفيه في قوله تعالى : « وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير »
 قال : قد سمعوا وعقلوا ولكنهم لم يطيعوا ولم يقبلوا ، والدليل على أنهم قد سمعوا
 وعقلوا ولم يقبلوا . قوله : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .
 أقول : يعنى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يدلّ على أَنَّ المراد من عدم السمع والعقل عدم
 الإطاعة و القبول بعد السمع و العقل أَنَّهُ تعالى سمى قولهم ذلك اعترافاً بالذنب ،
 ولا يعدّ فعل ذنباً من فاعله إلا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أو عقل .





هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدُكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)

﴿ بَيَان ﴾

في الآيات كرّة بعد كرّة بآيات التدبير الدالة على ربوبيّته تعالى مقرونة بالإيذار والتخويف أعني قوله : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا » الآية ، وقوله : « أولم يروا إلى الطير » الآية بعد قوله : « الذي خلق الموت والحياة » الآية وقوله « الذي خلق سبع سماوات » الآية وقوله : « ولقد زينّا » الآية .

قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب ويجمع والمناكب جمع منكب وهو مجتمع ما بين العضد والكتف واستعير لسطح الأرض قال

الراغب : واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله : « ماترك على ظهرها من دابة » وتسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع البصرّات الإنسانية من غير امتناع ، وقد وجّه كونها ذلولاً إذا مناكب بوجوه مختلفة تؤل جميعها إلى ما ذكرنا .

والأمر في قوله : « وكلوا من رزقه » للإباحة والنشور والنشر إحياء الميت بعد موته وأصله من نشر الصحيفة و الثوب إذا بسطهما بعد طيئهما .

والمعنى هو الذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقرؤا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدّره لكم بأنواع الطلب والتصرّف فيها . وقوله : « وإليه النشور » أي ويرجع إليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض وإحيائهم للحساب والجزاء ، واختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به والإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالآقرار على الأرض والهداية إلى مآرب الحياة ، وله الحكم بالنشور للحساب والجزاء . وفي عدّ الأرض ذلولاً والبشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ما أدّت إليه الأبحاث العلمية أخيراً من كون الأرض كرة سيّارة .

قوله تعالى : « أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » إنذار وتخويف بعد إقامة الحجّة وتوبيخ على مساھلتهم في أمر الربوبية وإهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيّته ورفض ما خلقوه من الأنداد .

والمراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الأفراد إلى « من » باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذاشقها وتغييبهم في بطنها والموء على ما في المجمع التردد في الذهاب والمجيء مثل الموج .

والمعنى أأمنتم في كفركم بربوبيّته تعالى الملائكة المقيمون في السماء الموكلين بأمر العالم أن يشقّوا الأرض ويغيّبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً ومجيئاً بزلزالها .

وقيل : المراد بمن في السماء هو الله سبحانه والمراد بكونه في السماء كون سلطانه وتدبيره وأمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محلاً بَعَالَمٍ من العوالم، وهذا المعنى وإن كان لا بأس به لكنّه خلاف الظاهر.

قوله تعالى : « أم أمنتُم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة والحجارة ، والمعنى أمنتُم من في السماء أن يرسل عليكم ريحاً ذات حصاة و حجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: «إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط « القمر : ٣٤ .

وقوله : « فستعلمون كيف نذير » النذير مصدر بمعنى الانذار والجملة متفردة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيّته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر .
وقيل : النذير صفة بمعنى المنذر والمراد به النبي ﷺ وهو سخيّف .

قوله تعالى : « ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار ، والآية كاشاهدة يستشهد به على صدق ما في قوله : « فستعلمون كيف نذير » من الوعيد والتهديد .

والمعنى ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيّتي فكيف كان عقوبتي وتغيير النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم .

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : « من قبلهم » إشعاراً بسقوطهم - لجهالتهم وإهمالهم في التدبّر في آيات الربوبيّة وعدم مخافتهم من سخط ربّهم - عن تشریف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقي إليهم من المعارف إلى خطاب النبي ﷺ .

قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات و يقبضن ما يمسكنهنّ إلاّ الرحمان إنّّه بكلّ شيء بصير » المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء ، وصيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله ، والجمع في « صافّات و يقبضن » لكون المراد بالطير استغراق الجنس .

وقوله : « مايمسكهنَّ إلاَّ الرحمن » كالجواب لسؤال مقدّر كأنَّ سائلاً يسأل فيقول : ماهو المراد باللفات نظرهم إلى صيف الطير وقبضه فوقهم ؟ فأجيب بقوله : « مايمسكهنَّ إلاَّ الرحمن » .

وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كان مستنداً إلى أسباب طبيعِيَّة كقرار الإنسان على بسط الأرض والسماك في الماء وسائر الأمور الطبيعيَّة المستندة إلى علل طبيعيَّة تنتهي إليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر إليه أن ينتقل إلى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي إليه حدوثه ووجوده ، ولذا نهتهم الله سبحانه في كلامه بالرجاع نظرهم إليها ودلائلهم على وحدانيَّته في الربوبية .

وقدورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمسك السماوات بغير عمد وإمسك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعيّ القريب خفياً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثم إذا تنبّه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتّى تنتهي إليه تعالى وأنَّ إلى ربك المنتهى .

قال في الكشف : فإن قلت : لم قيل : و يقبضن و لم يقل : و قابضات ؟ قلت : لأنَّ الأصل في الطيران هو صفَّ الأجنحة لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة هو مدَّ الأطراف وبسطها وأما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك فجئىء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنَّهنَّ صافَّات و يكون منهنَّ القبض تارة كما يكون من السابح . انتهى .

وهو مبنيٌّ على أن تكون الآية هي مجموع قوله : « صافَّات و يقبضن » وهو الطيران ، ويمكن أن يستفاد أنَّ الآية عدم سقوطهنَّ وهنَّ صافَّات ، و آية أخرى أنَّهنَّ ربَّما يقبضن ولا يسقطن حينما يقبضن .

ولا يخفى ما في ذكر طيران الطير في الهواء بعد ذكر جعل الأرض ذلولاً والإنسان على مناكبها من اللطف .

قوله تعالى : « أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » ، توبيخ و تقريع لهم في اتّخاذهم آلهة من دُون الله لينصروهم و لذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب فخطبهم ليستدّ عليهم التقريع .

و قوله : « أَمَّنْ هَذَا الَّذِي » الخ معناه بل من الذي يشار إليه فيقال : هذا جند لكم ينصركم من دُون الرحمن إن أرادكم بسوء أو عذاب ؟ فليس دُون الله من ينصركم عليه ، و فيه إشارة إلى خطأيهم في اتّخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب و هم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعا و ضرّا ولا لغيرهم .

و إذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله : « إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أي أحاط بهم الغرور و غشيم فخيّل إليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم .

قوله تعالى : « أَمْ مِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ » أي بل من الذي يشار إليه بأنّ هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم ؟ ثمّ أجاب سبحانه بقوله : « بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ » أي إنّ الحقّ قد تبين لهم لكنّهم لا يخضعون للحقّ بتصديقه ثمّ اتّباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحقّ و نفورهم منه ، ولجّوا في ذلك .

قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمٍّ مِنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ، إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه ، و قال في الكشف : معنى أكبّ دخل في الكبّ و صار ذاكب .

استفهام إنكاري عن استواء الحاليين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم و تحريمهم من تشريف الحضور و الخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم ، و المراد أنّهم بلجاجهم في عتوّ عجيب و نفور من الحقّ كمن يسلك سبيلا و هو مكبّ على وجهه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع و انخفاض و مزلق و معائر فليس هذا السائر كمن يمشي سويّا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه و ما يواجهه من الطريق على استقامة ، و ما يقصده من الغاية ، و هؤلاء الكفّار سائرون سبيل الحياة و هم يعاندون الحقّ على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه و العمل بما عليهم أن يعملوا به و لا

يخضعون للحقّ حتّى يَكُونُوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك .
وقد ظهر أنّ ما في الآية مثل عامّ يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتماذي على جهله و المؤمن المستبصر الباحث عن الحقّ .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال : القلب أربعة : قلب فيه نفاق و إيمان ، و قلب منكوس ، و قلب مطبوع ، و قلب أزهر . فقلت : ما الأزهر؟ قال : فيه كهيئة السراج .

فأما المطبوع فقلب المنافق ، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر و إن ابتلاه صبر ، و أما المنكوس فقلب المشرك ثمّ قرء هذه الآية « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » ، فأما القلب الذي فيه إيمان و نفاق فقوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك و إن أدركه على إيمانه نجى .

اقول : و رواه في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الفضيل عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ القلوب أربعة ، وساق الحديث إلى آخره إلا أنّ فيه : و قلب أزهر أنور .

و قوله : « فهم قوم كانوا بالطائف » المراد به الطائف الشيطانيّ الذي ربّما يمسّ الإنسان قال تعالى : « إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإبّاهم مبصرون » الأعراف : ٢٠١ فالمعنى أنّهم يعيشون مع طائف شيطانيّ يمسّهم حيناً بعد حين فإن أدركهم الأجل و الطائف معهم هلكوا و إن أدركهم و هم في حال الإيمان نجوا .

و اعلم أنّ هناك روايات تطبّق قوله : « أفمن يمشي مكباً على وجهه » الآية على من حاد عن ولاية علي عليه السلام و من يتبعه و يواليه ، و هي من الجري و الله أعلم .



قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْبَصَارَ وَ الْإَفْئِدَةَ
 قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ
 تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ
 إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ
 وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ
 إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
 أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي
 ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ
 مَعِينٍ (٣٠) .

﴿ بيان ﴾

آيات أُخْرِجَتْ كَرِهَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ وَ التَّدْيِيرِ
 مَقْرُونَةٌ بِالْإِنْذَارِ وَ التَّخْوِيفِ ، جَارِيَةٌ عَلَى غَرَضِ السُّورَةِ وَ هِيَ التَّذَكُّرَةُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ
 مَعَ الْإِنْذَارِ غَيْرِ أَنََّّهُ تَعَالَى لَمَّا أَشَارَ إِلَى لِبَاجِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ فِي قَوْلِهِ السَّابِقِ : « بَلِ
 لَجَّوْا فِي عَمَوٍّ وَ نَفُورٍ » غَيْرِ السِّيَاقِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ خُطَابِهِمْ وَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى خُطَابِ النَّبِيِّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِأَمْرِهِ أَنْ يَتَصَدَّى خُطَابَهُمْ وَ يَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ آيَاتُهُ فِي الْخَلْقِ وَ التَّدْيِيرِ الدَّالَّةُ
 عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَ إِنْذَارِهِمْ بِعَذَابِ اللَّهِ ، وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ » الْخ

«قل هو الذي ذرأكم» الخ «قل إنما العلم» الخ «قل أرأيتم إن أهلكني الله» الخ
«قل هو الرحمن» الخ «قل أرأيتم إن أصبح» ماؤكم غوراً» الخ .

قوله تعالى «قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» إلا إنشاء إحداث الشيء ابتداء وتربيته .

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله : «قليلاً ما تشكرون» وقد تكرر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون^(٢) والم^(٢) السجدة يدل على أن إنشاء تعالى الإنسان وتجهيزه بجهاز الحس والفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدر قدرها .

و ليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه وإحداثه من دون سابقة في مادته كما أشار إليه في قوله يصف خلقه طوراً بعد طور : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة - إلى أن قال - ثم أنشأناه خلقاً آخر» المؤمنون : ١٤ فضرورة المضغة إنساناً سمياً بصيراً متفكراً بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانح أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقه ثم مضغة فإتمامها أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنساناً ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء .

ومثله قوله : «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» الروم : ٢٠ (انظر إلى موضع إذا الفجائية) .

فقوله : «هو الذي أنشأكم» إشارة إلى خلق الإنسان .

وقوله : «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة» إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحس والفكر، والجعل إنشائي كجعل نفس الإنسان كما يشير إليه قوله : «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» المؤمنون : ٧٨

(١) الآية ٧٨ .

(٢) الآية ٩ .

فلا إنسان بخصوصية إنشائه وكونه بحيث يسمع و يبصر يمتاز من الجماد و النبات - والاقتصار بالسمع والبصر من سائر الحواس كاللمس و الذوق والشم لكونهما العمدة ولا يبعد أن يكون المراد بالسمع و البصر مطلق الحواس الظاهرة من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل - و بالفؤاد و هو النفس المتفكرة يمتاز من سائر الحيوان .

و قوله : « قليلاً ما تشكرون » أي تشكرون قليلاً على هذه النعمة - أو النعم - العظمى فما زائدة و قليلاً مفعول مطلق تقديره تشكرون شكراً قليلاً ، و قيل : ما مصدرية و المعنى قليلاً شكركم .

قوله تعالى : « قل هو الذي ذرأكم في الأرض و إليه تحشرون » الذرة الخلق و المراد بذريعتهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كما لهم إلا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بما تنجذب إليه النفس الانسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً و إنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » الكهف : ٨ و قوله : « و إليه تحشرون » إشارة إلى البعث و الجزاء و وعد جازم .

قوله تعالى : « و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » المراد بهذا الوعد الحشر الموعود ، و هو استعجال منهم استهزاء .

قوله تعالى : « قل إنما العلم عند الله و إنما أنا نذير مبين » جواب عن قولهم « متى هذا الوعد » الخ و محصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال : « لا يجليها لوقتها إلا هو » الاعراف ١٨٧ و ليس لي إلا أني نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم إليه تحشرون و أما أنه متى هو فليس لي بذلك علم .

هذا على ما يفيد وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر . وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد ، والمراد العلم بوقت الحشر ، وأما لو كانت للجنس على ما تفيد جملة « إنما العلم عند الله » في نفسها فالمعنى إنما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلا بما ذنه كما قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما

شاء « البقرة : ٢٥٥ ولم يشأ أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع وأنذركم به وأما أنه متى يقع فلا علم لي به .

قوله تعالى : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا الخ » الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل ، وضمير « رأوه » للوعد وقيل للعذاب والمعنى فلما رأوا الوعد المذكور قريباً قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة والخسران .

وقوله : « وقيل هذا الذي كنتم به تدعون » قيل تدعون وتدعون بمعنى واحد كتدخرون وتدخرون والمعنى وقيل لهم : هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم : متى هذا الوعد ، وظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله ، وقيل القائل من الكفار يقول به بعضهم لبعض .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورحنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » « إن » شرطية شرطها قوله : « أهلكني الله » وجزاؤها قوله : « فمن يجير » الخ والمعنى قل لهم أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحنا فلم يهلكنا فمن الذي يجير ويعيد الكافرين - وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققتهم أليم العذاب - من عذاب أليم يهددهم تهديداً قاطعاً أي إن هلاكى ومن معى وبقاؤنا برحمة ربى لا ينفعكم شيئاً فى العذاب الذى سىصيبكم قطعاً بكفركم بالله .

قيل : إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ أن يقول لهم إن أهلكننا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله ونرجو الخير من رحمته وأما أنتم فما تصنعون ؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله ؟

قوله تعالى : « قل هو الرحمن آمناً به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين » الضمير للذى يدعو إلى توحيده وهم يدعونه عليه ، والمعنى قل الذى أدعوكم إلى توحيده وتدعونه على وعلى من معى هو الرحمن الذى عمت نعمته كل شيء آمناً به وعليه توكلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو فى ضلال مبين ؟ نحن أم أنتم ؟

قال في الكشف : فإن قيل : لم أخبر مفعول « آمناً » وقدّم مفعول « توكلنا »؟ قلت : لوقوع آمناً تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل : آمناً ولم نكفر كما كفرتم ثم قال : وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلمون عليه من رجالكم وأموالكم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر ، والمعين الظاهر الجاري من الماء والمعنى أخبروني إن صار ماؤكم غائراً ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار . وهناك روايات تطبق الآيات على ولاية عليّ عليه السلام ومحادثته وهي من الجري وليست بمفسرة .



﴿سورة القلم مكّية وهي اثنتان وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى
خَلْقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتَبْصُرُ وَيَبْصُرُونَ (٥) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنْ رَبُّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ
الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَذُوا لَوْ تَدْنِهُمْ فَيُذْهِبُونَهُمْ (٩) وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠)
هَمَزٍ مِثْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١١) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ
زَنِيمٌ (١٣) إِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨)
فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)
فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرِّئِكُمْ أَنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢)
فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤)
وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ (٢٨)
قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَاقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

يَعْلَامُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِعِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ
يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) .

﴿ بيان ﴾

السورة تعزّي النبي ﷺ إثر ما رماه المشركون بالجنون وتطيّب نفسه
بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم وتنهاه نهياً بالغاً عن طاعتهم ومداونتهم ،
وتأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربّه .

وسياق آياتها على الجملة سياق مكّيّ ، ونقل عن ابن عباس وقتادة أن صدرها
إلى قوله : «سنسمه على الخرطوم - ستة عشرة آية - مكّيّ» ، وما بعده إلى قوله :
« لو كانوا يعلمون - سبع عشرة آية - مدنيّ » ، وما بعده إلى قوله : « يكتبون - خمس
عشرة آية - مكّيّ » ، وما بعده إلى آخر السورة - أربع آيات - مدنيّ .

ولا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة «إنّا بلوناهم - إلى قوله -
لو كانوا يعلمون» فإنّها أشبه بالمدنيّة منها بالمكّيّة .

قوله تعالى : «ن» تقدّم الكلام في الحروف المقطّعة التي في أوائل السور في
تفسير سورة الشورى .

قوله تعالى : «والقلم وما يسطرون» القلم معروف ، والسطر بالفتح فالسكون
وربّما يستعمل بفتحيتين - كما في المفردات - الصف من الكتابة ، ومن الشجر المغروس
ومن القوم الوقوف وسطر فلان كذا كتب سطرّاً سطرّاً .

أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم
ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب فإنّ القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم
الالهيّة التي اهتدى إليها الإنسان يتلوا الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار

والمعاني المستكنة في الضمائر ، وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجابا .

وقد امتنَّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته إليهما وتعليمهما له فقال في الكلام «خلق الإنسان علمه البيان» الرحمن : ٤ وقال في القلم : «علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» العلق : ٥ .

فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنعمة ، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة ونعمة كالسما والأرض والشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك حتى التين والزيتون .

وقيل : «ما» في قوله : «وما يسطرون» مصدرية والمراد به الكتابة .

وقيل : المراد بالقلم القلم الأعلى الذي في الحديث أنه أول ما خلق الله وبما يسطرون ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون واحتمل أيضا أن يكون الجمع في «يسطرون» للتعظيم والتكثير وهو كما ترى ، واحتمل أن يكون المراد ما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ واحتمل أن يكون المراد بالقلم وما يسطرون أصحاب القلم ومسطوراتهم وهي احتمالات واهية.

قوله تعالى « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » مقسم عليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ، والباء في «بنعمة» للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون بسبب النعمة - أو مع النعمة - التي أنعمها عليك ربك .

والسياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية ، والآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكى عنهم في آخر السورة « ويقولون إنه لمجنون » .

وقيل : المراد بالنعمة فصاحته ﷺ وعقله الكامل وسيرته المرضية وبراءته من كل عيب واتصافه بكل مكرمة فظهور هذه الصفات فيه ﷺ ينافي حصول الجنون فيه وما قد مناه أقطع حجة والآية وما يتلوها كما ترى تعزية للنبي ﷺ وتطبيب

لنفسه الشريفة وتأيد له كما أن فيها تكذيباً لقولهم .

قوله تعالى : « وإنَّ لك لأجرًا غير ممنون » الممنون من المن بمعنى القطع يقال : منه السير منّا إذا قطعه وأضعفه لامن المنّة بمعنى ثقيل النعمة قولاً .

والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه ، وفيه تطيب لنفس النبي ﷺ وأنّ له على تحمّل رسالة الله أجراً غير مقطوع وليس يذهب سدى .

وربّما أخذ المنّ بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث ينقل عليه ويكدر عيشه بتقريب أنّ ما يعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقّه عليه تعالى فلا منّة عليه وهو غير سديد فإنّ كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته وصفاته وأعماله فما يعطيه العبد من ذلك فهو موهبة وعطيّة وما يملكه العبد من ذلك فإنّما يملكه بتملك الله وهو المالك لما ملكه من قبل ومن بعد فهو تفضّل منه تعالى ولئن سمّي ما يعطيه بأجرٍ العمل أجرًا وسمّي ما بينه وبين عبده من مبادلة العمل والأجر معاملة فذلك تفضّل آخر فلله سبحانه المنّة على جميع خلقه والرسول ومن دونه فيه سواء .

قوله تعالى : « وإنّك لعلى خلق عظيم » الخلق هو الملكة النفسانيّة التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة ، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن .

قال الراغب : و الخلق - بفتح الخاء - و الخلق - بضمّ الخاء - في الأصل واحد كالشرب والشرب والصرم والصرم لكن خصّ الخلق - بالفتح - بالهيآت والأشكال والصور المدركة بالبصر ، و خصّ الخلق - بالضمّ - بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى : « وإنّك لعلى خلق عظيم » . انتهى .

و الآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظمه غير أنّها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعيّة المتعلّقة بالمعاشرة كالثبات على الحقّ والصبر على أذى الناس وجفاء أجلاقهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمدارة والتواضع وغير ذلك ، وقد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب

ماروي في جوامع أخلاقه ﷺ .

و مما تقدّم يظهر أنّ ما قيل : إنّ المراد بالخلق الدين و هو الإسلام غير مستقيم إلاّ بالرجوع الى ما تقدّم .

قوله تعالى : «فستبصرو يبصرون بأيّكم المفتون» تفرّيع على محصل ما تقدّم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبساً بالنبوة و متخلّفاً بالخلق و لك عظيم الأجر من ربّك فيظهر أمر دعوتك و ينكشف على الأبصار و البصائر من المفتون بالجنون ؟ أنت أو المكذّبون الرامون لك بالجنون .

و قيل المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له و لهم في الدنيا أو في الآخرة ؟ وآلية تقبل الحمل على كلّ منها . و لكلّ قائل ، و لا مانع من الجمع فإنّ الله تعالى أظهر نبيّه عليهم و دينه على دينهم ، و رفع ذكره ﷺ و محا أثرهم في الدنيا و سيذوقون و بال أمرهم غداً و يعلمون ^(١) أنّ الله هو الحقّ المبين يوم هم ^(٢) على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون .

و قوله : «بأيّكم المفتون» الباء زائدة للصلة ، و المفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الابتلاء يريد به المبتلى بالجنون و فقدان العقل ، والمعنى فستبصرو يبصرون أيّكم المفتون المبتلى بالجنون ؟ أنت أم هم ؟

وقيل : المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول و ميسور و معسور في قولهم : ليس له معقول ، و خذ ميسوره ، و دع معسوره ، و الباء في «بأيّكم» بمعنى في و المعنى فستبصرو يبصرون في أي الفريقين الفتنة .

قوله تعالى : «إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين» لما أفيد بما تقدّم من القول أنّ هناك ضلالاً و اهتداءً ، و أشير إلى أنّ الرامين للنبي ﷺ بالجنون هم المفتونون الضالّون و سيظهر أمرهم و أنّ النبي ﷺ

(١) النور : ٢٥ .

(٢) الذاريات : ١٤ .

مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأنَّ السبيل سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله ومن ليس فيه وإليه أمر الهداية .

قوله تعالى : « فلا تطع المكذَّبين » تفريع على المحصَّل من معنى الآيات السابقة وفي المكذَّبين معنى العهد والمراد بالطاعة مطلق الموافقه عملاً أو قولاً والمعنى فإذا كان هؤلاء المكذَّبون لك مفتونين ضالِّين فلا تطعهم .

قوله تعالى : « ودَّوا لو تدهن فيدهنون » الإِدهان من الدهن يراد به التلين أي ودَّوا أحبَّ هؤلاء المكذَّبون أن تليَنهم بالاقتراب منهم في دينك فيليَنوك بالاقتراب منك في دينهم ، و محصَّله أنَّهم ودَّوا أن تصالحهم و يصالحوك على أن يتسامح كلُّ منكم بعض المسامحة في دين الآخر كما قيل : إنَّهم عرضوا عليه أن يكفَّ عن ذكر آلهم فيكفَّوا عنه وعن ربِّه .

و بما تقدَّم ظهر أنَّ متعلِّق مودَّتهم مجموع « لو تدهن فيدهنون » و أنَّ الفاء في « فيدهنون » للتفريع لا للسببية .

قوله تعالى : « ولا تطع كلَّ حلافٍ مهين - إلى قوله - زنيم » الحلاف كثير الحلف ، و لازم كثرة الحلف و الإقسام في كلِّ سير و خطير و حقٍّ و باطل أن لا يحترم الحالف شيئاً ممَّا يقسم به ، و إذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عزَّ اسمه و كفى به رذيلة .

والمهين من المهانة بمعنى الحقارة و المراد به حقارة الرأي ، وقيل : هو المكثَّار في الشر ، و قيل : هو الكذَّاب .

و الهمَّاز مبالغة من الهمز والمراد به العيَّاب الطعَّان ، وقيل : الطعَّان بالعين و الإِشارة و قيل : كثير الاغتياب .

و المشاء بنميم النميم السعاية و الإفساد ، و المشاء به هو نقال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

و المنَّاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله .

والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحدّ ظلماً .

والأئيم هو الذي كثر إثمهُ حتّى استقرّ فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيئ الذي يبطله الخير .

والمعتلّ بضمّتين هو الفظّ الغليظ الطبع ، وفسّر بالفاحش السيئ الخلق ، وبالجاني الشديد الخصومة بالباطل ، وبالأكل المنوع للغير ، وبالذي يعتلّ الناس ويجرّهم إلى حبس أو عذاب .

والزنيّم هو الذي لا أصل له ، وقيل : هو الدعيّ الملحق بقوم وليس منهم ، وقيل : هو المعروف باللؤم ، وقيل : هو الذي له علامة في الشرّ يعرف بها وإذا ذكر الشرّ سبق هو إلى الذهن ، والمعاني متقاربة .

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممّن كان يدعوا للنبيّ صلّى الله عليه وآله إلى الطاعة والمداهنة ، وهي جماع الرذائل .

وقوله : « عتلّ بعد ذلك زنيّم » معناه أنّه بعد ما ذكر من مثالبه ورذائله عتلّ زنيّم قيل : وفيه دلالة على أنّ هاتين الرذيلتين أشدّ معايبه .

والظاهر أنّ فيه إشارة إلى أنّ له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحقّ ولو اغمض عن تلك الصفات فإنّه فظّ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشريّ فليطرد ولا يطع في قول ولا يتبع في فعل .

قوله تعالى : « أن كان ذا مال وبنين » الظاهر أنّه بتقدير لام التعليل وهو متعلّق بفعل محصّل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبّس بكلّ رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه فالآية في إفادة الذمّ والتهكّم تجري مجرى قوله : « ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » .

وقيل : إنّهُ متعلّق بقوله السابق « لا تطع » والمعنى لا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي لا يحملك كونه ذا مال وبنين على طاعته ، والمعنى المتقدّم أقرب وأوسع . قيل : ولا يجوز تعلّقه بقوله : « قال » في الشرطيّة التالية لأنّ ما بعد الشرط

لا يعمل فيما قبله عند النجاة .

قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » الأساطير جمع أسطورة وهي الفصّة الخرافيّة ، والآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق : « لا تطع » .

قوله تعالى : « سنسمه على الخرطوم » الوسم والسمة وضع العلامة ، والخرطوم الأنف وقيل : إنّ في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنّما يطلق في الفيل والخنزير تهكّماً ، وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزلّه على رسوله .

والظاهر أنّ الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلّة ظاهرة يعرفه بها كلّ من رآه فإنّ الأنف ممّا يظهر فيه العزّة والذلّة كما يقال : شمع فلان بأنفه ورحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه .

والظاهر أنّ الوسم على الخرطوم ممّا سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلف بعضهم في توجيهه على فضاحته في الدنيا .

قوله تعالى : « إنّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة - إلى قوله - كالصريم » البلاء الاختبار وإصابة المصيبة ، والصرم قطع الثمار من الأشجار ، والاستثناء عزل البعض من حكم الكلّ وأيضاً الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أنّ الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك : أخرج غداً إن شاء الله هو أخرج غداً إلا أن يشاء الله أن لا أخرج ، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل ، والصريم الشجر المقطوع ثمره ، وقيل : الليل الأسود ، وقيل : الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئاً ولا يفيد فائدة .

الآيات أعني قوله : « إنّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » إلى تمام سبع عشرة آية وعيد لمكذّبي النبي ﷺ الرامين له بالجنون ، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أنّ هؤلاء المكذّبين معذّبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه ، غير أنّهم غافلون وسيعلمون ، فهم مولعون اليوم بجمع المال وتكثير البنين

مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهرية التي توافقهم وتشايح أهواءهم من غير أن يشكروا ربهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحق ويعبدوا ربهم حتى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيوي من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأن المال والبنين سدى لا ينفعهم شيئاً كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنة من جنّتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربهم ولا يردّ ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنة وتلاوموا ورغبوا إلى ربهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، هذا على تقدير اتصال الآيات بما قبلها ونزولها معها .

وأما على ما رووا أن الآيات نزلت في القحط والسنة الذي أصاب أهل مكة وقريشا إثر دعاء النبي ﷺ عليهم بقوله : « اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصّتهم قصّة أصحاب الجنة غير أن في انطباق ما في آخر قصّتهم من قوله : « فأقبل بعضهم على بعض » الخ على قصّة أهل مكة خفاء .

وكيف كان فالمعنى « إنّا بلوناهم » أصبناهم بالبليّة « كما بلونا » وأصبنا بالبليّة « أصحاب الجنة » وكانوا قوماً من اليمن و جنّتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصّتهم في البحث الروائي الآتي « إن » ظرف لبلونا « أقسموا » وحلفوا « ليصر منها » أي ليقطعنّ و يقطفنّ ثمار جنّتهم « مصبحين » داخلين في الصباح وكأنّهم ائتمروا و تشاوروا ليلاً فعزموا على الصرم صبيحة ليلتهم « ولا يستثنون » لم يقولوا إلّا أن يشاء الله اعتماداً على أنفسهم واتكأ على ظاهر الأسباب . أو المعنى قالوا وهم لا يعزلون نصيباً من ثمارهم للفقراء والمساكين .

« فطاف عليها » على الجنة « طائف » أي بلاء يطوف عليها و يحيط بها ليلاً « من » ناحية « ربك وهم نائمون ، فأصبحت » وصارت الجنة « كالصريم » و هو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى فصارت الجنة كالليل الأسود لمّا اسودّت با حراق النار التي أرسلها الله إليها أو المعنى فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لانبات بها ولا فائدة .

قوله تعالى : « فتنادوا مصبحين - إلى قوله - قادرين » التنادي نداء بعض القوم بعضا ، والإصباح الدخول في الصباح ، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة ، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار ، والحراث الزرع والشجر ، والخفت الإخفاء والكتمان ، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير .

والمعنى « فتنادوا » أي فنادى بعض القوم بعضاً « مصبحين » أي والحال أنهم داخلون في الصباح « أن اغدوا على حرائكم » تفسير للتنادي أي بگروا مقبلين على جنتكم - فاغدوا أمر بمعنى بگروا مضمّن معنى أقبلوا ولذا عدّي بعلی ولو كان غير مضمّن عدّي بآلى كما في الكشف - « إن كنتم صارمين » أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع .

« فانطلقوا » وذهبوا إلى جنتهم « وهم يتخافتون » أي والحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافته والمكاتمة « أن لا يدخلنها » أي الجنة « اليوم عليكم مسكين » أي أخفوا ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم « وغدوا » وبگروا إلى الجنة « على حرد » أي على منع للمساكين « قادرين » مقدّرين في أنفسهم أنهم سيصرونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها .

قوله تعالى : « فلمّا رأوها قالوا إنّنا لضالّون بل نحن محرومون » أي فلمّا رأوا الجنة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا : إنّنا لضالّون عن الصواب في غدوّنا إليها بقصد الصرم ومنع المساكين .

وقيل : المراد إنّنا لضالّون طريق جنتنا وما هي بها .

وقوله : « بل نحن محرومون » إضراب عن سابقه أي ليس مجرد الضلال عن

الصواب بل حرمانا الرزق .

قوله تعالى : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون - إلى قوله - راغبون » أي « قال أوسطهم » أي أعدلهم طريقا وذلك أنّه ذكّرهم بالحقّ وإنّ تبعهم في العمل ،

وقيل : المراد أوسطهم سنًا وليس بشيء « ألم أقل لكم » وقد كان قال لهم ذلك وإنما لم يذكر قبل في القصة إيجازًا بالتعويل على ذكره ههنا .

« لو لا تسبيحون » المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا لله مشيئة فعزّاه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية ، وهو إثبات للشريك ، ولو قالوا : لنصرمنها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفى الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشيئة من الله وإن صرموا كان ذلك باذن من الله فله الأمر وحده لا شريك له .

وقيل : المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوابعهم إليه حيث نوا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها ، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين .

قوله تعالى : « قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم ، أي ننزه الله تنزيهاً من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدبر بمشيئته أمورنا لأننا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء .

وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين .

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتلأمون » أي يلوم بعضهم بعضاً على ما ارتكبوه من الظلم .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا - إلى قوله - راغبون » الطغيان تجاوز الحد وضمير « منها » للجنة باعتبار ثمارها والمعنى قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حدّ العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا ولم نوحده ، ونرجو من ربنا أن يبدلنا خيراً من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأننا راغبون إليه معرضون عن غيره .

قوله تعالى : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » العذاب مبتدأ مؤخر وكذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة

أصحاب الجنة وهو أن الإنسان يمتحن بالمال والبنين فيطغى مغترّاً بذلك فيستغنى بنفسه وينسى ربه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويجترى على المعصية وهو غافل عما يحيط به من وبال عمله ويهين له من العذاب كذلك حتى إذا فاجاه العذاب وبرز له بأهول وجوهه وأمرها انتبه من نومة الغفلة وتذكر ما جاءه من النصيح قبله وندم على ما فرط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى إليه أمر أصحاب الجنة ، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثل .

وقوله : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » لأنّه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه ولو بالموث والفتاء كما في شدائد الدنيا ، محيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمدّه كما في الابتلاءات الدنيويّة .

﴿ بحث روائى ﴾

في المعاني بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوريّ عن الصادق عليه السلام في تفسير الحروف المقطّعة في القرآن قال : وأما نـ فهو نهر في الجنة قال الله عزّ وجل : اجمد فجمد فصار مداداً ثم قال للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوحة لوح من نور . قال سفيان : فقلت له : يا بن رسول الله بيّن أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني ممّا علمك الله فقال : يا بن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدّي إلى اللوح وهو ملك ، واللوح يؤدّي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل وميكائيل يؤدّي إلى جبرائيل وجبرائيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل . قال : ثم قال : قم يا سفيان فلا آمن عليك . وفيه بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال : سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن اللوح والقلم قال : هما ملكان .

وفيه بإسناده عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام : «ن والقلم وما يسطرون» القلم قلم من نور وكتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقرَّبون وكفى بالله شهيدا .

أقول : وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدّم في ذيل قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الجاثية : ٢٩ حديث القمي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه السلام في اللوح والقلم وفيه : ثم ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ذلك ولا ينطق أبداً وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «ن والقلم وما يسطرون» قال : لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه روايات أخر ، وقوله : يجري بما هو كائن الخ أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلف شيء منها عما كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة : ثم ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة . وفي المعاني بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » قال : هو الإسلام .

وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « إِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » قال : على دين عظيم .

أقول : يريد اشتغال الدين والإسلام على كمال الخلق واستنائه ﷺ به ، وفي الرواية المعروفة عنه ﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وفي المجمع بإسناده عن الحاكم بإسناده عن الضحاك قال : لما رأت قريش تقديم النبي ﷺ علياً وإعظامه له نالوا من علي وقالوا : قد افتنن به محمد فأنزل الله تعالى : «ن والقلم وما يسطرون» قسم أقسم الله به « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » يعني القرآن - إلى قوله -

بمن ضلّ عن سبيله ، وهم النفر الذين قالوا ما قالوا « وهو أعلم بالمهتدين » يعني عليّ بن أبي طالب .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن محمد بن العباس بإسناده إلى الضحاك وساق نحواً مما مرّ وفي آخره : وسبيله عليّ بن أبي طالب .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تطع كلّ حلاف » النخ قيل : يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي ﷺ المال ليرجع عن دينه ، وقيل : يعني الأحنس بن شريق عن عطاء ، وقيل : يعني الأسود بن عبد يغوث عن مجاهد .

أقول : وفي ذلك روايات في الدرامثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات .

وفيه عن شدّاد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظريّ ولا عتلّ زميم . قلت : فما الجواظ ؟ قال : كلّ جماع مناع قلت : فما الجعظريّ ؟ قال : الفظ الغليظ قلت : فما العتلّ الزميم ؟ قال : كلّ رحيب الجوف سيّء الخلق أكل شروب غشوم ظلوم زميم .

وفيه في معنى الزميم : قيل هو الذي لأصل له .

وفي تفسير القميّ في قوله : « عتلّ بعد ذلك زميم » قال : العتلّ العظيم الكفر الزميم الدعويّ .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله : « إنّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » إنّ أهل مكّة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء .

وفيه بإسناده إلى ابن عباس أنّه قيل له إنّ قوماً من هذه الأمة يزعمون أنّ العبد يذنب فيحرم به الرزق فقال ابن عباس فوالله الذي لا إله إلا هو هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ذكره الله في سورة ن والقلم .

إنّه كان شيخ وكان له جنة وكان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتّى يعطي كلّ ذي حقّ حقّه فلمّا قبض الشيخ ورثه بنوه وكان له خمس من البنين

فحملت جنّتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملاً لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلى جنّتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم .

فلماً نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا وقال بعضهم لبعض : إن أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخرف فهلّموا نتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحداً من فقراء المسلمين في عامنا شيئاً حتّى نستغني ويكثر أموالنا ثم نستأنف الصنيعة فيما استقبل من السنين المقبلة فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس وهو الذي قال الله : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » .

فقال الرجل : يابن عبّاس كان أوسطهم في السنّ ؟ فقال : لا بل كان أصغرهم سنّاً وأكبرهم عقلاً وأوسط القوم خير القوم ، والدليل عليه في القرآن قوله : إنكم يا أمّة محمد أصغر الأمم وخير الأمم قوله عزّ وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » . قال لهم أوسطهم : اتّقوا وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا فبطشوا به وضربوه ضرباً مبرحاً فلماً أيقن الأخ منهم أنّهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع .

فراحوا إلى منازلهم ثمّ حلفوا بالله ليصر منّ إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه فأخبر عنهم في الكتاب فقال : « إنّنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » قال : كالمحترق .

فقال الرجل : يابن عبّاس ما الصريم ؟ قال : الليل المظلم ، ثمّ قال : لا ضوء له ولا نور .

فلماً أصبح القوم « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » قال : « فانطلقوا وهم يتخافتون » قال الرجل : وما التخافت يابن عبّاس ؟ قال : يتشاورون

فيشاور بعضهم بعضاً لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا : « لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين » في أنفسهم أن يصرموها ولا يعلمون ما قد حلَّ بهم من سطوات الله ونقمته .

« فلمَّا رأوها » وما قد حلَّ بهم « قالوا إِنَّا لضالُّون بل نحن محرومون » فجرمهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئاً :

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إِنَّا كنَّا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون » قال : يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه « قالوا يا ويلتنا إِنَّا كنَّا ظالمين عسى ربَّنَا أن يبدلنا خيراً منها إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ » فقال الله « كذلك العذاب و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

أقول : وقد ورد ما يقرب من مضمون هذا الحديث والذي قبله في روايات أخر وفي بعض الروايات أن الجنة كانت لرجل من بني إسرائيل ثم مات وورثه بنوه فكان من أمرهم ما كان .





اِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٣) اَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
 كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) اَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ
 تَدْرُسُونَ (٣٧) اِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) اَمْ لَكُمْ اِيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعِلَّةِ
 اِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ اِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلَامٌ اَيْتَهُمْ بِذَلِكَ رَءِيسٌ (٤٠)
 اَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ اِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ
 عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ اِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
 تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ اِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ (٤٣)
 فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)
 وَ اُمْلِي لَهُمْ اِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) اَمْ تَسْأَلُهُمْ اَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ
 مُثْقَلُونَ (٤٦) اَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
 رَبِّكَ وَ لَا تُكِنْ كَصَاحِبِ الْخَوْتِ اِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا
 اَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبِيهِ رَبُّهُ
 فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَ اِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ
 بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ اِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَ مَا هُوَ
 اِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

﴿ بيان ﴾

فيها تذييل لما تقدم من الوعيد لمكذبي النبي ﷺ وتسجيل العذاب عليهم في الآخرة إذ المتقون في جنات النعيم ، و تثبت أنهم والمتقون لا يستون بحجة قاطعة فليس لهم أن يرجوا كرامة من الله وهم مجرمون فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج وإملاء .

و فيها تأكيد أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه .

قوله تعالى : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » بشرى و بيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها .

و في قوله : « عند ربهم » دون أن يقال : عند الله إشارة إلى رابطة التدبير و الرحمة بينهم وبينه سبحانه و أن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى وإخلاصهم العبودية له .

و إضافة الجنات إلى النعيم وهو النعمة للإشارة إلى أن ما فيها من شيء نعمة لا نشوبها نقمة و لذة لا يخالطها ألم ، و سيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » التكاثر : ٨ أن المراد بالنعيم الولاية .

قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » تحتمل الآية في بادئ النظر أن تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ و قد تقدم تفسيره .

و أن تكون ردّاً على قول من قال منهم للمؤمنين : لو كان هناك بعث و إعادة لكننا منعتمين كما في الدنيا و قد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم : « و ما أظن الساعة قائمة و لنرجعت إلى ربّي إن لي عنده للحسنى » حمّ السجدة : ٥٠ .

ظاهر سياق الآيات التالية التي تردّ عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني ، وهو الذي رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث و المعاد قالوا : إن صحّ ما

يقوله محمد و الذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما في الدنيا ولا أقل من أن تتساوى حالنا و حالهم .

غير أنه يرد عليه أن الآية لو سيقّت لردّ قولهم ، سنساويهم في الآخرة أو تزيد عليهم كما في الدنيا ، كان مقتضى التطابق بين الردّ و المردود أن يقال : أفنجعل المجرمين كالمسلمين و قدعكس .

و التدبّر في السياق يعطي أن الآية مسوقة لردّ دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالإشارة إلى أن كرامة المسلمين تأتي أن يساويهم المجرمون كأثمة قيل : إن قولكم : سنتساوى نحن و المسلمون باطل فإن الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بمالهم من الكرامة عنده كالمجرمين و أنتم مجرمون .

فالأية تقيم الحجّة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لامن جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى .

و المراد بالإسلام تسليم الأمر لله فلا يتبع إلا ما أراه سبحانه من فعل أو ترك و يقابله الإجمام و هو اكتساب السيئة و عدم التسليم .

و الآية و ما بعدها إلى قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » في مقام الردّ لحكمهم بتساوي المجرمين و المسلمين حالاً يوم القيامة تورد محتملات هذا الحكم من حيث منشأته في صور استغفامات إنكارية وتردّها .

و تقرير الحجّة أن كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إمّا أن يكون من الله تعالى موهبة و رحمة و إمّا أن لا يكون منه .

و الأوّل إمّا أن يدلّ عليه دليل العقل و لا دليل عليه كذلك و ذلك قوله : « ما لكم كيف تحكمون » .

و إمّا أن يدلّ عليه النقل و ليس كذلك و هو قوله : « أم لكم كتاب » النخ و إمّا أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم و بين الله سبحانه عاهدوه و

وانقوه على أن يسوّي بينهما و ليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات .

و إما أن لا يكون من الله فإمّا أن يكون حكمهم بالتساوي حكماً جديّاً أولاً يكون فإن كان جديّاً فإمّا أن يكون التساوي الذي يحكمون به مستنداً إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالاً وإن لم يشأ الله ذلك و ليس كذلك و هو قوله : « سلمهم أيّهم بذلك زعيم » أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدّي له شركاؤهم ولا شركاء و هو قوله : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم » الخ .

و إما أن يكون ذلك لأنّ الغيب عندهم والأمور التي ستستقبل الناس قدرها و قضاؤها منوطان بمشيئتهم تكون و تقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين ، و ليس كذلك ولا سبيل لهم إلى الغيب و ذلك قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » و هذه ثلاثة احتمالات .

و إن لم يكن حكمهم بالمساواة حكماً جديّاً بل إنّما تفوّ هوا بهذا القول تخلصاً و فراراً من اتباعك على دعوتك لأنّك تسألهم أجراً على رسالتك و هدايتك لهم إلى الحقّ فهم مثقلون من غرامته ، و ليس كذلك ، و هو قوله : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » و هذا سابع الاحتمالات .

هذا ما يعطيه التدبّر في الآيات في وجه ضبط ما فيها من التريديد و قدذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطوّلات .

فقوله : « ما لكم كيف تحكمون » مسوق للتعجّب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين ، و هو إشارة إلى تأبّي العقل عن تجويز التساوي ، و محصله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه أيّ شيء حصل لكم من اختلال الفكر و فساد الرأي حتّى حكمتم بذلك ؟

قوله تعالى : « أم لكم كتاب فيه تدرسون إنّ لكم لما تخيرون » إشارة إلى انتفاء الحجّة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أنّ الآية السابقة كانت

إشارة إلى انتفاءها من جهة العقل .

والمراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله وهو حجة ، ودرس الكتاب قراءته ، و التخيير الاختيار ، وقوله ، « إن لكم لما تخيرون » في مقام المفعول لتدرسون و الاستفهام إنكاري .

و المعنى بل ألكم كتاب سماوي تقرأون فيه إن لكم في الآخرة - أو مطلقا - لما تختارونه فاخترتم السعادة و الجنة .

قوله تعالى : « أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة أن لكم لما تحكمون » إشارة إلى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهدو يمين شفاهي لهم على الله سبحانه . و الأيمان جمع يمين و هو القسم ، و البلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد ، وقوله : « إلى يوم القيامة » على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدّر و التقدير أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد النخ .

و يمكن أن يكون « إلى يوم القيامة » متعلقاً بالغة و المراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهي إلى يوم القيامة .

وقد فسروا الأيمان بالعهود و الموائيق فيكون من باب إطلاق اللزوم و إرادة الملزوم كناية ، و احتمال أن يكون من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل .

و قوله : « إن لكم لما تحكمون » جواب القسم و هو المعاهد عليه ، و الاستفهام للإينكار .

و المعنى بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها إقساماً مؤكّداً إلى يوم القيامة إننا سلمنا لكم أن لكم لما تحكمون به .

قوله تعالى : « سلمهم أيهم بذلك زعيم » إعراض عن خطابهم و التفات إلى النبي ﷺ بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب و لذلك أورد بقبية السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أو لها قوله : « سلمهم أيهم بذلك زعيم » و الزعيم القائم بالأمر المتصدّي له ، و الاستفهام إنكاري .

و المعنى سل المشركين أيهم قائم بأمر التسوية الذي يدعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوي بين الفريقين لعدم دليل يدل عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر و يتصداه هو منهم ؟ فأيتهم هو ؟ و من الواضح بطلانه لا يتفوه به إلا مصاب في عقله .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ردّ لهم على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنيًا على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء . و قوله : « فليأتوا بشركائهم » النخ كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله : « أم لهم شركاء » من النفي .

وقيل : المراد بالشركاء شركائهم في هذا القول ، والمعنى أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول و يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين . و أنت خير بأنّ هذا المعنى لا يقطع الخصام . و قيل : المراد بالشركاء الشهداء و المعنى أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

و هو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنّه مستدرك لأنّ هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بعهد و يمين و قد ردّ كلا الاحتمالين فيما تقدّم .

و قيل : المراد بالشركاء شركاء الألوهية على ما يزعمون لكنّ المعنى من إتيانهم بهم إتيانهم بهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفعوا لهم عند الله سبحانه . و أنت خير بأنّ هذا المعنى أيضاً لا يقطع الخصام .

قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون - إلى قوله - وهم ساطون » يوم ظرف متعلّق بمحذوف كاذكرو نحوه ، و الكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً لما أنّهم كانوا يشمرون عن سوقهم إذا اشتدّ الأمر للعمل أو للفرار قال في الكشف : فمعنى « يوم يكشف عن ساق » في معنى يوم يشتدّ الأمر و يتفاقم ، و لا كشف ثمّ ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد

ثمّ ولا غلّ وإنّما هو مثل في البخل انتهى

والآية وما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنّهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعة وإنّما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتّى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة. وهؤلاء المكذّبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتّة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتّى يتمّ لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة .

فقوله : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » معناه اذكروا يوم يشتدّ عليهم الأمر ويدعون إلى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر^(١).

وقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة » حالان من نائب فاعل يدعون أي حالكون أبصارهم خاشعة وحالكونهم يغشاهم الذلّة بقهر ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها .

وقوله : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم ساملون » المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحقّ فسلبتهم التمكن من إجابة الحقّ أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا .

والمعنى وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وهم ساملون متمكّنون منه أقوى تمكّن فلا يجيبون إليه .

وقيل المراد بالسجود الصلاة وهو كما ترى .

قوله تعالى : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » المراد بهذا الحديث القرآن الكريم ، وقوله : « فذرني ومن يكذب » النخ كناية عن أنّه يكفيهم وحده وهو غير

تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين .

قوله تعالى : «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعذيبه إياهم المفهوم من قوله : «فذرني» الخ .

والاستدرج هو استنزالهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤنيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره .

فالاستدرج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة وافتقارهم من ورطة الهلاك ، وكونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيراً وسعادة لاشر فيها ولاشقاء .

قوله تعالى : «وأملئ لهم إن كيدي متين» الإيماء الإيهام ، والكيد ضرب من الاحتيال ، والمتين القوي .

والمعنى وأملئهم حتى يتوسّعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاؤون إن كيدي قوي .
والنكتة في الالتفات الذي في «سنستدرجهم» عن التكلم وحده إلى التكلم مع الغير الدلالة على العظمة وأن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صبا ، والالتفات في قوله : «وأملئ لهم» عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده لأن الإيماء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى : «ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده» الأنعام : ٢ .

قوله تعالى : «أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون» المغرم الغرامة ، والإثقال تحميل الثقل ، والجملة معطوفة على قوله : «أم لهم شركاء» الخ .

والمعنى أم تسأل هؤلاء المجرمين - الذين يحكمون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة - أجراً على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولاً جدياً .

قوله تعالى : «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذي منه تنزل الأمور بقدر محدود فتستقر في منصّة الظهور ، والمراد

بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء ، والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له .

فالمعنى أم ييدهم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شاؤا فيقضون لأنفسهم أن يساروا المسلمين يوم القيامة .

وقيل : المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحة ما حكموا به والكتابة على ظاهر معناه والمعنى أم عندهم علم بصحة ما يدعونونه اختصوا به ولا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه .

وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الأخر المذكورة مغنية عنه .

وإنما أخرج ذكر هذا الاحتمال عن غيره حتى عن قوله : «أم تسألهم أجراً» مع أن مقتضى الظاهر أن يتقدم عليه ، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » صاحب الحوت يونس النبي ﷺ والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالمختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء ، ونهيه ﷺ عن أن يكون كيونس عليه السلام وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهى عن السبب المؤدي إلى نظير هذا الابتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب .

والمعنى فاصبر لقضاء ربك أن يستدرجهم ويمليء لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غماً أو غيظاً ينادي الله بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبلى بما يشبه ابتلاءه ، ونداؤه قوله في بطن الحوت : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » كما في سورة الانبياء .

وقيل : اللام في « لحكم ربك » بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعيد لهم أن سيحكم الله بينه وبينهم ، والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات السابقة .

قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » في مقام التعليل للنهي السابق : « لا تكن كصاحب الحوت » والتدارك الإدراك واللاحق ، وفسرت

النعمة بقبول التوبة ، والنبذ الطرح والعراء الأرض غير المستورة بسقف أوثبات والذم مقابل المدح .

والمعنى لولأن أدركته ولحقت به نعمة من ربه وهو أن الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل .

لا يقال : إن الآية تنافي قوله تعالى : «فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» الصافات : ١٣٤ فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة ومقتضى هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموما وهما تبعتان متنافيتان لا يجتمعان .

فإنه يقال : الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فأية الصافات تذكر أنه **الذليل** كان مداوماً للتسبيح مستمرّاً عليه طول حياته قبل ابتلائه - وهو قوله : كان من المسبحين - ولولذلك للبث في بطنه إلى يوم القيامة ، والآية التي نحن فيها تدلّ على أن النعمة وهو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموما .

فمجموع الآيتين يدلّ على أن ذهابه مغاضبا كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده ، وقدّر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أن ينبذ مذموماً فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين لا لمنافاة بين الآيتين .

وقد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعين لقوله : «لولا أن تداركه نعمة من ربه» معنى آخر .

قوله تعالى : « فاجتبه ربه فجعله من الصالحين » تقدّم توضيح معنى الاجتباء والصالح في مباحثنا المتقدمة .

قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر » إن مخففة من الثقيلة ، والزلق هو الزلل ، و الزلاق الإيذاء وهو الصرع كناية عن القتل والإهلاك .

والمعنى أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر .
والمراد بإزلاقه بالأبصار وصرعه بها - على ما عليه عامة المفسرين - الإصابة
بالأعين ، وهو نوع من التأثير النفسانيّ لادليل على نفيه عقلا وربما شوهد من
الموارد ما يقبل الانطباق عليه ، وقد وردت فيه الروايات فلاموجب لا نكارة .

وقيل : المعنى أنهم ينظرون إليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظراً
مليئاً بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم .

قوله تعالى : «ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين» زميهم له بالجنون
عند ما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين ، ولذا
ردّ قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكراً للعالمين .

وقدرّد قولهم : «إنه لمجنون» في أوّل السورة بقوله : «ما أنت بنعمة ربك بمجنون»
وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها .

﴿ بحث روائي ﴾

في المعاني بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام في قوله عزّ وجلّ :
«يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود» قال : حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون
سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود .

وفيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله
عزّ وجلّ : «يوم يكشف عن ساق» قال : كشف إزاره عن ساقه فقال : سبحان ربّي
الأعلى .

أقول : قال الصدوق بعد نقل الحديث : قوله : سبحان ربّي الأعلى تنزيه الله
سبحانه أن يكون له ساق انتهى وفي هذا المعنى رواية أخرى عن الحلبي عن أبي عبد الله
عليه السلام .

وفيه بإسناده عن معلى بن خنيس قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما يعني بقوله :

« وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » قال : وهم مستطيعون .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد : سمعت النبي ﷺ يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً . وفيه أخرج ابن منده في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم يكشف عن ساق » قال : يكشف الله عن ساقه .

وفيه أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي منادياً أيها الناس ألم ترضوا من ربكم [الذي] خلقكم وصوّركم ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولي ؟ أليس ذلك من ربكم عدلاً ؟ قالوا : بلى .

قال : فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر .

ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقول لهم : مالكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا رباً ما رأيناه بعد فيقول : فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه ؟ قالوا : بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه ؟ قال : وما هي ؟ قالوا : يكشف عن ساق .

فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعاً ساجداً ويبقى قوم ظهورهم كصيافي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث مبنية على التشبيه المخالف للبراهين العقلية ونص الكتاب العزيز فهي مطروحة أو مؤولة .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن السمط قال : قال أبو عبد الله ﷺ : إن الله

إذا أراد بعبد خيراً فأذنّب ذنباً أتبعه بنقمة وذكره الاستغفار ، فإذا أراد بعبد شراً فأذنّب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهو قول الله عز وجل : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » بالنعم والمعاصي .

أقول : وقد تقدّم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « إندادى وهو مكظوم » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) : يقول : مغموم .

وفيه في قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربه » قال : النعمة الرحمة .

وفيه في قوله تعالى : « لنبذ بالعراء » قال : الموضع الذي لا سقف له .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا » أخرج البخاري

عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : العين حق .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : العين تدخل

الرجل القبر والجمل القدر .

أقول : وهناك روايات تطبق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري

دون التفسير ولذلك لم نوردها .



﴿سورة الحاقة مكيّة وهي اثنتان وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)
 كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَمَا ثَمُودٌ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَ أَمَّا
 عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ
 أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)
 فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ
 فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعْيَهَا أذنً وَاعِيَةً (١٢) .

﴿بيان﴾

السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سمتها أيضاً بالقارعة والواقعة .
 وقد سافت الكلام فيها في فصول ثلاث فصل تذكر فيه إجمالاً الأمم الذين
 كذبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية ، و فصل تصف فيه الحاقة و انقسام الناس فيها إلى
 أصحاب اليمين و أصحاب الشمال و اختلاف حالهم بالسعادة والشقاء ، وفصل تؤكّده فيه
 صدق القرآن في إنبائه بها و أنه حقّ اليقين ، والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .
 قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة » المراد بالحاقة القيامة
 الكبرى سميت بها لثبوتها نبوتاً لا مردّ له و لا ريب فيه ، من حقّ الشيء بمعنى ثبت
 وتقرّر تقرّراً واقعياً .

و « ما » في « ما الحاقة » استفهامية تفيد تفخيم أمرها ، ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير و لم يُقل : ماهي ، و الجملة الاستفهامية خبر الحاقة .
 فقوله : « الحاقة ما الحاقة » مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة .

و قوله : « و ما أدراك ما الحاقة » خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم و هذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء ، و بلوغه الغاية في الفخامة و لعلّ هذا هو المراد ممّا نقل عن ابن عباس « أن ما في القرآن من قوله تعالى : « ما أدراك » فقد أدراه و ما فيه من قوله : « ما يدريك » فقد طوى عنه » يعني أن « ما أدراك » كناية و « ما يدريك » نصريح .

قوله تعالى : « كذّبت ثمود و عاد بالقارة » المراد بالقارة القيامة و سُميت بها لأنّها تفرع و تدكّ السماوات و الأرض بتبديلها و الجبال بتسييرها و الشمس بتكويرها و القمر بخسفها و الكواكب بنثرها و الأشياء كلّها بقهرها على ما نطقت به الآيات ، و كان مقتضى الظاهر أن يقال : كذّبت ثمود و عاد بها فوضع القارة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها .

و هذه الآية و ما يتلوها إلى تمام تسع آيات و إن كانت مسوقة للإشارة إلى إجمال قصص قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و من قبله و المؤنفات و إهلاكهم لكنّها في الحقيقة بيان للحاقة ببعض أوصافها و هو أن الله أهلك أُمم كثيرة بالكذب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله : « فاذا نفخ في الصور » النخ جواب آخر .

و محصل المعنى هي القارة التي كذّبت بها ثمود و عاد و فرعون و من قبله و المؤنفات و قوم نوح فاخذهم الله أخذة رابية و أهلكهم بعذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » بيان تفصيلي لا أثر تكذيبهم بالقارة ، و المراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير

القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ وقال أيضا : « فأخذتهم الرجفة » الأعراف : ٧٨ ، وقال أيضا : « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » حم السجدة : ١٧ .

وقيل : الطاغية مصدر كالطغيان والظغوى والمعنى فأما ثمود فأهلكوا بسبب

طغيانهم ، ويؤيده قوله تعالى : « كذب ثمود بظغواها » الشمس : ١١

وأول الوجهن أنسب لسياق الآيات التالية حيث سقت لبيان كيفية إهلاكهم من الإهلاك بالريح أو الأخذ الرابي أو طغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية ناظراً إلى كيفية إهلاكهم .

قوله تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب ، وعاتية من العتو بمعنى الطغيان والابتعاد من الطاعة والملازمة .

قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » تسخيرها عليهم تسليطها عليهم ، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرّات متتالية : ، وهي صفة لسبع أي سبع ليال و ثمانية أيام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز جمع عجز بالفتح فالضم آخر الشيء ، وخواوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر

قوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » أي من نفس باقية ، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعاً ، وقيل : الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد أريد به البقية وما قدّمناه من المعنى أقرب .

قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » المراد بفرعون فرعون موسى ، وبمن قبله الأُمم المتقدمة عليه زماناً من المكذّبين ، و بالمؤتفكات قرى قوم لوط والجماعة القاطنة بها ، و«خاطئة» مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالمجبيء بالخاطئة إخطاء طريق العبودية ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فمضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، ضمير «عصوا» لفرعون ومن قبله والمؤتفكات ، والمراد بالرسول جنسه ، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد ، والمراد بالأخذة الرابية العقوبة الشديدة وقيل : العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل : الخارقة للعادة .

قوله تعالى : «إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية» ، إشارة إلى طوفان نوح والجارية السفينة ، وعدّ المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعاً واحداً ينسب حال البعض منه إلى الكلّ والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لنجعلها لكم تذكرة و نعيها أذن واعية » ، تعليل لحملهم في السفينة فضمير « لنجعلها » للحمل باعتبار أنه فعله أي فعلنا بكم تلك الفعله لنجعلها لكم أمراً تتذكرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها .

وقوله : « ونعيها أذن واعية » الوعي جعل الشيء في الوعي ، والمراد بوعي الأذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدتها وهي التذكّر والاتعاظ .

وفي الآية بجمليتها إشارة إلى الهداية الربويّة بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب .

توضيح ذلك أن من السنّة الربويّة العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاصّ بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدلّ عليه قوله تعالى : « الَّذِي أعطى كلَّ شيء خلقه ثمَّ هدى » طه : ٥٠ ، وقوله : « الَّذِي خلق فسوّى وَالَّذِي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ وقد تقدّم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والأعلى وغيرهما .

والإنسان يشارك سائر الأنواع الماديّة في أن له استكمالاً تكوينيّاً وسلوكاً وجوديّاً نحو كماله الوجودي بالهداية الربويّة التي تسوقه نحو غايته المطلوبة ويختصّ من بينها بالاستكمال التشريعي فإنّ للنفس الإنسانيّة استكمالاً من

طريق أفعالها الاختيارية بما يلحقها من الأوصاف والنعوت وتلبس به من الملكات والأحوال في الحياة الدنيا وهي غاية وجود الإنسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة .

وهذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنّة الدينيّة بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهداية إليها « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ وقد تقدّم تفصيله في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره ، وهذه هداية بمعنى إراءة الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع إلا أن يسلكه قال تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَآ وَإِمَّا كَفُورَآ » الدهر : ٣ فإن لزم الصراط وسلكه حيّ بحياة طيبة سعيدة وإن تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمت عليه الحجة علّا ، حال قال تعالى : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا » الأنفال : ٤٢ .

إذا تقرر هذا تبين أن من سنّة الربويّة هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل إليها ، وإليها الإشارة بقوله : « لنجعلها لكم تذكرة » فإنّ التذكرة لا تستوجب التذكّر ممّن ذكر بها بل ربّما أثرت وربّما تخلّفت .

ومن سنّة الربويّة هداية الأشياء إلى كمالاتها بمعنى إنهاؤها وإيصالها إليها بتحريكها وسوقها نحوه ، وإليها الإشارة بقوله : « وتعيها أذن واعية » فإنّ الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربويّة وإنّما لم ينسب تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأنّ المطلوب بالتذكرة إتمام الحجة وهو من الله وأمّا الوعي فإنّه وإن كان منسوباً إليه كما أنّه منسوب إلى الإنسان لكنّ السياق سياق الدعوة وبيان الأجر والمثوبة على إجابة الدعوة والأجر والمثوبة من آثار الوعي بما أنّه فعل للإنسان منسوب إليه لا بما أنّه منسوب إلى الله تعالى .

ويظهر من الآية الكريمة أنّ للحوادث الخارجيّة تأثيراً في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من

السماء والأرض ، الأعراف : ٩٦ أن لا أعمال إلا نسان تأثيرا في الحوادث الخارجية وقد تقدّم بعض الكلام فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله « لنجعلها لكم تذكرة » قال : لا مة محمد ﷺ ، وكم من سفينة قد هلكت وأثر قد ذهب يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأروه كانت ألواحها ترى على الجودي .

أقول : وتقدّم ما يؤيد ذلك في قصة نوح في تفسير سورة هود .

وفيه أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر وابن أبي حاتم و ابن مردويه عن مكحول قال : لما نزلت « وتعيها أذن واعية » قال رسول الله ﷺ : سألت ربي أن يجعلها أذن علي . قال مكحول : فكان علي يقول : ما سمعت عن رسول الله شيأ فنسيته .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجاري عن بردة قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : إن الله أمرني أن أذكرك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي و حق لك أن تعي فنزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي إن الله أمرني أن أذكرك وأعلمك لتعي فأزلت هذه الآية « وتعيها أذن واعية » فأنت أذن واعية لعلي .

أقول : وروى هذا المعنى في تفسير البرهان عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام ، وعن الكليني بإسناده عنه عليه السلام ، وعن ابن بابويه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام .

ورواه أيضاً عن ابن شهر آشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن عليّ، وعن الواحدى
في أسباب النزول عن بريدة، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زرّ بن حبیش
عن عليّ عليه السلام.

وقد روى في غاية المرام من طرق الفريقين ستة عشر حديثاً في ذلك وقال في
البرهان إنّ محمد بن العباس روى فيه ثلاثين حديثاً من طرق العامة والخاصة.





فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ
يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَ الْمَلِكُ عَلَى ارْجَائِهَا وَ يُحْمَلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ
أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ (١٩) أَنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدرِ مَا
حِسَابِيهِ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ
عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خُدُوهُ فَعُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي
سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣)
وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَيْهَنًا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثاني من الآيات يعرف الحاقة ببعض أشراتها ونبذة مما يقع فيها .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة » قد تقدّم أنّ النفخ في الصور كناية عن البعث والإحْضار لفصل القضاء ، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضيّ الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتّى يحتاج إلى تكرار النفخة ، والذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنّها النفخة الثانية التي تحيي الموتى .

قوله تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » الدكّ أشدّ الدقّ وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار ، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها ، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتّتهما بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية .

قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » أي قامت القيامة .

قوله تعالى : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر ، وواهية من الوهي بمعنى الضعف ، وقيل : من الوهي بمعنى شقّ الأديم والثوب ونحوهما .

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » في معنى قوله : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً » الفرقان : ٢٥ .

قوله تعالى : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » قال الراغب : رجا البسر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى : « والملك على أرجائها » انتهى ، والملك - كما قيل - يطلق على الواحد والجمع والمراد به في

الآية الجمع .

وقوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ضمير « فوقهم » على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة ، وقيل : الضمير للخلائق .

وظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » المؤمن : ٧ وقد وردت الروايات أنهم أربعة ، وظاهر الآية أعني قوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أن الحملة يوم القيامة ثمانية وهلهم من الملائكة أو من غيرهم ؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة .

ومن الممكن - كما تقدّم الإشارة إليه - أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ ، قال تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم » الزمر : ٧٥ .

قوله تعالى : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى : « وعرضوا على ربك صفًا » الكهف : ٤٨ والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه ، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازاً لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدل الغيب شهادة والسرّ علناً قال : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ وقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ .

وقد تقدّم في أبحاثنا السابقة أن ماعدّ في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة كاختصاص الملك بالله ، وكون الأمر له ، وأن لا عاصم منه ، وبروز الخلق له وعدم خفاء شيء منهم عليه وغير ذلك ، كل ذلك دائمة الثبوت له تعالى ، وإنما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهوراً لا ستر عليه ولا مرية فيه .

فالمعنى يومئذ يظهر أنكم في معرض إلهي علم الله ويظهر كل فعله خافية من أفعالكم .

قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِثْلُ مَا كُنْتُ أَفْعَلُ فَأَنَّى كُنْتُ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ » قال في المجمع : هَؤُلَاءِ أَمْرٌ لِلْجَمَاعَةِ بِمَنْزِلَةِ هَاكُم تَقُولُ لِلوَاحِدِ هَاءٌ يَا رَجُلَ وَاللَّائِنِينَ : هَؤُلَاءِ يَا رَجُلَانِ ، وَلِلْجَمَاعَةِ : هَؤُلَاءِ يَا رَجُلًا ، وَلِلْمَرْأَةِ : هَاءٌ يَا امْرَأَةً بِكُسْرِ الِهْمْزَةِ وَلَيْسَ بَعْدَهَا يَاءٌ وَلِلْمَرْأَتَيْنِ : هَؤُلَاءِ ، وَلِلنِّسَاءِ هَؤُلَاءُ هَذِهِ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ .
وَتَمِيمٌ وَقَيْسٌ يَقُولُونَ هَاءٌ يَا رَجُلًا مِثْلَ قَوْلِ أَهْلِ الْحِجَازِ ، وَاللَّائِنِينَ : هَؤُلَاءِ ،
وَلِلْجَمَاعَةِ هَؤُلَاءِ وَلِلْمَرْأَةِ هَائِي ، وَلِلنِّسَاءِ هَؤُلَاءُ .

وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً فيقول : هاك هاكما هاكم هاك هاكما
هاكنّ ومعناه خذ وتناول ، ويؤمر بها ولا ينهى . انتهى .

والآية وما بعدها إلى قوله : « الخاطئون » بيان تفصيلي للاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « فمن أوتي كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين ، والظاهر أن قوله : « هاؤم اقرأوا كتابيه » خطاب للملائكة ، والهاء في « كتابيه » وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمي هاء الاستراحة .

والمعنى فإما من أوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة خذوا واقرأوا كتابيه أي
إنها كتاب يقضى بسعادتي .

قوله تعالى : « إِنِّي طُنْتُ أَنِّي مَلَّاقٌ حَسَابِي » الظنّ بمعنى اليقين ، والآية تعليل لما يتحصّل من الآية السابقة ومحصلّ التعليل إنّما كان كتابي كتاب اليمين وقاضياً بسعادتي لأنّي أيقنت في الدنيا أنّي سأُلاقِي حسابي فأمنت برّبّي وأصلحت عملي .

قوله تعالى : « فهو في عيشة راضية » أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقليّ .

قوله تعالى : « في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ - إِلَى قَوْلِهِ - الْخَالِيَةِ » أي هو في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قدراً فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ » القُطُوف جمع قُطْف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى أثمارها قريبة منه يتناولوه كيف يشاء .

وقوله : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » أي يقال لهم : كُلُوا وَاشْرَبُوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حالكونه هَنِيئًا لكم بما قدَّمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا الَّتِي تَقَضَّتْ أَيَّامُهَا .

قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بِالْيَمِينِ لِمَ أُوتِيَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أُدْرَ مَحْصَايِهِ » وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يُؤْتَوْنَ صَحِيفَةً أَعْمَالُهُمْ بِشِمَالِهِمْ وقد مرَّ الكلام في معناه في سورة الإسراء ، وهؤلاء يَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا يُؤْتَوْنَ كِتَابَهُمْ وَيَدْرُونَ مَا حَسَابُهُمْ يَتَمَنُّونَ ذَلِكَ لِما يشاهدون من أليم العذاب المُعَدَّ لَهُمْ .

قوله تعالى : « بِالْيَمِينِ كَانَتِ الْقَاضِيَةُ » ذَكَرُوا أَنْ ضَمِير « لَيْتِهَا » لِلْمَوْتِ الْأُولَى الَّتِي ذَاقَهَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا .

والمعنى ياليت الموتة الأولى الَّتِي ذُقْتُهَا كَانَتْ قَاضِيَةً عَلَيَّ تَقْضِي بَعْدِي فَكُنْتُ أُنْعِمْتُ وَلَمْ أُبْعَثْ حَيًّا فَاقْعُ فِي وَرْطَةِ الْعَذَابِ الْخَالِدِ وَأُشَاهِدُ مَا أُشَاهِدُ .

قوله تعالى : « مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ » كَلِمَتَا تَحَسَّرَ يَقُولُهُمَا حَيْثُ يَرَى خَيْبَةَ سَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ كَانَ يَحْسِبُ أَنَّ مِفْتَاحَ سَعَادَتِهِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ الْمَالُ وَالسُّلْطَانُ يَدْفَعَانِ عَنْهُ كُلَّ مَكْرُوهِ وَيَسْلُطَانِهِ عَلَى كُلِّ مَا يَحِبُّ وَيَرْضَى فَبِذَلِكَ كُلِّ جَهْدِهِ فِي تَحْصِيلِهِمَا وَأَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ كُلِّ حَقٍّ يَدْعِي إِلَيْهِ وَكَذَّبَ دَاعِيَهُ فَلَمَّا شَاهَدَ تَقَطُّعَ الْأَسْبَابِ وَأَنَّهُ فِي يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ذَكَرَ عَدَمَ نَفْعِ مَالِهِ وَبَطْلَانِ سُلْطَانِهِ تَحَسَّرَ وَتَوَجَّعَ وَمَاذَا يَنْفَعُ التَّحَسُّرُ ؟

قوله تعالى : « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاسْلُكُوهُ » حِكَايَةُ أَمْرِهِ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِأَخْذِهِ وَإِدْخَالِهِ النَّارَ ، وَالتَّقْدِيرِ يَقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ خُذُوهُ الْخُ و « غُلُّوهُ » أَمْرٌ مِنَ الْغُلِّ بِالْفَتْحِ

وهو الشدّ بالغلّ الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق .

وقوله : «ثمّ الجحيم صلّوه» أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إيّاها .

وقوله : «ثمّ في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه» السلسلة القيد ، والذرع الطول ، والذراع بُعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جعله فيه ، والمحصل ثمّ أجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعاً .

قوله تعالى : «إنّنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين» الحضّ التحريض والترغيب ، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إنّ الأخذ ثمّ التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنّه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحرض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه .

قوله تعالى : «فليس له اليوم ههنا حميم» إلى قوله - الخاطؤون» الحميم الصديق والآية تفرّيع على قوله : «إنّنه كان لا يؤمن» النخ والمحصل أنّه لمّا كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم ههنا صديق ينفعه أي شفيح يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة . وقوله : «ولا طعام إلّا من غسلين» الغسلين الغسالة وكأنّ المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة : «حميم» ومتفرّع على قوله : «ولا يحضّ» النخ والمحصل أنّه لمّا كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا طعام إلّا من غسلين أهل النار . وقوله : «لا يأكله إلّا الخاطؤون» وصف لغسلين والخطؤون المتلبّسون بالخطيئة والائثم .



﴿ بحث روائي ﴾

في الدّر المنثور في قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : يحملهُ اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية .

أقول : وفي تقييد الحاملين في الآيه بقوله : « يومئذ » إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة .

وفي تفسير القميّ وفي حديث آخر قال : حمّله ثمانية أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وأما الأربعة من الآخرين فمحمّد وعليّ والحسن والحسين ﷺ .

أقول : وفي غير واحد من الروايات أنّ الثمانية مخصوصة بيوم القيامة ، وفي بعضها أنّ حملة العرش - والعرش العلم - أربعة منّا وأربعة ممّن شاء الله . وفي تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه إذا كان يوم القيامة يدعى كلّ أناس بأمامه الذي مات في عصره فإن أثبتّه أعطى كتابه يمينه لقوله : « يوم ندعو كلّ أناس بأمامهم » فمن أوتي كتابه يمينه فأولئك يقرأون كتابهم ، واليمين إثبات الإمام لأنّه كتابه يقرؤه - إلى أن قال - ومن أنكر كان من أصحاب الشمال الذين قال الله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظلّ من يحموم » النخ .

أقول : وفي عدّة من الروايات تطبيق قوله : « فأما من أوتي كتابه يمينه » النخ على عليّ عليه السلام ، وفي بعضها عليه وعلى شيعته ، وكذا تطبيق قوله : « وأما من أوتي كتابه بشماله » النخ على أعدائه ، وهي من الجري دون التفسير .

وفي الدّر المنثور أخرج الحاكم وصحّحه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لو أنّ دلوًا من غسلين يهراق في الدنيا لأتّن بأهل الدنيا . وفيه أخرج البيهقيّ في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي

إلى عليّ بن أبي طالب فقال : كيف هذا الحرف : لا يأكله إلا الخاطون ؟ كلّ والله يخطو فتبسّم عليّ وقال : يا أعرابيّ لا يأكله إلا الخاطون ، قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده .

ثمّ التفت عليّ إلى أبي الأسود فقال : إنّ الأعاجم قد دخلت في الدين كافّة فضع للناس شيئاً يستدلّون به على صلاح ألسنتهم فرسم لهم الرفع والنصب والخفض . وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه في الدرر والواقية في حديث عن النبي ﷺ : ولو أنّ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن حرّها .





فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) أَنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا
بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ
تَقَوْلُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة يؤكد ما تقدّم من أمر الحاقة بلسان
تصديق القرآن الكريم ليثبت بذلك حقيقة ما أنبأ به من أمر القيامة .

قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ظاهر الآية أنه إقسام
بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة
ولا يشمل ذاته المتعالية فإنّ من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق
في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيما مشتركا في عرض واحد .

وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للمقسم به وخلقه تعالى بما أتته خلقه جليل
جميل لأنّه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى

على نفسه بخلقه في قوله : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » الم السجدة ٧ وقوله : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » المؤمنون : ١٤ . فليس للموجودات منه تعالى إلا الحسن وما دون ذلك من مساءة فمن أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض .
وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقيقة القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإنّ النظام الواحد المتشابه أجزاءه الجاري في مجموع العالم يقضي بثبوته تعالى ومصير الكل إليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم .

ومما تقدّم يظهر عدم استقامة ما قيل : إنّ المراد بما تبصرون وما لا تبصرون الخلق والخالق فإنّ السياق لا يساعد عليه وكذا ما قيل : إنّ المراد النعم الظاهرة والباطنة ، وما قيل : إنّ المراد الجنّ والانس والملائكة أو الأجسام والأرواح أو الدنيا والآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة وما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعمّ مدلولاً من جميع ذلك .

قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » الضمير للقرآن والمستفاد من السياق أنّ المراد برسول كريم النبي ﷺ وهو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنّّه شاعر أو كاهن .

ولا ضير في نسبة القرآن إلى قوله فإنّه إنّما نسب إليه بما أنّه رسول والرسول بما أنّه رسول لا يأتي إلا بقول مرسله ، وقد بيّن ذلك فضل بيان بقوله بعد : « تنزيل من ربّ العالمين » .

وقيل : المراد برسول كريم جبريل ، والسياق لا يؤيّدّه إذ لو كان هو المراد لكان الأَنسب نفى كونه ممّا نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء .
على أنّ قوله بعد : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ » وما يتلوّه إنّما يناسب كونه ﷺ هو المراد برسول كريم .

قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » نفى أن يكون القرآن

نظماً ألفه شاعر ولم يقل النبي ﷺ شعراً ولم يكن شاعراً .

وقوله : « قليلاً ما تؤمنون » توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلا قليل منهم .

قوله تعالى : « ولا يقول كاهن قليلاً ما تذكرون » نفى أن يكون القرآن كهانة والنبي ﷺ كاهناً يأخذ القرآن من الجن وهم يلقونه إليه .
وقوله : « قليلاً ما تذكرون » توبيخ أيضاً لمجتمعهم .

قوله تعالى : « تنزيل من رب العالمين » أي منزل من رب العالمين وليس من صنع الرسول نسبة إلى الله كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل - إلى قوله - حاجزين » يقال : تقول على فلان أي اختلق قولاً من نفسه ونسبه إليه ، والوتين - على ما ذكره الراغب - عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه ، وقيل : هو رباط القلب .

والمعنى « ولو تقول علينا » هذا الرسول الكريم الذي حملناه رسالتنا وأرسلناه إليكم بقرآن نزلناه عليه واختلق « بعض الأقاويل » ونسبه إلينا « لأخذنا منه باليمين » كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي « ثم لقطعنا منه الوتين » وقتلناه لتقول عليه علينا « فما منكم من أحد عنه حاجزين » تحجبونه عنا وننجونه من عقوبتنا وإهلاكنا .

وهذا تهديد للنبي ﷺ على تقدير أن يفترى على الله كذباً وينسب إليه شيئاً لم يقله وهو رسول من عنده أكرمه بنبوته واختاره لرسالته .

فالأيات في معنى قوله : « ولو لا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » إذن لا ذنباك ضعف الحياة وضعف الملمات ثم لا تجد لك علينا نصيراً « أسرى : ٧٥ ، وكذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ .

فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادعى النبوة وافترى على الله الكذب أهلكه الله وعاقبه في الدنيا أشد العقاب وهو منقوض ببعض مدعى النبوة من الكذابين .

وذلك أن التهديد في الآية متوجّه إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله ونسب إليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدّعى النبوة المفتري على الله في دعواه النبوة وإخباره عن الله تعالى .

قوله تعالى : « وإنّه لتذكّرة للممتّقين » يذكّرهم كرامة تقواهم ومعارف المبدء والمعاد بحقائقها ، ويعرّفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنة وما هذا شأنه لا يكون تقوّلًا وافتراءً فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزّهاً عن التقوّل والفرية .

قوله تعالى : « وإنا لنعلم أن منكم مكذّبين وإنّه لحسرة على الكافرين » ستظهر لهم يوم الحسرة .

قوله تعالى : « وإنّه لحقّ اليقين فسمّح باسم ربّك العظيم » قد تقدّم كلام في نظيرتي الآيتين في آخر سورة الواقعة ، والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة ومتحدتان في سياق خاتمتهما وهي الأقسام على حقيقة القرآن المنبئ عن يوم القيامة ، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حقّ اليقين ثم الأمر بتسبيح اسم الربّ العظيم المنزّه عن خلق العالم باطلا لامعاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقّة التي يعطيها القرآن في أمر المبدء والمعاد .



﴿سورة المعارج مكيّة وهي أربع وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ
لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥)
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يَبْصُرُونَهُمْ
يَوْمَ الْمُجْرِمِ تَوْفِيقْدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ
وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٢) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٣)
كَلَّا إِنَّهَا لَنظَى (١٤) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٥) تَدْعُوا مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى (١٦)
وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) .

﴿بيان﴾

الذي يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أعدّ فيه من أليم العذاب
للكافرين . تبدىء السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذاباً من الله للكَافِرِينَ فتشير إلى
أنّه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثم تصف اليوم الذي يقع فيه
والعذاب الذي أعدّ لهم فيه وتستثنى المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحقّ
والعمل الصالح .

وهذا السياق يشبه سياق السور المكيّة غير أنّ المنقول عن بعضهم أنّ قوله : « والذين في أموالهم حق معلوم » مدنيّ والاعتبار يؤيّدُه لأنّ ظاهره الزكاة وقد شرّعت بالمدينة بعد الهجرة ، وكون هذه الآية مدنيّة يستتبع كون الآيات الحافّة بها الواقعة تحت الاستثناء وهي أربع عشرة آية (قوله : « إلّا المصلّين - إلى قوله - في جنّات مكرمون) مدنيّة لما في سياقها من الاتحاد واستلزام البعض للبعض .

ومدنيّة هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه وهو على الأقلّ ثلاث آيات (قوله : إنّ الإنسان خلق هلوعاً - إلى قوله - منوعاً) .

على أنّ قوله : « فما للذين كفروا قبلك مهطعين » متفرّع على ما قبله تفرّعاً ظاهراً وهو ما بعده إلى آخر السورة ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضاً مدنيّة . ومن جهة أخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافّين حول النبي ﷺ عن اليمين وعن الشمال عزين وهم الرادّون لبعض ما أنزل الله من الحكم وخاصة قوله : « أيطمع كلّ امرئ منهم » الخ ، وقوله : « على أن نبذل خيراً منهم » الخ على ما سيجيء ، وموطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكّة ، ولا خير في التعبير عن هؤلاء بالذين كفروا فنظير ذلك موجود في سورة التوبة وغيرها .

على أنّهم رووا أنّ السورة نزلت في قول القائل : « اللهم إنّ كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال : ٣٢ وقد تقدّم في تفسير الآية أنّ سياقها والتي بعدها سياق مدنيّ لا مكّي . لكنّ المرويّ عن الصادق عليه السلام أنّ المراد بالحقّ المعلوم في الآية حقّ يسمّيه صاحب المطال في ماله غير الزكاة المفروضة .

ولا عبرة بما نسب إلى اتفاق المفسّرين أنّ السورة مكّيّة على أنّ الخلاف ظاهر وكذا ما نسب إلى ابن عبّاس أنّها نزلت بعد سورة الحاقة .

قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » السؤال بمعنى الطلب والدعاء ، ولذا عدّيّ بالبلاء كما في قوله : « يدعون فيها بكلّ فاكهة آمنين » الدخان : ٥٥ وقيل : الفعل مضمّن معنى الاهتمام والاعتناء ولذا عدّيّ بالبلاء ، وقيل : الباء زائدة للتأكيد ،

ومآل الوجوه واحد وهو طلب العذاب من الله كفرةً وعتوًّا .

وقيل : الباء بمعنى عن كما في قوله : « فاسأل به خبيرا » الفرقان : ٥٩ ، وفيه أن كونها في الآية المستشهد بها بمعنى عن ممنوع . على أن سياق الآيات التالية وخاصة قوله : « فاصبر صبرا جميلا » لا يلائم كون السؤال بمعنى الاستفسار والاستخبار . فالآية تحكي سؤال العذاب وطلبه عن بعض من كفر طغيانا وكفرا ، وقد وصف العذاب المسؤول من الأوصاف بما يدل على إجابة الدعاء بنوع من التهكم والتحقير وهو قوله : « واقع » وقوله : « ليس له دافع » .

والمعنى سأل سائل من الكفار عذابا للكافرين من الله سيصيبهم ويقع عليهم لامحالة ولا دافع له أي إنته واقع عليهم سأل أو لم يسأل ففيه جواب تحقيري وإجابة لمسؤله تهكماً .

قوله تعالى : « للكافرين ليس له دافع » للكافرين متعلق بعذاب وصفة له ، وكذا قوله : « ليس له دافع » وقد مرّت الإشارة إلى معنى الآية .

قوله تعالى : « من الله ذي المعارج » الجار والمجرور متعلق بقوله : « دافع » أي ليس له دافع من جانب الله ومن المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه ، ومن المحتمل أن يتعلق بقوله : « بعذاب » .

والمعارج جمع معرج وفسّروه بالمصاعد وهي الدرجات وهي مقامات الملكوت التي يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسّره قوله بعد : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم » الخ فله سبحانه معارج الملكوت ومقاماتها المترتبة علواً وشرفاً التي تعرج فيها الملائكة والروح بحسب قربهم من الله وليست بمقامات وهمية اعتبارية .

وقيل : المراد بالمعارج الدرجات التي يصعد فيها الاعتقاد الحق والعمل الصالح قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » الفاطر ١٠ ، وقال : « ولكن يناله التقوى منكم » الحج : ٣٧ .

وقيل : المراد به مقامات القرب التي يعرج إليها المؤمنون بالإيمان والعمل

الضالّح قال تعالى : « هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » آل عمران : ١٦٣ وقال : « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » الأنفال : ٤ وقال : « رفيع الدرجات ذو العرش » المؤمن : ١٥ .

والحقّ أنّ مآل الوجهين إلى الوجه الأوّل ، والدرجات المذكورة حقيقة ليست بالوهمية الاعتبارية .

قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيدته سياق الآيات التالية . والمراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنّه بحيث لو وقع في الدنيا وانطبق على الزمان الجاري فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سني الدنيا .

والمراد بعروج الملائكة والروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكلّ إليه فإنّ يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط وتقطع الأسباب وارتفاع الروابط بينها وبين مسبباتها والملائكة وسائط موكّلة على أُمور العالم وحوادث الكون فإذا تخطّعت الأسباب عن مسبباتها وزيل الله بينهم ورجع الكلّ إلى الله عزّ اسمه رجعوا إليه وعرجوا معارجهم فحفّوا من حول عرش ربهم وصفّوا قال تعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش » الزمر : ٧٥ ، وقال : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » النبأ : ٣٨ .

والظاهر أنّ المراد بالروح الروح الذي هو من أمره تعالى كما قال : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ وهو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ .

فلا يعبأ بما قيل : إنّ المراد بالروح جبريل وإن أُطلق عليه الروح الأمين وروح القدس في قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٢ وقوله : « قل نزلّه روح القدس من ربّك » النحل : ١٠٢ فإنّ المقيد غير المطلق .

قوله تعالى : « فاصبر صبراً جميلاً » لمّا كان سؤال السائل للعذاب عن تعنّت

واستكبار وهو ممّا يشقّ تحمّله أمر نبيّه ﷺ بالصبر ووصفه بالجميل - والجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع والشكوى - وكلّله بأنّ اليوم بمافيه من العذاب قريب .

قوله تعالى : « إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » ضميراً « يرونه » و « نراه » للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع ويؤيّد الأوّل قوله فيما بعد : « يوم تكون السماء كالمهل » الخ .

والمراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازيّة ورؤيتهم ذلك بعيداً ظنّهم أنّه بعيد من الإمكان فإنّ سؤال العذاب من الله سبحانه استكباراً عن دينه وردّاً لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد وإنّ تفوّقه به السائل ، ورؤيته تعالى ذلك قريباً علمه بتحقيقه وكلّ ما هو آت قريب .

وفي الآيتين تعليل أمره ﷺ بالصبر الجميل فإنّ تحمّل الأذى والصبر على الملّكاه يهون على الإنسان إذا استيقن أنّ الفرج قريب وتذكّر ذلك فالكلام في معنى قولنا فاصبر على تعنتهم واستكبارهم في سؤالهم العذاب صبراً جميلاً لا يشوبه جزع وشكوى فإنّا نعلم أنّ العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه ، وعلمنا لا يتخلّف عن الواقع بل هو نفس الواقع .

قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » المهل المذاب من المعدنيّات كالنحاس والذهب وغيرهما ، وقيل : درديّ الزيت ، وقيل : عكر القطران^(١) .

والظرف متعلّق بقوله : « واقع » على ما يفيدّه السياق .

قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن » العهن مطلق الصوف ، ولعلّ المراد المنفوش منه كما في قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » القارعة : ٥ .

وقيل : هو الصوف الأحمر ، وقيل : المصبوغ ألواناً لأنّ الجبال ذوات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض وحمى وغرايب سود^(٢) .

(١) أى رديه وخبيثه .

(٢) كما في الآية ٢٧ من سورة فاطر .

قوله تعالى : «ولا يسأل حميم حميما» الحميم القريب الذي تهتمُّ بأمره وتشفق عليه .
إشارة إلى شدة اليوم فلا إنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لأشغاله بنفسه .

قوله تعالى : « يبصرونهم » الضميران للأعماء المعلوم من السياق والتبصير الإراءة والإيضاح أي يرى ويوضح الأعماء للأعماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم .

والجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدّر كأنه لما قيل : لا يسأل حميم حميما سئل ف قيل : هل يرى الأعماء يومئذ أعماءهم ؟ فأجيب : يبصرونهم ويمكن أن يكون « يبصرونهم » صفة « حميما » .

ومن رددى التفسير قول بعضهم : إن معنى قوله : « يبصرونهم » يبصرون الملائكة الكفار ، وما قيل : إن المعنى يبصرون المؤمنون أعداءهم من الكفار وما هم فيه من العذاب فيشمتون بهم ، وما قيل : إن المعنى يبصرون أتباع الضلالة رؤساءهم . وهي جميعا وجوه لا دليل عليها .

قوله تعالى : « يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينبجيه » قال في المجمع : المودة مشتركة بين التمني وبين المحبة يقال : وددت الشيء أي تمنيت به ووددته أي أحببته أودّ فيهما جميعا . انتهى ويمكن أن يكون استعماله بمعنى التمني من باب التضمن .

وقال : والافتداء افتداء الضرر عن الشيء ببدله منه انتهى ، وقال : الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوة خاصة عن أبوة عامة . انتهى وذكر بعضهم أن الفصيلة عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالأبناء الأدين .

وسياق هذه الآيات سياق الإضراب والترقي بالنسبة إلى قوله : « ولا يسأل حميم حميما » فيفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب إلى أن يتمنى أن يفتدي من العذاب بأحب أقاربه وأكرمهم عليه بنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته وجميع من في الأرض ثم ينبجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه .

والمعنى « يودّ » ويتمنى « المجرم » وهو المتلبّس بالاجرام أعمّ من الكافر « لو يفتدي من عذاب يومئذ » وهذا هو الذي يتمناه ، والجملة قائمة مقام مفعول يودّ . « ببنيه » الذين هم أحبّ الناس عنده « وصاحبته » التي كانت سكنا له وكان يحبّها وربما قدّمها على أبويه « وأخيه » الذي كان شقيقه وناصره « وفصيلته » من عشيرته الأقربين « التي تؤويه » وتضمّه إليها « ومن في الأرض جميعا » من أولي العقل « ثمّ ينجيّه » هذا الاقتداء .

قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَمُ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مِن دُبُرٍ وَأَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى » كَلَّا للردع ، وضمير « إنّها » لجهنّم أو للنار وسميت لظي لكونها تتلظى وتشتعل ، والنزّاعة اسم مبالغة من النزع بمعنى الاقتلاع ، والشوى الأطراف كاليد والرجل يقال : رماه فأشواه أي أصاب شواه كذا قال الراغب ، وإيعاء المال إمساكه في وعاء .

فقوله : « كَلَّا » ردع لتمنيّه النجاة من العذاب بالاقتداء وقد علّل الردع بقوله : « إنّها لظي » الخ ومحصّله أنّ جهنّم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنّها تطلب المجرمين لتعذبّ بهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائن ما كان .

فقوله : « إنّها لظي » أي نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد ، وقوله : « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى » أي صفتها إحراق الأطراف واقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبّ به .

وقوله : « تدعو من أدبر وتولّى وجمع فأوعى » أي تطلب من أدبر عن الدعوة الإلهيّة إلى الإيمان بالله وأعرض عن عبادته تعالى وجمع المال فأمسكه في وعائه ولم ينفق منه للسائل والمحروم .

وهذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتي وذكر الصلاة والإيفاق فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع حدّثنا السيّد أبو الحمد قال : حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني وساق السند عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وقال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، طار ذلك في البلاد فقدم على النبي صلى الله عليه وآله النعمان بن الحارث الفهري .

فقال : أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترض حتىّ نصبت هذا الغلام فقلت : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله ؟ فقال : والله الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله .

فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » .

أقول : وهذا المعنى مروى بغير طريق من طرق الشيعة ، وقد ردّ الحديث بعضهم بأنّه موضوع لكون سورة المعارج مكّيّة ، وقد عرفت الكلام في مكّيّة السورة . وفي الدرّ المنثور أخرج الفاريابيّ وعبد بن حميد والنسائيّ وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : « سأل سائل » قال هو النضر ابن الحارث قال : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : « سأل سائل » قال : نزلت بمكّة في النضر بن الحارث وقد قال : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك » الآية وكان عذابه يوم بدر .

اقول : وهذا المعنى مروى أيضاً عن غير السديّ ، وفي بعض رواياتهم أنّ

القائل : اللهمَّ إنَّ كان هذا هو الحقُّ من عندك الآية هو الحارث بن علقمة رجل من عبد الدار ، وفي بعضها أنَّ سائل العذاب هو أبو جهل بن هشام سأله يوم بدر ولازمه مدنيَّة السورة والمعتمد على أيِّ حال نزول السورة بعد قول القائل : اللهمَّ إنَّ كان هذا هو الحقُّ من عندك الآية وقد تقدَّم كلام في سياق الآية .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في حديث : ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنَّ في القيامة خمسين موقفاً كلَّ موقف مثل ألف سنة ممَّا تعدُّون ثمَّ تلا هذه الآية « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

أقول : وروى هذا المعنى في روضة الكافي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام .

و في المجمع روى أبو سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله ﷺ : ما أطول هذا اليوم فقال : و الَّذي نفس محمد بيده إنَّه ليخفُّ على المؤمن حتَّى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصلِّيها في الدنيا .

أقول : و رواه في الدرر المنثور عن عدَّة من الجوامع عن أبي سعيد عنه عليه السلام .

و في تفسير القميَّ في قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » قال : الرصاص الذائب و النحاس كذلك تذوب السماء .

و فيه في زواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يبصرونهم » يقول : يعرفونهم ثمَّ لا يتساءلون .

و فيه في قوله تعالى : « نزاعة للشوى » قال : تنزع عينه و تسودَّ وجهه .

و فيه في قوله تعالى : « تدعو من أدبر و تولَّى » قال : تجرُّه إليها .





إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا
 مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
 دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)
 وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
 مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
 حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
 مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١)
 وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ
 قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ
 فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

﴿بيان﴾

تشير الآيات إلى السبب الأولي الذي يدعو الإنسان إلى رذيلة الإِدبار و
 التَّوَلَّى و الجمع و الإِبعاء التي تؤديه إلى دخول النار الخالدة التي هي لظى نَزَّاعَة
 للشَّوَى على ما تذكره الآيات .

و ذلك السبب صفة الهلع التي اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان عليها
 ليتهدي بها إلى ما فيه خير و سعادته غير أن الإنسان يفسدها على نفسه و يسيء

استعمالها في سبيل سعادته فتسلك به إلى هلكة دائمة إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في جنات مكرمون .

قوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » الهلوع صفة مشتقة من الهلع بفتحين وهو شدة الحرص ، وذكروا أيضاً أَنَّ الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشرّ والمنوع عند الخير و هو تفسير سديد و السياق يناسبه .

و ذلك أَنَّ الحرص الشديد الذي جبل عليه الإنسان ليس حرصاً منه على كل شيء خير أكان أو شراً أو نافعاً أو ضاراً بل حرصاً على الخير و النافع و لحرصاً على كل خير أو نافع سواء ارتبط به أو لم يرتبط وكان له أو لغيره بل حرصاً منه على ما يراه خيراً لنفسه أو نافعاً في سبيل الخير ، ولأزم هذا الحرص ان يظهر منه التزعزع و الاضطراب عند مسّ الشرّ و هو خلاف الخير و أن يمتنع عن ترك الخير عند مسّ و يؤثر نفسه على غيره إلا أن يرى الترك أكثر خيراً و أنفع بحاله فالجزع عند مسّ الشرّ و المنع عند مسّ الخير من لوازم الهلع و شدة الحرص .

و ليس الهلع و شدة الحرص المعبول عليه الإنسان - و هو من فروع حبّ الذات - في حدّ نفسه من الرذائل المذمومة كيف ؟ و هي الوسيلة الوحيدة التي تدعو الإنسان إلى بلوغ سعادته و كمال وجوده ، و إنّما تكون رذيلة مذمومة إذا أساء الإنسان في تدبيرها فاستعملها فيما ينبغي وفيما لا ينبغي و بالحق و بغير حقّ كسائر الصفات النفسانية التي هي كريمة ما لزمّت حدّ الاعتدال و إذا انحرفت إلى جانب الإفراط أو التفريط عادت رذيلة ذميمة .

فالإنسان في بدء نشأته و هو طفل يرى ما يراه خيراً لنفسه أو شراً لنفسه بما جهّزه من الغرائز العاطفة و هي التي تهواه نفسه و تشتهي قواه من غير أن يحده بخدّ أو يقدره بقدر فيجزع إذا مسّه ألم أو أيّ مكروه ، و يمنع من يزاخه فيما أمسك به بكلّ ما يقدر عليه من بكاء و نحوه .

و هو على هذه الحال حتّى إذا رزق العقل و الرشدا أدرك الحقّ و الباطل و

الخير والشرّ و اعترفت نفسه بما أدرك و حينئذ يتبدّل عنده كثير من مصاديق الحقّ والباطل و الخير و الشرّ فعاد كثير ممّا كان يراه خيراً لنفسه شراً عنده و بالعكس .

فان أقام على ما كان عليه من اتباع أهواء النفس و العكوف على المشتبهات و اشتغل بها عن اتباع الحقّ و غفل عنه ، طبع على قلبه فلم يواجه حقّاً إلاّ دحضه و لا ذا حقّاً إلاّ اضطهده و إن أدركته العناية الإلهيّة عاد ما كان عنده من الحرص على ما نهواه النفس حرصاً على الحقّ فلم يستكبر على حقّ واجهد و لا منع ذاق حقّ حقه .

فالإنسان في بادئ أمره وهو عهد الصبي قبل البلوغ والرشد مجهز بالحرص الشديد على الخير وهو صفة كماليّة له بحسب حاله بها ينبعث إلى جلب الخير واتقاء الشرّ قال تعالى : « وإنّه لحبّ الخير لشديد » العاديات : ٨ .

ثمّ إذا رزق البلوغ والرشد زاد تجهيزاً آخر وهو العقل الذي بها يدرك حقائق الأمور على ما هي عليها فيدرك ما هو الاعتقاد الحقّ وما هو الخير في العمل ، ويتبدّل حرصه الشديد على الخير وكونه جزوعاً عند مسّ الشرّ ومنوعاً عند مسّ الخير من الخرس الشديد على الخير الواقعي من الفزع والخوف إذا مسّه شرّ أخرويّ وهو المعصية والمسابقة إلى مغفرة ربّه إذا مسّه خيراً أخرويّ وهو مواجهة الحسنه ، وأمّا الشرّ والخير الدنيويّان فإنّه لا يتعدّى فيهما ما حدّه الله له من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية وهذه الصفة صفة كماليّة لهذا الإنسان .

وأما إذا أعرض الإنسان عما يدركه عقله ويعترف به فطرته وعكف على اتباع الهوى واعتنق الباطل وتعدّى إلى حقّ كلّ ذي حقّ ولم يقف في حرصه على الخير على حدّ فقد بدّل نعمة الله نقمة وأخذ صفة غريزيّة خلقها الله وسيلة له يتوسّل بها إلى سعادة الدنيا والآخرة وسيلة إلى الشقوة والهلكة تسوقه إلى الإدبار والتولي والجمع والإيعاء كما في الآيات .

وقد بان ممّا تقدّم أنّه لا خير في نسبة هلع الإنسان في الآيات إلى الخلقة والكلام مسوق للذمّ وقد قال تعالى : « الذي أحسن كلّ شيء خلقه » السجدة : ٧ ، وذلك أنّ ما يلحقه من الذمّ إنّما هو من قبل الإنسان وسوء تدبيره لا من قبله تعالى فهو كسائر نعمه تعالى على الإنسان التي يصيّرُها نقماً بسوء اختياره . وذكر الزمخشريّ فراراً من الإشكال أنّ في الكلام استعارة ، والمعنى أنّ الإنسان لا يثارة الجزع والمنع وتمكّنهما منه كأنّه مجبول مطبوع عليهما ، وكأنّه أمر مخلوق فيه ضروريّ غير اختياريّ فالكلام موضوع على التشبيه لا لإفادة كونه مخلوقاً لله حقيقة لأنّ الكلام مسوق للذمّ والله سبحانه لا يذمّ فعل نفسه ، ومن الدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم فنجوا عن الجزع والمنع جميعاً . وفيه أنّ الصفة مخلوقة نعمة وفضيلة والإنسان هو الذي يخرجها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن النعمة إلى النقمة والذمّ راجع إلى الصفة من جهة سوء تدبيره لا من حيث إنّها فعله تعالى .

واستثناء المؤمنين ليس لأجل أنّ الصفة غير مخلوقة فيهم بل لأجل أنّهم أبقوها على كمالاتها ولم يبدّلوها رذيلة ونقمة .

وأجيب أيضاً عن الاستثناء بأنّه منقطع وهو كما ترى .

قوله تعالى : « إلّا المصلّين » استثناء من الإنسان الموصوف بالهلع ، وفي تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة في الآيات التالية دلالة على شرفها وأنّها خير الأعمال .

على أنّ لها الأثر البارز في دفع رذيلة الهلع المذموم وقد قال تعالى : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » العنكبوت : ٤٥ .

قوله تعالى : « الذين هم على صلاتهم دائمون » في إضافة الصلاة إلى الضمير دلالة على أنّهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائناً ما كانت لا أنّهم دائماً في الصلاة ، وفيه إشارة إلى أنّ العمل إنّما يكمل أثره بالمداومة .

قوله تعالى : « والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم » فسره بعضهم

بالزكاة المفروضة ، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام أن الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وإنّما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء ، والسائل هو الفقير الذي يسأل ، والمحروم الفقير الذي يتعفف ولا يسأل والسياق لا يخلو من تأييده فإنّ للزكاة موارد مسحاة في قوله : « إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » التوبة : ٦٠ وليست مختصة بالسائل والمحروم على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : « والذين يصدّقون يوم الدين » الذي يفيد سياق عدّ الأعمال الصالحة أن المراد بتصدقهم يوم الدين التصديق العمليّ دون التصديق الاعتقاديّ وذلك بأن تكون سيرتهم في الحياة سيرة من يرى أنّ ما يأتي به من عمل سيحاسب عليه فيجازى به إن خيراً فخير وإن شراً فشرّاً .

وفي التعبير بقوله : « يصدّقون » دلالة على الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذكره تعالى عند كل عمل يواجهونه فيأتون بما يريدونه ويتركون ما يكرهه .

قوله تعالى : « والذين هم من عذاب ربّهم مشفقون » أي خائفون ، والكلام في إشفاقهم من عذاب ربّهم نظير الكلام في تصديقهم يوم الدين فهو الإشفاق العمليّ الظاهر من حالهم .

و لازم إشفاقهم من عذاب ربّهم مع لزومهم الأعمال الصالحة ومجاهدتهم في الله أن لا يثقوا بما يأتون به من الأعمال الصالحة ولا يأمنوا عذاب الله فإنّ الأئمن لا يجامع الخوف .

و الملاك في الإشفاق من العذاب أنّ العذاب على المخالفة فلا منجى منه إلّا بالطاعة من النفس ولا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها في ذاتها إلّا ما أقدرها الله عليه و الله سبحانه مالك غير مملوك قال تعالى : « قل فمن يملك من الله شيئاً » المائدة : ١٧ . على أنّ الله سبحانه وإن وعد أهل الطاعة النجاة وذكر أنّه لا يخلف الميعاد لكنّ الوعد لا يقيّد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد ومشيتة نافذة فلا أئمن بمعنى انتفاء القدرة على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله ، ولذلك نرى

أنّه تعالى يقول في ملائكته : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فيصفهم بالخوف و هو يصرّح بعصمتهم ، و يقول في أنبيائه : « و يخشونه و لا يخشون أحداً إلاّ الله » الاحزاب : ٣٩ ، و يصف المؤمنين في هذه الآية بالاشفاق و هو يعدهم في آخر الآيات بقول جازم فيقول : « أولئك في جنّات مكرمون » .

قوله تعالى : « إن عذاب ربهم غير مأمون » تعليل لاشفاقهم من عذاب ربهم فيتبيّن به أنّهم مصيبون في إشفاقهم من العذاب و قد تقدّم وجهه .

قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون - الى قوله - هم العادون » تقدّم تفسير الآيات الثلاث في أوّل سورة المؤمنون .

قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة التي يؤتمنون عليها من المال وسائر ما يوصى به من نفس أو عرض ورعايتهم لها أن يحفظوها و لا يخونوها قيل : ولكثرة أنواعها جيء بلفظ الجمع بخلاف العهد .

وقيل : المراد بها جميع ما كلفهم الله من اعتقاد وعمل فتعمّ حقوق الله وحقوق الناس فلو ضيّعوا شيئاً منها فقد خانوه .

وقيل : كلّ نعمة أعطاه الله عبده من الأعضاء وغيرها أمانة فمن استعمل شيئاً منها في غير ما أعطاه الله لأجله وأذن له في استعماله فقد خانّه .

وظاهر العهد عقد الإنسان مع غيره قولاً أو فعلاً على أمر ورعايته أن يحفظه و لا ينقضه من غير مجوّز .

وقيل : العهد كلّ ما التزم به الإنسان لغيره فإيمان العبد لربه عهد منه عاهد به ربه أن يطيعه في كلّ ما كلفه به فلو عصاه في شيء ممّا أمره به أو نهاه عنه فقد نقض عهده .

قوله تعالى : « والذين هم بشهاداتهم قائمون » الشهادة معروفة ، والقيام بالشهادة عدم الاستنكاف عن تحملها وأداء ما تحمّل منها كما تحمّل من غير كتمان و لا تغيير ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

قوله تعالى : « والذين هم على صلاتهم يحافظون » المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما نذب إليه الشرع .
 قيل : والمحافظة على الصلاة غير الدوام عليها فإنَّ الدوام متعلق بنفس الصلاة والمحافظة بكيفيتها فلا تكرر في ذكر المحافظة عليها بعد ذكر الدوام عليها .
 قوله تعالى : « أولئك في جنات مكرمون » الإشارة إلى المصلين في قوله : « إلا المصلين » وتنكير جنات للتفخيم ، و « في جنات » خبر و « مكرمون » خبر بعد خبر أو ظرف لقوله : « مكرمون » .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي : « إذا مسّه الشرّ جزوعاً » قال : الشرّ هو الفقر والغاقة « وإذا مسّه الخير منوعاً » قال : الغنى والسعة .
 وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : ثمّ استثنى فقال « إلا المصلين » فوصفهم بأحسن أعمالهم « الذين هم على صلاتهم دائمون » يقول : إذا فرض على نفسه شيئاً من النوافل دام عليه .
 أقول : قوله : إذا فرض على نفسه النجاست عليه السلام هذا المعنى من إضافة الصلاة إلى ضمير « هم » وقد أشرنا إليه فيما مرّ .
 وفي الكافي بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « والذين هم على صلاتهم يحافظون » قال : هي الفريضة . قلت : « الذين هم على صلاتهم دائمون » قال : هي النافلة .
 وفي المجمع في قوله تعالى : « والذين في أموالهم حقّ معلوم » وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال : الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وهو الشيء الذي تخرجه من مالك إن شئت كلّ جمعة وإن شئت كلّ يوم ، ولكلّ ذي فضل فضله .
 قال : وروي عنه أيضاً أنّه قال : هو أن تصل القرابة وتعطي من حرمك وتصدّق

على من عاداك .

أقول : وروى هذا المعنى في الكافي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام بعدة طرق ورواه في المحاسن عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل « للسائل والمحروم » قال: المحروم المحارف الذي قد حرم كد يمينه في الشراء والبيع . قال : وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا : المحروم الرجل الذي ليس بعقله بأس ولم يبسط له في الرزق وهو محارف .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذين هم على صلاتهم بغافلون » روى محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال : أولئك أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا . **أقول :** ولعله مبني على ما ورد عنهم عليهم السلام أن تشريع النوافل اليومية لتتميم الفرائض .





فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ
عَزِيزِينَ (٣٧) أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا اِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا اِقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ اِنَّا
لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)
فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤٢)
يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْاَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ اِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)
خَاشِعَةً اَبْصَارُهُمْ تَرَهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

﴿ بيان ﴾

لَمَّا ذَكَرَ سبحانه في الفصل الأول من آيات السورة في ذيل ما حكى من
سؤالهم العذاب أن لهم عذاباً واقعا ليس له دافع وهو النار المملطة النزاعة للشوى
التي تدعو من أدبر وتولى و جمع فأوعى .

ثم بيّن في الفصل الثاني منها الملاك في ابتلائهم بهذه الشقوة وهو أن الإنسان
مجهّز بغريزة الهلع وحبّ خير نفسه ويؤدّ به اتّباع الهوى في استعمالها إلى الاستكبار
على كلّ حقّ يواجهه فيورده ذلك النار الخالدة ، ولا ينجون من ذلك إلا الصالحون
عملاً المصدّقون ليوم الدين المشفقون من عذاب ربّهم .

انعطف في هذا الفصل من الآيات - وهو الفصل الثالث - على أولئك الكفّار
كالمتعجّب من أمرهم حيث يجتمعون على النبي ﷺ : مهطعين عن اليمين وعن

الشمال عزيزين مقبلين عليه بأبصارهم لا يفارقونه فخاطبه وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ : ما بالهم يحيطون بك مهطعين عليك ؟ هل يريد كل امرء منهم أن يدخل جنة نعيم و هو كافر و قد قدر الله سبحانه أن لا يكرم بجنته إلا من استثناء من المؤمنين فهل يريدون أن يسبقوا الله و يعجزوه بنقض ما حكم به و إبطال ما قدره كلاً إن الله الذي خلقهم من نطفة مهينة قادر أن يبدلهم خيراً منهم و يخلق مما خلقهم منه ، غيرهم ممن يعبد به و يدخل جنته .

ثم أمر النبي وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أن يقطع خصامهم و يذره يخوضوا و يلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

قوله تعالى : «فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزيزين» قال في المجمع : قال الزجاج : المهطع المقبل بصره على الشيء لا يزياله و ذلك من نظر العدو و قال أبو عبيدة الإهطاع الأسراع ، و عزيز جماعات فى تفرقة ، و احدثهم عزة . انتهى ، و قبل الشيء بالكسر فالفتح الجهة التي تليه و الفاء فى «فما» فصيحة . و المعنى إذا كان الإنسان بكفره و استكباره على الحق مصيره إلى النار إلا من استثنى من المؤمنين فما للذين كفروا عندك مقبلين عليك لا يرفعون عنك أبصارهم و هم جماعات متفرقة عن يمينك و شمالك أيطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله و يسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصالحاء من المؤمنين .

قوله تعالى : «أيطمع كل امرء منهم أن يدخل جنة نعيم» . الاستفهام للانكار أي - ما هو الذي يحملهم على أن يحتفوا بك و يهطعوا عليك ؟ - هل يحملهم على ذلك طمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم و هو كافر فلا يطمع للكافر في دخول الجنة . و نسب الطمع إلى كل امرء منهم ولم ينسب إلى جماعتهم بأن يقال : أيطمعون أن يدخلوا النخ كما نسب الإهطاع إلى جماعتهم فقيل : مهطعين لأن النافع من الطمع فى السعادة و الفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له إلى الإيمان و العمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث أنه مجموع لا ينكفى فى سعادة كل واحد واحد .

وفي قوله : « أن يدخل » مجهولاً من باب الأفعال إشارة إلى أن دخولهم في الجنة ليس منوطاً باختيارهم ومشيتهم بل لو كان فأنما هو إلى الله سبحانه فهو الذي يدخلهم الجنة إن شاء ولن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر .

قيل : إن النبي ﷺ كان يصلي عند الكعبة و يقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً ورفقاً يستمعون و يستهزؤون بكلامه ، و يقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ فلندخلها قبلهم فنزلت الآيات .

وهذا القول لا يلائمه سياق الآيات الظاهر في تفرّع صنعهم ذلك على ما مر من حرمان الناس من دخول الجنة إلا من استثنى من المؤمنين إذ من الضروري على هذا أن اجتماعهم حوله ﷺ وإعطائهم عليه إنما حملهم عليه إفراطهم في عداوته و مبالغتهم في إيذائه وإهائته ، و أن قولهم : سندخل الجنة قبل المؤمنين - وهم مشركون مصرّون على إنكار المعاد غير معترفين بنار و لا جنة - إنما كان استهزاء و تهكماً .

فلا مساغ لتفريع علمهم ذاك على ما تقدّم من حديث النار و الجنة و السؤال في سياق التعجيب - عن السبب الحامل لهم عليه ثم استفهام طمعهم في دخول الجنة و إنكاره عليهم .

فبما تقدّم يتأيد أن يكون المراد بالذين كفروا في قوله : «فما للذين كفروا» قوماً من المنافقين آمنوا به ﷺ ظاهراً ولازموه ثم كفروا بردّ بعض ما نزل عليه كما يشير إليه أمثال قوله تعالى : «ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم» المنافقون : ٣ ، وقوله : «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» التوبة : ٦٦ ، وقوله : «فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم» التوبة : ٧٧ .

فهؤلاء قوم كانوا قد آمنوا ودخلوا في جماعة المؤمنين ولازموا النبي ﷺ مهطعين عليه عن اليمين وعن الشمال عزين ثم كفروا ببعض ما نزل إليه لا يبالون به فقررهم الله سبحانه في هذه الآيات أنهم لا ينتفعون بملازمته ولا لهم أن يطعموا في دخول الجنة فليسوا ممن يدخلها وليسوا بسابقين ولا معجزين .

ويؤيده قوله الآتي : « إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدُلَ خَيْرًا مِنْهُمْ » الخ على ما سنشير إليه .

قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » ردع لهم عن الطمع في دخول الجنة مع كفرهم .

وقوله : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » المراد بما يعلمون النطفة فإنَّ الإنسان مخلوق منها ، و الكلام مرتبط بما بعده والمجموع تعليل للردع ، ومحصّل التعليل إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنَ النُّطْفَةِ - وهم يعلمون به - فلنا أن نذهب بهم ونخلق مكانهم قوماً آخرين يكونون خيراً منهم مؤمنين غير رادّين لشيء من دين الله ، ولسنا بمسبوقين حتّى يعجزنا هؤلاء الكفّار ويسبقونا فندخلهم الجنة و ينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر .

و قيل : « من » في قوله : « مِمَّا يَعْلَمُونَ » تفيد معنى لام التعليل ، و المعنى إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ لِأَجْلِ مَا يَعْلَمُونَ وهو الاستكمال بالإيمان والطاعة فمن الواجب أن يتلبّسوا بذلك حتّى ندخلهم الجنة فكيف يطمعون في دخولها وهم كفّار ؟ وإِنَّمَا علموا بذلك من طريق إخبار النبي ﷺ .

وقيل : « من » لابتداء الغاية ، والمعنى إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نُطْفَةٍ قَذَرَةٍ لَا تَنَاسِبُ عَالَمَ الْقُدُسِ وَالطَّهَارَةِ حَتَّى تَتَطَهَّرَ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَتَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْمَلَائِكَةِ فَتَدْخُلَ وَأَنْتَى لَهُمْ ذَلِكَ وَهُمْ كَفَّارٌ .

وقيل : المراد بما في « مَا يَعْلَمُونَ » الجنس والمعنى إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ جِنْسِ الْآدَمِيِّينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَوْ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ لَا مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ وَلَا تَفْقَهُ فَالْحُجَّةُ لِأَزْمَةِ لَهُمْ تَامَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالْوَجُوهُ الثَّلَاثَةُ سَخِيفَةٌ .

قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدُلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » المراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس ومغاربها فإنَّ لها في كلّ يوم من أيّام السنة الشمسيّة مشرقاً ومغرباً لا يعود اليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة ، ومن المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم

ومغاربها .

وفي الآية على قصرها وجوه من الالتفات ففي قوله : « فلا أقسم » التفات من التكلم مع الغير في « إننا خلقناهم » إلى التكلم وحده ، والوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه .

وفي قوله : « ربّ المشارق والمغارب » التفات من التكلم وحده إلى الغيبة ، والوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدء في خلق الناس جيلا بعد جيلا وهي ربوبيّته للمشارق والمغارب فإنّ للشروق بعد الشروق والغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلاً تاماً في تكوّن الإنسان جيلا بعد جيل وسائر الحوادث الأرضيّة المقارنة له .

وفي قوله : « إننا لقادرون » التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، والوجه فيه الإشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة ، وفي ذكر ربوبيّته للمشارق والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة فإنّ الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكوّنّها لا يعجزه شيء من الحوادث التي هي أفعاله عن شيء منها ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبدّله خيراً منه وإلا شاركه المانع في امر التدبير والله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيّته فافهم ذلك .

وقوله : « إننا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم » « على » متعلّق بقوله : « لقادرون » والمفعول الأوّل لنبدل ضمير محذوف راجع إليهم وإنّما حذف للإشارة إلى هوان أمرهم وعدم الاهتمام بهم ، و« خيراً » مفعوله الثاني وهو صفة أقيمت مقام موصوفها ، والتقدير إننا لقادرون على أن نبدلهم قوماً خيراً منهم ، وخيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله ولا يكفروا به ويتبعوا الحق ولا يردّوه .

وقوله : « وما نحن بمسبوقين » المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة ، وكونه تعالى مسبوقاً هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم ويأتي بدلهم بقوم خير منهم . وسياق الآية لا يخلو من تأييد ما لما تقدّم من كون المراد بالذين كفروا قوماً من المنافقين دون المشركين المعاندين للدين النافين لأصل المعاد فإنّ ظاهر قوله :

« خيراً منهم » لا يخلو من دلالة أو إشعار بأنّ فيهم شائبة خيريّة والله أن يبدّل خيراً منهم ، والمشركون لا خير فيهم لكن هذه الطائفة من المنافقين لا يخلو تحفظهم على ظواهر الدين ممّا آمنوا به ولم يردّوه من خير للإسلام .

فقد بان بما تقدّم أنّ قوله : « إنّنا خلقناهم ممّا يعلمون » إلى آخر الآيات الثلاث تعليل للردع بقوله : « كلاً » ، وأنّ محصل مضمون الآيات الثلاث أنّهم مخلوقون من نطفة - وهم يعلمون ذلك - وهي خلقة جارية والله الذي هو ربّ الحوادث الجارية التي منها خلق الإنسان جيلاً بعد جيل والمدبّر لها قادر أن يذهب بهم ويبدّلهم خيراً منهم يعتنون بأمر الدين ويستأهلون لدخول الجنّة ، ولا يمنعد خلق هؤلاء أن يبدّلهم خيراً منهم ويدخلهم الجنّة بكمال إيمانهم من غير أن يضطرّ إلى إدخال هؤلاء الجنّة فلا ينتقض تقديره أنّ الجنّة للصالحين من أهل الإيمان .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » أمر للنبي ﷺ أن يتركهم وما هم فيه ، ولا يلحّ عليهم بحجاج ولا يتعب نفسه فيهم بعبطة ، وقد سمّي ما هم عليه بالخوض واللعب دلالة على أنّهم لا ينتفعون به انتفاعاً حقيقياً على ما لهم فيه من الإمعان والإصرار كاللعب الذي لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتّى يلاقوا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة .

وفي إضافة اليوم إليهم إشارة إلى نوع اختصاص له بهم وهو الاختصاص بعذابهم .

قوله تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنّهم إلى نصب يوفضون » بيان ليومهم الذي يوعدون وهو يوم القيامة .

والأجداث جمع جدث وهو القبر ، وسراغاً جمع سريع ، والنصب ما ينصب علامة في الطريق يقصده السائرون للاهتمام به ، وقيل : هو الصنم المنصوب للعبادة وهو بعيد من كلامه تعالى ، والإيفاض الإسراع والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » الخشوع تأثر خاصّ في القلب عن مشاهدة العظمة والكبرياء ، وينظره الخشوع في الجوارح ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور آثاره فيها ، والرهق غشيان الشيء بقهر

وقوله : « ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » الإشارة إلى مامرّ من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعاً وخشوع الأبصار ورهق الذلّة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فقال : مالي أراكم عزيزين حلقاً حلقاً الجاهليّة قعد رجل خلف أخيد .

أقول : ورواه عن ابن مردويه عن أبي هريرة ، ولفظه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه جلوس حلقاً حلقاً فقال : مالي أراكم عزيزين ، وروى هذا المعنى أيضاً عن جابر بن سمرة .

وفي تفسير القمّي : وقوله : « كلاًّ إنّنا خلقناهم ممّا يعلمون » قال : من نطفة ثمّ علقة ، وقوله « فلا أقسم » أي أقسم « برّب المشارق والمغارب » قال : مشارق الشتاء ومشارق الصيف ومغارب الشتاء ومغارب الصيف .

وفي المعاني بإسناده إلى عبد الله بن أبي حمّاد رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال : لها ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه إلّا من قابل .

وفي تفسير القمّي : وقوله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً » قال : من القبر « كأنّهم إلى نصب يوفضون » قال : إلى الداعي ينادون ، وقوله : « ترهقهم ذلّة » قال : تصيبهم ذلّة .

﴿سورة نوح مكيّة وهي ثمان وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ
قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ
دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ
إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ
أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ
الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْتَبِتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بَسَاطًا (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ

انْهَمْ عَصُونِي وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ الْاُخْسَارَ (٢١) وَمَكْرُؤًا
مَكْرَأً كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ
اِلَّا ضَلَالًا (٢٤) .

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى رسالة نوح ﷺ إلى قومه وإجمال دعوته وعدم استجابتهم له ثم شكواه إلى ربه منهم ودعائه عليهم واستغفاره لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ثم حلول العذاب بهم وإهلاكهم بالإغراق والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » « أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ » النخ تفسير لرسالته أي أوحينا إليه أَنْ أَنْذِرْ النخ . وفي الكلام دلالة على أَنَّ قومه كانوا عرضة للعذاب بشرتهم ومعاصيهم كما يدل عليه ما حكي من قوله ﷺ في الآية التالية : « اعبدوا الله واتقوه » وذلك أَنَّ الأ نذار تخويف والتخويف إنَّما يكون من خطر محتمل لا دافع له لولا التحذّر ، وقد أفاد قوله : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أَنَّهُ متوجّه إليهم غير ناركهم لولا تحذّرهم منه .

قوله تعالى : « قَالَ يَا قَوْمِ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مَبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا » بيان لتبليغه رسالته إجمالاً بقوله : « إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مَبِينٌ » ، وتفصيلاً بقوله : « أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ » النخ .

وفي إضافته القوم إلى نفسه إظهار إشفاق ورحمة أي إنَّكم قومي بجمعكم وإيتائي مجتمعنا القوميّ تسوؤني ما أساءكم فلست أريد إلّا ما فيه خيركم وسعادتكم إنّي

لكم نذير الخ .

وفي قوله : « أن اعبدوا الله » دعوتهم إلى توحيدته تعالى في عبادته فإنّ القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام ، والوثنية لا تجوز عبادة الله سبحانه لا وحده ولا مع غيره ، وإنّما يعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله ، ولو جوّزوا عبادته تعالى لعبده وحده فدعوتهم إلى عبادة الله دعوة لهم إلى توحيدته في العبادة .

وفي قوله : « واتّقوه » دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كبائر الإثم وصغائره وهي الشرك فما دونه ، وفعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية .
وفي قوله : « وأطيعون » دعوة لهم إلى طاعة نفسه المستلزم لتصديق رسالته وأخذ معالم دينهم ممّا يعبد به الله سبحانه ويستنّ به في الحياة منه ﷺ ففي قوله : « اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون » ندب إلى أصول الدين الثلاثة : التوحيد المشار إليه بقوله : « اعبدوا الله » وتصديق المعاد الذي هو أساس التقوى ^(١) والتصديق بالنبوة المشار إليه بالدعوة إلى الطاعة المطلقة .

قوله تعالى : « يغفر لكم من ذنوبكم » مجزوم في جواب الأمر و كلمة « من » للتبويض على ما هو المتبادر من السياق ، والمعنى إن تعبدوه وتّقوه و تطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي قبل الإيمان : الشرك فمادونه ، وأمّا الذنوب التي لم تقترف بعد ممّا سيستقبل فلامعنى لمغفرتها قبل تحققها ، ولا معنى أيضا للوعد بمغفرتها إن تحققت في المستقبل أوكلّمنا تحققت لاستلزام ذلك إلغاء التكليف الدينيّة بإلغاء المجازاة على مخالفتها .

ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم » الأحقاف : ٣١ ، وقوله : « يدعوك ليغفر لكم من ذنوبكم » إبراهيم : ١٠ وقوله : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

(١) اذ لولا المعاد بما فيه من الحساب و الجزاء لم يكن للتقوى الديني وجه ، منه .

وأما قوله تعالى يخاطب المؤمنين من هذه الأمة : «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلَّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ الصَّفَىٰ : ١٢ فهو وإن كان ظاهراً في مغفرة جميع الذنوب لكن رُتِبَتِ المغفرة فيه على استمرار الإيمان والعمل الصالح وإدامتهما مادامت الحياة فلا مغفرة فيه متعلّقة بمالم يتحقّق بعد من المعاصي والذنوب المستقبلية ولا وعد بمغفرتها كلّما تحقّقت .

وقد مال بعضهم اعتماداً على عموم المغفرة في آية الصَّفَىٰ إلى القول بأنّ المغفور بسبب الإيمان في هذه الأمة جميع الذنوب وفي سائر الأمم بعضها كما هو ظاهر قول نوح لأُمَّتِهِ : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » قول الرسل : كما في سورة إبراهيم « يَدْعُوَكُمْ لِيَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » وقول الجنّ كما في سورة الاحقاف لقومهم : « يَا قَوْمِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

و فيه أنّ آية الصَّفَىٰ مורدها غير مورد المغفرة بسبب الإيمان فقط كما أشرنا إليه . على أنّ آية الأنفال صريحة في مغفرة ما قد سلف ، و المخاطب به كفّار هذه الأمة .

وذهب بعضهم إلى كون «من» في قوله : «من ذُنُوبِكُمْ» زائدة ، ولم تثبت زيادة «من» في الإثبات فهو ضعيف ومثله في الضعف قول من ذهب إلى أنّ «من» بيانية ، و قول من ذهب إلى أنّها لا ابتداء الغاية .

قوله تعالى : «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يَأْخُذُكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» تعليق تأخيرهم إلى أجل مسمّى على عبادة الله والتقوى وطاعة الرسول بدلّ على أنّ هناك أجلين أجل مسمّى يؤخّرهم الله إليه إن أجابوا الدعوة ، وأجل غيره يعجل إليهم لوقوع الكفر ، وأنّ الأجل المسمّى أقصى الأجلين وأبعدهما . ففي الآية وعدهم بالتأخير إلى الأجل المسمّى إن آمنوا وفي قوله : «إِنْ أَجَلَ

الله إذا جاء لا يؤخر» تعليل للتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضي المتحتم أعم من الأجل المسمى وغير المسمى فلاراد لقضائه تعالى ولا معقب لحكمه .

والمعنى أن اعبدوا الله و اتقوه وأطيعوني يؤخركم الله إلى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم ولم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ففي الكلام مضافاً إلى وعد التأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا ، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا .
وقد ظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم لأجل الله بالأجل غير المسمى وأضعف منه تفسيره بالأجل المسمى .

وذكر بعضهم أن المراد بأجل الله يوم القيامة والظاهر أنه يفسر الأجل المسمى أيضاً بيوم القيامة فيرجع معنى الآية حينئذ إلى مثل قولنا : إن لم تؤمنوا عجل الله إليكم بعذاب الدنيا وإن آمنتم أخركم إلى يوم القيامة إن الله إذا جاء لا يؤخر .
و أنت خبير بأنه لا يلائم التبشير الذي في قوله : « يغفر لكم من ذنوبكم » .
وقوله : « لو كنتم تعلمون » متعلق بأول الكلام أي لو كنتم تعلمون أن الله أجلين وأن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبت دعوتي وعبدتهم الله و اتقيتموه و أطعتموني هذا فمفعول « تعلمون » محذوف يدل عليه سابق الكلام .

وقيل : إن « تعلمون » منزلة الفعل اللازم ، وجواب لو متعلق بأول الكلام ، والمعنى لو كنتم من أهل العلم لاستجبت دعوتي وآمنتم ، أو متعلق بآخر الكلام ، والمعنى لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .
قوله تعالى : « قال رب أني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً » الفائل هو نوح عليه السلام والذي دعا إليه هو عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ، والدعاء ليلاً ونهاراً كناية عن دوامه من غير فتور ولا توان .

وقوله : « فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً » أي من إجابة دعوتي فالمراد بالفرار التمرّد والتأبّي عن القبول استعارة ، وإسناد زيادة الفرار إلى دعائه لما فيه من شائبة

السبب لآن الخير إذا وقع في محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شراً وقد قال تعالى في صفة القرآن : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « وإنني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم » الخ ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته والأصل « دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم » لأن الغرض الإشارة إلى أنه كان ناصحاً لهم في دعوته ولم يرد إلا ما فيه خير دنياهم وعقباهم .

وقوله : « جعلوا أصابعهم في آذانهم » كناية عن استنكافهم عن الاستماع إلى دعوته ، وقوله : « واستغشوا ثيابهم » أي غطّوا بها رؤسهم ووجوههم لئلا يروني ولا يسمعوا كلامي وهو كناية عن التنفّر وعدم الاستماع إلى قوله .

وقوله : « وأصرّوا واستكبروا . استكباراً » أي وألحّوا على الامتناع من الاستماع واستكبروا عن قبول دعوتي استكباراً عجيباً .

قوله تعالى : « ثمّ إنني دعوتهم جهاشاً » « ثمّ » للتراخي بحسب رتبة الكلام والجهاز النداء بأعلى الصوت .

قوله تعالى : « ثمّ إنني أعلنت لهم وأسرّرت لهم إسراراً » الإعلان والإسرار متقابلان وهما الإظهار والإخفاء ، وظاهر السياق أنّ مرجع ضمير لهم في الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرّاً وعلائية فتارة علانية وتارة سرّاً سالكاً في دعوتي كلّ مذهب ممكن وسائراً فيها كلّ مسير مرجو .

قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنّه كان غفّاراً - إلى قوله - أنهاراً » علّل أمرهم بالاستغفار بقوله : « إنّه كان غفّاراً » دلالة على أنّه تعالى كثير المغفرة وهي مضافاً إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى .

وقوله : « يرسل السماء عليكم مدراراً » مجزوم في جواب الأمر ، والمراد بالسماء السحاب ، والمدرار كثير الدور بالأمطار .

وقوله : « ويمدّكم بأموال وبنين » الإمداد إلحاق المدد وهو ما يتقوّى به

الممدّ على حاجته، والأموال والبنون أقرب الأعضاد الابتدائية التي يستعين بها المجتمع الانسانيّ على حوائجه الحيويّة .

وقوله : « ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً » هما من قسم الأموال غير أنّهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصّاً بالذكر .

والآيات - كما ترى - تعدّ النعم الدنيويّة وتحكي عنه ﷺ أنّه يعدّ قومه توافر النعم وتواترها عليهم إن استغفروا ربّهم فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمة العامّة وافتتاح أبواب النعم من السماء والأرض أي أنّ هناك ارتباطاً خاصّاً بين صلاح المجتمع الانسانيّ وفساده وبين الأوضاع العامّة الكونيّة المربوطة بالحياة الانسانيّة وطيب عيشه ونكده .

كما يدلّ عليه قوله تعالى : « ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس، الروم : ٤١ ، وقوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الشورى : ٣٠ ، وقوله : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ وقد تقدّم في تفسير الآيات ما لا يخلو من نفع في هذا المقام .

قوله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً » استفهام إنكاريّ والوقار - كما في المجمع - بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم ، والرجاء مقابل الخوف وهو الظنّ بما فيه مسرّة ، والمراد به في الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل ، وقيل : المراد به الخوف للملازمة بينهما .

والمعنى أيّ سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه .

والحقّ أنّ المراد بالرجاء معناه المعروف وهو ما يقابل الخوف ونفيه كناية عن اليأس فكثيراً ما يكتفى به عنه يقال : لا أرجو فيه خيراً أي أنا آئس من أن يكون فيه خير ، والوقار الثبوت والاستقرار والتمكّن وهو الأصل في معناه كما صرح به في المجمع ، ووقاره تعالى ثبوته واستقراره في الربوبيّة المستتبع لألوهيته ومعبوديته .

كَانَ الْوَنِيِّينَ طَلِبُوا رَبًّا لَهُ وَقَارٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ لِيَعْبُدُوهُ فَيَسْأُوا مِنْهُ تَعَالَى فَعَبَدُوا
غَيْرَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَأَنْتَهُمْ يَرُونَ أَنَّ تَعَالَى لَا يُحِيطُ بِهِ أَفْهَامُنَا فَلَا سَبِيلَ لِلتَّوَجُّهِ الْعِبَادِيِّ
إِلَيْهِ ، وَالْعِبَادَةُ أَدَاءٌ لِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي يَتَفَرَّعُ عَلَيْهَا تَدْبِيرُ الْأُمُورِ وَتَدْبِيرُ أُمُورِ الْعَالَمِ
مَفُوضٌ إِلَى أَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ فَهُمْ أَرْبَابُنَا الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْنَا عِبَادَتَهُمْ لِيَكُونُوا
شَفْعَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَمَّا هُوَ تَعَالَى فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْإِيجَادُ إِيجَادُ الْأَرْبَابِ وَمَرْبُوبِيهِمْ جَمِيعًا
دُونَ التَّدْبِيرِ .

وَالْآيَةُ أَعْنَى قَوْلِهِ : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » وَمَا يَتْلُوها إِلَى تَمَامِ سَبْعِ آيَاتٍ
مَسْوَقةٌ لِإِثْبَاتِ وَقَارِهِ تَعَالَى فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَحِجَّةٌ قَاطِعَةٌ فِي نَفْيِ مَا لَفَقُوهُ لَوْجُوبِ عِبَادَةِ
غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ لِاسْتِنَادِ تَدْبِيرِ الْعَالَمِ إِلَيْهِمْ ، وَيَتَبَيَّنُ بِهِ إِمْكَانُ التَّوَجُّهِ الْعِبَادِيِّ
إِلَيْهِ تَعَالَى .

وَمَحْصَلُ الْحِجَّةِ : مَا الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى نَفْيِ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى الْمُسْتَتَبِعِ لِلْأُلُوهِيَّةِ
وَالْمَعْبُودِيَّةِ وَالْيَأْسِ عَنْ وَقَارِهِ ؟ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ تَعَالَى خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الْعَالَمَ الَّذِي
تَعِيشُونَ فِيهِ طَوْرًا مِنَ الْخَلْقِ لَا يَنْفَكُ عَنْ هَذَا النِّظَامِ الْجَارِي فِيهِ ، وَلَيْسَ تَدْبِيرُ الْكَوْنِ
وَمِنْ فِيهِ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا التَّطَوُّرَاتُ الْمَخْلُوقَةِ فِي أَجْزَائِهِ وَالنِّظَامُ الْجَارِي فِيهِ فَكَوْنُهُ
تَعَالَى خَالِقًا هُوَ كَوْنُهُ مَا لَكَأَ مَدْبِرًا فَهُوَ الرَّبُّ لَا رَبَّ سِوَاهُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا
مَعْبُودًا .

وَيَتَبَيَّنُ بِهِ صَحَّةُ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ فَإِنَّا نَعْرِفُهُ بِصِفَاتِهِ الْكَرِيمَةِ
مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ الْفَعْلِيَّةِ فَلَنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِمَا نَعْرِفُهُ مِنْ
صِفَاتِهِ ^(١) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ « لَا تَرْجُونَ » وَالْأَطْوَارُ جَمْعُ
طَوْرٍ وَهُوَ حَدٌّ شَيْءٍ وَحَالُهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا .

(١) وَأَمَّا اخْتِذَا بِمَا نَعْرِفُهُ مِنْ صِفَاتِهِ الْفَعْلِيَّةِ لِأَنَّ مِنَ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِمْ أَنْهُمْ يَنْكُرُونَ صِفَاتِهِ
الذَّاتِيَّةَ وَيُفْسِرُونَهَا بِسَلْبِ النِّقَاطِصِ فَمَعْنَى كَوْنِهِ حَيًّا قَدِيرًا عَلِيمًا عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَيِّتٍ وَلَا غَاجِزٍ
وَلَا جَاهِلٍ عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ أَيْضًا تَصِفُهُ بِالصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ ، مِنْهُ .

و محصل المعنى - لاترجون لله وقاراً في ربوبيّة - و الحال أنّه أنشأكم طوراً بعد طور كل طور يستعقب طوراً آخر فأنشأ الواحد منكم تراباً ثمّ نطفة ثمّ علقه ثمّ مضغة ثمّ جنيناً ثمّ طفلاً ثمّ شاباً ثمّ كهلاً ثمّ شيخاً و أنشأ جمعكم مختلفة الأفراد في الذكورة و الأنوثة و الألوان و الهياآت والقوّة والضعف إلى غير ذلك ، وهل هذا إلّا التدبير فهو مدبّر أمركم فهو ربكم .

قوله تعالى : «ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهنّ و تماثلهنّ على الاحتمالين المتقدمين في تفسير أوائل سورة الملك .

والمراد بالرؤية العلم ، وتوصيف السماوات بالسبع - والكلام مسوق سوق الحجّة - يدلّ على أنّهم كانوا يرون كونها سبعة و يسلمون ذلك فاحتجّ عليهم بالمسلم عندهم .

وكيف كان فوقع حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه ما ثوراً من الأنبياء ﷺ من أقدم المهود .

قوله تعالى : «وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشمس سراجاً» الآيات - كما يشهد به سياقها - مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهيّ على الإنسان بما يفيض عليه من النعم حتّى تثبت ربوبيّته فتجب عبادته .

وعلى هذا فكون الشمس سراجاً هو كونها مضيئة لعالمنا ولولاها لانغمرنا في ظلمة ظلماء ، وكون القمر نوراً هو كونه منوّراً لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منوّراً بنفسه حتّى يعدّ سراجاً .

وأما أخذ السماوات ظرفاً للقمر في قوله : «وجعل القمر فيهنّ نوراً» فالمراد به كما قيل كونه في حيزهنّ وإن كان في واحدة منها كما تقول : إنّ في هذه الدور لبئراً وإن كانت في واحدة منها لأنّ ما كان في إحداهنّ كان فيهنّ وكما تقول : أتيت بني تميم وإنّما أتيت بعضهم .

قوله تعالى : «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» أي أنبتكم إنبات النبات وذلك أن الإنسان تنتهي خلقته إلى عناصر أرضية تركت تراباً خاصاً به يغتذي و ينمو ويولد المثل ، وهذه حقيقة النبات فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة .

قوله تعالى : «ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً» الاعادة فيها بالامانة و الاقبار ، والاخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى : «فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» الاعراف : ٢٥ .

وفي قوله : «ويخرجكم» دون أن يقول : ثمّ يخرجكم إيماء إلى أن الاعادة والاخراج كالصنع الواحد والاعادة مقدّمة للاخراج ، والإنسان في حالتي الاعادة والاخراج في دار الحقّ كما أنّه في الدنيا في دار الغرور .

قوله تعالى : «والله جعل لكم الأرض بساطاً» أي كالسباط يسهل لكم التقلب من جانب إلى جانب ، والانتقال من قطر إلى قطر .

قوله تعالى : «لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً» السبل جمع سبيل بمعنى الطريق و الفجاج جمع فجّ بمعنى الطريق الواسعة ، وقيل : الطريق الواقعة بين الجبلين .

قوله تعالى : «قال نوح ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدّه ماله وولده إلّا خساراً» رجوع منه عليه السلام إلى شكواه من قومه إلى ربّه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم وما ألقاه من القول إليهم من قوله : «ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً» إلى آخر الآيات .

وشكواه السابق له قوله : « فلم يزدّهم دعائي إلّا فراراً » بعد ما أخبر باجمال دعوته بقوله : «ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً» .

وفي الآية دلالة على أنّ العظماء المترفين من قومه عليهم السلام كانوا يصدّون الناس عنه ويحرّضونهم على مخالفته وإيذائه .

ومعنى قوله : «لم يزد ماله و ولده إلا خساراً» - وقد عدّ المال والولد في سابق كلامه من النعم - أنّ المال والولد الذين هما من نعمك و كان يجب عليهم شكرهما لم يزيدهما إلا كفرأ وأورثهم ذلك خسراناً من رحمتك .

قوله تعالى : «ومكروا مكراً كِبَّاراً» الكِبَّار اسم مبالغة من الكبير .
قوله تعالى : «وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وُدّاً ولا سواعاً ولا يغوث و يعوق ونسراً» توصية منهم بالتمسك بآلهتهم وعدم ترك عبادتها .

وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تامّ بعبادتهم ولذا خصّوها بالذكر مع الوصيّة بمطلق الآلهة ، ولعلّ تصدير وُدّ وذكر سواع ويغوث بلا المؤكّدة للنفي لكونها أعظم أمراً عندهم من يعوق ونسروا لله أعلم .

قوله تعالى : «وقد أضلّوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً» ضمير «أضلّوا» للرؤساء المتبوعين ويتأبّد به أنّهم هم المحدث عنهم في قوله : «ومكروا» «وقالوا لا تذرنا آلهتكم» وقيل : الضمير للأصنام فهم المضلّون ، ولا يخلو من بعد .

وقوله : «ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً» دعاء من نوح على الظالمين بالضلال المراد به الضلال مجازاة دون الضلال الابتدائيّ فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وفسقهم مضافاً إلى ما سيحكي عنه من دعائه عليهم بالهلاك .

﴿ بحث روائى ﴾

في نهج البلاغة : و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدور الرزق ورحمة الخلق فقال سبحانه : «استغفروا ربكم إنّّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمدّكم بأموال وبنين» فرحم الله امرء استقبل توبته ، واستقال خطيئته ، وبادر منيته .

أقول : والروايات في استفادة سبعية الاستغفار لسعة الرزق والإمداد بالآ ولاد من هذه الآيات كثيرة .

وفي الخصال عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة : أكثر الاستغفار تجلب الرزق .

وفي تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « لا ترجون لله وقاراً » قال ؟ لا تخافون لله عظمة .

أقول : وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « سبع سماوات طباقاً » يقول بعضها فوق بعض .

وفيه في قوله تعالى : « ربّ إنهم عصوني واتّبعوا من لم يزد ماله وولده إلاّ خساراً » قال : اتّبعوا الأغنياء .

وفي الدّر المنثور أخرج البخاريّ وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : صارت الأصنام والأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد .

أمّا ودّ فكانت للكب في دومة الجندل ، وأمّا سواع فكانت لهذيل ، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثمّ لبني غطفان عند سبأ ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان ، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

و كانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً و سموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتّى إن هلك أولئك و نسخ العلم عبت .

أقول : لعلّ المراد بصيرورة تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لما كان عندهم في الأسماء أو في الأوصاف والأسماء ، وأمّا انتقال تلك الأصنام بأشخاصهنّ إلى العرب فبعيد غايته .

وروى القصة أيضاً في علل الشرائع باسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام كما في الرواية .

و في روضة الكافي باسناده عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها . قال : فالتفت عن يساره وأشار بيده إلى موضع دار الدارين و هو موضع دار ابن حكيم ، و ذاك فرات اليوم، فقال لي يا مفضل وهنا نصبت أصنام قوم نوح : يغوث ويعوق و نسر .





مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً
 (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ
 إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ
 لِرِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ
 إِلَّا تَبَاراً (٢٨)

﴿ بيان ﴾

تتضمن الآيات هلاك القوم و تتممة دعاء نوح ﷺ عليهم .
 قوله تعالى : « ممّا خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » الخ « من » لا ابتداء الغاية
 تفيد بحسب المورود التعليل و « ما » زائدة لتأكيد أمر الخطايا و تفخيمه ، والخطيئات
 المعاصي و الذنوب ، و تنكير النار للتفخيم .
 و المعنى من أجل معاصيهم و ذنوبهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا - أدخلهم الله -
 ناراً لا يقدر عذابها بقدر و من لطيف نظم الآية الجمع بين الإغراق بالماء و إدخال
 النار .

و المراد بالنار نار البرزخ التي يعذب بها المجرمون بين الموت و البعث دون
 نار الآخرة ، و الآية من أدلة البرزخ إذ ليس المراد أنهم أغرقوا و سيدخلون
 النار يوم القيامة ، و لا يعبأ بما قيل : إنّ من الجائز أن يراد بها نار الآخرة .
 و قوله : « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » أي ينصرونهم في صرف الهلاك
 و العذاب عنهم . تعريض لأصنامهم و آلهتهم .

قوله تعالى : « وقال نوح رب لا تذرعني الأرض من الكافرين دياراً » الديّار

نازل الدار ، والآية تتمّة دعائه ﷺ عليهم ، وكان قوله : « ممّا خطيأَتهم اُغرقوا »
 الخ معترضاً واقعاً بين فقرتي الدعاء للإشارة إلى أنّهم اُهلكوا لماعدّ نوح من خطيأَتهم
 ولتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيتبيّن أنّ إغراقهم كان استجابة لدعائه ، وأنّ
 العذاب استوعبهم عن آخرهم .

قوله تعالى : « إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا »
 تعليل لسؤال إهلاكهم عن آخرهم مفاده أنّ لفائدة في بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنين
 فإنّهم يضلّونهم ، ولا فيمن يلدونه من الأولاد فإنّهم لا يلدون إِلَّا فاجراً كفّاراً
 - والفجور الفسق الشنيع والكفار المبالغ في الكفر - .

وقد استفاد عليه السلام ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهيّ على ما تقدّم
 في تفسير قصّة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَ
 الْمُؤْمِنَاتِ » الخ المراد بمن دخل بيته مؤمناً المؤمنون به من قومه ، وبالمؤمنين و
 المؤمنات عامّتهم إلى يوم القيامة .

وقوله : « وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » التبار الهلاك ، والظاهر أنّ المراد
 بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة وهو الضلال وهلاك الدنيا بالفرق ، وقد تقدّم ما جميعاً
 في دعائه ، وهذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه عليه السلام في القرآن الكريم .



﴿سورة الجن مكية وهي ثمان وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَإِنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَقْنَقُنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وأقرّوا بأصول معارفه ، وتتلخّص منها إلى تسجيل نبوة النبي ﷺ ، والإشارة إلى وحدانيّته تعالى في ربوبيّته وإلى المعاد ، والسورة مكّية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « قل أوحى إليّ أنّه استمع نفر من الجن فقالوا إنّنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد » أمر للنبي ﷺ أن يقصّ القصة لقومه ، والموحي هو الله سبحانه ، ومفعول « استمع » القرآن حذف لدلالة الكلام عليه ، والنفر الجماعة من ثلاثة إلى تسعة على المشهور ، وقيل : بل إلى أربعين .

والعجب بفتحين ما يدعو إلى التعجب منه لخروجه عن العادة الجارية في مثله ، وإنّما وصفوا القرآن بالعجب لأنّه كلام خارق للعادة في لفظه ومعناه أتى به رجل أمّيّ ما كان يقرء ولا يكتب .

والرشد إصابة الواقع وهو خلاف الغيّ ، وهداية القرآن إلى الرشد دعوته إلى عقائد وأعمال تضمن للمتلبّس بها سعادته الواقعيّة .

والمعنى يا أيّها الرسول قل للناس : أوحى - أي أوحى الله - إليّ أنّه استمع القرآن جماعة من الجن فقالوا - لقومهم لما رجعوا إليهم - إنّنا سمعنا كلاماً مقرواً خارقاً للعادة يهدي إلى معارف من عقائد وأعمال في التلبّس بها إصابة الواقع والظفر بحقيقة السعادة .

﴿ كلام في الجن ﴾

الجنّ نوع من الخلق مستورون من حواسّنا يصدّق القرآن الكريم بوجودهم ويذكّر أنّهم بنوعهم مخلوقون قبل نوع الإنسان ، وأنّهم مخلوقون من النار كما أنّ الإنسان مخلوق من التراب قال تعالى : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ .

وَأَنَّهُمْ يَعْشَوْنَ وَيَمُوتُونَ وَيَبْعَثُونَ كَالْإِنْسَانِ قَالَ تَعَالَى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » الْأَحْقَافُ : ١٨ .
وَأَنَّ فِيهِمْ ذُكُورًا وَإِنَّا نَافِتُونَ بِالتَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ قَالَ تَعَالَى : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ » الْجِنُّ : ٦ .

وَأَنَّ لَهُمْ شَعُورًا وَإِرَادَةً وَأَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى حَرَكَاتٍ سَرِيعَةٍ وَأَعْمَالٍ شَاقَّةٍ كَمَا فِي قِصَصِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَسْخِيرِ الْجِنِّ لَهُ وَقِصَّةِ مَلِكَةِ سَبَأَ .

وَأَنَّهُمْ مَكْلُفُونَ كَالْإِنْسَانِ ، مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ كُفَّارٌ ، وَمِنْهُمْ صَالِحُونَ وَآخَرُونَ طَالِحُونَ قَالَ تَعَالَى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » الذَّارِيَاتُ : ٥٦ وَقَالَ تَعَالَى : « إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » الْجِنُّ : ٢ وَقَالَ : « وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » الْجِنُّ : ١٤ وَقَالَ : « وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » الْجِنُّ : ١١ وَقَالَ تَعَالَى : « قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ » الْأَحْقَافُ : ٣١ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ . وَيُظْهِرُ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى أَنَّ إبْلِسَ مِنَ الْجِنِّ وَأَنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً وَقَبِيلًا قَالَ تَعَالَى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » الْكَهْفُ : ٥٠ وَقَالَ تَعَالَى : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي » الْكَهْفُ : ٥٠ وَقَالَ : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » الْأَعْرَافُ : ٢٧ .

قوله تعالى : « فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » إِبْخَارٌ عَنْ إِيمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَتَصْدِيقِهِمْ بِأَنَّهُ حَقٌّ ، وَقوله : « وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى إِيمَانِهِمْ بِهِ أَنَّ إِيمَانَهُمْ بِالْقُرْآنِ إِيمَانٌ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ فَهُوَ رَبُّهُمْ ، وَأَنَّ إِيمَانَهُمْ بِهِ تَعَالَى إِيمَانٌ تَوْحِيدٌ لَا يَشْرُكُونَ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا .

قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » فَسَّرَ الْجَدَّ بِالْعِظْمَةِ وَفَسَّرَ بِالْحِظِّ ، وَالْآيَةُ فِي مَعْنَى التَّأْكِيدِ لِقَوْلِهِمْ : « وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » . وَالْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ « أَنَّهُ » بِالْفَتْحِ ، وَقُرءَ بِالْكَسْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي مَا بَعْدَهَا مِنْ

الآيات - اثنا عشر مورداً - إلى قوله : « وأن لو استقاموا » فبالفتح وهو الأرجح لظهور سياق الآيات في أنها مقولة قول الجن .

وأما قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء ، وقد وجهها بعضهم بأن الجملة « وأنه » النخ معطوفة على الضمير المجرور في قوله « آمنا به » والتقدير وآمنا بأنه تعالى جد ربنا النخ فهو إخبار منهم بالإيمان بنفي صاحبة الولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون .

وهذا إنما يستقيم على قول الكوفيّين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور ، وأما على قول البصريّين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء والزجاج والزمخشريّ بأنها معطوفة على محلّ الجارّ والمجرور وهو النصب فإنّ قوله : « آمنا به » في معنى صدّقناه ، والتقدير وصدقنا أنه تعالى جد ربنا النخ ، ولا يخفى ما فيه من التكلف .

ووجهه بعضهم بتقدير حرف الجرّ في الجملة المعطوفة وذلك مطرد في أن « وأن » ، والتقدير آمنا به وبأنه تعالى جد ربنا النخ .

ويرد على الجميع أعمّ من العطف على الضمير المجرور أو على محلّه أو بتقدير حرف الجرّ أنّ المعنى إنّما يستقيم حينئذ في قوله : « وأنه تعالى جد ربنا » النخ ، وقوله : « وأنه كان يقول سفيها » النخ ، وأما بقية الآيات المصدّرة بأنّ كقوله : « وأنّا ظننّا أن لن نقول » النخ ، وقوله : « وأنه كان رجال من الإنس » النخ ، وقوله « وأنّا لمسنا السماء » فلا يصحّ قطعاً فلا معنى لأنّ يقال : آمنا أو صدّقنا أنّا ظننّا أن لن نقول الإنس والجنّ على الله شططا ، أو يقال : آمنا أو صدّقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون النخ ، أو يقال : آمنا أو صدّقنا أنّا لمسنا السماء النخ .

ولا يندفع الإشكال إلّا بالمصير إلى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجهه الفتح في الآيتين الأوليين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه في كلّ من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير .

ووجه بعضهم الفتح بأنّ قوله : « وأنته تعالى » الخ وسائر الآيات المصدرة بأنّ معطوفة على قوله : « أنه استمع » الخ .

ولا يخفى فساده فإنّ محصله أنّ الآيات في مقام الإخبار عما أوحى إلى النبي ﷺ من أقوالهم وقد أخبر عن قولهم : « إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنّا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم حكى سائر أقوالهم بالفاظها فالمعنى أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا كذا وكذا وأوحى إليّ أنه تعالى جد ربنا الخ وأوحى إليّ أنه كان يقول سفيهنّا إلى آخر الآيات .

فيرد عليه أنّ ما وقع في صدر الآيات من لفظة « أنه » و « أنهم » و « أنا » إنّ لم يكن جزء من لفظهم المحكيّ كان زائداً مخلاً بالكلام ، وإن كان جزء من كلامهم المحكيّ بلفظه لم يكن المحكيّ من مجموع أنّ وما بعدها كلاماً تاماً واحتاج إلى تقدير ما يتمّ به كلاماً حتّى تصحّ الحكاية ، ولم ينفع في ذلك عطفه على قوله : « أنه استمع » شيئاً فلا تغفل .

قوله تعالى : « وأنته كان يقول سفيهنّا على الله شططا » السفه - على ما ذكره الراغب - خفة النفس لنقصان العقل ، والشطط القول البعيد من الحقّ .

والآية أيضاً في معنى التأكيد لقولهم : « لن نشرك برّبنا أحداً » ومرادهم بسفيهنهم من سبقهم من مشركي الجن ، وقيل : المراد إبليس وهو من الجن ، وهو بعيد من سياق قوله : « كان يقول سفيهنّا » الخ .

قوله تعالى : « وأنا ظننّا أنّ لن نقول الاّ نس والجنّ على الله كذباً » اعتراف منهم بأنّهم ظنّوا أنّ الاّ نس والجنّ صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله فلمّا وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى صاحبة الولد أذعنوا به وقدودهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتّى سمعوا القرآن فأنكشف لهم الحقّ ؛ وفيه تكذيب منهم للمشركين من الاّ نس والجنّ .

قوله تعالى : « وأنته كان رجال من الاّ نس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً » قال الراغب : العوذ الالتجاء إلى الغير ، وقال : رهقه الأمر غشيه بقر انتهى

وفسر الرهق بالإثم ، وبالطغيان ، وبالخوف ، وبالشر ، وبالذلة والضعف ، وهي تفاسير بلازم المعنى .

والمراد بعوذ الإِئس بالجن - على ما قيل : أن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادي في سفره ليلاً قال : أعوذ بعزير هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، ونقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا في العرب . ولا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانة بهم في المقاصد من طريق الكهانة ، وإليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإِئس يعوذون برجال من أجل الجن و من معرفتهم و أذاهم .

والضميران في قوله : « فزادهم » أو لهما لرجال من الإِئس و ثانيهما لرجال من الجن ، و المعنى فزاد رجال الإِئس رجال الجن رهقاً بالتجائهم إليهم فاستكبر رجال الجن وطفوا و أئموا ، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن و الثاني لرجال الإِئس ، و المعنى فزاد رجال الجن رجال الإِئس رهقاً أي إئماً و طغياناً أو ذلة وخوفاً .

قوله تعالى : « وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » ضمير « إئثم » لرجال من الإِئس ، و الخطاب في « ظننتم » لقومهم من الجن ، و المراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك ، و قيل : المراد به الإِحياء بعد الموت ، و سياق الآيات التالية يؤيد الأول .

و عن بعضهم أن هذه الآية و التي قبلها ليستا من كلام الجن بل كلامه تعالى معترضاً بين الآيات المتضمنة لكلام الجن ، و عليه فضمير « أنثم » للجن و خطاب « ظننتم » للناس ، و فيه أنه بعيد من السياق .

قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » لمس السماء الاقتراب منها بالعود إليها ، و الحرس - على ما قيل - اسم جمع لحارس و لذا وصف بالمفرد ، و المراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء في دفع من يريد الاستراق

منها و لذا شفع بالشهب و هي سلاحهم .

قوله تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » يفيد انضمام صدر الآية إلى الآية السابقة أن ملء السماء بالحرس الشديد و الشهب ممّا حدث أخيراً و أنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة و يفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدّم أن من يستمع الآن منّا بالقيود منها مقعداً للسمع يجدله شهاباً من صفته أنه راصدله يرميه به الحرس . فيتحصّل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن و بعثة النبي صلى الله عليه و آله و هي منع الجنّ من تلقّي أخبار السماء باستراق السمع .

ومن عجيب الاستدلال ما عن بعضهم أن في الآيتين ردّاً على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ لظهور قوله : « ملئت حرساً » في أن الحادث هو الملء وكثرة الحرس لأصل الحرس ، وظهور قوله : « نقعد منها مقاعد للسمع » في أننا كنا نجد فيها بعض المقاعد خالياً من الحرس و الشهب ، و الآن ملئت المقاعد كلها فمن يستمع الآن يجدله شهاباً رصداً .

ويدفعه أنه لو كان المراد بالآيتين هو الإخبار عن ملء السماء بالحرس وتكثير عددهم بحيث لا يوجد فيها مقاعد خالية منهم و قد كانت توجد قبل ذلك كان الواجب أن يتوجّه النفي في قوله : « فمن يستمع الآن يجدله شهاباً رصداً » إلى السمع عن جميع المقاعد قبال إثبات السمع من بعض تلك المقاعد لأنفي مجرد السمع .

سلمنا أن المراد في السمع على الإطلاق وهو يكفي في ذلك لكن تعلّق الفرض في الكلام بالإخبار عن الامتلاء بالحرس مع كون بعض المقاعد خالية عنهم قبل ذلك ، و كذا تقييد قوله : « فمن يستمع » الخ بقوله : « الآن » يدل على حدوث أمر جديد في رجم الجنّ و هو استيعاب الرجم لهم في أيّ مقعد قعدوا و المنع من السمع مطلقاً بعد ما كانوا يستمعون من بعض المقاعد من غير منع ، و هذا المقدار كاف للمدّعي فيما يدّعيه .

وليتنبه أن مدلول الآية حدوث رجم الجن بشهاب رصد وهو غير حدوث الشهاب السماوي وهو ظاهر فلا ورود لما قيل : « أن الشهب السماوية كانت من الحوادث الجوية الموجودة قبل زمن النبي ﷺ و نزول القرآن .

وجه عدم الورد أن الذي يظهر من القرآن حدوث رجم الشياطين من الجن بالشهب من غير تعرض لحدوث أصل الشهب ، وقد تقدم في تفسير أول سورة الصافات بعض ما يتعلق بهذا المقام .

قوله تعالى : « وأنا لاندري أشرأريد بمن في الأرض أم أرادهم ربهم رشداً » الرشد بفتحين و الرشد بالضم فالسكون خلاف الغي وتنكير « رشداً » لإفادة النوع أي نوعاً من الرشد .

هذا منهم إظهار للجهل والتحير فيما شاهدوه من أمر الرجم ومنع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبها على أن ذلك لأمر ما يرجع إلى أهل الأرض إما خيراً أو شراً وإذا كان خيراً فهو نوع هدى لهم وسعادة ولذا بدّلوا الخير و هو المقابل للشر من الرشد ، ويؤيده قولهم : « أرادهم ربهم » المشعر بالرحمة و العناية .

و قد صرّحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحذفوه في جانب الشر أدباً ولا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه .

قوله تعالى : « وأنا من الصالحون ومنّا دون ذلك كنا طرائق قدداً » الصلاح مقابل الطلاح ، والمراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة - على ما قيل - ، والظاهر أن دون بمعنى غير ، ويؤيده قوله : « كنا طرائق قدداً » الدال على التفرق والتشتت و الطرائق جمع طريقة و هي الطريق المطروقة المسلوكة ، و القدد القطع جمع قدة بمعنى قطعة من القدد بمعنى القطع وصفت الطرائق بالقدد لأن كل واحدة منها مقطوعة عن غيرها تنتهي بسالكها إلى غاية غير ما ينتهي به إليه غيرها ، و إلى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقة المتشتتة .

و الظاهر أن المراد بقوله : « الصالحون » الصالحون بحسب الطبع الأولي في

المعاشرة والمعاملة دون الصالحين بحسب الإيمان ، ولو كان المراد صلاح الإيمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجيء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى .

وذكر بعضهم أن قوله : « طرائق قديماً » منصوب على الظرفية أي في طرائق قديم وهي المذاهب المتفرقة المتشعبة ، وقال آخرون إنه على تقدير مضاف أي ذوي طرائق ، ولا يبعد أن يكون من الاستعارة بتشبيههم أنفسهم في الاختلاف والتباين بالطرق المقطوعة بعضها من بعض الموصلة إلى غايات متشعبة .

والمعنى وأنا من الصالحون طبعاً ومن غير ذلك كنّا في مذاهب مختلفة أو ذوي مذاهب مختلفة أو كالطرق المقطوعة بعضها من بعض .

قوله تعالى : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » الظن هو العلم اليقيني ، والأنسب أن يكون المراد بقوله : « لن نعجز الله في الأرض » إعجازه تعالى بالغلبة عليه فيما يشاء فيها وذلك بالافساد في الأرض وإخلال النظام الذي يجري فيها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر ، والمراد بقوله : « ولن نعجزه هرباً » إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم .

وقيل : المعنى لن نعجزه تعالى كائناً في الأرض و لن نعجزه هرباً إلى السماء أي لن نعجزه لا في الأرض ولا في السماء هذا وهو كما ترى .

قوله تعالى : « وأنا لما سمعنا الهدى أمناً به فمّن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمنه من الهدى ، والبخس النقص على سبيل الظلم ، والرهق غشيان المكروه .

والفاء في قوله : « فمّن يؤمن » للتفريع وهو من تفريع العلة على المعلول لإفادة الحجة في إيمانهم بالقرآن من دون ريث ولا مهمل .

ومحصل المعنى أننا لما سمعنا القرآن الذي هو الهدى بادرنا إلى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه ومن يؤمن بربه فلا يخاف نقصاناً في خير أو غشياناً من مكروه حتى يكف عن المبادرة والاستعجال ويتروى في الإقدام عليه لئلا يقع في بخس أو رهق .

قوله تعالى : « وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا » المراد بالإسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما يريد ويأمر به ، والقاسطون هم المائلون إلى الباطل قال في المجمع : القاسط هو العادل عن الحقّ والمقسط العادل إلى الحقّ . انتهى .

والمعنى أننا معشر الجنّ منقسمون إلى من يسلم لأمر الله مطيعين له ، وإلى من يعدل عن التسليم لأمر الله وهو الحقّ .

وقوله : « فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا » تحرّى الشيء توخّيه وقصده ، والمعنى فالذين أسلموا فأولئك قصدوا إصابة الواقع والظفر بالحقّ .

قوله تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » فيعدّون بتسعيرهم و اشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الإنس قال تعالى : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ » البقرة : ٢٤ .

وقد عدّ كثير منهم قوله : « فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ - إلى قوله - لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » تتمّة لكلام الجنّ يخاطبون به قومهم وقيل : إنّه من كلامه تعالى يخاطب به النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا لَّنَفْتَنَهُمْ فِيهِ » « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، والمراد بالطريقة طريقة الإسلام ، والاستقامة عليها لزومها والثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله وآياته .

والماء الغدق الكثير منه ، ولا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله : « لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا » مثل أريد به التوسعة في الرزق ، ويؤيّد قوله بعده : « لَّنَفْتَنَهُمْ فِيهِ » .

والمعنى وأنّه لو استقاموا أي الجنّ والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقاً كثيراً لَنَمَتَحْنَهُمْ في رزقهم فالآية في معنى قوله : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ » الأعراف : ٩٦ .

و الآية من كلامه تعالى معطوف على قوله في أوّل السورة : « أَنَّهُ اسْتَمَعَ »

السخ .

قوله تعالى : « ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً صعداً » العذاب الصعد هو الذي يتصعد على المعذب ويغلبه ، وقيل : هو العذاب الشاق .
والإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة وهو الأصل في سلوك العذاب ، ولذا وضع موضعه ليدلّ على السبب الأصلي في دخول النار .
وهو الوجه أيضاً في الالتفات عن التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « ذكر ربّه »
وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ذكرنا وذلك أن صفة الربوبية هي المبدء الأصلي لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدلّ على المبدء الأصلي كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدلّ على السبب .
قيل : وقوله : « يسلكه » مضمّن معنى يدخله ولذا عدي إلى المفعول الثاني ،
و المعنى ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرء رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم : قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها .

فمرّ نفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم وقالوا : « إننا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشd فأمنّاه ولن نشرك بربنا أحداً » فأوحى الله إلى نبيّه ﷺ : « قل أوحى إليّ أنّه استمع نفر من الجن » .

ورواه البخاريّ ومسلم أيضاً في الصحيح .

اقول : وروى القمّي في تفسيره ما يقرب منه وقد أوردنا الرواية في تفسير سورة الأحقاف في ذيل قوله : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن » الخ .

لكن ظاهر روايته أن النفر الذين نزلت فيهم آيات سورة الأحقاف هم النفر الذين نزلت فيهم هذه السورة وظاهر آيات السورتين لا يلائم ذلك فإن ظاهر قولهم المنقول في سورة الأحقاف : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ يُهْدِي إِلَى الْحَقِّ » الآية أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومصدقين للتوراة وظاهر آيات هذه السورة أنهم كانوا مشركين لا يرون النبوة ولازم ذلك تغير الطائفتين اللهم إلا أن يمنع الظهور . وفيه عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبد الله بن مسعود : من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن ؟ فقال : ما كان منّا معه أحد فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا : اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعب فلقيناه مقبلاً من نحو حراء فقلنا : يا رسول الله أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال لنا : إنّه أتاني داعي الجن فذهبت أقرؤهم القرآن فذهب بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم فأما أن يكون صحبه منّا أحد فلا . وفيه وعن الربيع بن أنس قال : ليس لله تعالى جدّ وإنما قالته الجن بجهالة فحكاها الله سبحانه كما قالت ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

اقول : المراد بالجد المنفي عنه تعالى الحظ والبخت .

وفي الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث : فأقبل إليه الجن والنبي ﷺ يبطن النخل فاعتذروا بأنهم ظنّوا كما ظنّتم أن لن يبعث الله أحداً ، ولقد أقبل إليه أحد وسبعون ألفاً منهم فبايعوه على الصوم والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد ونصح المسلمين فاعتذروا بأنهم قالوا على الله شططا .

اقول : يبعثهم للنبي ﷺ على الصوم والصلاة الخ يصدّقها قولهم المحكي في أوّل السورة : « فآمنّا به » وقولهم : « وَأَنَّا لَمُنَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ » ، وأما كيفية عملهم بها وخاصة بالزكاة والجهاد فمجهولة لنا ، واعتذارهم الأوّل المذكور لا يخلو من خفاء .

وفي تفسير القميّ بإسناد إلى زرارة قال : سألت أبا جعفر عن قوله الله : «وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً» قال : كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحى إليه الشيطان فيقول : قل للشيطان : فلان قد عاذ بك .

وفيه في قوله تعالى : «فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» قال : البخس النقصان ، والرهق العذاب .

وسئل العالم عن مؤمني الجنّ أيدخلون الجنّة؟ فقال : لا ولكن لله حظائرين الجنّة والنار يكون فيها مؤمنوا الجنّ وفسّاق الشيعة .

اقول : لعلّ المراد بهذه الحظائرهى بعض درجات الجنّة التي هي دون جنّة الصالحين .

واعلم أنّه ورد في بعض الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام تطبيق ما في الآيات من الهدى والطريقة على ولايته عليه السلام وهي من الجري وليست من التفسير في شيء .





وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ
عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يُكَوْنُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا
أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ
إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) الْأَبْلَاغُ
مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصِرًا
وَ أَقْلَ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرَى اقْرِيبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي
أَمَدًا (٢٥) عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى
مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ
قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا (٢٨)

﴿ بيان ﴾

في الآيات تسجيل للنبوّة وذكر وحدانيّته تعالى والمعاد كالاستنتاج من القصّة
وتختتم بالإشارة إلى عصمة الرسالة .

قوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » معطوف على قوله :
« أَنَّهُ اسْتَمَعَ » الخ ، وجملة « أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » في موضع التعليل لقوله : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ »

الله أحداً، والتقدير لاتدعوا مع الله أحداً غيره لأنّ المساجد له .

و المراد بالدعاء العبادة وقد سمّاها الله دعاء كما في قوله : « وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » المؤمن : ٦٠ .

وقد اختلف في المراد من المساجد ف قيل : المراد به الكعبة ، وقيل : المسجد الحرام ، وقيل : المسجد الحرام وبيت المقدس ، ويدفعها كون المساجد جمعاً لا ينطبق على الواحد والاثنتين .

وقيل : الحرم ، وهو تهكّم لادليل عليه ، وقيل : الأرض كلّها لقوله ﷺ : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وفيه أنّه لا يدلّ على أزيد من جواز العبادة في أي بقعة من بقاع الأرض خلافاً لما هو المعروف عن اليهود والنصارى من عدم جواز عبادته تعالى في غير البيع والكنائس ، وأمّا تسمية بقاعها مساجد حتّى يحمل عليها عند الإطلاق فلا .

وقيل : المراد به الصلوات فلا يصلى إلّا الله ، وهو تهكّم لادليل عليه .

وعن الإمام الجواد عليه السلام أنّ المراد بالمساجد الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصلاة وهي الجبهة والكفّان والركبتان وأصابع الرجلين ، وستوافيك روايته في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله ، ونقل ذلك أيضاً عن سعيد بن جبير والفرّاء والزجاج .

والأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الإنسان لله اختصاصها به اختصاصاً تشريعياً ، والمراد بالدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنّها تتضمن السجود لله سبحانه .

والمعنى وأوحى إليّ أنّ أعضاء السجود يختصّ بالله تعالى فاسجدوا له بها - أو اعبدوه بها - ولا تسجدوا - أو لاتعبدوا - أحداً غيره .

قوله تعالى : « وأنّه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » اللبّد بالكسر فالفتح جمع لبدة بالضمّ فالسكون المجتمعة المتراكمة ، والمراد بعبد الله النبيّ ﷺ

كما تدلّ عليه الآية التالية، والتعبير بعبداً لله كالتمهيد لقوله في الآية التالية :
«قل إنما أدعو ربّي». والأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميري
الجمع في قوله : «كادوا يكونون» المشركين وقد كانوا يزدحمون عليه ﷺ إذا صلى
وقرء القرآن يستهزئون ويرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل .

والمعنى وأنه لما قام النبي ﷺ يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون
بازدحامهم لبدأ مجتمعين متراكمين .

وقيل : الضميران للجن وإنّهم اجتمعوا عليه وتراكموا ينظرون إليه متعجبين
مما يشاهدون من عبادته وقراءته قرآناً لم يسمعوا كلاماً يماثله .

وقيل : الضميران للمؤمنين بالنبي ﷺ المجتمعين عليه اقتداء به في صلاته
إذا صلى وإنصتاً لما يتلوه من كلام الله .

والوجهان لا يلائمان سياق الآيات التالية تلك الملازمة كما تقدّمت الإشارة
إليه .

قوله تعالى : «قل إنما أدعو ربّي ولا أشرك به أحداً» أمر منه تعالى للنبي
صلى الله عليه وآله أن يبيّن لهم وجه عبادته بياناً يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه
مالم يكونوا رأوه من أحد غيره ، ويتعجبون حاملين له على نوع من المكيدة والمكر
بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض آخر دنيوية .

ومحصل البيان أنّي لست أريد بما آتني به من العمل شيئاً من المقاصد التي
تحسبونها وترموني بها وإنّما أدعو ربّي وحده غير مشرك به أحداً وعبادة الإنسان
لمن عرفه ربّاً لنفسه ممّا لا ينبغي أن يلام عليه أو يتعجب منه .

قوله تعالى : «قل إنّي لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً» الذي يفيدُه سياق الآيات
الكريمة أنّه ﷺ يبيّن فيها بأمر من ربّه موقع نفسه بالنسبة إلى ربّه وبالنسبة
إلى الناس :

أمّا موقعه بالنسبة إلى ربّه فهو أنّه يدعو ولا يشرك به أحداً وهو قوله : «قل
إنّما أدعوا ربّي ولا أشرك به أحداً» .

وأما موقعه بالنسبة إليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرراً ولا رشداً حتى يضرهم بما يريد أو يرشدهم من الخير إلى ما يريد بما عنده من القدرة ، وأنه مأمور من الله بدعوتهم أمراً ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه ولا ملجأ يلتجئ إليه لو خالف وعصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله ورسوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، وسيعلمون إذا رآوا ما يوعدون .

ولازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدرة على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد ، والمراد بملك الرشد القدرة على إيصال النفع إليهم بإصابة الواقع أي إتي لأدعي أنني أقدر أن أضركم أو أنفعكم ، وقيل : المراد بالضر الغي المقابل للرشد تعبيراً باسم المسبب عن السبب .

قوله تعالى : « قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته » الإجارة إعطاء الجوار وحكمه حماية المجير للجار ومنعه ممن يقصده بسوء ، والظاهر أن الملتحداً اسم مكان وهو المكان الذي يعدل وينحرف إليه للتحرز من الشر ، وقيل : المدخل ويتعلق به قوله : « من دونه » وهو كالقيد التوضيحي والضمير لله والبلاغ التبليغ .

وقوله : « إلا بلاغاً » استثناء من قوله : « ملتحداً » وقوله : « من الله » متعلق بمقدّر أي كائناً من الله وليس متعلقاً بقوله : « بلاغاً » لأنه يتعدى بعن لايمن ولذا قال بعض من جعله متعلقاً ببلاغاً : إن « من » بمعنى عن ، والمعنى على أي حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء والصفات .

وقوله : « ورسالاته » قيل : معطوف على « بلاغاً » والتقدير إلا بلاغاً من الله و « إلا رسالاته » ، وقيل : معطوف على لفظ الجلالة ومن بمعنى عن والمعنى إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته .

وفيما استثنى منه بلاغاً قول آخر وهو أنه مفعول « لا أملك » والمعنى لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً إلا تبليغاً من الله ورسالاته ، ويبيده الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بقوله : « لن يجيرني من الله أحد » الخ وهو كلام مستأنف .

ومعنى الآيتين على ما قدّمنا : قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه ولن أجد من دونه مكاناً لتجئ إليه إلاّ تبليغاً كائننا منه ورسالاته أي إلاّ أن أمتثل ما أمرني به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه وصفاته وإرسالاته في شرائع الدين .

قوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم خالدين فيها أبداً »

إفراد ضمير « له » باعتبار لفظ « من » كما أنّ جمع « خالدين » باعتبار معناها .

وعطف الرسول على الله في قوله : « ومن يعص الله ورسوله » لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلاّ رسالة ربّه فالردّ عليه فيما أتى به ردّ على الله سبحانه وطاعته فيما أمر به طاعة لله قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨٠ .

والمراد بالمعصية - كما يشهد به سياق الآيات السابقة - معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد وما يتفرّع عليه من أصول الدين وفروعه فلا يشمل التهديد والوعيد بخلود النار إلاّ الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محله .

والظاهر أن قوله : « ومن يعص الله » إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تمّة كلام النبي ﷺ .

قوله تعالى : « حتّى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً » لقوله : « حتّى » دلالة على معنى مدخولها غاية له و مدخولها يدلّ على أنّهم كانوا يستضعفون النبي ﷺ بعد ناصريه - وهم المؤمنون - ضعفاء و استقلال عدده بعد عددهم قليلاً فالكلام يدلّ على معنى محذوف هو غايته كقولنا : لا يزالون يستضعفون ناصريك ويستقلّون عددهم حتّى إذا رآوا ما يوعدون الخ .

والمراد بما يوعدون نار جهنّم لأنّها هي الموعودة في الآية ، و الآية من كلامه تعالى يخاطب النبي ﷺ ولو كانت من كلامه وهي مصدّرة بقوله تعالى « قل » لكان من حقّ الكلام أن يقال : حتّى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون الخ .

قوله تعالى : « قل إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل لربّي أمداً » الأمد الغاية التي ينتهي إليها ، و الآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأثّم لما سمعوا

الوعيد قالوا : متى يكون ذلك ف قيل له : « قل إن أدري أقرب » الخ .

قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » إظهار الشيء على الشيء إعانته و تسليطه عليه ، و « عالم الغيب » خبر لمبتدأ محذوف ، و التقدير هو عالم الغيب ، و مفاد الكلمة بإعانة من السياق اختصاص علم الغيب به تعالى مع استيعاب علمه كـلّ غيب ، و لذا أضاف الغيب إلى نفسه ثانياً فقال : « على غيبه » بوضع الظاهر موضع المضمن ليفيد الاختصاص و لو قال : « فلا يظهر عليه » لم يفد ذلك .

و المعنى هو عالم كلّ غيب علماً يختصّ به فلا يطلع على الغيب وهو مختصّ به أحداً من الناس فامفاد سلب كلّي وإن أصرّ بعضهم على كونه سلباً جزئياً محصل معناه لا يظهر على كلّ غيبه أحداً و يؤيدّ ما قلنا ظاهر ما سيأتى من الآيات .

قوله تعالى : « إلاّ من ارتضى من رسول » استثناء من قوله : « أحداً » و « من رسول » بيان لقوله « من ارتضى » فيفيد أنّ الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختصّ به فالآية إذا انضمت إلى الآيات التي تخصّ علم الغيب به تعالى كقوله : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاّ هو » الأنعام : ٥٩ ، و قوله : « و لله غيب السماوات و الأرض » النحل : ٧٧ ، و قوله : « قل لا يعلم من في السماوات و الأرض الغيب إلاّ الله » النمل : ٤٥ أفاد ذلك معنى الأصالّة و التبعية فهو تعالى يعلم الغيب لذاته و غيره يعلمه بتعليم من الله .

فهذه الآيات نظيرة الآيات المتعرّضة للتوقّي كقوله : « الله يتوقّي الأنفس » الزمر : ٢٢ الدالّ على الحصر ، و قوله : « قل يتوفّاكم ملك الموت الذي و كّل بكم » الم السجدة : ١١ ، و قوله : « حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦١ فالتوقّي منسوب إليه تعالى على نحو الأصالّة و إلى الملائكة على نحو التبعية لكونهم أسباباً متوسّطة مسخّرة له تعالى .

قوله تعالى : « فإنّه يسلك من بين يديه و من خلفه رصداً - إلى قوله - عدداً » ضمير « فإنّه » لله تعالى ، و ضميراً « يديه » و « خلفه » للرسول ، و الراصد المراقب للأمر الحارس له ، و الرصد الراصد يطلق على الواحد و الجماعة و هو في الأصل مصدر

والمراد بما بين يدي الرسول ما بينه وبين الناس المرسل إليهم ، وبما خلفه ما بينه وبين مصدر الوحي الذي هو الله سبحانه وقد اعتبر في هذا التصوير ما يوهمه معنى الرسالة من امتداد متوهم يأخذ من المرسل - اسم فاعل - وينتهي إلى المرسل إليه يقطعه الرسول حتى ينتهي إلى المرسل إليه فيؤدي رسالته ، والآية تصف طريق بلوغ الغيب إلى الرسول وهو الرسائل التي توحى إليه كما يشير إلى ذلك قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

والمعنى فإن الله يسلك ما بين الرسول ومن أرسل إليه وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة - ومن المعلوم أن سلوك الرصد من بين يديه ومن خلفه لحفظ الوحي من كل تخليط وتغيير بالزيادة والنقصان يقع فيه من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها .

وقوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » ضمير « ليعلم » لله سبحانه ، وضميرا « قد أبلغوا » و « ربهم » لقوله : « من » باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس ، والمراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالات ربهم العلم الفعلي وهو تحقق الإبلاغ في الخارج على حد قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » العنكبوت : ٣ وهو كثير الورد في كلامه تعالى .

والجملة تعليل لسلوك الرصد بين يدي الرسول ومن خلفه ، والمعنى ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم أي لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هي عليه من غير تغيير وتبدل .

ومن المحتمل أن يرجع ضميرا « بين يديه ومن خلفه » إلى « غيبه » فيكون الرصد الحرّس مسلوكين بين يدي الغيب النازل ومن خلفه إلى أن يبلغ الرسول ، ويضعفه أنه لا يلائم قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » بالمعنى الذي تقدّم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليماً من تعرض الشياطين حصول العلم بإبلاغه إلى الناس .

وإلى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إن الضميرين يرجعان إلى جبريل حامل

الوحي . ويضعفه مضافا إلى ما مرّ عدم سبق ذكره .

وقيل : ضمير ليعلم للرسول وضميرا « قدأبلغوا » و « ربهم » للملائكة الرصد والمعنى يرصد الملائكة الوحي ويحرسونه ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا إليه الوحي كما صدر فتطمئن نفسه أنه سليم من تعرض الشياطين فإن لازم العلم بإبلاغهم إيائه العلم ببلوغه .

وبعبءه أن ظاهر السياق - ويؤيده سبق ذكر الرسول - أن المراد بالرسالات الرسالات التي حملها الرسول ليبلغها إلى الناس لا ما حملها ملك الوحي فضمير « ربهم » للرسول دون الملائكة . على أن الآية تشير إلى الملائكة بعنوان الرصد وهو غير عنوان الرسالة وشأن الرصد الحفظ والحراسة دون الرسالة .

وقيل : المعنى ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم ، وهو وجه سخيف لا دليل عليه ، وأسخف منه ما قيل : إن المعنى ليعلم مكذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم إليهم .

وقوله : « وأحاط بما لديهم » ضمير الجمع للرسل بناء على ما تقدّم من المعنى وإظهار أن الجملة متممة لمعنى الحراسة المذكورة سابقاً فقوله : « من بين يديه » يشير إلى رصد ما بين الرسول والمرسل إليهم ، وقوله : « ومن خلفه » إلى حفظ ما بينه ومصدر الوحي ، وقوله : « وأحاط بما لديهم » يشير إلى ظرف نفس الرسول والإحاطة إحاطة علميّة فالوحي في أمن من تطرّق التغيير والتبديل فيما بين مصدر الوحي والرسول وفي نفس الرسول وفيما بين الرسول والمرسل إليهم .

ويمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ماله تعلق ما بالرسول أعم من مسير الوحي أو أنفسهم كما أن قوله : « وأحصى كل شيء عدداً » مسوق لإفادة عموم العلم بالأشياء غير أنه العلم بعددها وتمييز بعضها من بعض .

فقد تبين ممّا مرّ في الآيات الثلاث :

أولاً أن اختصاصه تعالى بعلم الغيب على نحو الأصلة بالمعنى الذي أوضحناه فهو تعالى يعلم الغيب بذاته وغيره يعلمه بتعليم منه .

و به يظهر أن ما حكى في كلامه تعالى من إنكارهم العلم بالغيب أريد به نفي الأصالة والاستقلال دون ما كان بوحى كقوله تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب » الأنعام : ٥٠ ، وقوله : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » الأعراف : ١٨٨ ، وقوله : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » الأحقاف : ٩ .

وثانياً أن عموم قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً » مخصص بقوله : « إلا من ارتضى من رسول » عادماً مخصصاً لا يأبى تخصيصاً بمخصص آخر كما في مورد الأنبياء فإن الآيات القرآنية تدل على أنهم يوحى إليهم كقوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » النساء : ١٦٣ وتدل على أن الوحي من الغيب فالنبي ينال الغيب كما يناله الرسول هذا على تقدير أن يكون المراد بالرسول في الآية ما يقابل النبي وأما لو أريد مطلق من أرسله الله إلى الناس والنبي ممن أرسله الله إليهم كما يشهد به قوله : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الآية الحج : ٥٢ ، وقوله : « وما أرسلنا في قرية من نبي » الأعراف : ٩٤ فالنبي خارج من عموم النفي من غير تخصيص جديد .

وكذا في مورد الإمام بالمعنى الذى يستعمله فيه القرآن فإنه تعالى يصفه بالصبر واليقين كما في قوله : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » الم السجدة : ٢٤ و يعزفهم بانكشاف الغطاء لهم كما في قوله : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ ، وقوله : « كلاً لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » التكاثر : ٦ وقد تقدم كلام في ذلك في بعض المباحث السابقة .

وأما الملائكة فما يحتملونه من الوحي السماوي قبل نزوله وكذا ما يشاهدونه من عالم الملكوت شهادة بالنسبة إليهم وإن كان غيباً بالنسبة إلينا . على أن قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً » إنما يشمل أهل الدنيا ممن يعيش على بساط الأرض وإلا لا تنقض بالأموات المشاهدين لأموال الآخرة وهي من الغيب بنص القرآن فلم

يبقى تحت عموم النفي حتى فرد واحد إذا من أحد إلا وهو مبعوث ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود ، وكما أن الأموات نشأتهم غير نشأة الدنيا كذلك نشأة الملائكة غير نشأة المادة .

وثالثاً أن قوله : « فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ » إلى آخر الآيتين يدل على أن الوحي الإلهي محفوظ من لدن صدره من مصدر الوحي إلى بلوغه الناس مصون في طريق نزوله إلى أن يصل إلى من قصد نزوله عليه .

أما مصونيته من حين صدره من مصدره إلى أن ينتهي إلى الرسول فيكفي في الدلالة عليه قوله « من خلفه » ^(١) وأما مصونيته حين أخذ الرسول إياه وتلقاه من ملك الوحي بحيث يعرفه ولا يغلط في أخذه، ومصونيته في حفظه بحيث يعيه كما أوحى إليه من غير أن ينسأه أو يغيره أو يبدله، ومصونيته في تبليغه إلى الناس من تصرف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » حيث يدل على أن الغرض الإلهي من سلوك الرصد أن يعلم إبلاغهم رسالات ربهم أي أن يتحقق في الخارج إبلاغ الوحي إلى الناس ، و لازمه بلوغه إيائهم و لولا مصونية الرسول في الجهات الثلاث المذكورة جميعاً لم يتم الغرض الإلهي وهو ظاهر، وحيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقاً غير سلوك الرصد دل ذلك على أن الوحي محروس بالملائكة وهو عند الرسول كما أنه محروس بهم في طريقه إلى الرسول حتى ينتهي إليه ، ويؤكد قوله بعد : « وأحاط بما لديهم » .

و أما مصونيته في مسيره من الرسول حتى ينتهي إلى الناس فيكفي فيه قوله : « من بين يديه » على ما تقدم من معناه .

أضف إلى ذلك دلالة قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » بما تقدم من تقريب دلالاته .

(١) هذا بناء على رجوع الضمير إلى الرسول وأما بناء على احتمال رجوع الضمير

إلى الغيب فالدال عليه مجموع « من بين يديه ومن خلفه » لكنه ضعيف كما تقدم .

و يتفرّع على هذا البيان أنّ الرسول مؤيّد بالعصمة في أخذ الوحي من ربّه و حفظه وفي تبليغه إلى الناس مصون من الخطأ في الجهات الثلاث جميعاً لما مرّ من دلالة الآية على أنّ ما نزلّه الله من دينه على الناس من طريق الرسالة بالوحي مصون في جميع مراحلها إلى أن ينتهي إلى الناس ومن مراحلها مرحلة أخذ الرسول للوحي وحفظه له وتبليغه إلى الناس .

والتبليغ يعمّ القول والفعل فإنّ في الفعل تبليغاً كما في القول فالرسول معصوم من المعصية باقتراف المحرّمات وترك الواجبات الدينية لأنّ في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصية كما أنّه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه قولاً .

وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ النبوة كالرسالة في دورانها مدار الوحي فالنبيّ كالرسول في خاصّة العصمة ، ويتحصّل بذلك أنّ أصحاب الوحي سواء كانوا رسلاً أو أنبياء معصومون في أخذ الوحي وفي حفظ ما وحي إليهم وفي تبليغه إلى الناس قولاً و فعلاً .

ورابعاً أنّ الذي استثنى في الآية من الإظهار على الغيب إظهار الرسول على ما يتوقّف عليه تحقيق إبلاغ رسالته أعمّ من أن يكون متن الرسالة كالمعارف الاعتقادية وشرائع الدين و القصص والعبر و الحكم والمواعظ أو يكون من آيات الرسالة و المعجزات الدالة على صدق الرسول في دعواه كالأذي حكى عن بعض الرسل من الإخبار بالمغيّبات كقول صالح لقومه : « تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب » هود : ٦٥ ، وقول عيسى لبني إسرائيل : « وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم » آل عمران : ٤٩ ، وكذا ما ورد من مواعيد الرسل ، وما ورد في الكتاب العزيز من الملاحم كلّ ذلك من إظهارهم على الغيب .

﴿ بحث روائي ﴾

عن تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام أنه سأل المعتمد عن السارق من أي موضع يجب أن يقطع ؟ فقال : إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فتترك الكف .

فقال : وما الحجّة في ذلك ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وآله : السجود على سبعة أجزاء : الوجه و اليدين والركبتين والرجلين فإذا قطع من الكر سوع أو المرفق لم يدع له يداً يسجد عليها وقال الله : « وأن المساجد لله » يعني بهذه الأجزاء السبعة التي يسجد عليها « فلا تدعوا مع الله أحداً » وما كان لله فلا يقطع . الحديث .

وفي الكافي بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : وسجد يعني أبا عبد الله عليه السلام على ثمانية أعظم : الكفين والركبتين وإبهامي الرجلين والجبهة والأنف ، وقال : سبعة منها فرض يسجد عليها وهي التي ذكرها الله في كتابه فقال : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وهي الجبهة والكفان والركبتان والإبهامان ووضع الأنف على الأرض سنة .

وعن الخرائج والجرائح روى محمد بن الفضل الهاشمي عن الرضا عليه السلام أنه نظر إلى ابن هذاب فقال : إن أنا أخبرتك أنك ستبتلي في هذه الأيام بدم ذي رجم لك لكنك مصدقاً لي ؟ قال : لا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى . قال : أو ليس إنّه يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » فرسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله عند الله مرتضى ، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلع الله على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

أقول : والأخبار في هذا الباب فوق حد الإحصاء ، ومدلولها أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بهوحي من ربه وأنهم أخذوه بالورثة منه صلى الله عليه وآله .

﴿سورة المزمل مكيّة وهي عشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)
نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)
إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ
قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَ
تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ
وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَ
ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَ
جَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ
الْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا
شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
الرُّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوَلَدَانِ شَيْبًا (١٧) السَّمَاءُ مَنفُطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ
تَذْكُرَةٌ لِّمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

﴿ بيان ﴾

السورة تأمر النبي ﷺ بقيام الليل والصلاة فيه ليستعدّ بذلك لتلقّي ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل و القرآن الموحى إليه ، و تأمره أن يصبر على ما يقولون فيه إنّه شاعر أو كاهن أو مجنون إلى غير ذلك ويهجرهم هجراً جميلاً ، وفيها وعيد وإنذار للكفّار وتعميم الحكم لسائر المؤمنين ، وفي آخرها تخفيفاً للنبي ﷺ والمؤمنين .

والسورة مكّيّة من عتائق السور النازلة في أوّل البعثة حتّى قيل : إنّها ثانية السور النازلة على النبي ﷺ أو ثالثتها .

قوله تعالى : « يا أيّها المزمل » بتشديد الزاي والميم وأصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلّفّف بالثوب لنوم ونحوه ، وظاهره أنّه ﷺ كان قد تزمل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي وخوطب بالمزمل .

وليس في الخطاب به تهجين ولا تحسين كما توهمه بعضهم نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنّه ﷺ كان قد قوبل في دعوته بالهزء والسخرية والأيذاء فاعتمّ في الله فتزمل بثوب لينام دفعاً لهمّ فخوطب بالمزمل وأمر بقيام الليل والصلوة فيه والصبر على ما يقولون على حدّ قوله تعالى : « استعينوا بالصبر والصلاة » البقرة : ١٥٣ فأفيد بذلك أنّ عليه أن يقاوم الكرب العظام والنوائب المرّة بالصلاة والصبر لا بالتزمل والنوم .

وقيل : المراد يا أيّها المتزمل بعبادة النبوة أي المتحمّل لأثقالها ، ولا شاهد عليه من جهة اللفظ .

قوله تعالى : « قم الليل إلّا قليلاً نصفه أو انتقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً » المراد بقيام اللّيل القيام فيه إلى الصلاة فالليل مفعول به توسعاً كما في قولهم : دخلت الدار ، وقيل : معمول « قم » مقدّر و « الليل » منصوب على الظرفيّة و التقدير قم إلى الصلاة في الليل ، وقوله : « إلّا قليلاً » استثناء من الليل .

وقوله : « نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه » ظاهر السياق أنه بدل من « الليل إلا قليلاً » ، متعلق به تكليف القيام ، وضميراً « منه » و « عليه » للنصف ، وضمير « نصفه » لليل ، والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً أو زد على النصف قليلاً ، والترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خير بين قيام النصف وقيام أقل من النصف بقليل وقيام أكثر منه بقليل .

وقيل : « نصفه » بدل من المستثنى أعني « قليلاً » فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو انقص من النصف قليلاً فقم أكثر من النصف بقليل أو زد على النصف فقم أقل من النصف ، وتكون جملة البدل رافعا لا بهام المستثنى بالمطابقة ولا بهام المستثنى منه بالالتزام عكس الوجه السابق .

والوجهان وإن اتحدا في النتيجة غير أن الوجه السابق أسبق إلى الذهن لأن الحاجة إلى رفع الإبهام عن متعلق الحكم أقدم من الحاجة إلى رفع الإبهام عن توابعه وملحقاته فكون قوله : « نصفه » الخ بدلاً من الليل ولازمه رفع إبهام متعلق التكليف بالمطابقة أسبق إلى الذهن من كونه بدلاً من « قليلاً » .

وقيل : إن نصفه بدل من الليل لكن المراد بالقليل القليل من الليالي دون القليل من أجزاء الليل ، والمعنى قم نصف الليل أو انقص منه قليلاً أو زد عليه إلا قليلاً من الليالي وهي ليالي العذر من مرض أو غلبة نوم أو نحو ذلك ، ولا بأس بهذا الوجه لكن الوجه الأول أسبق منه إلى الذهن .

وقوله : « ورتل القرآن ترتيلاً » ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها ، والجملة معطوفة على قوله : « قم الليل » أي قم الليل واقرأ القرآن بترتيل .

والظاهر أن المراد بترتيل القرآن ترتيله في الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها وقد عبر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير في قوله : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » أسرى : ٧٨ ، وقيل : المراد بإيجاب قراءة القرآن دون الصلاة .

قوله تعالى: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» الثقل كـيفيَّة جسمانيَّة من خاصَّته أنَّه يشقُّ حمل الجسم الثقل ونقله من مكان إلى مكان وربَّما يستعار للمعاني إذا شقَّ على النفس حملها أولم تطقها فربَّما أُضيف إلى القول من جهة معناه فعد ثقيلاً لتضمُّنه معنى يشقُّ على النفس إدراكه أولاً تطبيق فهمه أو تحرُّج من تلقَّيه كدقائق الأ نظار العلميَّة إذا أُلقيت على الأفهام العامَّة ، أو لتضمُّنه حقائق يصعب التحقُّق بها أو تكاليف يشقُّ الإتيان بها والمداومة عليها .

والقرآن قول إلهيٌّ ثَقِيلٌ بكلا المعنيين : أمَّا من حيث تلقَّي معناه فإنَّه كلام إلهيٍّ مأخوذ من ساحة العظمة والكبرياء لاتلقاه إلَّا نفس طاهرة من كلِّ دنس منقطع عن كلِّ سبب إلَّا الله سبحانه ، و كتاب عزيزله ظهرو بطن و تنزيل و تأويل تبياناً لكلِّ شيء ، وقد كان ثقله مشهوداً من حال النبي ﷺ بما كان يأخذه من البرحاء وشبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة .

وأمَّا من حيث التحقُّق بحقيقة التوحيد وما يتبعها من الحقائق الاعتقاديَّة فكفى في الإشارة إلى ثقله قوله تعالى : «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكِّرون» الحشر : ٢١ ، وقوله تعالى : «ولو أن قرآناً سيَّرت به الجبال أوقطعت به الأرض أو كُلم به الموتى» الرعد : ٣١ .

و أمَّا من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة وإقامة مراسم الدين الحنيف ، وإظهاره على الدين كلَّه فيشهد به ما لقى ﷺ من المصائب والمحن في سبيل الله والأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنيَّة الحاكية لما لقَّيه النبي ﷺ من المشركين والكفار والمنافقين والذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء والهزاء والجفاء .

فقوله : «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» المراد بالقول الثقل القرآن العظيم على ما يسبق إلى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة في أوَّل البعثة ، وبه فسره المفسِّرون .

والآية في مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله : « قم الليل » الخ فتفيد بمقتضى السياق - والخطاب خاص بالنبي ﷺ - أن أمره بقيام الليل والتوجه فيه إليه تعالى بصلاة الليل تهيئته وإعداد لكرامة القرب وشرف الحضور وإلقاء قول ثقیل فقيام الليل هي السبيل المؤدية إلى هذا الموقف الكريم وقد عدّ سبحانه صلاة الليل سبيلاً إليه في قوله الآتي : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » . وقد زاد سبحانه وعداً على ما في هذه الآية في قوله : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » أسرى : ٧٩ وقد تقدّم معنى المقام المحمود في تفسير الآية .

وإذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه ومن حيث استجابته فيما يندب إليه من الشرائع والأحكام فهو ثقیل على الأمة كما هو ثقیل عليه ﷺ ومعنى الآية إنا سنوحى إليك قولاً يثقل عليك وعلى أمتك أما ثقله عليه ﷺ فلما في التحقق بحقائقه من الصعوبة ولما فيه من محنة الرسالة وما يتبعها من الأذى في جنب الله وترك الراحة والدعة ومجاهدة النفس والانقطاع إلى الله مضافاً إلى ما في تلقّيه من مصدر الوحي من الجهد ، وأما ثقله على أمته فلا نهم يشاركونه ﷺ في لزوم التحقق بحقائقه واتباع أوامره و نواهيهِ ورعاية حدوده كل طائفة منهم على قدر طاقته .

وللقوم في معنى ثقل القرآن أقوال آخر :

منها أنه ثقیل بمعنى أنه عظیم الشأن متین رصین كما يقال : هذا كلام له وزن إذا كان واقعاً موقعه .

ومنها أنه ثقیل في الميزان يوم القيامة حقيقة أو مجازاً بمعنى كثرة الثواب عليه .

ومنها أنه ثقیل على الكفار والمنافقين بما لهم من الإعجاز و بما فيه من الوعيد .

ومنها أن ثقله كناية عن بقاءه على وجه الدهر لأن الثقیل من شأنه أن يبقى

ويثبت في مكانه .

ومنها غير ذلك والوجوه المذكورة وإن كانت لا بأس بها في نفسها لكن ماتقدم

من الوجه هو الظاهر السابق إلى الذهن .

قوله تعالى : « **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً** إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً » الآية الأولى في مقام التعليل لاختيار الليل وقتاً لهذه الصلاة ، والآية الثانية في مقام التعليل لترك النهار والإعراض عنه كما أن الآية السابقة أعني قوله : « **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً** » في مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة .

فقوله : « **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً** » الناشئة إمّا مصدر كالعاقبة والعافية بمعنى النشأة وهي الحدوث والتكوّن ، وإمّا اسم فاعل من النشأة مضاف إلى موصوفه وكيف كان فالمراد بها الليل وإطلاق الحادثة على الليل كإطلاقها على سائر أجزاء الخلقة وربما قيل : إنها الصلاة في الليل ووطؤ الأرض وضع القدم عليها ، وكونها أشدّ وطأً كناية عن كونها أثبت قدماً لصفاء النفس وعدم تكدّرها بالشواغل النهارية وقيل : الوطء مواطاة القلب اللسان وأُبدقراءة « **أَشَدُّ وَطْأً** » والمراد بكونها أقوم قِيلاً كونها أثبت قولاً وأصوب لحضور القلب وهدوِّ الأصوات .

والمعنى **إِنَّ حَادِثَةَ اللَّيْلِ أَوْ الصَّلَاةَ فِي اللَّيْلِ هِيَ أَثْبَتُ قَدَمًا** - أو أشدّ في مواطاة القلب اللسان وأثبت قولاً وأصوب لما أن الله جعل الليل سكناً يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشة إلى نفسه وفراغ باله .

وقوله : « **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً** » السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمّات المعاش وأنواع التقلّب في قضاء حوائج الحياة .

والمعنى **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ مَشَاغِلَ كَثِيرَةً تَشْتَغِلُ بِهَا مُسْتَوْعِبَةٌ لَا تَدْعُ لَكَ فَرَاغًا** تستغل فيه بالتوجّه التام إلى ربك والانقطاع إليه بذكره فليكن بالليل والصلاة فيه . وقيل : المعنى **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ فَرَاغًا لِنَوْمِكَ وَتَدْبِيرِ أَمْرِ مَعَاشِكَ وَالتَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِكَ فَتَهْجِدَ فِي اللَّيْلِ** .

وقيل : المعنى **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ فَرَاغًا فَإِنْ فَاتَكَ مِنَ اللَّيْلِ شَيْءٌ أَمْكَنَكَ أَنْ تَتَدَارَكَهُ فِي النَّهَارِ وَتَقْضِيهِ فِيهِ** فالآية في معنى قوله : « **وهو الذي جعل الليل والنهار** »

خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، الفرقان : ٦٢ .
والذي قد مناه من المعنى أنسب للمقام .

قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وبتل إليه بتيلاً » الظاهر أنه يصف صلاة الليل فهو كالعطف التفسيري على قوله : « ورتل القرآن تزيلاً » وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظي بمواطاة من القلب ، وكذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ .

وقيل : الآية تعميم بعد التخصيص والمراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من تسييح وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك ، وإنما فسر الذكر بالدوام لأنه وَاللَّهُ لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره ، والمراد الدوام العرفي دون الحقيقي لعدم إمكانه . انتهى .

وفيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظي فعدم نسيانه وَاللَّهُ ربّه تعالى لا ينافي أمره بالذكر اللفظي ، وإن أراد ما يعبر عنه الذكر القلبي فهو ممنوع ولو سلم ففيه أو لا أن عدم نسيانه وَاللَّهُ ربّه إلى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده و ثانياً أن عدم الدوام الحقيقي غير ممكن و حمل الدوام على العرفي وهم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جل ذكره مذكور للإنسان لا يغيب عنه ولا لحظة سواء تنبه عليه الإنسان أو غفل عنه ، و من الممكن أن يعرفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه ولا في حال قال تعالى : « فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ وقال : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » الأنبياء : ٢٠ . وقد تقدم في تفسير الآيتين وآخر سورة الأعراف أن ذلك لا يختص بالملائكة .

و بالجملة قوله : « واذكر اسم ربك » أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالة خاصة ، وقيل : المراد به البسملة .

وفي قوله : « ربك » التفات عن التكلم مع الغير في قوله : « إنا سنلقي » إلى الغيبة ولعل الوجه فيه إيقاظ ذلة العبودية التي هي الرابطة بين العبد وربّه ،

بذكر صفة الربوبية .

وقوله : « و تبتّل إليه تبتيلاً » فسر التبتّل بالانقطاع أي وانقطع إلى الله ،
و من المرويّ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ التبتّل رفع اليد إلى الله والتضرّع إليه ،
و هذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظي كما تقدّم .

و « تبتيلاً » مفعول مطلق ظاهره و كان مقتضى الظاهر أن يقال : و تبتّل إليه
تبتّلاً فالعدول إلى التبتيل قيل : لتضمن تبتّل معنى بتّل والمعنى وقطع نفسك من
غيره إليه تقطيعاً أو حمل نفسك على رفع اليد إليه والتضرّع حملاً ، و قيل : لمراعاة
الفواصل .

قوله تعالى : « ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتّخذه وكيلاً » وصف
مقطوع عن الوصفية والتقدير هو ربّ المشرق والمغرب ، و ربّ المشرق والمغرب
في معنى ربّ العالم كلّهُ فإنّ المشرق والمغرب جهتان نسيبتان تشمّلان جهات العالم
المشهود كلّها ، وإنّما اختصّا بالذكر لمناسبة ما تقدّم من ذكر الليل والنهار والمرتبطين
بالشروق والغروب .

و إنّما لم يقتصر في الإشارة إلى ربوبيّته تعالى بقوله السابق : « ربّك »
للاّ يذان بأنّه صلى الله عليه وآله مأمور باتّخاذه ربّاً لأنّه ربّه و ربّ العالم كلّهُ لا لأنّه ربّه
وحده كما ربّما كان الرجل من الوثنيين يتّخذ صنماً لنفسه فحسب غير ما اتّخذه
غيره من الأصنام ولو كان اتّخاذه صلى الله عليه وآله له تعالى ربّاً من هذا القبيل أو احتمل ذلك لم
تصحّ دعوته إلى التوحيد .

وليكون قوله : ربّك ربّ المشرق والمغرب - وهو في معنى ربّ العالم كلّهُ -
توطئة وتمهيداً لقوله بعده : « لا إله إلا هو » يعلّل به توحيد الألوهيّة فإنّ الألوهيّة
وهي المعبوديّة من فروع الربوبيّة التي هي الملك والتدبير كما تقدّم مراراً فهو
تعالى الإله وحده لا إله إلا هو لأنّه الربّ وحده لا ربّ إلا هو .

و قوله : « فاتّخذه وكيلاً » أي في جميع أمورك ، و توكيل الوكيل هو إقامة
الإنسان غيره مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته وعمله مقام عمله فاتّخاذه تعالى

وكيلاً أن يرى الإنسان الأمر كله له وإليه تعالى أمّا في الأمور الخارجية والحوادث الكونية فإن لا يرى لنفسه ولا شيء من الأسباب الظاهرية استقلالاً في التأثير فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير إلاّ الله فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضى أو سخط أو سرور أو أسف وغير ذلك بل يتوسّل إلى مقاصده ومآربه بما عرفه الله من الأسباب من غير أن يطمئن إلى استقلالها في التأثير ويرجع الظفر بالمطلوب إلى الله ليختار له ما يرضيه .

و أمّا الأمور التي لها تعلّق بالعمل من العبادات والمعاملات فإن يجعل إرادته تابعة لإرادة ربه التشريعية فيعمل على حسب ما يريده الله تعالى منه فيما شرّع من الشريعة .

ومن هنا يظهر أن لقوله : « فاتّخذوه كيلاً » ارتباطاً بقوله : « واذكر اسم ربك » الخ وما تقدّم عليه من الأوامر التشريعية كما أن له ارتباطاً بما تأخّر عنه من قوله : « واصبر » وقوله : « اهجر » وقوله : « وذرني » .

قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً » معطوف هو وما بعده على مدخول الفاء في قوله : « فاتّخذوه كيلاً » فالمعنى اتّخذوه كيلاً ولازم اتّخاذهم كيلاً أن تصبر على ما يقولون ممّا فيه إيذاؤك والاستهزاء بك ورميك بما ليس فيك كقولهم : افتري على الله ، كاهن شاعر ، مجنون ، أساطير الأولين وغير ذلك ممّا يقصّه القرآن .

و أن تهجرهم هجرًا جميلاً والمراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق والدعوة إلى الحق بالمناصحة ، ولا يواجه قولهم بما في وسعه من المقابلة بالمثل ، والآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال : إنّها منسوخة بآية القتال .

قوله تعالى : « وذرني والمكذّبين أولي النعمة ومهملهم قليلاً » تهديد للكفار يقال : دعني وفلاناً وذرني وفلاناً أي لا تحل بيني وبينه حتّى أنقم منه . والمراد بالمكذّبين أولي النعمة الكفار المذكورون في الآية السابقة أو رؤسائهم

المتبوعون ، والجمع بين توصيفهم بالْمُكذِّبِينَ وتوصيفهم بأُولِي النعمة للإشارة إلى علة ما يهدّدهم به من العذاب فإنّ تكذيبهم بالدعوة الإلهية وهم متنعمون بنعمة ربّهم كفران منهم بالنعمة وجزاء الكفران سلب النعمة وتبديلها من النعمة .

والمراد بالقليل الذي يمهّلونه الزمان القليل الذي يمكنون في الأرض حتّى يرجعوا إلى ربّهم فيحاسبهم و يجازيهم قال تعالى : «إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» المعارج : ٧ وقال : « متاع قليل ثمّ مأواهم جهنّم وبئس المهاد » آل عمران : ١٩٧ . والآية بظاهرها عامّة ، وقيل : وعيد لهم بوقعة بدر وليس بظاهر ، وفي الآية التفات عن الغيبة في « ربّك » إلى التكلّم وحده في « ذرني » ولعلّ الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر إليه سبحانه نفسه ثمّ التفت في قوله : « إنّ لدينا » إلى التكلّم مع الغير للدلالة على العظمة .

قوله تعالى : « إنّ لدينا أنكلاً وجحيماً » تعليل لقوله : « ذرني » الخ والأنكال القيود قال الراغب : يقال : نكل عن الشيء ضعف وعجز ، و نكلته قيّدته والنكل - بالكسر فالسكون - قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين ، والجمع الأنكال انتهى ، وقال : الجحمة شدّة تأجّج النار ومنه الجحيم . انتهى .

قوله تعالى : « وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً » قال في المجمع : الغصّة تردّد اللقمة في الحلق ولا يسيغها آكلها يقال : غصّ بريقه يغصّ غصّاً ، وفي قلبه غصّة من كذا وهي كاللدغة التي لا يسوغ معها الطعام والشراب ، انتهى .
والآيتان تذكّران نعم الآخرة التي بدّلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله .

قوله تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين قال الراغب : الرجف الاضطراب الشديد يقال : رجفت الأرض والبحر انتهى ، وفي المجمع : الكثيب الرمل المجمع الكثير ، وهلت أهيله هيلاً فهو مهيل إذا حرّك أسفله فسال أعلاه انتهى ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » إنذار للمكذِّبين أُولِي النعمة من قومه ﷺ بعد ما أُوعد مطلق المكذِّبين أُولِي النعمة بما أُعدَّ لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم إلى حال فِرْعَوْنَ المستكبر على الله ورسوله المستذلِّ لرسول الله و من آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فِرْعَوْنَ من أخذ الله له أخذاً وبيلاً فليستعظوا وليأخذوا حذرهم .

وفي الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب كأنَّ المتكلم لما أُوعدهم بالعذاب على الغيبة حاج به الوجد على أُولئك المكذِّبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبدى لسفاهة رأيهم فشافههم بالإِنْذار ليرفع عن أنفسهم أي شكَّ وترديد وتمَّ عليهم الحجة ولعلهم يتقون ، ولذا عقب قياسهم إلى فِرْعَوْنَ وقياس النبي ﷺ إلى موسى عليه السلام والإشارة إلى عاقبة أمر فِرْعَوْنَ بقوله : « فكيف تتقون إن كُفرتُم يوماً » الخ .

فقوله : « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ » إشارة إلى تصديق رسالة النبي ﷺ صلى الله عليه وآله من قبله تعالى وشهادته على أعمالهم بتحمُّلها في الدنيا ونأديتها يوم القيامة ، وقد تقدَّم البحث عن معنى شهادة الأعمال في الآيات المشتملة عليها مراراً ، وفي الإشارة إلى شهادته ﷺ نوع زجر لهم عن عصيانه ومخالفته وتكذيبه .

وقوله : « كما أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » هو موسى بن عمران عليه السلام .

قوله تعالى: « فعصى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً » أي شديداً ثقيلاً .

إشارة إلى عاقبة أمر فِرْعَوْنَ في عصيانه موسى عليه السلام ، وفي التعبير عن موسى بالرسول إشارة إلى أنَّ السبب الموجب لأخذ فِرْعَوْنَ مخالفته أمر رسالته لانفس موسى بما أنَّه موسى ، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمد ﷺ .

كما أنَّ وضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « فعصى فِرْعَوْنَ » للإيماء إلى أنَّ ما كان له من العزة والعلوِّ في الأرض والتبجُّح بكثرة العدة وسعة المملكة و نفوذ المشيئة لم يغن عنه شيئاً ولم يدفع عنه عذاب الله فما الظنَّ بهؤلاء المكذِّبين ؟ وهم كما قال الله : « جنودنا هنالك مهزوم من الأحزاب » ص : ١١ .

قوله تعالى : «فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً» نسبة الالتقاء إلى اليوم من المجاز العقلي والمراد اتقاء العذاب الموعود فيه ، و عليه فيوماً مفعول به لتتقون، وقيل : مفعول «تتقون» محذوف و«يوماً» ظرف له والتقدير فكيف تتقون العذاب الكائن في يوم ، وقيل : المفعول محذوف و «يوماً» ظرف للالتقاء وقيل غير ذلك .

وقوله : «يجعل الولدان شيباً» الشيب جمع أشيب مقابل الشاب ، وجعل الولدان شيباً كناية عن شدة اليوم لاعن طوله .

قوله تعالى : «السماء منفطر بذكر وعدة مفعولاً» إشارة بعد إشارة إلى شدة اليوم ، والانفطار الانشقاق وتذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكرو ويؤثث ، و ضمير «به» لليوم ، والباء بمعنى في أو للسببية والمعنى السماء منشفة في ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أي بسبب شدته .

وقوله : « كان وعده مفعولاً » استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعد وأنه حتم مقضي ونسبة الوعد إلى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفي فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره بـ «مه» .

قوله تعالى : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » الإشارة بهذه إلى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع والزواجر ، والتذكرة الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه .

وقوله : « فمن شاء » مفعول « شاء » محذوف والمعروف في مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب والسياق يلائمه ، والتقدير فمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً اتخذ الخ ، وقيل : المقدر الاتعاض ، والمراد باتخاذ السبيل إليه اتخاذ السبيل إلى التقرب منه ، والسبيل هو الإيمان والطاعة هذا ما ذكره المفسرون .

و من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ما تقدم في صدر السورة من الآيات النابذة إلى قيام الليل والتهجد فيه ، والآية مسوقة لتوسعة الخطاب وتعميمه لغير النبي صلى الله عليه وآله من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصورة مختصاً به ﷺ ،

والدليل على هذا التعميم قوله : « فمن شاء » الخ .

ويؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآية « إن هذه تذكرة » الخ بعينها في سورة الدهر بعدما أُشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى : « وسبحه ليلاً طويلاً » ويستنتج من ذلك أن صلاة الليل سبيل خاصة تهدي العبد إلى ربه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك .

فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأناه جبريل فقال : يا أيها المزمل يا أيها المدثر .

اقول : آخر الرواية لا يخلو من شيء حيث إن ظاهرها نزول السورتين معاً . على أن القرآن حتى في سورة المدثر يحكي تسميتهم له ﷺ بألقاب السوء كالكاهن والساحر والمجنون والشاعر ولم يذكر فيها قولهم : يفرق بين الحبيب وحبيبه .

وفيه أخرج عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد و محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ فلما ينام من الليل لما قال الله له : « قم الليل إلا قليلاً » .

وفي الكشف عن عائشة أنها سئلت : ما كان تزميله ؟ قالت : كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليده وهو يصلي . فسئلت : ما كان ؟ قالت : والله ما كان خزاً ولا قزاً ولا مرعياً ولا أبريسماً ولا صوفاً . كان سداً شعراً ولحمته وبراً .
اقول : الرواية مرمية بالوضع فإن السورة من العتائق النازلة بمكة ، وعائشة إنما بنى عليها النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة .

وعن جوامع الجامع روي أنه قد دخل على خديجة وقد جثت فرقاً^(١) فقال :
زملوني فينا هو على ذلك إن ناداه جبريل : « يا أيها المزمل » .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن
جبير قال : لما نزلت « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً » مكث النبي ﷺ على
هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه
فأنزل الله بعد عشر سنين « إن ربك يعلم أنك تقوم - إلى قوله - فأقيموا الصلاة »
فخفف الله عنهم بعد عشر سنين .

أقول : وروي نزول آية التخفيف بعد سنة وروي أيضاً نزولها بعد ثمانية
أشهر ، ولم يكن قيام الليل واجباً على غير النبي ﷺ كما أشير إليه بقوله تعالى
« إن هذه تذكرة » الآية كما تقدم ، ويؤيده ما في الرواية من قوله : « وطائفة من
أصحابه » .

وفي التهذيب بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال : سأله عن قول
الله تعالى : « قم الليل إلا قليلاً » قال : أمره الله أن يصلي كل ليلة إلا أن تأتي عليه
ليلة من الليالي لا يصلي فيها شيئاً .

أقول : الرواية تشير إلى أحد الوجوه في الآية .

وفي المجمع : وقيل : إن نصفه بدل من القليل فيكون بياناً للمستثنى ، ويؤيد
هذا القول ما روي عن الصادق ﷺ قال : القليل النصف أو انقص من القليل قليلاً
أوزد على القليل قليلاً .

وفي الدر المنثور أخرج العسكري في المواعظ عن علي ﷺ أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : « ورتل القرآن ترتيلاً » قال : بيئته تبييناً ،
ولا تنثره نثر الدقل ، ولا تهزّه هز الشعر ، فقفوا عند عجائبه ، وخرّكوا به القلوب ،
ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

أقول : وروى هذا المعنى في أصول الكافي بإسناده عن عبد الله بن سليمان عن الصادق

(١) جث الرجل ثقل عند القيام أو عند حمل شيء ثقیل والفرق الفرع والخوف .

عن عليّ عليه السلام واغظيئنه تبيناً ولا تهذّ هذا الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفرغوا^(١) قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال : سئل رسول الله ﷺ أيّ الناس أحسن قراءة قال الذي إذا سمعته يقرء رأيت أنه يخشى الله .

وفي أصول الكافي بإسناده عن عليّ بن أبي حمزة قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إنّ القرآن لا يقرء هذيمة^(٢) ولكن يرتل ترتيلاً فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها . وأسأل الله عزّ وجلّ الجنة ، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّد بالله من النار .

وفي المجموع في معنى الترتيل عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : هو أن تتمكّك فيه وتحسن به صوتك .

وفيه روي عن أمّ سلمة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية .

وفيه عن أنس قال : كان ﷺ يمدّ صوته مدّاً .

وفيه سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّ عليّ فيفصم^(٣) عنّي وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فأعي ما يقول .

قالت عائشة : إنّه كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرائنها .

قالت : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقاً .

و عن تفسير العياشيّ بإسناده عن عيسى بن عبيد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً ، وإنّما يؤخذ من أمر رسول الله

(١) أفرغ الاناء أخلاه .

(٢) الهزيمة الاسراع في القراءة .

(٣) النقص القطع .

صلى الله عليه وآله بأخيه :

و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء
لقد نزلت عليه و هو على بغلة شهباء و ثقل عليها الوحي حتى وقفت و تدلى بطنها
حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض .

أقول : إن صحّت الرواية كان ظهور أثر ثقل الوحي على الناقة أو البغلة
من قبيل تجسّم المعاني و كثيراً ما يوجد مثله فيما نقل من المعجزات و كرامات
الأولياء ، و أمّا اتّصاف الوحي و هو كلام بالثقل المادّيّ فغير معقول .

و في التهذيب بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ
و جلّ : « إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأ و أقوم قيلاً » قال : يعني بقوله : « و أقوم
قيلاً » قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عزّ و جلّ لا يريد به غيره .

أقول : و رواه أيضاً بسندين آخرين في التهذيب والعلل عن هشام عنه عليه السلام .
و في المجمع في قوله تعالى : « إنّ ناشئة الليل » الآية والمرويّ عن أبي جعفر
و أبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا : هي القيام في آخر الليل .

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن حسين بن عليّ أنّه روى يصلي بين
المغرب والعشاء فقليل له في ذلك ؟ فقال : إنّهما من الناشئة .

و في المجمع في قوله تعالى : « وتبتّل إليه تبتلاً » و روى محمد بن مسلم و زرارّة
و حمران عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام أنّ التبتّل هذا رفع اليدين في الصلاة و في
رواية أبي بصير قال : هو رفع يدك إلى الله و تضرّعك .

أقول : و ينطبق على قنوت الصلاة ، و في رواية هو رفع اليدين و تحريك
السبّابتين ، و في رواية الإيماء بالإصبع و في رواية الدعاء باصبع واحدة يشير بها .
و فيه في قوله تعالى : « و طعاماً ذا غصّة » الآية عن عبد الله بن عمر أنّ النبيّ
صلى الله عليه و سلّم سمع قارئاً يقرأ هذا فصعق .

و في تفسير القميّ في قوله : و كانت الجبال كثيباً مهيباً قال : مثل الرمل

ينحدر .



إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَ
طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ
مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٣٠) .

﴿ بيان ﴾

آية مبنيّة على التخفيف فيما أمر به النبي ﷺ في صدر السورة من قيام
الليل والصلاة فيه ثم عمّم الحكم لساائر المؤمنين بقوله : « إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ » الآية .
ولسان الآية هو التخفيف بما تيسّر من القرآن من غير نسخ لأصل الحكم
السابق بالمنع عن قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

وقد وردني غير واحد من الأخبار أن الآية مكّية نزلت بعد ثمانية أشهر أو سنة
أو عشرين من نزول آيات صدر السورة لكن يوهنه اشتغال الآية على قوله تعالى :
« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » فإنّ ظاهره أنّ المراد

بالزكاة - وقد ذكرت قبلها الصلاة و بعدها الإِ نفاق المسحوب - هو الزكاة المفروضة وإنّما فرضت الزكاة بالمدينة بعد الهجرة .

و قول بعضهم : إنّ الزكاة فرضت بمكّة من غير تعيين الأنصباء والذي فرض بالمدينة تعيين الأنصباء . تحكّم من غير دليل ، وكذا قول بعضهم : إنّّه من الممكن أن تكون الآية ممّا تأخّر حكمه عن نزوله .

على أنّ في الآية ذكراً من القتال إذ يقول : « وآخرون يقاتلون في سبيل الله » ولم يكن من مصلحة الدعوة الحقّة يومئذ ذاك والظرف ذلك الظرف أن يقع في متنها ذكر من القتال بأيّ وجه كان ، فالظاهر أنّ الآية مدنيّة وليست بمكيّة وقد مال إليه بعضهم .

قوله تعالى : « إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » إلى آخر الآية . الخطاب للنبي ﷺ وفي التعبير بقوله : « ربّك » تلويح إلى شمول الرحمة والعناية الإلهيّة ، وكذا في قوله : « يعلم أنّك تقوم » الخ مضافاً إلى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى : « وكان سعيكم مشكوراً » الدهر : ٢٢ .

وقوله : « تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » « أدنى » اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب ، وقد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشيء ، وهو أقلّ فيقال : إنّ عدّتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلاً دون ما لو كانوا أحد عشر فمعنى قوله : « أدنى من ثلثي الليل » أقرب من ثلثيه وأقلّ بقليل .

والواو العاطفة في قوله : « ونصفه وثلثه » لمطلق الجمع والمراد أنّه يعلم أنّك تقوم في بعض الليالي أدنى من ثلثي الليل وفي بعضها نصفه وفي بعضها ثلثه .

وقوله : « وطائفة من الذين معك » المراد المعيّة في الإيمان و « من » للتبعية فالآية تدلّ على أنّ بعضهم كان يقوم الليل كما كان يقومه النبي ﷺ . وقيل « من » بيانيّة ، وهو كما ترى .

وقوله : « والله يقدّر الليل والنهار » في مقام التعليل لقوله : « إنّ ربّك يعلم » والمعنى وكيف لا يعلم وهو الله الذي إليه الخلق والتقدير ففي تعيين قدر الليل والنهار

تعيين ثلثهما ونصفهما وثلثيهما ، ونسبة تقدير الليل والنهار إلى اسم الجلالة دون اسم الربّ وغيره لأنّ التقدير من شؤون الخلق والخلق إلى الله الذي إليه ينتهي كلّ شيء .

وقوله : «علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن» الإحصاء تحصيل مقدار الشيء وعدده والإحاطة به ، وضمير «لن تحصوه» للتقدير أو للقيام مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه ، وإحصاء ذلك مع اختلاف الليالي طولاً وقصراً في أيام السنة ممّا لا يتيسر لعامة المكلفين ويشدّ عسراً لمن نام أوّل الليل وأراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما في حكمه .

فالمراد بقوله : «علم أن لن تحصوه» علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذي أمروا بقيامه من الليل لعامة المكلفين .

والمراد بقوله : «فتاب عليكم» توبته تعالى ورجوعه إليهم بمعنى انعطاف الرحمة الإلهية عليهم بالتخفيف فلله سبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم وأثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكليف أو التخفيف قال تعالى : «ثم تاب عليهم ليتوبوا» التوبة : ١١٨ .

كما أنّ له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم وأثرها مغفرة ذنوبهم . وقد تقدّمت الإشارة إليه .

والمراد بقوله : «فاقروا ما تيسر من القرآن» التخفيف في قيام الليل من حيث المقدار لعامة المكلفين تفريعاً على علمه تعالى أنّهم لن يحصوه .

ولازم ذلك التوسعة في التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتّى يسع لعامة المكلفين الشاقّ عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعة محرّمة وذلك أنّ الإحصاء المذكور إنّما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم ولو امتنع لجميعهم ولم يتيسر لأحدهم لم يشرّع من أصله ولا يكلف الله نفساً إلّا وسعها .

على أنّه تعالى يصدّق لنبيّه ﷺ وطائفة من الذين معه قيام الثلث والنصف

والأدنى من الثلثين وينسب عدم التمكّن من الإحصاء إلى الجميع وهم لا محالة هم القائمون وغيرهم فالحكم إنّما كان شاقاً على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسّع في التكليف بقوله: «فأقرءوا ما تيسّر من القرآن» وسهّل الأمر بالتخفيف ليكون لعامة المكلفين فيه نصيب مع بقاء الأصل المشتمل عليه صدر السورة على حاله لمن تمكّن من الإحصاء وأراده، والحكم استحبابي لسائر المؤمنين وإن كان ظاهر ما للنبي ﷺ من الخطاب الوجوب كما تقدّمت الإشارة إليه .

وللقوم في كون المراد بقيام الليل الصلاة فيه أو قراءة القرآن خارج الصلاة ، وعلى الأوّل في كونه واجباً على النبي ﷺ والمؤمنين أو مستحباً للجميع أو واجباً على النبي ﷺ مستحباً لغيره ثم في نسخ الحكم بالتخفيف بما تيسّر بهذه الآية أو تبديل الصلاة من قراءة ما تيسّر من القرآن أقوال لا كثير جدوى في التعرّض لها والبحث عنها .

وقوله : «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» إشارة إلى مصلحة أخرى مقتضية للتخفيف في أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه ، وراء كونه شاقاً على عامة المكلفين بالصفة المذكورة أو لا فإنّ الإحصاء المذكور للمريض والمسافر والمقاتل مع ما هم عليه من الحال شاقّ عسير جدّاً .

والمراد بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض إلى أرض للتجارة .

وقوله : «فأقرءوا ما تيسّر من القرآن وأقروا الزكاة وأقروا الله قرصاً حسناً» تكرار للتخفيف تأكيداً ، وضمير «منه» للقرآن ، والمراد الإتيان بالصلاة على ما يناسب سعة الوقت الذي قاموا فيه .

والمراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآية مدنيّة فالفرائض الخمس اليومية وإن كانت مكّيّة فبحسب ما كانت مفروضة من الصلاة ، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة ، والمراد باقراضه تعالى غير الزكاة من الإيفاقات الماليّة في سبيل الله .

وعطف الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإفراض للتلويح إلى أن التكليف الدينيّة على حالها في وجوب الاهتمام بها والاعتناء بأمرها ، فلا يتوهّم من متوهم سرّيان التخفيف والمسامحة في جميع التكليف فالآية نظيرة قوله في آية النجوى : « فإذ لم تفعلوا وثاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله » المجادلة : ١٣ .

وقوله : « وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » من خير» بيان للموصول ، والمراد بالخير مطلق الطاعة أعم من الواجبة والمندوبة ، و «هو» ضمير فصل أو تأكيد للضمير في «تجدوه» .

والمعنى والطاعة التي تقدّمونها لأنفسكم - أي لتعيشوا بها في الآخرة - تجدونها عند الله - أي في يوم اللقاء - خيراً من كلّ ما تعملون أو تتركون وأعظم أجراً .

وقوله : « واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم » ختم الكلام بالأمر بالاستغفار ، وفي قوله : « إنّ الله غفور رحيم » إشعار بوعد المغفرة والرحمة ، ولا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنّها وسائل يتوسّل بها إلى مغفرة الله فلا إتيان بها استغفار .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » ففعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك وبشر الناس به فاشتدّ ذلك عليهم و « علم أن لن تحصوه » ، وكان الرجل يقوم ولا يدرى متى ينتصف الليل ومتى يكون الثلثان ، وكان الرجل يقوم حتّى يصبح مخافة أن لا يحفظه .

فأنزل الله « إنّ ربك يعلم أنك تقوم - إلى قوله - علم أن لن تحصوه » يقول : متى يكون النصف والثلث نسخت هذه الآية « فاقراءوا ما تيسر من القرآن » ، و

اعلموا أنه لم يأت نبي قط إلا خلا بصلاة الليل ، ولا جاء نبي قط بصلاة الليل في أول الليل .

اقول: محصل الرواية أن صدر السورة توجب صلاة الليل وذيلها تنسخها ، وروي ما يقرب منه من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره ، وقد تقدّم ما يتعلق به في البيان السابق .

و في المجمع روى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكاني بإسناده عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : « وطائفة من الذين معك » قال : عليّ و أبوذر .

و فيه في قوله تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ روي عن الرضا عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال : ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ « فاقراءوا ما تيسر منه » قال : مائة آية .

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه بسعريومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد . ثم قرأ رسول الله ﷺ « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

وفي تفسير القمي بإسناده عن زرعة عن سماعة قال : سألت عن قول الله : « وأقروا الله قرضاً حسناً » قال : هو غير الزكاة .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة : أكثروا الاستغفار تجلبوا الرزق ، وقدّموا ما استطعتم من عمل الخير تجدوه غداً .

اقول: ذيله مأخوذ من قوله تعالى : « وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » .

﴿سورة المدثر مكية وهي ست وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)
وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) .

﴿بيان﴾

تشتمل السورة أمر النبي ﷺ بالإنذار في سياق يلوح منه كونه من أوامر
أوائل البعثة ثم الإشارة إلى عظم شأن القرآن الكريم وجلالة قدره ، والوعيد الشديد
على من يواجهه بالإنكار والرمي بالسحر ، وذكّر المعرضين عن دعوته .
والسورة مكية من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة حتى قيل :
إنّها أول سورة نزلت من القرآن وإن كان يكذب به نفس آيات السورة الصريحة في
سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنه ورميهم له بأنّه
سحر يؤثر .

ولذا مال بعضهم إلى أنّ النازل أوّلاً هي الآيات السبع الواقعة في أوّل السورة
ولازمه كون السورة غير نازلة دفعة وهو وإن كان غير بعيد بالنظر إلى متن الآيات
السبع لكن يدفعه سياق أوّل سورة العلق الظاهر في كونه أوّل ما نزل من القرآن .
واحتمل بعضهم أن تكون السورة أوّل ما نزل على النبي ﷺ عند الأمر
بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدّة في أوّل البعثة فهي في معنى قوله : « فاصدع بما
تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ ، وبذلك جمع بين ما ورد من أنّها أوّل
ما نزل ، وما ورد أنّها نزلت بعد سورة العلق ، وما ورد أنّ سورتي المزمل والمدثر
نزلتا معاً ، وهذا القول لا يتعدّى طور الاحتمال .

وكيف كان فالمتيقن أن السورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من السور
القرآنية، والآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار وسائر الخصال التي
تلزمه مما وصّاه الله به .

قوله تعالى: « يا أيها المدثر » المدثر بتشديد الدال والثاء أصله المتدثر
اسم فاعل من التدثر بمعنى التغطّي بالثياب عند النوم .

والمعنى يا أيها المتغطّي بالثياب للنوم خطاب للنبي ﷺ وقد كان على هذه
الحال فخطوب بوصف مأخوذ من حاله تأنيساً وملاطفة نظير قوله: « يا أيها المزمل » .

وقيل: المراد بالتدثر تلبسه ﷺ بالنبوة بتشبيهها بلباس يتحلّى به ويتميّز
وقيل: المراد به اعتزاله ﷺ وغيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار
حراء، وقيل: المراد به الاستراحة والفراغ فكأنه قيل له ﷺ: يا أيها المستريح
الفارغ قد انقضى زمن الراحة وأقبل زمن متاعب التكليف وهداية الناس .

وهذه الوجوه وإن كانت في نفسها لا بأس بها لكن الذي يسبق إلى الذهن هو
المعنى الأول .

قوله تعالى: « قم فأنذر » الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر
إلى من ينذر فالمعنى أفعلا إنذار، وذكر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف والتقدير
أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء .

وذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام وهو جميع الناس لقوله: « وما
أرسلناك إلا كافة للناس » سبأ: ٢٨ .

ولم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالمبتلازمين في تمام الدعوة لأن
السورة ممّا نزل في ابتداء الدعوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك .

قوله تعالى: « وربك فكبر » أي انسب ربك إلى الكبرياء والعظمة اعتقاد
وعملاً قولاً وفعلاً وهو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شيء فلا شيء يشارك
أو يغلبه أو يمانعه، ولا نقص يعرضه، ولا وصف يحدّه .

ولذا ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن معنى التكبير : الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى أكبر من كل وصف نصفه حتى من هذا الوصف ، وهذا هو المناسب للتوحيد الإسلامي الذي يفوق ما نجده من معنى التوحيد في سائر الشرائع السماوية . وهذا الذي ذكرناه هو الفرق بين كلمتي التكبير والتسبيح - الله أكبر وسبحان الله - فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كل وصف عديم مبنى على النقص كالموت والعجز والجهل وغير ذلك ، والله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عديمًا أو وجوديًا حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود في نفسه لا يتعدى إلى غيره من المفاهيم وهو تعالى لا يحيط به حد فافهم ذلك .
وقيل : المراد الأمر بالتكبير في الصلاة .

والتعبير عنه تعالى بربك لا يخلو من إشعار بأن توحيدَه تعالى يومئذ كان يختص به عليه السلام .

قال في الكشاف في قوله : « فكبّر » : ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره .

قوله تعالى : « وثيابك فطهر » قيل : كناية عن إصلاح العمل ، ولا يخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثياب للنفس بمالها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن ، وكثيراً ما يكنى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب .

وقيل : كناية عن تزكية النفس وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي .

وقيل : المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسة ولو طال وانجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس .

وقيل : المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى : « هن لباس لكم » البقرة : ١٨٧ .

وقيل : الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة والأقرب على هذا أن يجعل قوله : « وربك فكبّر » إشارة إلى تكبير الصلاة و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارناً للأمر بالدعوة .

ولا يرد عليه ما قيل : إنَّ نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً وذلك أنَّ تشريع الفرائض الخمس اليومية على ما هي عليها اليوم وإن كان في ليلة المعراج وهي جميعاً عشر ركعات ثمَّ زيد عليها سبع ركعات إلا أنَّ أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة كما يشهد به ذكرها في هذه السورة وسورتى العلق والمزمل ، ويدلُّ عليه الروايات .

وقيل : المراد بتطهير الثياب التخلُّق بالأخلاق الحميدة والمملكات الفاضلة . وفي معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لا يمكن إرجاعها إلى بعض ما تقدَّم من الوجوه ، وأرجح الوجوه المتقدِّمة أوَّلها وخامسها .

قوله تعالى : « والرُّجْزُ فَاهْجِرْ » قيل : الرُّجْزُ بضمِّ الرَّاء وكسرِها العذاب والمراد بهجره هجر سببه وهو الإثم والمعصية ، والمعنى اهجر الإثم والمعصية . وقيل : الرُّجْزُ اسم لكلِّ قبيح مستقذر من الأفعال والأخلاق فلا أمر بهجره أمر بترك كلِّ ما يكرهه الله ولا يرتضيه مطلقاً ، أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيلة الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب والمعاصي . وقيل : الرُّجْزُ هو الصنم فهو أمر بترك عبادة الأصنام .

قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » الذي يعطيه سياق الآيات ويناسب المقام أن يكون المراد بالمنِّ تكدير الصنيعة بذكرها للمنع عليه كما في قوله تعالى : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى » البقرة : ٢٦٤ ، وقوله : « يمنون عليك أن أسلموا » الحجرات : ١٧ والمراد بالاستكثار رؤية الشيء وحسابه كثيراً لا طلب الكثرة .

والمعنى لا تمنن امتثالك لهذه الأوامر وقيامك بالإنذار وتكبير ربِّك و تطهيرك ثيابك و هجرك الرُّجْز حال كونك ترى ذلك كثيراً و تعجبه - فإنَّما أنت عبد لا تملك من نفسك شيئاً إلاَّ ما ملكك الله وأقدرك عليه وهو المالك لما ملكك والقادر على ما عليه أقدرك فله الأمر و عليك الامتثال - .

و للقوم في الآية وجوه أخر من التفسير لا تلائم السياق تلك الملازمة فقليل المعنى لا تعط عطية لتعطى أكثر منها .

وقيل : المعنى لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة والقرآن على الناس مستكثراً به الأجر .

وقيل : أى لا تمنن إبلاغ الرسالة على أمتك .

وقيل : المعنى لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعاتك .

وقيل : المعنى لا تمنن بعطائك على الناس مستكثراً له .

وقيل : أي إذا أعطيت عطية فأعطاها لربك واصبر حتى يكون هو الذى يثيبك .

وقيل : هو نهى عن الربا المحرم أي لا تعط شيئاً طالباً أن تعطى أكثر مما أعطيت .

قوله تعالى : « و لربك فاصبر » أي لوجه ربك ، والصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، والمعنى ولوجه ربك فاصبر عند ما يصيبك من المصيبة والأذى في قيامك بالإنذار وامتثالك هذه الأوامر واصبر على طاعة الله واصبر عن معصيته ، وهذا معنى جامع لمختلفات ما ذكره في تفسير الآية كقول بعضهم : إنه أمر بنفس الفعل من غير نظر إلى متعلقه وقول بعضهم : إنه الصبر على أذى المشركين ، وقول بعضهم : إنه الصبر على أداء الفرائض ، إلى غير ذلك .



﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج الطيالسي و عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن الأباري في المصاحف عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أباسلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : يا أيها المدثر قلت : يقولون : اقرأ باسم ربك الذي خلق ؟ فقال أبوسلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت. قال جابر : لا أحدئك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ .

قال : جاورت بحراء فلمّا قضيت جوارى نوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعباً فرجعت فقلت : دثروني دثروني فنزلت : « يا أيها المدثر قم فأندّر - إلى قوله - والرجز فاهجر » .

أقول : الحديث معارض بالأحاديث الأخر الدالة على كون سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن و يؤيدها سياق سورة اقرأ ، على أن قوله : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » يشعر بنزول الوحي عليه قبلاً .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : قلنا : يا رسول الله كيف تقول إذا دخلنا في الصلاة ؟ فأنزل الله « وربك فكبر » فأمرنا رسول الله ﷺ أن نفتتح الصلاة بالتكبير .

أقول : وفي الرواية شيء فأبوهريرة ممن آمن بعد الهجرة بكثير والسورة مما نزل في أول البعثة فأين كان أبوهريرة أو الصحابة يومئذ ؟ !

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائه : تشمير الثياب ظهور لها قال الله تبارك و تعالى : « وثيابك فطهر » يعني فشمّر .

اقول وفي هذا المعنى عدة أخبار مروية في الكافي والمجمع عن أبي جعفر وأبي عبدالله وأبي الحسن عليهم السلام.

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والرجز فاهجر » برفع الراء ، وقال : هي الأوثان .

اقول : وقوله : « هي الأوثان » من كلام جابر أو غيره من رجال السند .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » وفي رواية أبي الجارود يقول : لا تعط تلتمس أكثر منها .





فَإِذَا نُقِرَ فِي النُّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى
 الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ
 مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ
 يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهَقُهُ
 صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ
 قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)
 فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَاصِلِهِ
 سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تُذَرَ (٢٨) لَوَاحَةٌ
 لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
 وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 وَيزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
 بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
 رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١).

﴿ بيان ﴾

في الآيات وعيد شديد للطاعنين في القرآن الرامين له بأنه سحر والمستهزئين ببعض ما فيه من الحقائق .

قوله تعالى : « فإذا نقر في الناقور » النقر القرع والناقور ما ينقر فيه للتصويت ، والنقر في الناقور كالنفخ في الصور كناية عن بعث الموتى وإحضارهم لفصل القضاء يوم القيامة والجملة شرطية جزاؤها قوله «فذلك» الخ .

قوله تعالى : « فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير » الإشارة بقوله « فذلك » إلى زمان نقر الناقور ولا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون إلى الله للحساب والجزاء أو يوم إذ يرجع الخلائق إلى الله فيكون ظرفاً ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفاً لبعض أجزائه كالسنة تجعل ظرفاً للشهر والشهر يجعل ظرفاً لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعددأً مختلفاً باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فيه ثم يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفاً لنفسه باعتبار صفة أخرى .

والمعنى فزمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق إلى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع - بناء على كون قوله : « يومئذ » قيداً لقوله : « فذلك » أو لقوله : « يوماً » -

وقال في الكشف : فإن قلت : بم انتصب إذا وكيف صح أن يقع يومئذ ظرفاً ليوم عسير ؟ قلت : انتصب إذا بما دل عليه الجزاء لأنّ المعنى إذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع يومئذ ظرفاً ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأنّ يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور . انتهى . وقال : و يجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحلّ بدلاً من ذلك ، و يوم عسير خبر كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير . انتهى .

وقوله : « غير يسير » وصف آخر ليوم مؤكّد لعسره و يفيد أنّه عسير من كلّ وجه لا من وجه دون وجه .

قوله تعالى : « ذرني و من خلقت وحيداً » كلمة تهديد وقد استفاض النقل أنّ الآية وما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة ، و ستأتي قصّته في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله تعالى .

وقوله : « وحيداً » حال من فاعل « خلقت » و محصّل المعنى دعني و من خلّفته حالكوني وحيداً لا يشاركني في خلقه أحد ثمّ دبّرت أمره أحسن التدبير ، ولا تحل بيني و بينه فأنا أكفيه .

و من المحتمل أن يكون حالاً من مفعول « ذرني » . و قيل حال من مفعول خلقت المَحذوف و هو ضمير عائد إلى الموصول ، و محصّل المعنى دعني و من خلّفته حالكونه وحيداً لا مال له و لا بنون ، و احتمال أيضاً أن يكون « وحيداً » منصوباً بتقدير « أذمّ » و أحسن الوجوه أوّلها .

قوله تعالى : « و جعلت له مالاّ ممدوداً » أي مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بمدد النماء .

قوله تعالى : « و بنين شهوداً » أي حضوراً يشاهدهم ويتأيّد بهم ، وهو عطف على قوله : « مالاّ » .

قوله تعالى : « و مهّدت له تمهيداً » التمهيد التهيئة و يتجوّز به عن بسطة المال والجاء و انتظام الأمور .

قوله تعالى : « ثمّ يطمع أن أزيد كلاًّ إنّه كان لا ياتنا عنيداً » أي ثمّ يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال والبنين و مهّدت له من التمهيد .

وقوله : « كلاًّ » ردع له ، وقوله : « إنّه كان » النخ تعليل للردع ، والعنيد المعاند المباهمي بما عنده ، قيل ، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتّى هلك .

قوله تعالى : « سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا » الإِرهاق الغشيان بالعنف ، والصعود عقبة الجبل التي يشقّ مصعدّها شبه ما سيناله من سوء الجزاء ومرّ العذاب بغشيانه عقبة وعرة صعبة الصعود .

قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ » التفكير معروف ، والتقدير عن تفكير نظم معان وأوصاف في الذهن بالتقديم والتأخير والوضع والرفع لاستنتاج غرض مطلوب ، وقد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئاً يبطل به دعوته ويرضى به قومه المعاندين ففكّر فيه أيقول : شعر أوكهانة أو هذرة جنون أو أسطورة فقدّر أن يقول : سحر من كلام البشر لأنّه يفرّق بين المرء وأهله وولده ومواليه . وقوله : « فقتل كيف قدّر » دعاء عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » التوبة : ٣٠ .

وقوله : « ثمّ قتل كيف قدّر » تكرر للدعاء تأكيداً .

قوله تعالى : « ثمّ نظر ثمّ عبس وبسر ثمّ أدبر واستكبر فقال إن هذا إلّا سحر يؤثر إن هذا إلّا قول البشر » تمثيل لحاله بعد التفكير والتقدير وهو من أطف التمثيل وأبلغه .

فقوله : « ثمّ نظر » أي ثمّ نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه - على ما يعطيه سياق التمثيل - .

وقوله : « ثمّ عبس وبسر » العبوس تقطيب الوجه قال في المجمع : وعبس يعبس عبوساً إذا قبض وجهه والعبوس والتكليف والتقطيب نظائر وضدّها الطلاقة والبشاشة ، وقال : والبسور بدء التكرّرة في الوجه انتهى . فالمعنى ثمّ قبض وجهه وأبدا التكرّره في وجهه بعد ما نظر .

وقوله : « ثمّ أدبر واستكبر » الإِدبار عن شيء إلّا عراض عنه ، والاستكبار الامتناع كبراً وعتوّاً ، والأمران أعني الإِدبار والاستكبار من الأحوال الروحية وإنّما رتّباً في التمثيل على النظر والعبوس والبسور وهي أحوال صوريّة محسوسة لظهورهما

بقوله : « إن هذا إلا سحر » النخ ولذا عطف قوله : « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » بالفاء دون « ثم » .

وقوله : « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » أي أظهر إدباره و استكباره بقوله مفرّعاً عليه : « إن هذا - أي القرآن - إلا سحر يؤثر » أي يروى و يتعلم من السحرة .

وقوله : « إن هذا إلا قول البشر » أي ليس بكلام الله كما يدّعيه محمد صلى الله عليه وآله .

قيل : إن هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة وإن اختلفنا معنى لأن المقصود منهما نفي كونه قرآناً من كلام الله ، وباعتبار الاتحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة .

قوله تعالى : « سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر »
أي سأدخله سقر وسقرو سقر من أسماء جهنم في القرآن أو دركة من دركانها ، وجملة « سأصليه سقر » بيان أو بدل من قوله : « سأرهقه صعوداً » .
وقوله : « وما أدراك ما سقر » تفخيم لأمرها وتهويل .

وقوله : « لا تبقي ولا تذر » قضية إطلاق النفي أن يكون المراد أنها لا تبقي شيئاً ممّن نالته إلا أحرقت ، ولا تدع أحداً ممّن ألقى فيها إلا نالته بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما ألقى فيها ولم تحرقه ، وإذا نالت إنساناً مثلاً نالت جسمه وصفاته الجسميّة ولم تنل شيئاً من روحه وصفاته الروحيّة ، وأمّا سقر فلا تدع أحداً ممّن ألقى فيها إلا نالته قال تعالى : « تدعو من أدبر وتولى » المعارج : ١٧ ، وإذا نالته لم تبق منه شيئاً من روح أو جسم إلا أحرقت قال تعالى : « نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة » الهمزة : ٧ .

ويمكن أن يراد أنها لا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون فيكون في معنى قوله تعالى : « الذي يصلّى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى » الأعلى : ١٣ .
وقيل : المعنى لا تبقي شيئاً يلقي فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذر هالكاً

حتى يعاد فيعذب ثانياً .

وقيل : المراد أنها لا تبقى لهم لحماً ولا تذر عظماً ، وقيد غير ذلك .

قوله تعالى : « لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ » اللوآحة من التلويح بمعنى تغيير اللون إلى

السواد وقيل : إلى الحمرة ، والبشر جمع بشرة بمعنى ظاهر الجلد .

قوله تعالى : « عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرٍ » يتوَلَّون أمر عذاب المجرمين وقد أُبْهِم ولم

يصرَّح أنهم من الملائكة أو غيرهم غير أنَّ المستفاد من آيات القيامة - وتصرَّح به

الآية التالية - أنهم من الملائكة .

وقد استظهر بعضهم أنَّ مميَّز قوله : « تِسْعَةُ عَشْرٍ » ملكاً ثمَّ قال : ألا ترى

العرب وهم الفضحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روي عن ابن عباس أنها لما نزلت

« عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرٍ » قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة

يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كلَّ عشرة منكم أن يبطشوا

برجل منهم ؟ فقال أبو الأسد بن أسيد بن كلدة الجمحيّ وكان شديد البطش : أنا

أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أتم اثنين انتهى وأنت ترى أنَّ لا دليل في كلامه على ما

يدّعيه . على أنه سمَّى الواحد من الخزنة رجلاً ولا يطلق الرجل على الملك البتّة

ولا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد

الرحمان إناثاً » الزخرف : ١٩ .

قوله تعالى : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » إلى آخر الآية . سياق

الآية يشهد على أنهم تكلموا فيما ذكر في الآية من عدد خزّان النار فنزلت هذه

الآية ، ويتأبّد بذلك ما ورد من سبب النزول وسياوفيك في البحث الروائيّ التالي .

فقوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » المراد بأصحاب النار خزنتها

الموكلون عليها المتوَلَّون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيدُه قوله : « عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرٍ »

ويشهد بذلك قوله بعد : « وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة » الخ .

ومحصل المعنى أنا جعلناهم ملائكة يقدرّون على ما أمروا به كما قال :

« عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » التحريم : ٦
فليسوا من البشر حتى يرجو المجرمون أن يقاوموهم ويطيقوهم .

وقوله : « وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا » الفتنة المحنة والاختبار .
ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى
وما أخبرنا عن عدّتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنة للذين كفروا ، ويؤيده ذيل
الكلام : ليستيقن الذين أوتوا الكتاب » الخ .

وقوله : « ليستيقن الذين أوتوا الكتاب » الاستيقان وجدان اليقين في النفس
أي ليقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليك حق حيث يجدون ما أخبرنا به
من عدّة أصحاب النار موافقاً لما ذكر فيما عندهم من الكتاب .

وقوله : « ويزداد الذين آمنوا إيماناً » أي بسبب ما يجدون من تصديق أهل
الكتاب ذلك .

وقوله : « وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً »
اللام في « ليقول » للعاقبة بخلاف اللام في « ليستيقن » فللتعليل بالغاية ، والفرق أن
قولهم : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » تحقير وتهكّم وهو كفر لا يعدّ غاية لفعله سبحانه
إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذي هو من الإيمان ، ولعلّ اختلاف المعنيين هو
الموجب لإعادة اللام في قوله : « وليقول » .

وقد فسّروا « الذين في قلوبهم مرض » بالشكّ والجحود بالمنافقين وفسّروا
الكافرين بالمظاهرين بالكفر من المشركين وغيرهم .

وقولهم : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » أرادوا به التحقير والتهكّم يشيرون بهذا
إلى قوله تعالى : « عليها تسعة عشر » والمثل الوصف ، والمعنى ما الذي يعنيه من
وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر ؟ فهذه العدد القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر
الثقلين من الجنّ والإنس ؟

﴿ ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق ﴾

ذكر بعضهم أنَّ قوله تعالى : « وليقول الذين في قلوبهم مرض » الآية - بناء على أنَّ السورة بتمامها مكِّيَّة ، وأنَّ النفاق إنَّما حدث بالمدينة - إخبار عما سيحدث من المغيبات بعد الهجرة . انتهى .

أما كون السورة بتمامها مكِّيَّة فهو المتعيَّن من طريق النقل وقد ادَّعى عليه إجماع المفسِّرين ، وما نقل عن مقاتل أنَّ قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلاَّ ملائكة » الآية مدنيٌّ لم يثبت من طريق النقل ، وعلى فرض الثبوت هو قول نظري مبنيٌّ على حدوث النفاق بالمدينة والآية تخبر عنه .

وأما حديث حدوث النفاق بالمدينة فقد أصرَّ عليه بعضهم محتجاً عليه بأنَّ النبي ﷺ والمسلمين لم يكونوا قبل الهجرة من القوة ونفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يباهم الناس أو يرجى منهم خير حتَّى يتقوهم ويظهروا لهم الإيمان ويلحقوا بجمعهم مع إبطان الكفر وهذا بخلاف حالهم بالمدينة بعد الهجرة .

والحجَّة غير تامَّة - كما أشرنا إليه في تفسير سورة المنافقون في كلام حول النفاق - فإنَّ علل النفاق ليست تنحصر في المخافة والاتقاء أو الاستدرار من خير معجل فمن علله الطمع ولو في نفع مؤجل ومنها العصبية والحمية ومنها استقرار العادة ومنها غير ذلك .

ولا دليل على انتفاء جميع هذه العلل عن جميع من آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة ، وقد نقل عن بعضهم أنَّه آمن ثمَّ رجع أو آمن عن ريب ثمَّ صلح . على أنَّه تعالى يقول : « ومن الناس من يقول آمناً بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربِّك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين » العنكبوت : ١١ .

والآيتان في سورة مكِّيَّة وهي سورة العنكبوت ، وهما ناطقتان بوجود النفاق فيها ومع الغض عن كون السورة مكِّيَّة فاشتمال الآية على حديث الإيذاء في الله

والفتنة أصدق شاهد على نزول الآيتين بمكة فلم يكن بالمدينة إيذاء في الله وفتنة ، واشتمال الآية على قوله : « ولئن جاء نصر من ربك » الخ لا يدل على النزول بالمدينة فللنصر مصاديق أخرى غير الفتح المعجل .

واحتمال أن يكون المراد بالفتنة ما وقعت بمكة بعد الهجرة غير ضائر فإن هؤلاء المفتونين بمكة بعد الهجرة إنما كانوا من الذين آمنوا بالنبى ﷺ قبل الهجرة وإن أوزوا بعدها .

و على مثل ذلك ينبغي أن يحمل قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج : ١١ إن كان المراد بالفتنة العذاب وإن كانت السورة مدنية .



وقوله : « كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » الإشارة بذلك إلى مضمون قوله : « وما جعلنا عدتهم إلا فتنة » الخ .

وقوله : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » علق تعالى العلم المنفى بالجنود - وهي الجموع الغليظة التي خلقهم وسائط لأجراء أوامره - لايخص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم وخصوصيات خلقهم وعدتهم وما يعملونه من عمل ودقائق الحكمة في جميع ذلك يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد ، فليس لأحد أن يستقل عدتهم أو يستكثر أو يطعن في شيء مما يرجع إلى صفاتهم وهو جاهل بها .

وقوله : « وما هي إلا ذكرى للبشر » الضمير راجع إلى ما تقدم من قوله : « عليها تسعة عشر » وتأنيثه لتأنيث الخبر ، والمعنى أن البشر لا سبيل لهم إلى العلم بجنود ربك وإنما أخبرنا عن خزنة النار أن عدتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها .

وقيل : الضمير للجنود ، وقيل : لسقر ، وقيل : للسورة ، وقيل : لنار الدنيا و هو أسخف الأقوال .

و في الآية دلالة على أن الخطابات القرآنية لعامة البشر .

﴿ بحث واثي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « فاذا نقر في النافور - إلى قوله - وحيداً »
فإنّها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان شيخاً كبيراً مجرباً من دهاة العرب ، وكان
من المستهزئين برسول الله ﷺ .

و كان رسول الله ﷺ يقعد في الحجر و يقرأ القرآن فاجتمعت قريش إلى
الوليد بن المغيرة فقالوا : يا أبا عبدشمس ما هذا الذي يقول محمد ؟ أشعر هو أم كهانة
أم خطب ؟ فقال : دعوني أسمع كلامه فدنا من رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدني
من شعرك . قال : ما هو شعر ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه و رسله
فقال : أنزل عليّ منه شيئاً !

فقرأ عليه رسول الله ﷺ حمّ السجدة فلمّا باغ قوله : « فإن أعرضوا فقل
أنذرناكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » قال : فاقشعرّ الوليد و قامت كلّ شعرة في
رأسه و لحيته ، و مرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك .

فمشوا إلى أبي جهل فقالوا : يا أبا الحكم إن أبا عبدشمس صبا إلى دين محمد
أما تراه لم يرجع إلينا فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال : يا عمّ نكست رؤسنا وفضحتنا
و أشمت بنا عدوّنا و صبت إلى دين محمد : فقال : ما صبت إلى دينه و لكنّي سمعت
كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود فقال له أبو جهل : أخطب هو ؟ قال : لا إنّ الخطب
كلام متّصل و هذا كلام منشور و لا يشبه بعضه بعضاً . قال : أفشعر هو ؟ قال : لا أما
إنّي لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها و ما هو بشعر . قال :
فما هو ؟ قال : دعني أفكر فيه .

فلمّا كان من الغد قالوا له : يا أبا عبدشمس ما تقول فيما قلناه ؟ قال : قولوا : هو
سحر فأنّه أخذ بقلوب الناس فأنزل على رسوله ﷺ في ذلك : « ذرني ومن خلقت
وحيداً » .

و إنما سمّي وحيداً لأنّه قال لقريش : أنا أتوحد لكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة ، و كان له مال كثير و حدائق ، و كان له عشر بنين بمكة ، و كان له عشرة عبيد عند كلّ عبد ألف دينار يتّجربها و تلك القنطار في ذلك الزمان ، و يقال : إنّ القنطار جلد ثور مملوء ذهباً .

و في الدر المنثور أخرج الحاكم و صحّحه و البيهقيّ في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرء عليه القرآن فكأنّه رقّ له فبلغ ذلك أباجهل فأناه فقال : يا عمّ إنّ قومك يريدون أن يجعلوا لك مالاً ليعطوه لك فانك أتيت محمداً لتصيب ممّا عنده . قال : قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكرو أو أنّك كاره له ، قال : و ما ذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّي لا برجزه و لا بقصيده و لا بأشعار الجنّ والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، و والله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة و إنّ عليه لطلاوة ، و إنّهُ لمثمر أعلاه ، و ممدق أسفله ، و إنّهُ ليعلو و لا يعلو ، و إنّهُ ليعظم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتّى تقول فيه قال : دعني حتّى أفكر فلما فكر قال ما هو إلّا سحر يؤثر يأتريه عن غيره فنزلت : « ذرني و من خلقت وحيداً » .

و في المجمع روى العياشيّ بإسناده عن زرارة و حران و محمد بن مسلم عن أبي عبدالله و أبي جعفر عليهما السلام أنّ الوحيد ولد الزنا . قال زرارة : ذكر لأبي جعفر عليه السلام عن أحد بني هشام أنّه قال في خطبته : أنا ابن الوحيد فقال : ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها فقلنا له : و ما هو ؟ قال : من لا يعرف له أب .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و ابن المنذر و الترمذيّ و ابن أبي الدنيا في صفة النار و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الحاكم و صحّحه و البيهقيّ في البعث

عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال : الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثمّ يهوى و هو كذلك فيه أبداً .
و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « ثمّ عبس » قال : عبس وجهه « وبسر » قال : ألقى شذقه ^(١) .



(١) زاوية الفم .



كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)
 إِنَّهَا لَاحِدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ
 أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ
 الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ
 فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤)
 وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى
 أَتَيْنَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)

﴿ بيان ﴾

في الآيات تنزيه للقرآن الكريم عما رموه به ، وتسجيل أنه إحدى الآيات
 الإلهية الكبرى فيه إنذار للبشر كافة وفي اتباعه فكّ نفوسهم عن رهانة أعمالهم التي
 تسوقهم إلى سقر .

قوله تعالى : « كَلَّا » ردع وإنكار لما تقدّم قال في الكشف : إنكار بعد أن جعلها
 ذكرى أن يكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكّرون ، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى
 الكبر نذيراً . انتهى فعلى الأول إنكار لما تقدّم وعلى الثاني ردع لما سيأتي ، وهناك وجه
 آخر سيوافيك .

قوله تعالى : « والقمر والليل إذ أدبرو الصبح إذا أسفر » قسم بعد قسم ، وإدبار
 الليل مقابل إقباله ، وإسفار الصبح انجلاؤه وانكشافه .

قوله تعالى : «إنّها لا إحدى الكبير» ذكروا أنّ الضمير لسقر ، والكبر جمع كبرى ، والمراد بكون سقر إحدى الكبير أنّها إحدى الدواهي الكبير لا يعادلها غيرها من الدواهي كما يقال : هو أحد الرجال أي لانظير له بينهم ، والجملة جواب للقسم .

والمعنى أقسم بكذا وكذا إنّ سقر لا إحدى الدواهي الكبير - أكبرها - إنذاراً للبشر .

ولا يبعد أن يكون «كلاً» ردعاً لقوله في القرآن : «إن هو إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر» ويكون ضمير «إنّها» للقرآن بما أنّه آيات أو من باب مطابقة اسم إن لخبرها .

والمعنى ليس كما قال أقسم بكذا وكذا إنّ القرآن - آياته - لا إحدى الآيات الإلهية الكبرى إنذاراً للبشر .

وقيل : الجملة «إنّها لا إحدى الكبير» تعليل للردع ، والقسم معترض للتأكيد لجواب له أو جوابه مقدّر يدلّ عليه كلاً .

قوله تعالى : «نذيراً للبشر» مصدر بمعنى الإيذار منصوب للتمييز ، وقيل : حال ممّا يفهم من سياق قوله : «إنّها لا إحدى الكبير» أي كبرت وعظمت حال كونها إنذاراً أي منذرة .

وقيل فيه وجوه آخر لا يعابها كقول بعضهم : إنّّه صفة للنبي ﷺ والآية متصلة بأول السورة والتقدير قم نذيراً للبشر فأنذر ، وقول بعضهم : صفة له تعالى .

قوله تعالى : «لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر» نعيم للذين لا إيذار «ولمن شاء» بدل من البشر ، و «أن يتقدّم» الخ مفعول «شاء» والمراد بالتقدّم والتأخّر الاتّباع للحقّ ومصادقه الإيمان والطاعة ، وعدم الاتّباع ومصادقه الكفر والمعصية .

والمعنى نذيراً لمن اتّبع منكم الحقّ ولمن لم يتّبع أي لجميعكم من غير استثناء . وقيل : «أن يتقدّم» في موضع الرفع على الابتداء و «لمن شاء» خبره كقولك لمن توفضاً أن يصلي ، والمعنى مطابق لمن شاء التقدّم أو التأخّر أن يتقدّم أو يتأخّر ، و

هو كقوله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » والمراد بالتقدم والتأخر السابق إلى الخير والتخلف عنه . انتهى .

قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » الباء بمعنى مع أو للسببية أو للمقابلة و « رهينة » بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشري قال في الكشف : رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله : « كل امرئ بما كسب رهين » لتأنيث النفس لأنه لو قصدت ل قيل : رهين لأنّ فعلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنّما هي اسم بمعنى الرهن كالشئمة بمعنى الشتم كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن . انتهى .

و كأنّ العناية في عدّ كل نفس رهينة أنّ الله عليها حقّ العبوديّة بالإيمان والعمل الصالح فهي رهينة محفوظة مجبوسة عند الله حتّى توفي دينه وتؤدّي حقه تعالى فإن آمنّت وصلحت فكّت وأطلقت ، وإن كفرت وأجّرت وماتت على ذلك كانت رهينة مجبوسة دائماً ، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خيرو شرّ كما تقدّم في قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » الطور : ٢١ .

والآية في مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله : « نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » فإنّ كون النفس الإنسانيّة رهينة بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقي النار التي ستحبس فيها إن أجّرت ولم تتبّع الحقّ .

قوله تعالى : « إلّا أصحاب اليمين » هم الذين يؤتون كتابهم بأيّمانهم يوم الحساب وهم أصحاب العقائد الحقّة والأعمال الصالحة من متوسطي المؤمنين ، وقد تكرر ذكرهم وتسميتهم بأصحاب اليمين في مواضع من كلامه تعالى ، وعلى هذا فالاستثناء متصل .

والمتمصل من مجموع المستثنى منه والمستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب إلى نفوس رهينة بما كسبت وهي نفوس المجرمين ، ونفوس مفكوكة من الرهن مطلقة وهي نفوس أصحاب اليمين ، وأمّا السابقون المقربون وهم الذين ذكرهم الله في مواضع من كلامه وعدّهم ثلاثة الطائفتين وغيرهما كما في قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة

- إلى أن قال - والسابقون السابقون أولئك المقربون « الواقعة : ١١ ، فهؤلاء قد استقرّوا في مستقرّ العبوديّة لا يملكون نفساً ولا عمل نفس فنفوسهم لله وكذلك أعمالهم فلا يحضرون ولا يحاسبون قال تعالى : « فأنهم لمحضرون إلّا عباد الله المخلصين » الصافات : ١٢٨ فهم خارجون عن المقسم رأساً .

عن بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالملائكة ، وعن بعضهم التفسير بأطفال المسلمين وعن بعضهم أنهم الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق ، وعن بعضهم أنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهي وجوه ضعيفة غير خفيّة الضعف .

قوله تعالى : « في جنّات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر » « في جنّات » خبر لمبتدأ مخدوف وتنوين جنّات للتعظيم ، والتقدير هم في جنّات لا يدرك وصفها ، ويمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين .

وقوله : « يتساءلون عن المجرمين » أي يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين .

وقوله : « ما سلككم في سقر » أي ما أدخلكم في سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة ، أو بتقدير القول أي قائلين ما سلككم في سقر .

قوله تعالى : « قالوا لم نك من المصلّين » ضمير الجمع للمجرمين ، والمراد بالصلاة التوجّه العبادي الخاص إلى الله سبحانه فلا يضرّه اختلاف الصلاة كمّاً وكيفاً باختلاف الشرائع السماويّة الحقّة -

قوله تعالى : « ولّم نك نطعم المسكين » المراد بإطعام المسكين الاتفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم ويرتفع به حاجتهم ، وإطعام المسكين إشارة إلى حقّ الناس عملاً كما أن الصلاة إشارة إلى حقّ الله كذلك .

قوله تعالى : « وكنتن نخوض مع الخائضين » المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولاً أو فعلاً والغور فيه .

قوله تعالى : « وكنتن نكذب بيوم الدين » وهو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلى بها كلّاً أو بعضاً ، ولما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحّت نسبة الجميع إلى الجميع وإن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض .

قوله تعالى : «حتّى أتانا اليقين» قيد للتكذيب، وفسّروا اليقين بالموت لكونه ممّا لا شكّ فيه فالمعنى وكنا في الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتّى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أي كنا نكذب به ما دامت الحياة .

وقيل : المراد به اليقين الحاصل بحقيّة يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة و معاينة الحياة البرزخيّة حين الموت وبعده ، وهو معنى حسن .

قوله تعالى : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » تقدّم في بحث الشفاعّة أنّ في الآية دلالة على أنّ هناك شافعين يشفعون فيشفّعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنّهم محرومون من نيلها .

وقد أوردنا جملة من أخبار الشفاعّة في الجزء الأوّل من الكتاب .





فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُرٌ مَّسْتَنَفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ
 مِنْ قُسُورَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنَشُورَةً (٥٢)
 كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ (٥٣) فَمَنْ شَاءَ
 ذَكَرْهُ (٥٤) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ
 الْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

﴿ بَيَان ﴾

في معنى الاستنتاج مما تقدم من الوعيد والوعد أورد في صورة التعجب من
 إعراضهم عن تذكرة القرآن و تنفيرهم عن الحق الصريح كأنه قيل : فإذا كان كذلك
 فعليهم أن يجيبوا دعوة الحق و يتذكروا بالتذكرة فمن العجب أنهم معرضون عن
 ذلك كلاً بل لا يؤمنون بالرسالة و يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من
 الله . كلاً بل لا يخافون الآخرة فلا يرددون عن وعيد .

ثم يعرض عليهم التذكرة غرضاً فهم على خيرة من القبول والردّ فان شاءوا
 قبلوا و إن شاءوا ردوا ، لكن عليهم أن يعلموا أنهم غير مستقلين في مشيئتهم و ليسوا
 بمعجزين لله سبحانه فليس لهم أن يذكروا إلا أن يشاء الله ، و حكم القدر جار
 فيهم البتة .

قوله تعالى « فما لهم عن التذكرة معرضين » تفريع على ما تقدم من التذكرة
 والموعظة ، والاستفهام للتعجب ، و « لهم » متعلق بمحذوف والتقدير فما كان لهم :
 و « معرضين » حال من ضمير « لهم » و « عن التذكرة » متعلق بمعرضين .

والمعنى فإذا كان كذلك فأَيُّ شيء كان - عرض - للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أي كان من الواجب عليهم أن يصدقوا و يؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها و هو من العجب .

قوله تعالى : « كأنّهم هم مستنفرة فرّت من قسورة » تشبيه لهم من حيث حالهم في الإعراض عن التذكرة، والجر جمع حمار ، والمراد الحمر الوحشية والاستنفار بمعنى النفرة والقسورة الأسد والصائد ، وقد فسرّ بكلّ من المعنيين .

والمعنى معرضين عن التذكرة كأنّهم هم وحشيّة نفرت من أسد أو من الصائد .

قوله تعالى : « بل يريد كلّ امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » المراد بالصحف المنشّرة الكتاب السماويّ المشتمل على الدعوة الحقّة .

وفي الكلام إضراب عمّا ذكر من إعراضهم ، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرّد النفرة بل يريد كلّ امرئ منهم أن ينزلّ عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن .

و هذه النسبة إليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنّما يقبلون دعوته ولا يردّونها لو دعا كلّ واحد منهم بإزال كتاب سماويّ إليه مستقلاًّ وأما الدعوة من طريق الرّسالة فليسوا يستجيبونها وإن كانت حقّة مؤيّدّة بالآيات البيّنة .

فالآية في معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم : « لن نؤمن حتّى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله » ، الأتعام : ١٢٤ ، وفي معنى قول الأّمم لرسلهم : « إن أتم إلّا بشر مثلنا » على ما قرّنا من حجّتهم على نفى رسالة الرسل .

وقيل : إنّ الآية في معنى قولهم للنبيّ ﷺ الذي حكاه الله في قوله : « و لن نؤمن لرقيك حتّى تنزلّ علينا كتاباً نقرؤه » ، أسرى : ٩٣ .

و يدفعه أنّ مدلول الآية أن ينزل على كلّ واحد منهم صحف منشّرة غير ما ينزل على غيره لا نزول كتاب واحد من السماء على النبيّ ﷺ يقرؤه الجميع كما هو مدلول آية الإسراء .

وقيل : المراد نزول كتب من السماء عليهم بأسمائهم أن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله .

وقيل : المراد أن ينزل عليهم كتب من السماء بالبراءة من العذاب وإسباغ النعمة حتى يؤمنوا وإلا بقوا على كفرهم وقيل غير ذلك .
وهي جميعاً معان بعيدة من السياق والتعويل على ما تقدم .

قوله تعالى : « كلاًّ بل لا يخافون الآخرة » ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوي على كل واحد منهم فإن دعوة الرسالة مؤيدة بآيات بيّنة وحجج قاطعة لا تدع ريباً لمرتاب فالحجة تامة قائمة على الرسول وغيره على حد سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفاً منشورة .

على أن الرسالة تحتاج من طهارة الذات وصلاحيّة النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سورة الأنعام عن قولهم : « لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله » بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وقوله : « بل لا يخافون الآخرة » إضراب عن قوله : « يريد كل امرئ منهم » الخ والمراد أن اقترحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهريّ منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم ، والسبب الحقيقي لكفرهم وتكذيبهم بالدعوة أنهم لا يخافون الآخرة ، و لو خافوها لآمنوا ولم يقترحوا آية بعد قيام الحجة بظهور الآيات البيّنات .

قوله تعالى : « كلاًّ إنه تذكرة » ردع ثانٍ لا قراحهم نزول كتاب سماوي لكل امرئ منهم ، والمعنى لا تنزل كتاباً كذلك إن القرآن تذكرة وموعظة نعظهم به لا نريد به مزيد من ذلك ، وأثر ذلك ما أعد للمطيع والعاصي عندنا من الجزاء .

قوله تعالى : « فمن شاء ذكره » أي فمن شاء اتعظ به فإنما هي دعوة في ظرف الاختيار من غير إكراه .

قوله تعالى : « وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى : « فمن شاء ذكره » أن الأمر إليهم وأنهم

مستقلّون في إرادتهم و ما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشأوا الذكر و لم يذكروا غلبوه تعالى فيما أراد و أعجزوه فيما شاء من ذكرهم .

والمحصل من الدفع أنّ حكم القدر جار في أفعالهم كغيرها من الحوادث ، و تذكّرهم إن تذكروا و إن كان فعلاً اختيارياً صادراً عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشيئة الإلهية متعلّقة به بما هو اختياري بمعنى أنّ الله تعالى يريد بأرادة تكوينية أن يفعل الإنسان الفعل الفلانيّ بإرادته واختياره فالفعل اختياريّ ممكن بالنسبة إلى الإنسان و هو بعينه متعلّق الإرادة الإلهية ضروريّ التحقق بالنسبة إليها و لولاها لم يتحقّق .

و قوله : « هو أهل التقوى و أهل المغفرة » أي هو أهل لأن يتّقى منه لأنّ له الولاية المطلقة على كلّ شيء ، و بيده سعادة الإنسان و شقاوته ، و أهل لأن يغفر لمن اتّقاء لأنّه غفور رحيم .

والجملة أعني قوله : « هو أهل التقوى و أهل المغفرة » صالحة لتعليل ما تقدّم من الدعوة في قوله : « إنّه تذكرة فمن شاء ذكره » وهو ظاهر ، ولتعليل قوله : « وما يذكرون إلّا بإشياء الله » فإنّ كونه تعالى أهل التقوى و أهل المغفرة لا يتمّ إلّا بكونه ذا إرادة نافذة فيهم سارية في أعمالهم فليسوا بمخلّين و ما يهوونه و هم معجزون لله بتمرّدهم و استكبارهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « بل يريد كلّ امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشورة » وذلك أنّهم قالوا : يا عمّ قد بلغنا أنّ الرجل من بني إسرائيل كان يذنب الذنب فيصبح و ذنبه مكتوب عند رأسه و كفّارته .

فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وقال : يسألك قومك سنّة بني إسرائيل

في الذنوب فإن شاءوا فعلنا ذلك بهم وأخذناهم بما كنّا نأخذ بنى إسرائيل فزعموا أن رسول الله ﷺ كره ذلك لقومه .

أقول : والقصة لا تلائم لحن الآية و الرواية لا تخلو من إيماء إلى ضعف القصة .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن السديّ عن أبي صالح قال : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منّا صحيفة فيها براءته وأمنته من النار فنزلت : « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » .

أقول : سياق الآيات وما فيها من الردع لا يلائم القصة .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » قال : إلى فلان بن فلان من رب العالمين يصبح عند رأس كل رجل صحيفة موضوعة يقرأها .

أقول : ما في الرواية يقبل الانطباق على الرواية السابقة وما قد علمناه من معنى الآية .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى : « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » قال : قد قال قائلون من الناس لمحمد ﷺ : إن سرّك أن نتابعك فأتنا بكتاب خاصة يأمرنا باتّباعك .

أقول : الرواية قابلة للتطبيق لما في تفسير الآية من القول بأن الآية في معنى قوله تعالى : « ولن تؤمن لرفيئك » الآية وقد تقدّم ما فيه .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » قال : هو أهل أن يتقى وأهل أن يغفر .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » قال : قال الله عز وجل : أنا أهل أن اتقى ولا يشرك بي عبدي شيئاً وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئاً أن أدخله الجنة .

وقال : إنّ الله تبارك وتعالى أقسم بعزّته وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده
بالنار .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن دينار قال : سمعت أبا هريرة
وابن عمر وابن عباس يقولون : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله : «هو أهل التقوى
وأهل المغفرة» قال : يقول الله : أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي شريك فإذا اتقيت
ولم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك .
أقول : وفي معناه غير واحد من الروايات عنه ﷺ .



﴿سورة القيامة مكيّة وهي أربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ
 اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ
 نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ (٦)
 فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩)
 يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
 الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ
 نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) .

﴿بيان﴾

يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى فتنبئ بوقوع يوم القيامة أولاً
 ثم تصفه ببعض أشراته تارة، وبأجمل ما يجري على الإنسان أخرى، وينبئ أن المساق
 إليه يبدأ من يوم الموت ، وتختتم بالاحتجاج على القدرة على إعادة القدرة على
 الابتداء .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ » إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون
 « لَا أُقْسِمُ » كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال .

قوله تعالى : « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » إقسام ثان على ما يقتضيه السياق
 ومشكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل : أنه نفي الإقسام وليس بقسم ، والمراد أقسم بيوم

القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة .

والمراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية والتثاقل في الطاعة وتنفعه يوم القيامة .

وقيل : المراد به النفس الإنسانية أعمّ من المؤمنة الصالحة والكافرة الفاجرة فإنّها تلوم الإنسان يوم القيامة أمّا الكافرة فإنّها تلومه على كفره وفجوره ، وأمّا المؤمنة فإنّها تلومه على قلّة الطاعة وعدم الاستكثار من الخير .

وقيل : المراد نفس الكافر التي تلومه يوم القيامة على ما قدّم من كفر ومعصية قال تعالى : « وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب » يونس : ٥٣ .
ولكلّ من الأقوال وجه .

وجواب القسم محذوف يدلّ عليه الآيات التالية ، والتقدير ليعثنّ ، وإنّما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره قال تعالى : « نقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغيّة » الأعراف : ١٨٧ ، وقال : « إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى » طه : ١٥ ، وقال : « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم » النبأ : ٢ .
قوله تعالى : « أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه » الحسبان الظنّ ، وجمع العظام كناية عن الإحياء بعد الموت ، والاستفهام للتوبيخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » أي بلى نجمعها ، « وقادرين » حال من فاعل مدخول بلى المقدّر ، والبنان أطراف الأصابع وقيل : الأصابع ، و تسوية البنان تصويرها على ماهي عليها من الصور ، والمعنى بلى نجمعها والحال أنّا قادرين على أن نصوّر بناند على صورها التي هي عليها بحسب خلقنا الأوّل .

وتخصيص البنان بالذكر - لعلّه - للإشارة إلى عجيب خلقها بمالها من الصور وخصوصيّات التركيب والغدد تترتّب عليها فوائد جمّة لا تكاد تحصى من أنواع القبض والبسط والأخذ والردّ وسائر الحركات اللطيفة والأعمال الدقيقة والصنائع الظريفة التي يمتاز بها الإنسان من سائر الحيوان مضافاً إلى ما عليها من الهيئات والخطوط التي لا يزال ينكشف للإنسان منها سرّ بعد سرّ .

وقيل : المراد بقسوية البنان جعل أصابع اليدين والرجلين مستوية شيئاً واحداً من غير تفريق كخفّ البعير وحافر الحمار والمعنى قادرين على أن نجعلها شيئاً واحداً فلا يقدر إلاّ إنسان حينئذ على ما يقدر عليه مع تعدّد الأصابع من فنون الأعمال ، والوجه المتقدم أرجح .

قوله تعالى : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » قال الراغب : الفجر شقّ الشيء شقاً واسماً . قال : والفجور شقّ ستر الديانة يقال : فجر فجوراً فهو فاجر وجمعه فجّار وفجرة . انتهى ، و « أمام » ظرف مكان استعير لمستقبل الزمان ، والمراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره وما دام حياً ، وضمير « أمامه » للإنسان . وقوله : « ليفجر أمامه » تعليل سادّ مسدّد معلّله وهو التّكذيب بالبعث والاحياء بعد الموت ، و « بل » إضراب عن حسابه عدم البعث والاحياء بعد الموت .

والمعنى أنّه لا يحسب أن لن نجتمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان والتقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب والجزاء . هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ، ولهم وجوه آخر ذكروها في معنى الآية بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها .

وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكته فيه زيادة التوبيخ والمبالغة في التّفريع ، وقد كرّر ذلك في الآية وما يتلوها من الآيات أربع مرّات .

قوله تعالى : « يسأل أيّان يوم القيامة » الظاهر أنّه بيان لقوله : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » فيفيد التعليل وأنّ السائل في مقام التّكذيب والسؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي إلى الإيمان والتقوى ، وأنذر بهذا النّباء العظيم مع دلالة الآيات البيّنة وقيام الحجج القاطعة أن يتخذ جذره ويتجهّز بالإيمان والتقوى وينتهي للقاء اليوم قريباً كان أو بعيداً فكلّ ما هوأت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة ؟ وأيّان يوم القيامة ؟ فليس إلّا سؤال مكذب مستهزئ .

قوله تعالى : « فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر » ذكر

جملة من أشرار الساعة ، وبريق البصر تحيّرهُ في إبصاره ودهشته ، وخسوف القمر زوال نوره .

قوله تعالى : « يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ » أي أين موضع الفرار ، وقوله : « أين المفرّ » مع ظهور السلطنة الإلهيّة له وعلمه بأن لا مفرّ ولا فرار يومئذ من باب ظهور ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفرّ إذا وقع في شدّة أو هددته مهلكة وذلك كما نكاهم الشرك يومئذ وحلفهم كذباً قال تعالى : « ثمّ لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين » الانعام : ٢٣ ، وقال : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم » المجادلة : ١٨ .

قوله تعالى : « كلاًّ وزر » ردع عن طلبهم المفرّ ، والوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما ، وهو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان .

قوله تعالى : « إلى ربّك يومئذ المستقرّ » الخطاب للنبيّ ﷺ ، وتقديم « إلى ربّك » وهو متعلّق بقوله : « المستقرّ » يفيد الحصر فلا مستقرّ إلى غيره فلا وزر ولا ملجأ يلتجأ إليه فيمنع عنه .

وذلك أنّ الإنسان سائر إليه تعالى كما قال : « يا أيّها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقية » الانشقاق : ٤ وقال : « إنّ إلى ربّك الرجعى » العلق : ٨ وقال : « وأنّ إلى ربّك المنتهى » النجم : ٤٢ فهو ملاقي ربّه راجع ومنتّه إليه لا حاجب يحجبه عنه ولا مانع يمنعه منه وأمّا الحجاب الذي يشير إليه قوله : « كلاًّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلاًّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ فسياق الآيتين يعطي أنّ المراد به حجاب الحرمان من الكرامة لا حجاب الجهل أو الغيبة .

ويمكن أن يكون المراد بكون مستقرّه إليه رجوع أمن ما يستقرّ فيه من سعادة أو شقاوة وجنّة أو نار إلى مشيئته تعالى فمن شاء جعله في الجنّة وهم المتّقون ومن شاء جعله في النار وهم المجرمون قال تعالى : « يعذبّ من يشاء ويفخر لمن يشاء » المائدة : ٤٠ .

ويمكن أن يراد به أن استقراهم يومئذ إلى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » القصص: ٨٨ .
قوله تعالى : « ينبئ الإنسان يومئذ بما قدم وأختر » المراد بما قدم وأختر ما عمله من حسنة أو سيئة في أول عمره وآخره أو ما قدمه على موته من حسنة أو سيئة وما أختر من سنة حسنة سنّها أو سنة سيئة فيثاب بالحسنات ويعاقب على السيئات .

و قيل : المراد بما قدم ما عمله من حسنة أو سيئة فيثاب على الأول ويعاقب على الثاني ، وبما أختر ما تركه من حسنة أو سيئة فيعاقب على الأول ويثاب على الثاني ، وقيل : المراد ما قدم من المعاصي وما أختر من الطاعات ، وقيل : ما قدم من طاعة الله وأختر من حقه فضيعة ، وقيل : ما قدم من ماله لنفسه وما ترك لورثته وهي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » إضراب عن قوله : « ينبئ الإنسان » الخ ، والبصيرة رؤية القلب والادراك الباطني وإطلاقها على الإنسان من باب زيد عدل أو التقدير الإنسان ذو بصيرة على نفسه .

و قيل : المراد بالبصيرة الحجّة كما في قوله تعالى : « ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السماوات والأرض بصائر » أسرى : ١٠٢ والإنسان نفسه حجّة على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ويشهد عليه سمعه وبصره وجملة ويتكلّم يدها ورجلاه قال تعالى : « إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا » أسرى : ٣٦ ، وقال : « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم » حمّ السجدة : ٢٠ . وقال : « وتكلّمنا أيديهم وشهد أرجلهم » يس : ٦٥ .

وقوله : « ولو ألقى معاذيره » المعاذير جمع معذرة وهي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب ، والمعنى هو ذو بصيرة على نفسه ولو جادل عن نفسه واعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها .

و قيل : المعاذير جمع معذار و هو الستر والمعنى و إن أرخى الستور ليخفى ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه و مآل الوجهين واحد .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمىّ في قوله تعالى : « و لا أقسم بالنفس اللوامة » قال : نفس آدم التي عصت فلامها الله عزّ وجلّ .

أقول : و في انطباقها على الآية خفاء .

وفيه في قوله : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » قال : يقدم الذنب و يؤخر التوبة و يقول : سوف أتوب .

و فيه في قوله : « فإذا برق البصر » قال : يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف .

و فيه في قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره » قال : يعلم ما صنع و إن اعتذر .

وفي الكافي باسناده عن عمر بن يزيد قال : إني لا تعشّي مع أبي عبد الله عليه السلام و تلا هذه الآية « بل الإنسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره » ثمّ قال : يا أبا حفص ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه ؟ إن رسول الله عليه السلام كان يقول : من أسرّ سريرة ألبسه الله رداها إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ .

و في المجمع و روى العياشيّ باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً و يستر سيئاً ؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك ؟ والله سبحانه يقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » إن السريرة إذا صلحت قويت العلانية .

أقول : و رواه في أصول الكافي باسناده عن فضل أبي العباس عنه عليه السلام .

و فيه عن العياشيّ عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام ما حدّ المرض الذي يفطر صاحبه ؟ قال : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » هو أعلم بما يطيق .

أقول : و رواه في الفقيه أيضاً .



لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)
 فَإِذَا قَرَأَنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ
 الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى
 رَبِّهَا نَاضِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا
 فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مِنْ رَأْدٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ
 الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّتَمَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)
 فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ
 يَتَمَطَّى (٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٤) ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٥) أَيْحَسِبُ
 الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ
 عَاقِلَةً فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكور و الانثى (٣٩)
 أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)

﴿ بيان ﴾

تمتة صفة يوم القيامة باعتبار حال الناس فيه وانقسامهم إلى طائفة ناضرة الوجوه
 مبتهجين وأخرى باسرة الوجوه عابسين آيسين من النجاة ، والإشارة إلى أن هذا

المساق بتبديء من حين نزول الموت ثم الإشارة إلى أن الإنسان لا يترك سدى فالذي خلقه أو لا قادر على أن يحييه ثانياً وبه تختتم السورة .

قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به - إلى قوله - ثم إن علينا بيانه »
الذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفظها من الآيات المتقدمة والمتأخرة الواصفة
ليوم القيامة أنها معترضة متضمن أدباً إلهياً كلف النبي ﷺ أن يتأدب به حينما
يتلقى ما يوحى إليه من القرآن الكريم فلا يبادر إلى قراءة ما لم يقرأ بعد ولا يحرك به
لسانه وينصت حتى يتم الوحي .

فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى
إليك وحيه » طه : ١١٤ .

فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلم من أثناء حديثه لمخاطبه
إذا بادر إلى تميم بعض كلام المتكلم باللفظة واللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم و
ذلك يشغله عن التجرد للإصناف فيقطع المتكلم حديثه ويعترض ويقول لا تعجل
بكلامي وأنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضي في حديثه .

فقوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » الخطاب فيه للنبي ﷺ ، والضمير ان
للقرآن الذي يوحى إليه أو للوحي والمعنى لا تحرك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلاً
فتسبقنا إلى قراءة ما لم نقرأ بعد فهو كما مر في معنى قوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل
أن يلقى إليك وحيه » طه : ١١٤

وقوله : « إن علينا جمعه وقرآنه » القرآن ههنا مصدر كالفرقان والرجحان ،
والضمير ان للوحي والمعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجتمع ما نوحيه إليك بضم بعض
أجزائه إلى بعض وقراءته عليك فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى
قراءة ما لم نوحه بعد .

وقيل : المعنى إن علينا أن نجتمع في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه
وأن تثبت قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت ولا يخلو من بعد .

وقوله : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » أي فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً فاتبع

قراءتنا له واقراء بعد تمامها .

وقيل : المراد باتّباع قرآنه اتّباعه ذهنياً بالانصات والتوجّه التامّ إليه وهو معنى لا بأس به .

وقيل : المراد فاتّبع في الأمر والنواهي قرآنه ، وقيل : المراد اتّباع قراءته بالتكرار حتّى يرسخ في الذهن وهما معنيان بعيدان .

وقوله : « ثمّ إنّ علينا بيانه » أي علينا إيضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه و قرآنه فثمّ للتأخير الربّي لأنّ البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة .

وقيل : المعنى ثمّ إنّ علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغيّر والزوال حتّى تقرأه على الناس .

وقال بعضهم في معنى هذه الآيات إنّ النبيّ ﷺ كان يحرك لسانه عند الوحي بما ألقى إليه من القرآن مخافة أن ينساه فنهى عن ذلك بالآيات وأمر بالانصات حتّى يتمّ الوحي فضمير « لا تحرك به » للقرآن أو الوحي باعتبار ما قرء عليه منه لا باعتبار ما لم يقرء بعد .

وفيه أنّه لا يلائم سياق الآيات : تلك الملازمة نظراً إلى ما فيها من النهي عن العجل والأمر باتّباع قرآنه تعالى بعد ما قرء ، وكذا قوله : « إنّ علينا جمعه وقرآنه » فذلك كلّّه أظهر فيما تقدّم منها في هذا المعنى .

وعن بعضهم في معنى هذه الآيات : الذي اختاره أنّه لم يرد القرآن ، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة يدلّ على ذلك ما قبله وما بعده ، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن ولا شيء من أحكام الدنيا .

وفي ذلك تفرّيع وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة يقول : لا تحرك لسانك بما تقرأه من صحيفتك التي فيها أعمالك يعني اقرأ كتابك ولا تعجل فإنّ هذا الذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيّآته ضجر واستعجل فيقال له توبيخاً : لا تعجل وثبتت لتعلم الحجة عليك فإنّا نجعلها لك فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بالانقياد

لحكمه والاستسلام للتبعة فيه فإنه لا يمكنك إنكاره ثم إن علينا بيانه لو أنكرت . انتهى .

ويدفعه أن المعترضة لا تحتاج في تمام معناها إلى دلالة مما قبلها وما بعدها عليه على أن مشكلة قوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه » في سياقه لهذه الآيات تؤيد مشاكلتها له في المعنى .

وعن بعضهم أن الآيات الأربع متصلة بما تقدم من حديث يوم القيامة ، وخطاب « لا تحرك » للنبي ﷺ ، وضمير « به » ليوم القيامة ، والمعنى لا تنفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلاً ولو كنت غير مكذب ولا مستهزئ « لتعجل به » أي بالعلم به « إن علينا جمعه وقرآنه » أي من الواجب في الحكمة أن نجتمع من نجمعه فيه ونوحي شرح وصفه إليك في القرآن « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » أي إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له « ثم إن علينا بيانه » أي إظهار ذلك بالنفخ في الصور انتهى ملخصاً وهو كما ترى .

وقد تقدم في تفسير قوله : « ولا تعجل بالقرآن » أن هذا النهي عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد في الروايات أن للقرآن نزولاً على النبي ﷺ دفعة غير نزوله تدريجاً .

قوله تعالى : « كلاً بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » خطاب للناس وليس من تعميم الخطاب السابق في شيء لأن خطاب « لا تحرك » اعتراضى غير مرتبط بشيء من طرفيه .

وقوله : « كلاً » ردع عن قوله السابق : « يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه » وقوله : « بل تحبون العاجلة » - أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا - « وتذرون الآخرة » أي تتركون الحياة الآخرة ، وما في الكلام من الإضراب إضراب عن حسابان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب في قوله : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » .

قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين : ناضرة وباسرة ، ونضرة الوجه واللون والشجر ونحوها ونضارتها

حسنها وبهجتها .

والمعنى نظراً إلى ما يقابله من قوله : « وجوه يومئذ باسرة » الخ وجوه يوم
إذ تقوم القيامة حسنة متهللة ظاهرة المسرّة والبشاشة قال تعالى : « تعرف في وجوههم
نضرة النعيم » المطففين : ٢٤ ، وقال : « ولقاهم نضرة وسروراً » الدهر : ١١ .
وقوله : « إلى ربّها ناظرة » خبر بعد خبر لوجوه ، و « إلى ربّها » متعلّق بناظرة
قدّم عليها لإفادة الحصر أو الأهميّة .

والمراد بالنظر إليه تعالى ليس هو النظر الحسّي المتعلّق بالعين الجسمانيّة
المادّيّة التي قامت البراهين القاطعة على استحالاته في حقّه تعالى بل المراد النظر
القلبيّ ورؤية القلب بحقيقة الإيمان على ما يسوق إليه البرهان ويدلّ عليه الأخبار
المأثورة عن أهل العصمة عليهم السلام وقد أوردنا شطراً منها في ذيل تفسير قوله تعالى :
« قال ربّ أرني أنظر إليك » الأعراف : ١٤٣ ، وقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى »
النجم : ١١ .

فهؤلاء قلوبهم متوجّهة إلى ربّهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب
لتقطع الأسباب يومئذ ، ولا يقفون موقفاً من مواقف اليوم ولا يقطعون مرحلة من
مراحلها إلّا والرحمة الإلهيّة شاملة لهم « وهم من فزع يومئذ آمنون » النمل : ٨٩
ولا يشهدون مشهداً من مشاهد الجنّة ولا يتنعمون بشيء من نعيمها إلّا وهم يشاهدون
ربّهم به لأنّهم لا ينظرون إلى شيء ولا يرون شيئاً إلّا من حيث إنّه آية لله سبحانه
والنظر إلى الآيّة من حيث إنّها آية ورؤيتها نظر إلى ذي الآيّة ورؤية له .

و من هنا يظهر الجواب عمّا أورد على القول بأنّ تقديم « إلى ربّها » على
« ناظرة » يفيد الحصر والاختصاص ، أنّ من الضروري أنّهم ينظرون إلى غيره تعالى
كنعم الجنّة .

و الجواب أنّهم لما لم يحجبوا عن ربّهم كان نظرهم إلى كلّ ما ينظرون إليه
إنّما هو بما أنّه آية ، والآيّة بما أنّها آية لا تحجب ذا الآيّة ولا تحول بينه وبين

الناظر إليه فالنظر إلى الآية نظر إلى ذي الآية فهو لاء لا ينظرون في الحقيقة إلا إلى ربهم .

و أما ما أُجيب به عنه أن تقديم « إلى ربها » لرعاية الفواصل و لو سلم أنه للاختصاص بالنظر إلى غيره في جنب النظر إليه لا يعدّ نظراً ، و لو سلم فالنظر إليه تعالى في بعض الأحوال لا في جميعها .

فلا يخلو من تكلف التقييد من غير مقيّد على أنّه أسند النظر إلى الوجوه لا إلى العيون أو الأبصار ووجوه أهل الجنة إلى ربهم دائماً من غير أن يواجهوا بها غيره .

قوله تعالى : « ووجوه يومئذ باسرة تظنّ أن يفعل بها فاقرة » فسر البسور بشدّة العبوس والظنّ بالعلم و« فاقرة » صفة محذوفة الموصوف أي فعلة فاقرة ، والفاقرة من فقره إذا أصاب فقار ظهره ، وقيل : من فقرت البعير إذا سمت أنفه بالنار .

والمعنى و وجوه يومئذ شديدة العبوس تعلم أنّه يفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم أنوفها بالنار ، واحتمل أن يكون تظنّ خطاباً للنبي ﷺ بما أنّه سامع والظنّ بمعناه المعروف .

قوله تعالى : « كلاًّ إذا بلغت التراقي » ردع عن حبّهم العاجلة و إثارةها على الآخرة كأنّه قيل : ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم وسينزل عليكم الموت فتساقون إلى ربكم و فاعل « بلغت » محذوف يدلّ عليه السياق كما في قوله تعالى : « فلولاً إذا بلغت الحلقوم » الواقعة : ٨٣ والتقدير إذا بلغت النفس التراقي .

والتراقي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال جمع ترقوة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وقيل من راق » اسم فاعل من الرقى أي قال من حضره من أهله وأصدقائه من يرقيه و يشفيه ؟ كلمة يأس ، وقيل : المعنى قال بعض الملائكة لبعض : من يرقى بروحه من الملائكة أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟

قوله تعالى : « وظنّ أنّه الفراق » أي وعلم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه

الأحوال أنه مفارقتة للعاجلة التي كان يحبها ويؤثرها على الآخرة .

قوله تعالى : « والتفت الساق بالساق » ظاهره أن المراد به التفاف ساق

المحتضر بساقه ببطلان الحياة السارية في أطراف البدن عند بلوغ الروح التراقي .

وقيل : المراد به التفاف شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا : وقيل : التفاف حال

الموت بحال الحياة ، وقيل : التفاف ساق الدنيا وهي شدة كرب الموت بساق الآخرة

وهي شدة هول المطلع .

ولا دليل من جهة اللفظ على شيء من هذه المعاني نعم من الممكن أن يقال :

إن المراد بالتفاف الساق بالساق غشيان الشدائد وتعاقبها عليه واحدة بعد أخرى

من حينه ذلك إلى يوم القيامة فينطبق على كل من المعاني .

قوله تعالى : « إلى ربك يومئذ المساق » المساق مصدر ميمي بمعنى السوق ،

والمراد بكون السوق يومئذ إليه تعالى أنه الرجوع إليه ، وعبر بالمساق للإشارة

إلى أن لاخيرة للإنسان في هذا المسير ولا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم

موته وهو قوله : « إلى ربك يومئذ المساق » حتى يرد على ربه يوم القيامة وهو

قوله : « إلى ربك يومئذ المستقر » ولو كان تقديم « إلى ربك » لإفادة الحصر أفاد

انحصار الغاية في الرجوع إليه تعالى .

وقيل : الكلام على تقدير مضاف وتقديم « إلى ربك » لإفادة الحصر والتقدير

إلى حكم ربك يومئذ المساق أي يساق ليحكم الله ويقضي فيه بحكمه ، أو التقدير

إلى موعد ربك وهو الجنة والنار ، وقيل : المراد برجوع المساق إليه تعالى أنه

تعالى هو السائق لا غير ، والوجه ما تقدم .

قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى » ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله

يتمطى » الضمائر راجعة إلى الإنسان المذكور في قوله : « أychسب الإنسان » الخ ،

والمراد بالتصديق المنفي تصديق الدعوة الحقّة التي يتضمنها القرآن الكريم ، و

بالتصليّة المنفيّة التوجّه العبادي إليه تعالى بالصلاة التي هي عمود الدين .

و التمطى - على ما في المجمع - تمدّد البدن من الكسل وأصله أن يلوي

مطاه أي ظهره ، والمراد بتمطّطيه في ذهابه التبختر والاختيال استعارة .
و المعنى فلم يصدّق هذا الانسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد ولم يصلّ لربه
أي لم يتبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاة و لكن كذب بها و تولّى عنها ثمّ
ذهب إلى أهله يتبختر و يختال مستكبراً .

قوله تعالى « أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى » لا ريب أنّه كلمة تهديد
كرّرت لتأكيد التهديد ، ولا يبعد - والله أعلم - أن يكون قوله : « أولى لك » خبراً
لمبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى ما ذكر من حال هذا الانسان و هو أنّه لم يصدّق
و لم يصلّ و لكن كذب و تولّى ثمّ ذهب إلى أهله متبختراً مختلاً ، وإثبات ما هوفيه من
الحال له كناية عن إثبات ما هو لازم من التبعة والعقاب .

فيكون الكلام و هي كلمة ملقاة من الله تعالى إلى هذا الانسان كلمة طبع
طبع الله بها على قلبه حرم بها الايمان والتقوى و كتب عليه أنّه من أصحاب النار ،
والآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى : « فاذا أنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال
رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم »
سورة محمد : ٢٠ .

و المعنى ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى
لتذوق وبال أمرك و يأخذك ما أعدّ لك من العذاب .

وقيل : أولى لك اسم فعل مبنيّ و معناه وليك شرّ بعد شرّ .

و قيل : أولى فعل ماض دعائيّ من الولي بمعنى القرب و فاعل الفعل ضمير
مستتر عائد إلى الهلاك واللامّ مزيدة والمعنى أولاك الهلاك .

وقيل : الفاعل ضمير مستتر راجع إليه تعالى واللامّ مزيدة والمعنى أولاك الله
ما تكرهه ، أو غير مزيدة والمعنى أدناك الله ممّا تكرهه .

و قيل : معناه الذمّ أولى لك من تركه إلا أنّه حذف وكثر في الكلام حتّى
صار بمنزلة الويل لك و صار من المحذوف الذي لا يجوز إظهاره

و قيل : المعنى أهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شرّ وهلاك .
 وقيل : أولى أفعّل تفضيل بمعنى الأحرى ، وخبر لمبتدئ مخدوف يقدر كما يليق
 بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أي أنت أحقّ بها وأهل لها فأولى .
 وهي وجوه ضعيفة لا تخلو من تكلف و الوجه الأخير قريب ممّا قدّمنا و
 ليس به .

قوله تعالى : « أيعسب الإنسان أن يترك سدى » مختتم فيه رجوع إلى ما
 في مفتتح السورة من قوله : « أيعسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه » .
 والاستفهام للتوبيخ ، والسدى المهمل ، والمعنى أيظنّ الإنسان أن يترك مهملاً
 لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت و لازمه أن لا يكلف ولا يجزى .
قوله تعالى : « ألم يك نطفة من منيّ يمنى » اسم كان ضمير راجع إلى
 الإنسان ، و إمناء المنى صبّه في الرحم .
قوله تعالى : « ثمّ كان علقه فخلق فسوّى » أي ثمّ كان الإنسان - أو المنى -
 قطعة من دم منعقد فقدّره فسوّره بالتعديل و التكميل .

قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكور و الأنثى » أي فجعل من الإنسان
 الصنفين : الذكر و الأنثى .

قوله تعالى : « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » احتجاج على البعث
 الذي ينكرونه استبعاداً له بعموم القدرة و ثبوتها على الخلق الابتدائيّ و الإعادة لا
 تزيد على الابتداء مؤنة بل هي أهون ، و قد تقدّم الكلام في تقريب هذه الحجّة في
 تفسير الآيات المتعرّضة لها مراراً .



﴿بحث روائى﴾

في الدّر المنثور أخرج الطيالسيّ وأحمد وعبد بن حميد والبخاريّ ومسلم و
الترمذي والنسائيّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأثير في المصاحف
والطبرانيّ وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقيّ معاً في الدلائل عن ابن عباس قال: كان
رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك به لسانه وشفته مخافة أن
ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه
وقرآنه» قال: يقول: «إن علينا أن نجعله في صدرك ثم نقرأه» فإذا قرأناه يقول:
«إذا أنزلناه عليك» فاتبع قرآنه فاستمع له وأنصت «ثم إن علينا بيانه» بيّنه [بيّنه ظ]
بلسانك، وفي لفظ علينا أن نقرأه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق -
وفي لفظ استمع - فإذا ذهب قرء كما وعده الله .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه القرآن تعجل بقراءته ليحفظه فنزلت هذه الآية «لا تحرك
به لسانك» .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم ختم سورة حتى ينزل عليه بسم
الله الرحمن الرحيم .

اقول: وروى ما في معنى صدر الحديث في المجمع عن ابن جبرير في معناه غير
واحد من الروايات، وقد تقدّم أن في انطباق هذا المعنى على الآيات خفاء .
وفي تفسير القمي قوله تعالى: «كلا بل تحبون العاجلة» قال: الدنيا الحاضرة
«وتذرون الآخرة» قال: تدعون «وجوه يومئذ ناضرة» أي مشرقة «إلى ربّها ناظرة»
قال: ينظرون إلى وجه الله أي رحمة الله ونعمته .

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من أخبار التوحيد بإسناده إلى
إبراهيم بن أبي محمود قال: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام في قوله تعالى: «وجوه يومئذ

ناضرة إلى ربها ناظرة ، يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها .

أقول : ورواه في التوحيد والاحتجاج والمجمع عن علي عليه السلام ، وقد اعترض على أخذ ناظرة بمعنى منتظرة بأن الانتظار لا يتعدى إلى بل هو متعدٍ بنفسه ، ورد عليه في مجمع البيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك جدتني نعماً

وقول الآخر :

إنني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

وعدّ في الكشف إطلاق النظر في الآية بمعنى الانتظار استعمالاً كنايةً وهو

معنى حسن

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن أدنى أهل الجنة منزلاً لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية .

ثم قرأ رسول الله ﷺ : « وجوه يومئذ ناظرة » قال : البياض والصفاء « إلى ربها ناظرة » قال : ينظر كل يوم في وجهه .

أقول : الرواية تقبل الانطباق على المعنى الذي أوردناه في تفسير الآية ، ومع الفض عنه تقبل الحمل على رحمته وفضله وكرمه تعالى وسائر صفاته الفعلية فإن وجه الشيء ما يستقبل به الشيء غيره وما يستقبل به الله سبحانه خلقه هو صفاته الكريمة فالنظر إلى رحمة الله وفضله وكرمه وصفاته الكريمة نظر إلى وجه الله الكريم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله : « وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » قال : ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة .

أقول : والرواية تؤيد ما قدّمنا في تفسير الآية أن المراد به النظر القلبي

و رؤية القلب دون العين الحسيّة ، وهي تفسّر ما ورد في عدّة روايات من طرق أهل السنّة ممّا ظاهره التشبيه و أنّ الرؤية بالعين الحسيّة التي لا تفارق المحدوديّة .
و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « كلاًّ إذا بلغت التراقي » قال : يعني النفس إذا بلغت الترقوة « وقيل من راق » قال : يقال له : من يرفيك « وظنّ أنّه الفراق » علم أنّه الفراق .

في الكافي بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألت عن قول الله عزّ وجلّ : « وقيل من راق وظنّ أنّه الفراق » قال : فإنّ ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت قال : هل من طبيب « وظنّ أنّه الفراق » أيقن بمفارقة الأُحبة « والتفتّ الساق بالساق » قال : التفتّ الدنيا بالآخرة « إلى ربك يومئذ المساق » قال : المصير إلى ربّ العالمين .

و في تفسير القميّ « والتفتّ الساق بالساق » قال : التفتّ الدنيا بالآخرة « إلى ربك يومئذ المساق » قال : يساقون إلى الله .

و في العيون بإسناده عن عبد العظيم الحسنيّ قال : سألت محمد بن عليّ الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى » قال : يقول الله عزّ وجلّ : بعداً لك من خير الدنيا و بعداً لك من خير الآخرة .
أقول : يمكن إرجاعه إلى ما قدّمناه من معنى الآيتين ، و كذا إلى بعض ما قيل فيه .

و في المجمع وجاءت الرواية أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد أبي جهل ثمّ قال له : أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى . فقال أبو جهل : بأيّ شيء تهدّني لا تستطيع أنت و ربك أن تفعل بي شيئاً ، و إنني لأعزّ أهل هذا الوادي ، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله .

أقول : و روى ما في معناه في الدر المنثور عن عدّة عن قتادة قال : ذكر لنا و ساق الحديث .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » قال :

لا يحاسب ولا يعذب ولا يسأل عن شيء .

و في العلل بإسناده إلى مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : يا أبا عبد الله إننا خلقنا للعجب قال : وما ذلك لله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء فقال يا بن أخ خلقنا للبقاء ، وكيف يفنى جنّة لا تبديد و نار لا تخمد ؟ ولكن قل : إنما تتحول من دار إلى دار .

و في المجمع و جاء في الحديث عن البراء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » قال رسول الله ﷺ : سبحانك اللهم وبلى و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : و روى في الدر المنثور عن أبي هريرة و غيره أنه ﷺ إذا قرء الآية قال : سبحانك اللهم وبلى ، و كذا في العيون عن الرضا عليه السلام أنه كان إذا قرء السورة قال عند الفراغ سبحانك اللهم بلى .



﴿سورة الدهر مدنية وهي إحدى و ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ
لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)
إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَاسِلًا وَاعْغَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ
كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَ
يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
لُوحَهُ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَمَطِيرًا (١٠) فَوَقَّيْهِمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيْهِمُ نَصْرَةً وَ
سُرُورًا (١١) وَجَزَّيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكئينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا
وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيَسْقُونَ
فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ حَسِبَتْهُمُ أَنْوَارًا مَنُورًا (١٩) وَإِذَا

رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ
وَ اسْتَبْرَقٌ وَ حُلُوفٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقِيمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)
إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢).

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة خلق الانسان بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً ثم هدايته السبيل
إمّا شاكراً و إمّا كفوراً و أنّ الله أعتد للكافرين أنواع العذاب و للأبرار ألوان
النعم - و قد فصل القول في وصف نعيمهم في ثمان عشرة آية و هو الدليل على أنّه
المقصود بالبيان -

ثم تذكر مخاطبة للنبي ﷺ أنّ القرآن تنزيل منه تعالى عليه وتذكرة فليصبر
لحكم ربّه و لا يتبع الناس في أهوائهم و ليذكر اسم ربّه بكرة و عشياً و ليسجد له من
الليل و ليسبّحه ليلاً طويلاً .

و السورة مدنيّة بتمامها أو صدرها - وهي اثنتان و عشرون آية من أولها -
مدنيّة ، و ذيلها - وهي تسع آيات من آخرها - مكّيّة وقد أطبقت روايات أهل البيت
عليهم السلام على كونها مدنيّة ، واستفاضت بذلك روايات أهل السنة .

وقيل بكونها مكّيّة بتمامها ، وسيوافيك تفصيل القول في ذلك في البحث الروائي
التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً »
الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة و تحقيقه أي قد أتى على الإنسان النخ و
لعلّ هذا مراد من قال من قدماء المفسرين : إنّ « هل » في الآية بمعنى قد لاعلى أنّ
ذلك أحد معاني « هل » كما ذكره بعضهم .

و المراد بالإنسان الجنس : و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد به آدم عليه السلام فلا

يلائمه قوله في الآية التالية : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ .

و الحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أطويلة ، والدهر الزمان الممتد

من دون تحديد ببداية أو نهاية .

و قوله : « شَيْءٌ مَذْكُورٌ » أي شيئاً يذكر باسمه في المذكورات أي كان يذكر مثلاً

الأرض و السماء و البرّ و البحر و غير ذلك و لا يذكر الإنسان لأنّه لم يوجد بعد

حتى وجد فقيل : الإنسان فكونه مذكوراً كناية عن كونه موجوداً بالفعل فالنفي في

قوله : « لم يكن شيئاً مذكوراً » متوجّه إلى كونه شيئاً مذكوراً لا إلى أصل كونه شيئاً فقد

كان شيئاً ولم يكن شيئاً مذكوراً ويؤيده قوله : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ » النح فقد

كان موجوداً بمادته ولم يتكوّن بعد إنساناً بالفعل والآية وما يتلوها من الآيات واقعة

في سياق الاحتجاج يبيّن بها أنّ الإنسان حادث يحتاج في وجوده إلى صانع يصنعه

وخالق يخلقه ، وقد خلقه ربّه و جهّزه التدبير الربوبيّ بأدوات الشعور من السمع

و البصر يهتدي بها إلى السبيل الحقّ الذي من الواجب أن يسلكه مدى حياته فإن

كفر فمصيره إلى عذاب أليم وإن شكر فإلى نعيم مقيم .

والمعنى هل أتى - قد أتى - على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتدّ -

غير المحدود و الحال أنّه لم يكن موجوداً بالفعل مذكوراً في عداد المذكورات .

قوله تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً

بَصِيراً » النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان

الذي يتكوّن منه مثله ، و أمشاج جمع مشيج أو المشج بفتحين أو بفتح فكسر بمعنى

المختلط الممتزج ، ووصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور

و الإناث .

و الابتلاء نقل الشيء من حال إلى حال و من طور إلى طور كابتلاء الذهب في

البوتقة ، و ابتلاؤه تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من

كلامه أنّه يخلق النطفة فيجعلها علقه و العلقه مضغة إلى آخر الأطوار التي تتعاقبها

حتى ينشئه خلقاً آخر .

وقيل : المراد بابتلائه إمتحانه بالتكليف ، ويدفعه تفريع قوله : « فجعلناه سمیعاً بصيراً » على الابتلاء ولو كان المراد به التكليف كان من الواجب تفريعه على جعله سمیعاً بصيراً لا بالعكس ، والجواب عنه بأنّ في الكلام تقدیماً وتأخيراً والتقدير إنّنا خلقناه من نطفة أمشاج فجعلناه سمیعاً بصيراً لنبتليه . لا يصغى إليه .

وقوله : « فجعلناه سمیعاً بصيراً » سياق الآيات وخاصة قوله : « إنّنا هديناه السبيل » الخ يفيد أنّ ذكر جعله سمیعاً بصيراً للتوسّل به في التدبير الربوبيّ إلى غايته وهي أن يرى آيات الله الدالة على المبدء والمعاد ويسمع كلمة الحقّ التي تأتيه من جانب ربّه بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيدعوه البصر والسمع إلى سلوك سبيل الحقّ والسير في مسير الحياة بالإيمان والعمل الصالح فإنّ لزوم السبيل الذي هدى إليه أداه إلى نعيم الأبد وإلاّ فإلى عذاب مخلّد .

وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه تسجيل أنّه تعالى هو خالقه ومدبّر أمره .

والمعنى إنّنا خلقنا الإنسان من نطفة هي أجزاء مختلطة ممتازة والحال أنّنا ننقله من حال إلى حال ومن طور إلى طور فجعلناه سمیعاً بصيراً ليسمع ما يأتيه من الدعوة الإلهيّة ، ويبصر الآيات الإلهيّة الدالة على وحدانيّته تعالى والنبوة والمعاد .

قوله تعالى : « إنّنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً » الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب والمراد بالسبيل السبيل بحقيقة معنى الكلمة وهو المؤدّي إلى الغاية المطلوبة وهو سبيل الحقّ .

والشكر استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « وسيجزي الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ أنّ حقيقة كون العبد شاكراً لله كونه مخلصاً لربّه ، والكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم .

وقوله : « إمّا شاكراً وإمّا كفوراً » حالان من ضمير « هديناه » لا من « السبيل » كما قاله بعضهم ، و « إمّا » يفيد التقسيم والتنويع أي إنّنا هديناه السبيل حال كونه

منقسماً إلى الشاكر والكفور أي إنّه مهديّ سواء كان كذاً أو كذلك .
 والتعبير بقوله : « إمّا شاكرًا وإمّا كفورًا » هو الدليل أوّلاً على أن المراد
 بالسبيل السنّة والطريقة التي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته الدنيا لتوصله
 إلى سعادته في الدنيا والآخرة وتسوقه إلى كرامة القرب والرفى من ربّه ومحصّله
 الدين الحقّ وهو عند الله الإسلام .

وبه يظهر أن تفسير بعضهم السبيل بسبيل الخروج من الرحم غير سديد .
 وثانياً أن السبيل المهديّ إليه سبيل اختياريّ وأن الشكر والكفر اللذين
 يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقرّ الاختيار للإنسان أن يتلبّس بأيّهما
 شاء من غير إكراه وإجبار كما قال تعالى : « ثمّ السبيل يسره » عبس : ٢٠ ، وما في
 آخر السورة من قوله تعالى : « فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً وما تشاؤون إلّا أن يشاء
 الله » إنّما يفيد تعلق مشيئته تعالى بمشيئة العبد لا بفعل العبد الذي تعلّقت به مشيئة
 العبد حتّى يفيد نفي تأثير مشيئة العبد المتعلّقة بفعله ، وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا
 المعنى في هذا الكتاب مراراً .

والهداية التي هي نوع إيدان وإعلام منه تعالى للإنسان هداية فطريّة هي
 تنبيهه بسبب نوع خلقته وما جهّز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حقّ الاعتقاد
 وصالح العمل قال تعالى : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨
 وأوسع مدلولاً منه قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس
 عليها لا تبدّل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ .

وهداية قوليّة من طريق الدعوة ببعث الانبياء وإرسال الرسل وإتزال الكتب
 وتشريع الشرائع الإلهيّة ، ولم يزل التدبير الربوبيّ تدعم الحياة الإنسانيّة بالدعوة
 الدينيّة القائم بها أنبياءه ورسله ، ويؤيّد بذلك دعوة الفطرة كما قال : « إنّنا أوحينا
 إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده - إلى أن قال - رسلاً مبشرين و
 منذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ .

ومن الفرق بين الهدايتين أن الهداية الفطرية عامة بالغة لا يستثنى منها إنساناً لأنها لازم الخلقة الانسانية وهي في الافراد بالسوية غير أن بعضها تضعف أو يلغوا أثرها لعوامل وأسباب تشغل الانسان وتصرفه عن التوجه إلى ما يدعو إليه عقله ويهديه إليه فطرته أو ملكات وأحوال رديئة سيئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة كالعناد والمجاج وما يشبه ذلك قال تعالى : « أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ ، والهداية المنفية في الآية بمعنى الايصال إلى المطلوب دون إراءة الطريق بدليل قوله : « وأضله الله على علم » .

و أما الهداية القولية و هي التي تتضمنها الدعوة الدينية فإن شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من أثر الحق على الباطل و أما بلوغها لكل واحد واحد منهم فإن العلل والأسباب التي يتوسل بها إلى بيان أمثال هذه المقاصد ربما لا تساعد على ذلك على ما في الظروف و الأزمنة والبيئات من الاختلاف وكيف يمكن لا إنسان أن يدعو كل إنسان إلى ما يريد بنفسه أو بوسائط من نوعه ؟ فمن المتعذر ذلك جداً .

و إلى المعنى الأول أشار تعالى بقوله : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » فاطر : ٢٣ ، و إلى الثاني بقوله : « لتنذروهم ما أنذرت آباؤهم فهم غافلون » يس : ٦ . فمن بلغته الدعوة و انكشف له الحق فقد تمت عليه الحجة و من لم تبلغه الدعوة بلوغاً ينكشف به له الحق فقد أدركه الفضل الإلهي بعده مستضعفاً أمره إلى الله إن يشأ يغفر له و إن يشأ يعذبه قال تعالى : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلاً » النساء : ٩٨ .

ثم من الدليل على أن الدعوة الإلهية وهي الهداية إلى السبيل حق يجب على الانسان أن يتبعها فطرة الانسان و خلقته المجهزة بما يهدي إليها من الاعتقاد والعمل ، و وقوع الدعوة خارجاً من طريق النبوة والرسالة فإن سعادة كل موجود و كماله في الآثار و الأعمال التي تناسب ذاته و تلائمها بما جهزت به من القوى

والأدوات فمساعدة الإنسان وكماله في اتباع الدين الالهي الذي هو سنة الحياة الفطرية وقد حكم به العقل وجاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام.

قوله تعالى: « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا » الاعتاد التهيئة ، و سلاسل جمع سلسلة وهي القيد الذي يقاد به المجرم ، وأغلال جمع غل بالضم قيل هي القيد الذي يجمع اليدين على العنق ، وقال الراغب : فالغل مختص بما يقيّد به فيجعل الأعضاء وسطه . انتهى والسعير النار المشتعلة ، والمعنى ظاهر .

والآية تشير إلى تبعة الإنسان الكفور المذكور في قوله : « إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » وقدّم بيان تبعته على بيان جزاء الإنسان الشاكر لاختصار الكلام فيه .

قوله تعالى: « إِنَّا الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا » الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب ، والمزاج ما يمزج به كالخزام لما يحزم به ، والكفور معروف يضرب به المثل في البرودة وطيب الرائحة ، وقيل : هو اسم عين في الجنة . و الأبرار جمع برّ بفتح الباء صفة مشبهة من البرّ وهو الإحسان ويتحصل معناه في أن يحسن الإنسان في عمله من غير أن يريد به نفعاً يرجع إليه من جزاء أو شكور فهو يريد الخير لأنّه خير لا لأنّ فيه نفعاً يرجع إلى نفسه وإن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مرّ مخالفة نفسه فيما يريد ويعمل العمل لأنّه خير في نفسه كالوفاء بالندى أو لأنّ فيه خيراً لغيره كإطعام الطعام للمستحقين من عباد الله .

و إذ لا خير في عمل ولا صلاح إلّا بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى : « أُولَئِكَ لَمْ يَؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ » الأحزاب : ١٩ إلى غير ذلك من الآيات .

فالأبرار مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ، و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيرة فهم يرون أنفسهم عبيداً مملوكين لربّهم ، له خلقهم وأمرهم ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، عليهم أن لا يريدوا إلّا ما أَرَادَهُ رَبُّهُمْ ولا يفعلوا إلّا ما يَرْضَاهُ فقدّموا إرادته على إرادة أنفسهم وعملوا له فصبروا على مخالفة أنفسهم فيما نهوا

وتحبته وكلفة الطاعة ، و عملوا ما عملوه لوجه الله ، فأخلصوا العبودية في مرحلة العمل لله سبحانه .

وهذه الصفات هي التي عرّف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله : « يشرب بها عباد الله » وقوله : « إنما نطعمكم لوجه الله » وقوله : « جزأهم بما صبروا » وهي الاستفادة من قوله في صفتهم : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله » النخ البقرة : ١٧٧ وقد مرّ بعض الكلام في معنى البرّ في تفسير الآية و سيأتي بعضه في قوله : « كلاً إن كتاب الأبرار لفي عليين » المطففين : ١٨ . والآية أعني قوله : « إن الأبرار يشربون » النخ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله : « إنما أعتدنا للكافرين » النخ المبيت لحال الكافرين في الآخرة ، تبين حال الأبرار في الآخرة في الجنة ، وأنهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور بارداً طيب الرائحة .

قوله تعالى : « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » « عينا » منصوب بنزع الخافض والتقدير من عين أو بالاختصاص والتقدير أخص عينا ، والشرب - على ما قيل - يتعدى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد ، والتعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى تحليهم بحلية العبودية وقيامهم بلوازمها على ما يفيد سياق المدح . و تفجير العين شق الأرض لا جرائها ، وينبني أن يحمل تفجيرهم العين على إرادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج في تحقيقها والتنعم بها إلى أزيد من مشية أهلها قال تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها » ق : ٣٥ .

والآيتان - كما تقدّمت الإشارة إليه - تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنة في الآخرة ، وبذلك فسرت الآيتان .

ولا يبعد أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسّم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله ، وأن أعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحة

وستظهر لهم بحقيقتها في جنة الخلد وإن كانت في الدنيا في صورة الأعمال فتكون الآياتان في مجرى أمثال قوله تعالى : «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون» يس : ٨

ويؤيد ذلك ظاهر قوله : «يشربون» و«يشرب بها» ولم يقل : سيشربون وسيشرب بها ، ووقوع قوله : يشربون ويوفون ويخافون ويطعمون متعاقبة في سياق واحد ، و ذكر التفجير في قوله : « يفجرونها تفجيراً » الظاهر في استخراج العين وإجرائها بالتوسل بالأسباب .

ولهم في مفردات الآيتين وإعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة في المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها .

قوله تعالى : « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرّ مستطيراً » المستطير اسم فاعل من استطار إذ افشى وانتشر في الأقطار غاية الانتشار وهو أبلغ من طار كما قيل يقال : استطار الحريق واستطار الفجر إذا اتسعا غايته ، والمراد باستطارة شرّ اليوم وهو يوم القيامة بلوغ شدائده وأحواله وما فيه من العذاب غايته .

والمراد بالأيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه ، وقول القائل : إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع في جميع ما شرّعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدلّ عليه .

قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » ضمير «على حبه» للطعام على ما هو الظاهر ، والمراد بحبه توقان النفس إليه لشدة الحاجة ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : « لن تناولوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون » آل عمران : ٩٢ .

وقيل : الضمير لله سبحانه أي يطعمون الطعام حبّاً لله لاطمئناً في الثواب . ويدفعه أن قوله تعالى حكاية منهم : «إنما نطعمكم لوجه الله» يغني عنه .

ويليه في الضعف ما قيل : إن الضمير للإطعام المفهوم من قوله : « ويطعمون »

وجه الضعف أنه إن أُريد بحبّ الإطعام حقيقة معناه فليس في حبّ الإطعام في نفسه فضل حتّى يمدحوا به ، وإن أُريد به كون الإطعام بطيب النفس وعدم التكلف فهو خلاف الظاهر ، ورجوع الضمير إلى الطعام هو الظاهر .

والمراد بالمسكين واليتيم معلوم ، والمراد بالأسير ما هو الظاهر منه وهو المأخوذ من أهل دار الحرب .

وقول بعضهم : إن المراد به أسارى بدر أو الأسير من أهل القبلة في دار الحرب بأيدي الكفار أو المحبوس أو المملوك من العبيد أو الزوجة كل ذلك تكلف من غير دليل يدلّ عليه .

والذي يجب أن يتنبّه له أن سياق هذه الآيات سياق الاقتصاص تذكر قومًا من المؤمنين تسميتهم الأبرار وتكشف عن بعض أعمالهم وهو الإيفاء بالنذر وإطعام مسكين ویتيم وأسیر وتمدحهم وتعدّم الوعد الجميل .

فما تشير إليه من القصّة بسبب النزول ، وليس سياقها سياق فرض موضوع و ذكر آثاره الجميلة ، ثمّ الوعد الجميل عليها ، ثمّ إنّ عدّ الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنيّة فإنّ الأسر إنّما كان بعد هجرة النبي ﷺ وظهور الإسلام على الكفر والشرك لاقبلها .

قوله تعالى : «إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا» وجه الشيء هو ما يستقبل به غيره ، ووجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق والتدبير والرزق وبالجملة الرحمة العامة التي به اقيام كل شيء ، ومعنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية في العمل هي الاستفاضة من رحمة الله و طلب مرضاته بالاعتصار على ذلك و الاعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب ، ولذا ذيلوا قولهم «إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ» بقولهم : «لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا» .

وراء ذلك صفاته الذاتية الكريمة التي هي المبدء لصفاته الفعلية ولما يترتب

عليها من الخير في العالم ، و مرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الايتان بالعمل حباً لله لأنه الجميل على الإطلاق ، وإن شئت فقل : عبادته تعالى لأنه أهل للعبادة .

وابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية في الأعمال المذكور في مواضع من كلامه تعالى كقوله : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » الكهف : ٢٨ ، وقوله : « وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » البقرة : ٢٧٢ ، وفي هذا المعنى قوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » البينة : ٥ ، وقوله : « فادعوه مخلصين له الدين » المؤمن : ٦٥ ، وقوله : « ألا لله الدين الخالص » الزمر : ٣ .

وقوله : « لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيراً فخييراً وإن شراً آفسراً ، ويعمّ الفعل والقول لكن المراد به في الآية بقرينة مقابلاته الشكور مقابلة إطعامهم عملاً لا لساناً .

والشكر والشكور ذكر النعمة وإظهارها قلباً أو لساناً أو عملاً ، والمراد به في الآية وقد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لساناً .

والآية أعني قوله : « إنّا نطعمكم لوجه الله » الخ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين واليتيم والأسير إمّا بلسان المقال فهي حكاية قولهم أو بتقدير القول وكيف كان فقد أرادوا به تطيب قلوبهم أن يأمنوا المن والأذى ، وإمّا بلسان الحال وهو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص في قلوبهم .

قوله تعالى : « إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً » عدّ اليوم وهو يوم القيامة عبوساً من الاستعارة ، والمراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته ، و القمطير الصعب الشديد على ما قيل .

والآية في مقام التعليل لقولهم المحكي : « إنّا نطعمكم لوجه الله » الخ ينبّهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل في ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصاً للعبودية لمخافتهم ذلك اليوم

الشديد ، ولم يكتفوا بنسبة المخافة إلى اليوم حتى نسبوه نحواً من النسبة إلى ربهم فقالوا : « نخاف من ربنا يوماً » الخ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره وإنما يخافون ويرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزئهم بها .

وأما قوله قبلاً : « ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » حيث نسب خوفهم إلى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه وقد نسب اليوم بشدائده إلى نفسه قبلاً حيث قال : « إننا أعتدنا للكافرين سلاسل » الخ .

وبالجملة ما ذكره من الخوف مخافة في مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية لازمة للإنسان لا تفارقه وإن بلغ ما بلغ قال تعالى : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » الفاشية : ٢٦ .

قوله تعالى : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً » الوقاية الحفظ والمنع من الأذى ولقى الشيء بكذا يلقيه أي استقبله به والنضرة البهجة وحسن اللون والسرور مقابل المساءة والحزن .

و المعنى فحفظهم الله و منع عنهم شر ذلك اليوم و استقبلهم بالنضرة و السرور ، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال : « وجوه يومئذ ناضرة » القيامة : ٢٢ .

قوله تعالى : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة وعلى الطاعة وعن المعصية فإنهم ابتغوا في الدنيا وجه ربهم وقدّموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم وأراده من المحن ومصائب الدنيا في حقهم ، وصبروا على أمثال ما أمرهم به وصبروا على ترك ما نهاهم عنه وإن كان مخالفاً لأهواء أنفسهم فبدّل الله ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة .

قوله تعالى : « متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً » الأرائك جمع أريكة وهو ما يتكئ عليه ، والزمهرير البرد الشديد ، والمعنى حال كونهم

مُتَّكِنِينَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا حَتَّى يَتَأَذَّوا بِحَرِّهَا وَلَا زَمْهَرِيرًا حَتَّى يَتَأَذَّوا بِبُرْدِهِ .

قوله تعالى : «ودانية عليهم ظلالها وذلكت قطوفها تذليلًا، الظلال جمع ظلّ، ودنوّ الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكان الدنوّ مضمّن معنى الانبساط وقطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو الثمرة المقطوفة المجتناة ، وتذليل القطوف لهم جعلها مسخّرة لهم يقطفونها كيف شاؤا من غير مانع أو كلفة .

قوله تعالى : «ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير، الآنية جمع إناء كأكسية جمع كساء وهو الوعاء ، وأكواب جمع كوب وهو إناء الشراب الذي لا عروة له ولا خرطوم والمراد طوف الولدان المخلدين عليهم بالآنية وأكواب الشراب كما سيأتي في قوله : «ويطوف عليهم ولدان» الآية .

قوله تعالى « قوارير من فضة قدّروها تقديرًا » بدل من قوارير في الآية السابقة ، وكون القوارير من فضة مبنيّ على التشبيه البليغ أي إنتها في صفاء الفضة وإن لم تكن منها حقيقة . كذا قيل ، واحتمل أن يكون بحذف مضاف والتقدير من صفاء الفضة .

وضمير الفاعل في «قدّروها» للأبرار والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب كونها على ما شاؤوا من القدر ترويهم بحيث لا تزيد ولا تنقص كما قال تعالى : «لهم ما يشاؤون فيها» ق : ٣٥ . وقد قال تعالى قبل : «يفجّرونها تفجيرًا» .

ويحتمل رجوع الضمير إلى الطائفتين المفهوم من قوله : «يطاف عليهم» والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب إثباتهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على ما اشتبهوا بقدّر ما اشتبهوا .

قوله تعالى : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً » قيل : إنهم كانوا يستطيعون الزنجبيل في الشراب فوعد الأبرار بذلك وزنجبيل الجنة أطيب وألذّ . قوله تعالى : «عيناً فيها تسمى سلسبيلاً» أي من عين أو التقدير أعني أو أخصّ

عيناً . قال الراغب : وقوله : «سلسيلاً» أي سهلاً لذيقاً سلساً حديد الجرية .

قوله تعالى : «ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً» أي ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء وصباحة المنظر ، وقيل : أي مقرّطون بخلدة وهي ضرب من القرط .

والمراد بحسبانهم لؤلؤاً منثوراً أنهم في صفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعة بعضهم على بعض وانبثاقهم في مجالسهم كاللؤلؤ المنثور .

قوله تعالى : «وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً» ثمّ «ظرف مكان ممحّض في الظرفيّة ، ولذا قيل : إن معنى «رأيت» الأول : رميت ببصرك ، والمعنى وإذا رميت ببصرك ثمّ يعني الجنّة رأيت نعيماً لا يوصف وملكاً كبيراً لا يقدر قدره .

وقيل : «ثمّ» صلة محذوفة الموصول والتقدير وإذا رأيت ما ثمّ من النعيم والملك ، وهو كقوله : «لقد تقطّع بينكم» الأنعام : ٩٤ والكوفيّون من النحاة يجوّزون حذف الموصول وإبقاء الصلة وإن منعه البصريّون منهم .

قوله تعالى «عاليمهم ثياب سندس خضر واستبرق» الخ الظاهر أن «عاليمهم» حال من الأبرار الراجعة إليه الضمائر و «ثياب» فاعله ، والسندس - كما قيل - ما رقّ نسجه من الحرير ، والخضر صفة ثياب والاستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير ، وهو معرّب كالسندس .

وقوله : «وحاؤا أساور من فضّة» التحلية التزيين ، وأساور جمع سوار وهو معروف وقال الراغب : هو معرّب دستواره .

وقوله : «وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً» أي بالغاً في التطهير لا تدع قذارة إلّا أزالها ، ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه والاحتجاب عن التوجّه إليه فهم غير محجوبين عن ربّهم ولذا كان لهم أن يحمّدوا ربّهم كما قال : «وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين» يونس : ١٠ وقد تقدّم في تفسير سورة الحمد أن الحمد وصف لا يصلح له إلّا المخلصون من عباد الله تعالى لقوله : «سبحان الله عما يصفون إلّا عباد الله المخلصين» الصافات : ١٦٠ .

وقد أسقط تعالى في قوله : « و سقاهم ربهم » الوسائط كلها ونسب سقيهم إلى نفسه ، وهذا أفضل ما ذكره تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنة ، ولعله من المزيد المذكور في قوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥

قوله تعالى : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » حكاية ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول و التقدير ويقال لهم : إن هذا كان لكم جزاء الخ .

و قوله : « وكان سعيكم مشكورا » إنشاء شكر لمسايعهم المرضية وأعمالهم المقبولة ، وبالحا من كلمة طيبة تطيب بها نفوسهم .

واعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنة في هذه الآيات نساء الجنة من الحور العين وهي من أهم ما يذكره عند وصف نعم الجنة في سائر كلامه ويمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هي من النساء .

وقال في روح المعاني : ومن اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعني في أهل البيت أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز وجل بولدان مخلصين رعاية لحرمة القول و قرّة عين الرسول انتهى .

﴿ بحث روائي ﴾

في إتيان السيوطي عن البيهقي في دلائل النبوة بإسناده عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن قالا : أنزل الله من القرآن بمكة آراء باسم ربك ون والمزمل - إلى أن قالا - وما نزل بالمدينة ويل للمطففين ، و البقرة ، وآل عمران ، و الأنفال ، و الأحزاب ، و المائدة ، و الممتحنة ، و النساء ، وإذا زلزلت ، والحديد ، و محمد ، والرعد ، و الرحمن ، وهل أتى على الإنسان الحديث .

وفيه عن ابن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني

عن أبيه عن ابن عباس قال : كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء .

و كان أول ما أنزل من القرآن اقرء باسم ربك ثم ن ثم يا أيها المزمل - إلى أن قال - ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم الإنسان . الحديث .

وفيه عن البيهقي في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال : إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن اقرء باسم ربك وذكر مثل حديث عكرمة والحسين وفيه ذكر ثلاث من السور المكية التي سقطت من روايتهما وهي الفاتحة والأعراف وكهيعص .

و في الدر المنثور أخرج ابن الضريس وابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الإنسان بالمدينة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه » الآية قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقول : الآية تشارك سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها في سياق واحد متصل فنزولها فيهما ^{عليهما السلام} لا ينفك عن نزولها جميعاً بالمدينة .

و في الكشف : و عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس معه فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك (ولديك ط) فنذر علي و فاطمة و فضة جارية لهما إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا و ما معهم شيء .

فاستقرض علي من شمعون الخيري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني

أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه و باتوا لم يذوقوا إلا الماء و أصبحوا صياماً .
فلما أمسوا و وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ، ووقف عليهم
أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك .

فلما أصبحوا أخذ عليّ بيد الحسن والحسين و أقبلوا إلى رسول الله ﷺ
فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : ما أشدّ ما يسوءني ما أرى
بكم فانطلق معهم فرآى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها^(١) ببطنها و غارت عيناها
فساءه ذلك فنزل جبريل و قال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرءه السورة .

أقول : الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس و نقلها
البحرانيّ في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين
بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس ، و عنه بإسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس
و عن الحمويّ في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس ، و عن
الثعلبيّ بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس ، و رواه في المجمع عن الواحدي في
تفسيره .

وفي المجمع بإسناده عن الحاكم بإسناده عن سعيد بن المسيب عن عليّ ابن أبي طالب أنه قال سألت
النبيّ عن ثواب القرآن : فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء .
فأوّل ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثمّ أقرء باسم ربك ثمّ ن - إلى أن
قال - وأوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثمّ الأنفال ثمّ آل عمران ثمّ الأحزاب ثمّ
المتحنة ثمّ النساء ثمّ إذا زلزلت ثمّ الحديد ثمّ سورة محمد ثمّ الرعد ثمّ سورة الرحمن
ثمّ هل أتى . الحديث .

وفيه عن أبي حمزة الثماليّ في تفسيره قال : حدّثني الحسن بن الحسن أبو عبد الله
ابن الحسن أنّها مدنيّة نزلت في عليّ و فاطمة السورة كلّها .

و في تفسير القميّ عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان

(١) بطنها بظهرها ظ .

عند فاطمة عليها السلام شعير فجعلوه عصيدة ^(١) فلمّا أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال : مسكين رحمكم الله فقام علي عليه السلام فأعطاه ثلثاً فلم يلبث أن جاء يتيم فقال : اليتيم رحمكم الله فقام علي عليه السلام فأعطاه الثلث ثمّ جاء أسير فقال : الأسير رحمكم الله فأعطاه علي عليه السلام الثلث وما ذاقوها فأنزّل الله سبحانه الآيات فيهم وهي جارية في كلّ مؤمن فعل ذلك لله عزّ وجلّ .

أقول : القصة كما ترى ملخّصة في الرواية و روى ذلك البحراني في غاية المرام عن المفيد في الاختصاص مسنداً و عن ابن بابويه في الأُمالي بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس ، و بإسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام ، و عن محمد ابن العباس بن ماهيار في تفسيره بإسناده عن أبي كثير الزبيري عن عبد الله بن عباس ، و في المناقب أنّه مروي عن الأصبح بن نباتة .

و في الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب : نشدكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه و في ولده « إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » إلى آخر السورة غيري ؟ قالوا : لا .

و في كتاب النصال في احتجاج عليّ عليّ أبي بكر قال : اُنشدك بالله أنا صاحب الآية « يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً » أم أنت ؟ قال : بل أنت . و في الدر المنثور أخرج الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : سل واستفهم فقال : يا رسول الله فضلتكم علينا بالألوان والصور و النبوة أفرأيت إن آمنتم بما آمنتم به و عملت بمثل ما عملت به أنّي لكائن معك في الجنة ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده إنّّه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام . ثمّ قال : من قال : لا إله إلاّ الله كان له عهد عند الله و من قال : سبحان الله و بحمده كتبت له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة و نزلت عليه هذه السورة هل أنّي على الانسان حين من

(١) العصيدة شعيريلت بالسمن و يطبخ .

الدهر إلى قوله : ملكاً كبيراً ..

فقال الحبشي : وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة ؟ قال : نعم فاشتكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدلّيه في حفرته بيده . وفيه أخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال : حدثني الثقة أن رجلاً أسود كان يسأل النبي ﷺ عن التسبيح و التهليل فقال له عمر بن الخطاب : مه أكثرت على رسول الله ﷺ فقال : مه يا عمر و أنزلت على رسول الله ﷺ «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي ﷺ : مات شوقاً إلى الجنة .

و فيه أخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول الله ﷺ قرء هذه السورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر و قد أنزلت عليه و عنده رجل أسود فلماً بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله ﷺ : أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة .

أقول : و هذه الروايات الثلاث على تقدير صحتها لا تدلّ على أزيد من كون نزول السورة مقارناً لقصة الرجل و أمّا كونها سبباً للنزول فلا ، و هذا المعنى في الرواية الأخيرة أظهر و بالجملة لا تنافي الروايات الثلاث نزول السورة في أهل البيت ﷺ .

على أن رواية ابن عمر للقصة الظاهرة في حضوره القصة وقد هاجر إلى المدينة و هو ابن إحدى عشرة سنة من شواهد وقوع القصة بالمدينة . وفي الدر المنثور أيضاً أخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الإنسان بمكة .

أقول : هو تلخيص حديث طويل أورده النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ و قد نقله في الإتيان و هو معارض لما تقدّم نقله مستفيضاً عن ابن عباس من نزول السورة بالمدينة و أنها نزلت في أهل البيت ﷺ .

على أن سياق آياتها وخاصة قوله : « يوفون بالنذر ، و يطعمون الطعام »

النخ سياق قصة واقعة وذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكة كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك .
قال بعضهم ما ملخصه أن الروايات مختلفة في مكّة هذه السورة ومدينتها والأرجح أنها مكّة بل الظاهر من سياقها أنها من عتائق السور القرآنية النازلة بمكة في أوائل البعثة يؤيد ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ كما يؤيده ما ورد فيها من أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه وأن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً ويثبت على ما نزل عليه من الحق ولا يدهان المشركين من الأوامر التي كانت تنزل بمكة عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها بمكة كما في سورة القلم والمزمل والمدثر فلا عبرة باحتمال مدنية السورة .

وهو فاسد أما ما ذكره من اشتمال السورة على صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ فليس ذلك مما يختص بالسور المكّية حتى يقضى به على كون السورة مكّية فهذه سورة الرحمان وسورة الحجّ مدينتان على ما تقدّمت في الروايات المشتملة على ترتيب نزول السور القرآنية وقد اشتملتا من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ على ما يربو ويزيد على هذه السورة بكثير .

وأما ما ذكره من اشتمال السورة على أمر النبي ﷺ بالصبر وأن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً ولا يدهانهم ويثبت على ما نزل عليه من الحق ففيه أن هذه الأوامر واقعة في الفصل الثاني من آيات السورة وهو قوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » إلى آخر السورة ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الفصل من الآيات - وهو ذو سياق تام مستقل - نازلاً بمكة ، ويؤيده ما في كثير من الروايات المتقدمة أن الذي نزل في أهل البيت بالمدينة هو الفصل الأول من الآيات ، وعلى هذا أول السورة مدني وآخرها مكّي .

ولوسلم نزولها دفعة واحدة فأمره ﷺ بالصبر لا اختصاص له بالسور المكية فقد ورد في قوله : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه و كان أمره فرطاً » الكهف : ٢٨ والآية - على ما روي - مدنيّة والآية - كما ترى - متّحدة المعنى مع قوله : « فاصبر لحكم ربك » الخ وهي في سياق شبهه جداً بسياق هذه الآيات فراجع و تأمل .

ثمّ الذي كان يلقاه النبي ﷺ من أذى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والجفأة من ضعفاء الايمان لم يكن بأهون من أذى المشركين بمكة يشهد بذلك أخبار سيرته . ولا دليل أيضاً على انحصار الآثم والكفور في مشركي مكة فهناك غيرهم من الكفار وقد أثبت القرآن الاثم لجمع من المسلمين في موارد كقوله : « لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم » النور : ١١ ، وقوله : « ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » النساء : ١١٢ .

وفي المجمع وروى العياشي بإسناده عن عبدالله بن بكير عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله : « لم يكن شيئاً مذكوراً » قال : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً . **اقول** : وروى فيه أيضاً عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبدالله عليه السلام مثله . وفيه أيضاً عن العياشي بإسناده عن سعيد الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق .

اقول : يعني أنّه كان له ثبوت في علم الله ثمّ خلق بالفعل فصار مذكوراً فيمن خلق . وفي الكافي بإسناده عن مالك الجهني عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال : كان مقدراً غير مذكور .

اقول : هو في معنى الحديث السابق .

وفي تفسير القمّي في الآية قال : لم يكن في العلم ولا في الذكر ، وفي حديث آخر : كان في العلم ولم يكن في الذكر .

اقول : معنى الحديث الأول أنه لم يكن في علم الناس ولا فيمن يذكرونه فيما بينهم ، ومعنى الثاني أنه كان في علم الله ولم يكن مذكوراً عند الناس .
وفي تفسير القمّي أيضاً في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى « أمشاج نبتليه » قال : ماء الرجل والمرأة اختلطاً جميعاً .
وفي الكافي بإسناده عن حمران بن أعين قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » قال : إما آخذ فهو شاكراً وإما تارك فهو كافر .

اقول : ورواه القمّي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي عمير عن أبي جعفر عليه السلام مثله ، وفي التوحيد بإسناده إلى حمزة بن الطيطار عن أبي عبد الله عليه السلام ما يقرب منه ولفظه : عرفناه إما آخذاً وإما تاركاً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً والله تعالى أعلم .

وفي أمالي الصدوق بإسناده عن الصادق عن أبيه عليه السلام في حديث : « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييراً » قال : هي عين في دار النبي عليه السلام يفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين « يوفون بالنذر » يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجاريتهم « ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » يقول عابساً كلوحاً « ويطعمون الطعام على حبه » يقول : على شهوتهم للطعام وإيثارهم له « مسكيناً » من مساكين المسلمين « ويتبعاً » من يتامى المسلمين « وأسيراً » من أسارى المشركين .

ويقولون إذا أطمعوه : « إننا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » قال : والله ما قالوا هذا لهم ولكنهم أضمره في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم يقولون : لا نريد جزاءً تكافؤنا به ولا شكوراً نثنون علينا به ، ولكننا إنما أطمعناكم لوجه الله وطلب ثوابه .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن

مردويه عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً » .

اقول : مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة ، ونظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن قتادة ، وما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وما رواه عن عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله : « يوماً عبوساً قمطريراً » قال : يقبض ما بين الأبصار .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام في صفة الجنة قال : والثمار دائية منهم وهو قوله عز وجل : « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً » من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهي من الثمار فيه وهو متكئ ، وإن الأنواع من الفاكهة ليقطن لولي الله : يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذه قبلي .

وفي تفسير القمي في قوله : « ولدان مخلدون » قال : مسورون .

وفي المعاني بإسناده عن عباس بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام وكنت عنده ذات يوم : أخبرني عن قول الله عز وجل : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه كبيراً ؟ قال : إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسولا إلى ولي من أوليائه فيجد الحجة على بابه فتقول له : قف حتى تستأذن لك ، فما يصل إليه رسول ربه إلا بأذن فهو قوله عز وجل : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » .

وفي المجمع « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » لا يزول ولا يفنى عن الصادق عليه السلام .

وفيه « عليهم ثياب سندس خضر » وروي عن الصادق عليه السلام في معناه : تملوهم الثياب فيلبسونها .

﴿ كلام في هوية الانسان على ما يفيدہ القرآن ﴾

لا ريب أن في هذا الهيكل المحسوس الذي نسميه إنساناً مبدءاً للحياة ينتسب إليه الشعور والإرادة ، وقد عبّر تعالى عنه في الكلام في خلق الإنسان - آدم - بالروح وفي سائر المواضع من كلامه بالنفس قال تعالى : « فإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » الحجر : ٢٩ ص : ٧٢ ، وقال : « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي » الم السجدة : ٩ .

والذي يسبق من الآيتين إلى النظر البادئ أن الروح والبدن حقيقتان اثنتان متقارنتان نظير العجين المرّب من الماء والدقيق والإنسان مجموع الحقيقتين فإذا قارنت الروح الجسد كان إنساناً حياً وإذا فارقت فهو الموت .

لكن يفسرها قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم » الم السجدة : ١١ حيث يفيد أن الروح التي يتوفاها ويأخذها قابض الأرواح هي التي يعبر عنها بلفظة « كم » وهو الإنسان بتمام حقيقته لا جزء من مجموع فالمراد بنفخ الروح في الجسد جعل الجسد بعينه إنساناً لا ضمّ واحد إلى واحد آخر يغيّره في ذاته وآثار ذاته فالإنسان حقيقة واحدة حين تعلق روحه ببدنه وبعد مفارقة روحه البدن .

ويفيد هذا المعنى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ فالذي أنشأه الله خلقاً آخر هو النطفة التي تكونت علقه ثمّ مضغة ثمّ عظاماً بعينها .

وفي معناها قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » فتقييد الشيء المنفي بالمذكور يعطي أنه كان شيئاً لكن لم يكن مذكوراً

فقد كان أرضاً أو نطفة مثلاً لكن لم يكن مذكوراً أنه الإنسان الفلاني ثم صار هو هو.
 فمفاد كلامه تعالى أن الإنسان واحد حقيقي هو المبدء الوحيد لجميع آثار
 البدن الطبيعية والآثار الروحية كما أنه مجرد في نفسه عن المادة كما يفيد أمثال
 قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت » وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها »
 الزمر : ٤٢ وقوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » وقد تقدم بيانه .





اَنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
 تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)
 وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحِبُّونَ
 الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَائَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا
 أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ
 شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ
 لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) .

﴿ بَيَان ﴾

لما وصف جزاء الأبرار وما قدّر لهم من النعيم المقيم والملك العظيم بما
 صبروا في جنب الله وجه الخطاب إلى النبي ﷺ وأمره بالصبر لحكم ربه وأن
 لا يطيع هؤلاء الآثمين والكفار المحبّين للعاجلة المتعلّقين بها المعرضين عن الآخرة
 من المشركين وسائر الكفار والمنافقين وأهل الأهواء ، وأن يذكر اسم ربه ويسجد
 له ويسبحه مستمرّاً عليه ثمّ عمّم الحكم لا مته بقوله : « إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ
 اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » .

فهذا وجه اتصال الآيات بما قبلها وسياقها مع ذلك لا يخلو من شبه بالسياقات المكيّة وعلى تقدير مكيّتها فصدر السورة مدنيّ وذيلها مكّي .

قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » تصدير الكلام بإنّ وتكرار ضمير المتكلم مع الغير والائتيان بالمفعول المطلق كلّ ذلك للتأكيد ، وتسجيل أنّ الذي نزل من القرآن نجومًا متفرقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطانيّ ولا هوى نفسانيّ .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربّك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » تفرّيع على ما هو لازم مضمون الآية السابقة فإنّ لازم كون الله سبحانه هو الذي نزل القرآن عليه أن يكون ما في القرآن من الحكم حكم ربّه يجب أن يطاع فالمنعنى إذا كان تنزيله منّا فما فيه من الحكم حكم ربّك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربّك .

وقوله : « ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ورود التريديد في سياق النهي يفيد عموم الحكم فالنهي عن طاعتها سواء اجتمعا أو افترقا ، والظاهر أنّ المراد بالآثم المتلبّس بالمعصية وبالكفور المبالغ في الكفر فتشمل الآية الكفار والفساق جميعاً .

وسبق النهي عن طاعة الآثم والكفور بالأمر بالصبر لحكم ربّه يفيد كون النهي مفسّراً للأمر فمفاد النهي أن لا تطع منهم آثماً إذا دعاك إلى إثمك ولا كفوراً إذا دعاك إلى كفره لأنّ إثم الآثم منهم وكفر الكافر مخالفان لحكم ربّك وأما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية فإنّما يفيد علية الإثم والكفر للنهي عن الطاعة مطلقاً لا عليّتهما للنهي إذا دعا الآثم إلى خصوص إثمك والكافر إلى خصوص كفره .

قوله تعالى : « واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلاً » أي داوم على ذكر ربّك وهو الصلاة في كلّ بكرة وأصيل وهما الغدوّ والعشيّ .

قوله تعالى : « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » « من » للتبويض والمراد بالسجود له الصلاة ، ويقبل ما في الآيتين من ذكر اسمه بكرة وأصيلاً والسجود

له بعض الليل الانطباق على صلاة الصبح والعصر والمغرب والعشاء وهذا يؤيد نزول الآيات بمكة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله في آية الإسراء: « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر » أسرى : ٧٨ .

فالاتان كقوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » هود : ١١٤ ، وقوله : « وسبح بحمديك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار » طه : ١٣٠ .

نعم قيل : إن الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله : « وأصيلاً » وقتي صلاتي الظهر والعصر جميعاً ، ولا يخلو من وجه .

وقوله : « وسبحه ليلاً طويلاً » أي في ليل طويل و وصف الليل بالطويل توضيحي لا احترازي ، والمراد بالتسبيح صلاة الليل ، واحتمل أن يكون طويلاً صفة لمفعول مطلق محذوف والتقدير سبّحه في الليل تسبيحاً طويلاً .

قوله تعالى : « إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » تعليل لما تقدّم من الأمر والنهي والإشارة بهؤلاء إلى جمع الآثم والكفور المدلول عليه بوقوع النكرة في سياق النهي ، والمراد بالعاجلة الحياة الدنيا ، وعدّ اليوم ثقيلاً من الاستعارة ، والمراد بثقله شدّة كآثته محمول ثقيل يشقّ حمله ، و اليوم يوم القيامة . و كون اليوم وراءهم تفرّده أمامهم لأنّ وراء تفيد معنى الإحاطة ، أو جعلهم إياه خلفهم و وراء ظهورهم بناءً على إفادة « تذكرون » معنى الإعراض .

و المعنى فاصبر لحكم ربك و أقم الصلاة ولا تطع الآثمين و الكفار منهم لأنّ هؤلاء الآثمين و الكفار يحبّون الحياة الدنيا فلا يعملون إلّا لها و يتركون أمامهم يوماً شديداً أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوماً شديداً سيلقونه .

قوله تعالى : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » الشدّ خلاف الفكّ ، و الأسر في الأصل الشدّ و الربط و يطلق على ما يشدّ ويربط به فمعنى شدّدنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات والأعصاب والعضلات أو الأسر

بمعنى الماسور والمعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنساناً واحداً .

وقوله : « و إذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » أي إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم وجئنا بأمثالهم مكانهم وهو إماتة قرن وإحياء آخرين ، وقيل : المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة القيامة وهو بعيد من السياق .

والآية في معنى دفع الدخل كأن متوهماً يتوهم أنهم بحبهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا فأجيب بأنهم مخلوقون لله خلقهم وشد أسرهم وإذا شاء أذهبهم وجاء بآخرين فكيف يعجزونه وخلقهم وأمرهم وحياتهم و موتهم بيده ؟

قوله تعالى : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » تقدم تفسيره في سورة المزمل والإشارة بهذه إلى ما ذكر في السورة .

قوله تعالى : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً » الاستثناء من النفي يفيد أن مشيئة العبد متوقفة في وجودها على مشيئة تعالى فلمشيئة تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشيئة العبد ، وليست متعلقة بفعل العبد مستقلاً وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبرياً ولا أن العبد مستقل في إرادة يفعل ما يشاءه شاء الله أولم يشأ ، فالفعل اختياري لاستناده إلى اختيار العبد ، وأما اختيار العبد فليس مستنداً إلى اختيار آخر ، وقد تكرر توضيح هذا البحث في مواضع مما تقدم .

والآية مسوقة لدفع توهم أنهم مستقلون في مشيئتهم منقطعون من مشيئة ربهم ، ولعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الالتفات إلى الخطاب في قوله : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » كما أن الوجه في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « يشاء الله إن الله » هو الإشارة إلى علّة الحكم فإن مسمى هذا الاسم الجليل يتبدى منه كل شيء وينتهي إليه كل شيء فلا تكون مشيئة إلا بمشيئته

و لا تؤثر مشيئة إلا بأذنه .

وقوله : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » توطئة لبيان مضمون الآية التالية .
قوله تعالى : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » مفعول
 « يشاء » محذوف يدلّ عليه الكلام ، و التقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في
 رحمته ، و لا يشاء إلاّ دخول من آمن و اتقى ، و أمّا غيرهم و هم أهل الإثم و الكفر
 فبيّن حالهم بقوله : « و الظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » .
 و الآية تبين سنته تعالى الجارية في عباده من حيث السعادة و الشقاء ، و قد علل
 ذلك بما في ذيل الآية السابقة من قوله : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » فأفاد به أن
 سنته تعالى ليست سنة جزائية مبنية على الجهالة بل هو يعامل كلّاً من الطائفتين
 بما هو أهل له و سينبئهم حقيقة ما كانوا يعملون .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدّر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة في
 قوله : « و لا نطع منهم آثماً أو كفوراً » قال : حدّثنا أنّها نزلت في عدو الله أبي جهل .
اقول : هو أشبه بالتطبيق .

و في المجمع في قوله تعالى : « و سبحه ليلاً طويلاً » روي عن الرضا عليه السلام
 أنّه سأله أحمد بن محمد عن هذه الآية و قال : ما ذلك التسبيح ؟ قال : صلاة الليل .
 و في الخرائج و الجرائع عن القائم عليه السلام في حديث يقول لكامل بن إبراهيم المدني :
 وجئت تسأل عن مقالة المفوضة كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله عزّ وجلّ فأذا شاء
 شئنا ، و الله يقول : « و ما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله » .

و في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن طريق ابن شهاب عن سالم عن أبي
 هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا خطب : كلّ ما هو آت قريب ، لا بعد لما

يأتي ، و لا يعجل الله لعجلة أحد ، ما شاء الله لا ما شاء الناس ، يريد الناس أمراً و يريد الله أمراً ، ما شاء الله كان و لو كره الناس ، لا مبعاد لما قرّب الله ، و لا مقرب لما باعد الله ، لا يكون شيء إلا بأذن الله .

اقول : و في بعض الروايات من طرق أهل البيت عليهم السلام تطبيق الحكم في قوله : « فاصبر لحكم ربك » و الرحمة في قوله : « يدخل من يشاء في رحمته » على الولاية و هو من الجري أو البطن وليس من التفسير في شيء .



﴿سورة المرسلات مكيّة و هي خمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)
وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمَلَقِيَّاتِ ذِكْرًا (٥) عُنْدَ أَوْ
نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ
فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ اقْتَتَتْ (١١) لَآئِي يَوْمٍ
أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلَّ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)

﴿بيان﴾

تذكر السورة يوم الفصل وهو يوم القيامة وتؤكد الأخبار بوقوعه وتشفعه
بالوعيد الشديد للمكذّبين به والإنذار والتبشير لغيرهم ويربو فيها جانب الوعيد
على غيره فقد كرّر فيها قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » عشر مرّات .
والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والمرسلات عرفاً » الآية وما يتلوها إلى تمام ستّ آيات إقسام
منه تعالى بأُمور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات والناشرات والفارقات فالملقيات
ذكرأ عذراً أو نذراً ، والأوليّان أعني المرسلات عرفاً والعاصفات عصفاً لا تخلوان
لو خلّيتا ونفسهما مع الغض عن السياق من ظهور ما في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب
لكنّ الأخيرة أعني الملقيات ذكرأ عذراً أو نذراً كالصريحة في الملائكة النازلين على
الرسل الحاملين لوحي الرسالة الملقين له إليهم إتماماً للحجّة أو إنذاراً وبقية الصفات

لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى .

وحمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات والعاصفات - على ما عرفت - يحتاج إلى تكلف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية وخاصة في الصفة الأخيرة .

وكذا حمل المرسلات والعاصفات على إرادة الرياح وحمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهراً بين الرياح وبين ملائكة الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام وينظم الجميع في سلك واحد ، وما وجهه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينقل إليها في مفتتح الكلام من غير تذييه سابق .

فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل وهي كثيرة جداً لا تكاد تنضب ، وحمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحي كنظيرتها في مفتتح سورة الصافات « والصفات صفّاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً » وفي معناها قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » الجن : ٢٨ .

فقوله : « والمرسلات عرفاً » إقسام منه تعالى بها والعرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس ويشبه به الأمور إذا تتابعت يقال : جاؤا كعرف الفرس ، ويستعار فيقال : جاء القطا عرفاً أي متتابعة و جاؤا إليه عرفاً واحداً أي متتابعين ، والعرف أيضاً المعروف من الأمر والنهي و « عرفاً » حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثاني ، والارسال خلاف الإمساك ، وتأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التي تنزل بها الملائكة قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » النحل : ٢ وقال « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » المؤمن : ١٥ .

والمعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي .

وقيل : المراد بالمرسلات عرفاً الرياح المتتابعة المرسلّة وقد تقدّمت الإشارة إلى

ضعفه ، و مثله في الضعف القول بأن المراد بها الانبياء ﷺ فلا يلائمه ما يتلوها .
قوله تعالى : « فالعاصفات عصفاً » عطف على المرسلات والمراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح إي سرعة هبوبها إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أُرسلت إليه ، والمعنى أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة .

قوله تعالى : « و الناشرات نشرأ » إقسام آخر ، و نشر الصحيفة و الكتاب والتوب ونحوها بسطه ، والمراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير إليه قوله تعالى :
« كلاً إنَّها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٦ والمعنى و أقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحي للنبي ليتلقاها .

وقيل : المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته و قيل : الرياح الناشرة للسحاب ، و قيل : الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال ، و قيل : الملائكة نشرأ أجنحتهم حين النزول و قيل : غير ذلك .

قوله تعالى : « فالفارقات فرقاً » المراد به الفرق بين الحق و الباطل و بين الحلال والحرام ، والفرق المذكور صفة متفرعة على النشر المذكور .

قوله تعالى : « فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً » المراد بالذكر القرآن يقرؤه على النبي ﷺ أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المقرّ و عليهم .

والصفات الثلاث أعني النشر والفرق والإلقاء مترتبة فإن الفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام يتحقق بنشر الصحف والقائها فبالنشر يشرع الفرق في التحقق وبالإلقاء يتم تحققه فالتنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق ويترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء .

وقوله : « عذراً أو نذراً » هما من المفعول له و « أو » للتنويع قيل : هما مصدران بمعنى الإعذار والإنيان ، والإعذار الإتيان بما يصير به معذورا والمعنى أنهم يلتقون الذكر لتكون عذراً لعباده المؤمنين بالذكر وتخويفا لغيرهم .

وقيل : ليكون عذراً يعتذر به الله إلى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة ، ويؤل إلى إتمام الحجّة ، فمحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماماً للحجّة على المكذّبين وتخويفاً لغيرهم . وهو معنى حسن .

قوله تعالى : « إن ماتوعدون لواقع » جواب القسم ، وما موصولة والخطاب لعامة البشر ، والمراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب والثواب والواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار والمعنى أن الذي وعدكم الله به من البعث والعقاب والثواب سيتحقق لا محالة .

﴿ كلام في أقسامه تعالى في القرآن ﴾

من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الست أنها مع ما تضمنت الإقسام لتأكيد الخبر الذي في الجواب تضمنت الحجّة على مضمون الجواب وهو وقوع الجزاء الموعود فإنّ التدبير الربوبيّ الذي يشير إليه القسم أعني إرسال المرسلات العاصفات ونشرها الصحف وفرقها وإلقاءها الذكر للنبيّ تدبير لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهيّ و التكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم معد للجزاء يجازى فيه العاصي والمطيع من المكلفين .

فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجّة على وقوعه كأنه قيل : أقسم بهذه الحجّة أن مدلولها واقع .

وإذا تأملت الموارد التي أورد فيها القسم في كلامه تعالى وأمعنت فيها وجدت المقسم به فيها حجّة دالة على حقيّة الجواب كقوله تعالى في الرزق : « فربّ السماء والأرض إنّه لحقّ » الذاريات : ٢٣ فإنّ ربوبيّة السماء والأرض هي المبدء لرزق المرزوقين ، وقوله : « لعمر ك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » الحجر : ٧٢ فإنّ حياة النبيّ ﷺ الطاهرة المصونة بعصمة من الله دالة على سكرهم وعمهم ، وقوله : « والشمس وضحاها - إلى أن قال - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد

أُفْلِحَ من زكّاهَا وقد خاب من دسّاهَا « الشمس : ١٠ فإنّ هذا النظام المتقن المنتهي إلى النفس الملهمة المميّزة لفجورها وتقواها هو الدليل على فلاح من زكّاهَا وخيبة من دسّاهَا .

وعلى هذا النسق سائر ما ورد من القسم في كلامه تعالى وإن كان بعضها لا يخلو من خفاء يحوج إلى إمعان من النظر كقوله : « والتين والزيتون وطور سينين » التين : ٢ وعليك بالتدبّر فيها .



قوله تعالى : « فإِذا النجوم طمست - إلى قوله - أَقْتَت » بيان لليوم الموعود الذي أخبر بوقوعه في قوله : « إِنّما توعدون لواقع » وجواب إذا محذوف يدلّ عليه قوله : « لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلْت - إلى قوله - للمكذّبين » .

وقد عرّف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنساني وانقطاع النظام الدينيّ كأنطماس النجوم وانشقاق الأرض واندكّ الجبال وتحول النظام إلى نظام آخر يغيّره ، وقد تكرر ذلك في كثير من السور القرآنيّة وخاصّة السور القصار كسورة النبأ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والفجر والزلازل والقارعة وغيرها ، وقد عدّت الأمور المذكورة فيها في الأخبار من أشرار الساعة .

ومن المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب والسنة أنّ نظام الحياة في جميع شؤونها في الآخرة غير نظامها في الدنيا فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاؤون أو محض الشقاء وليس لهم فيها إلّا ما يكرهون والدار الدنياء دار فناء وزوال لا يحكم فيها إلّا الأسباب والعوامل الخارجيّة الظاهريّة مخلوط فيها الموت بالحياة ، والفقدان بالوجدان ، والشقاء بالسعادة ، والتعب بالراحة ، والمساءة بالسرور ، والآخرة دار جزاء ولا عمل والدنيا دار عمل ولا جزاء ، وبالجملّة النشأة غير النشأة .

فتعريفه تعالى نشأة البعث والجزاء بأشراطها التي فيها انطواء بساط الدنيا

بخراب بنيان أرضها وانتساف جبالها وانشقاق سمائها وانطماس نجومها إلى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم في نشأة أخرى قال تعالى : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » الواقعة : ٦٢ .

فقوله : « فإذا النجوم طمست » أي محي أثرها من النور وغيره ، والطمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى : « وإذا النجوم انكدرت » التكوير : ٢ .
وقوله : « وإذا السماء فرجت » أي انشقت ، والفرج والفرجة الشق بين الشيئين قال تعالى : « إذا السماء انشقت » الانشقاق : ١ .

وقوله : « وإذا الجبال نسفت » أي قلعت وأزيلت من قولهم : نسفت الريح الشيء أي اقتلعت وأزالته قال تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا » طه : ١٠٥ .

وقوله : « وإذا الرسل أقيمت » أي عيّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم أو بلغت الوقت الذي تنتظره لأداء شهادتها على الأمم من التأقيت بمعنى التوقيت ، قال تعالى : « فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين » الأعراف ٦ ، وقال : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » المائدة : ١٠٩ .

قوله تعالى « لأيّ يوم أجّلت » إلى قوله : - للمكذّبين « الأجل المدّة المضروبة للشيء ، والتأجيل جعل الأجل للشيء ، ويستعمل في لازمه وهو التأخير كقولهم : دين مؤجل أي له مدّة بخلاف الحال وهذا المعنى هو الأنسب للآية ، والضمير في « أجّلت » للأُمور المذكورة قبلاً من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل ، والمعنى لأيّ يوم أخّرت يوم أخّرت هذه الأمور .

واحتتمل أن يكون « أجّلت » بمعنى ضرب الأجل للشيء وأن يكون الضمير المقدّر فيه راجعاً إلى الرسل ، أو إلى ما يشعر به الكلام من الأمور المتعلقة بالرسل مما أخبروا به من أحوال الآخرة وأهوالها وتعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين فيها ، ولا يخلو كل ذلك من خفاء .

وقد سيقّت الآية والتي بعدها أعني قوله : « لأيّ يوم أجّلت ليوم الفصل » في

صورة الاستفهام وجوابه للمعظيم والتهويل والتعجيب وأصل المعنى أخّرت هذه الأمور ليوم الفصل .

وهذا النوع من الجمل الاستفهامية في معنى تقدير القول ، والمعنى إن من عظمة هذا اليوم وهوله وكونه عجباً أنه يسأل فيقال : لأيّ يوم أخّرت هذه الأمور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب : ليوم الفصل .

وقوله : «ليوم الفصل» هو يوم الجزاء الذي فيه فصل القضاء قال تعالى : «إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة» الحج : ١٧ .

وقوله : «وما أدراك ما يوم الفصل» تعظيم لليوم وتفخيم لأمره .

وقوله : «ويل يومئذ للمكذّبين» الويل الهلاك ، والمراد بالمكذّبين المكذّبون بيوم الفصل الذي فيه ما يوعدون فإنّ الآيات مسوقة لبيان وقوعه وقد أقسم على أنّه واقع .

وفي الآية دعاء على المكذّبين ، وقد استغني به عن ذكر جواب إذا في قوله : «فإذا النجوم طمست» الخ والتقدير فإذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا وكذا كان يوم الفصل وهلك المكذّبون به .

﴿ بحث روائي ﴾

في الخصال عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : أسرع الشيب إليك يا رسول الله . قال ﷺ : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون .

وفي الدر المنثور أخرج البخاريّ ومسلم والنسائيّ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : بينما نحن مع النبيّ ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفاً فأثّنه يتلوها وإنّي لألقاها من فيه وإنّ فاه لرطب بها إذ وثبت عليه حيّة فقال النبيّ ﷺ : أفتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبيّ (ص) وقيت شرّكم كما وقيت شرّها . أقول : ورواها أيضاً بطريقين آخرين .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « والمرسلات عرفا » قال : آيات تتبع بعضها بعضاً .

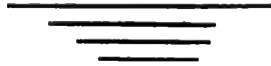
و في المجمع في الآية وقيل : إنها الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه . في رواية الهرويّ عن ابن مسعود ، و عن أبي حمزة الثماليّ عن أصحاب عليّ عنه عليه السلام .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « فاذا النجوم طُمست » قال : يذهب نورها وتسقط .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « فاذا النجوم طُمست » فطمسها زهاب ضوئها « وإذا السماء فرجت » قال : تفرج وتنشق « وإذا الرسل أُقيمت » قال : بعثت في أوقات مختلفة .

وفي المجمع قال الصادق عليه السلام : « أُقيمت » أي بعثت في أوقات مختلفة .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « لا شيء يوم أُجِلَّت » قال : أخبرت .





اَلَمْ نُهْلِكِ الْاَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّعُهُمُ الْاٰخِرِينَ (١٧) كَذٰلِكَ نَفْعَلُ
 بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) اَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ
 مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) اِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا
 فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) اَلَمْ نَجْعَلِ الْاَرْضَ
 كَفَاتًا (٢٥) اَحْيَاءَ وَاَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَاَسْقَيْنَاكُمْ
 مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) اِنْطَلِقُوا اِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ
 تَكْذِبُونَ (٢٩) اِنْطَلِقُوا اِلَى ظِلِّ ذِي ثَلْثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي
 مِنَ الْهَرَبِ (٣١) اِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَاَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)
 وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هٰذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
 فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
 وَ الْاَوَّلِينَ (٣٨) فَاِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَ عِوُنٍ (٤١) وَ فَوَاحِشٍ مِّمَّا
 يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) اِنَّا كَذٰلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا

إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا
لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ
يُؤْمِنُونَ (٥٠)

﴿ بيان ﴾

حجج دالة على توحيد الربوبية تقضي بوجود يوم الفصل الذي فيه جزاء
المكذِّبين به ، وإشارة إلى ما فيه من الجزاء المعد لهم الذي كانوا يكذبون به ، و
إلى ما فيه من النعمة والكرامة للمتقين ، وتختتم بتوبيخهم وذمهم على استكبارهم
عن عبادته تعالى والإيمان بكلامه .

قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين »
الاستفهام للإنكار ، والمراد بالأوليين أمثال قوم نوح وعاد ونيمود من الأمم القديمة
عهداً ، و بالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة ، و الإتيان جعل الشيء إثر
الشيء .

و قوله : « ثم نتبعهم » برفع تتبع على الاستيناف وليس بمعطوف على « نهلك »
و إللجزم .

و المعنى قد أهلكنا المكذِّبين من الأمم الأولين ثم إننا نهلك الأمم الآخرين
على إثرهم .

و قوله : « كذلك نفعل بالمجرمين » في موضع التعليل لما تقدّمه و لذا أورد
بالفصل من غير عطف كأن قائلًا قال : لماذا أهلكوا ؟ ف قيل : كذلك نفعل بالمجرمين .
و الآيات - كما ترى - إنذار وإرجاع للبيان إلى الأصل المضروب في السورة أعني
قوله : « ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » وهي بعينها حجة على توحيد الربوبية فإن
إهلاك المجرمين من الإنسان تصرف في العالم الإنساني وتدبير ، وإذ ليس المهلك
إلا الله - وقد اعترف به المشركون - فهو الرب لا رب سواه ولا إله غيره .

على أنها تدلّ على وجود يوم الفصل لأنّ إهلاك قوم لا جرامهم لا يتمّ إلاّ بعد توجّه تكليف إليهم يعصونه و لا معنى للتكليف إلاّ مع مجازاة المطيع بالثواب و العاصي بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي و ليس هو الثواب و العقاب الدينيويين لأنّهما لا يستوعبان في هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كلّ بما عمل ، و هو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس .

قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين - إلى قوله - فنعم القادرون » الاستفهام للإنكار ، والماء المهين الحقيق قليل الغناء والمراد به النطفة ، و المراد بالقرار المسكين الرحم و بقوله : « قدر معلوم » مدّة الحمل .

و قوله : « فقدرنا » من القدر بمعنى التقدير ، والفاء لتفريع القدر على الخلق أي خلقناكم فقدرنا ما سيجري عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئة و جمال و صحّة و مرض و رزق إلى غير ذلك .

واحتمل أن يكون « قدرنا » من القدرة مقابل العجز والمراد فقدرنا على جميع ذلك ، و ما تقدّم أوجه .

والمعنى قد خلقناكم من ماء حقيق هو النطفة فجعلنا ذلك الماء في قرار مكين هي الرحم إلى مدّة معلومة هي مدّة الحمل فقدرنا جميع ما يتعلّق بوجودكم من الحوادث والصفات والأحوال فنعم المقدّرون نحن .

و يجري في كون مضمون هذه الآيات حجة على توحّد الربوبية نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة ، وكذا في كونه حجة على تحقّق يوم الفصل فإنّ الربوبية تستوجب خضوع المرؤيين لسلطانها وهو الدين المتضمن للتكليف ، و لا يتمّ التكليف إلاّ بجعل جزاء على الطاعة والعصيان ، و اليوم الذي يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل .

قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفافاً أحياء و أمواتاً - إلى قوله - فرائاً » الكفت والكفات بمعنى الضمّ والجمع أي ألم نجعل الأرض كفافاً يجمع العباد أحياء

وأمواتاً ، وقيل : الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء ، والمعنى ألم نجعل الأرض أوعية تجمع الأحياء والأموات .

وقوله : « وجعلنا فيها رواسي شامخات » الرواسي الثابتات من الجبال ، والشامخات العاليات ، وكأنّ في ذكر الرواسي توطئة لقوله : « وأسقيناكم ماء فراثاً » لأنّ الأنهار والعيون الطبيعية تنفجر من الجبال فتجري على السهول ، والفراث الماء العذب .

و يجري في حجيّة الآيات نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة .
قوله تعالى : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون » حكاية لما يقال لهم يوم الفصل والقائل هو الله سبحانه بقرينة قوله في آخر الآيات : « إن كان لكم كيد فكيدون » والمراد بما كانوا به يكذّبون ، جهنّم ، والانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث والمعنى يقال لهم : انتقلوا من المحشر من غير مكث إلى النار التي كنتم تكذّبون به .

قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب » ذكروا أنّ المراد بهذا الظلّ ظلّ دخان نار جهنّم قال تعالى : « وظلّ من يحموم » الواقعة ٤٣ .
و ذكروا أنّ في ذكر انشعابه إلى ثلاث شعب إشارة إلى عظم الدخان فإنّ الدخان العظيم يتفرّق تفرّق الذوائب .

قوله تعالى : « لا ظليل ولا يغني من اللهب » الظلّ الظليل هو المانع من الحرّ والأذى بستره على المستظلّ فكون الظلّ غير ظليل كونه لا يمنع ذلك ، واللهب ما يعلو على النار من أحمر وأصفر وأخضر .

قوله تعالى : « إنّها ترمي بشرر كالفصر كأنّه جمالة صفر » ضمير « إنّها » للنار المعلومة من السياق ، والشّرر ما يتطاير من النار ، والقصر معروف ، و الجمالة جمع جمل وهو البعير . والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » الإشارة إلى يوم الفصل ، والمراد بالآذن الإذن في النطق أو في الاعتذار .

وقوله « فيعتذرون » معطوف على « يؤذن » منتظم معه في سلك النفي ، والمعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أي أهل المحشر من الناس ولا يؤذن لهم في النطق أو في الاعتذار فلا يعتذرون ، ولا ينافي نفي النطق ههنا إنباته في آيات آخر لأن اليوم ذو مواقف كثيرة مختلفة يسألون في بعضها فينطقون ويختم على أفواههم في آخر فلا ينطقون .

وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » هود : ١٠٥ فليراجع .

قوله تعالى : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون » سمي يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل ويميز فيه بين أهل الحق وأهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٥ ، وقال : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

والخطاب في قوله : « جمعناكم والأولين » لمكذّبي هذه الأمة بما أنّهم من الآخرين ولذا قوبلوا بالأولين قال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس » هود : ١٠٣ وقال « وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً » الكهف : ٤٧ .

وقوله : « فإن كان لكم كيد فكيدون » أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا ، وهذا خطاب تعجيزي منبئ عن انسلاب القوة والقدرة عنهم يومئذ بالكلية بظهور أن لا قوة إلا لله عز اسمه قال تعالى : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إن تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ .

والآية أعني قوله : « إن كان لكم كيد فكيدون » أوسع مدلولاً من قوله : « يا معشر الجن والأانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا »

لا تنفذون إلاّ بسلطان ، الرحمن : ٣٣ لاختصاصه بنفي القدرة على الفرار بخلاف الآية التي نحن فيها .

وفي قوله : « فكيدون » التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده والنكته فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزي إنما هو الكيد لمن له القوة والقدرة فحسب و هو الله وحده ولو قيل : فكيدونا فات الإِشعار بالتوحد .

قوله تعالى : «إنّ المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون - إلى قوله - المحسنين » الظلال والعيون ظلال الجنة و عيونها التي يتنعمون بالاستظلال بها و شربها ، والفواكه جمع فاكهة وهي الثمرة .

و قوله : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » مفاده الإِذن والإِباحة ، و كأنّ الأكل والشرب كناية عن مطلق التنعم بنعم الجنة و التصرف فيها و إن لم يكن بالأكل والشرب ، وهو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه . و قوله : « إنّنا كذلك نجزي المحسنين » تسجيل لسعادتهم .

قوله تعالى : « كلوا و تمتعوا قليلاً إنكم مجرمون » الخطاب من قبيل قولهم : إفعل ما شئت فإنه لا ينفعك ، وهذا النوع من الأمر إِيّاس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريد ، ومنه قوله : « فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا » طه : ٧٢ ، و قوله : « اعملوا ما شئتم إنّّه بما تعملون بصير » حمّ السجدة : ٤٠ .

فقوله : « كلوا و تمتعوا قليلاً » أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً إِيّاس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل والتمتع في دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا وليتمتعوا قليلاً فليس يدفع عنهم شيئاً .

وإنّما ذكر الأكل والتمتع لأنّ منكري المعاد لا يرون من السعادة إلاّ سعادة الحياة الدنيا ولا يرون لها من السعادة إلاّ الفوز بالأكل والتمتع كالحيوان المعجم قال

تعالى: «والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» سورة محمد: ١٢ .

وقوله: «إنكم مجرمون» تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أي لا ينفعكم الأكل والتمتع قليلاً لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم انفصل وجزاء المكذبين به النار لا محالة .

قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون» المراد بالركوع الصلاة كما قيل ولعل ذلك باعتبار اشتغالها على الركوع .

وقيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع والخضوع والتواضع له تعالى باستجابة دعوته وقبول كلامه واتباع دينه ، وعبادته .

وقيل: المراد بالركوع ما يؤمرون بالسجود يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى «ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون» القلم: ٤٢ والوجهان لا يخلوان من بُعد .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أن الكلام كان مسوقاً لتهديد المكذبين بيوم الفصل وبيان تبعه تكذيبهم به وتمم ذلك في هذه الآية بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا إلى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلامعنى للعبادة مع نفي الجزاء ، وليكون كالتوطئة لقوله الآتي: «فبأي حديث بعده يؤمنون» .

ونسب إلى الزمخشري أن الآية متصلة بقوله في الآية السابقة: «للمكذبين» كأنه قيل: ويل يومئذ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لايركعون . وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: «وإذا قيل لهم» الخ ووجهه الإعراض عن مخاطبتهم بعد تركهم وأنفسهم يفعلون ما يشاؤون بقوله: «كلوا وتمتعوا» .

قوله تعالى «فبأي حديث بعده يؤمنون» أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو آية معجزة إلهية ، وقد بين لهم أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان وساطع البرهان فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون .

وهذا إِيَّاس من إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر وكالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم إلى الإيمان بإلقاء قوله : «كلوا وتمتعوا» إليهم في مجله فليسوا بمؤمنين ولا فائدة في دعوتهم غير أن فيها إتماماً للحجة .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ : وقوله : «ألم نخلقكم من ماء مهين» قال : منتن «فجعلناه في قرار مكين» قال : في الرحم وأما قوله : «إلى قدر معلوم» يقول : منتهى الأجل .
أقول : وفي أصول الكافي في رواية عن أبي الحسن الماضي عليه السلام تطبيق قوله : «ألم نهلك الأولين» على مكذب بني الرسل في طاعة الأوصياء ، وقوله : «ثم نقبعمهم الآخرين» على من أجرم إلى آل محمد عليهم السلام . على اضطراب في متن الخبر ، وهو من الجري دون التفسير .

وفيه : وقوله «ألم نجعل الأرض كفناً أحياءً وأمواتاً» قال : الكفات المساكين وقال : نظر أمير المؤمنين عليه السلام في رجوعه من صفين إلى المقابر فقال : هذه كفات الأموات أي مساكنهم ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال : هذه كفات الأحياء . ثم تلا قوله : «ألم نجعل الأرض كفناً أحياءً وأمواتاً» .

أقول : وروى في المعاني بإسناده عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه نظر إلى المقابر . وذكر مثل الحديث السابق .

وفيه : وقوله : «وجعلنا فيها رواسي شامخات» قال : جبال مرتفعة .
 وفيه : وقوله : «انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب» قال فيه ثلاث شعب من النار وقوله : «إنّها ترمي بشرر كالقصر» قال : شرر النار مثل القصور والجبال .
 وفيه : وقوله : «إنّ المتّقين في ظلال عيون» قال : في ظلال من نور أنور من الشمس .

وفي المجمع في قوله : «وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون» قال مقاتل : نزلت في
تقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا : لانحنى . والرواية لانحنى فإن
ذلك سبّة علينا . فقال ﷺ : لاخير في دين ليس فيه ركوع وسجود .
اقول : وفي انطباق القصة - وقد وقعت بعد الهجرة - على الآية خفاء .
وفي تفسير القمي في الآية السابقة قال : وإذا قيل لهم : تولّوا الامام لم يتولّوه .
اقول : وهو من الجري دون التفسير .

﴿سورة النبأ مكيّة وهي أربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)
 الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ
 الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا
 نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)
 وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا
 مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ
 أَلْفَافًا (١٦) .

﴿بيان﴾

تتضمن السورة الإخبار بمجىء يوم الفصل وصفته والاحتجاج على أنه حق لا ريب فيه ، فقد افتتحت بذكر تساؤلهم عن نبأه ثم ذكر في سياق الجواب ولحن التهديد أنهم سيعلمون ثم احتج على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود في الكون بما فيه من التدبير الحكيم الدالّ بأوضح الدلالة على أن وراء هذه النشأة المتغيرة الدائرة نشأة ثابتة باقية ، وأن عقيب هذه الدار التي فيها عمل ولا جزاء داراً فيها جزاء ولا عمل فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام .

ثم تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس وحضورهم وانقلاب الطاغين إلى عذاب أليم والمتقين إلى نعيم مقيم ويختم الكلام بكلمة في الإنذار ، و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى: « عمّ يتساءلون » « عمّ » أصله عمّا وما استفهاميّة تحذف الألف منها طراداً إذا دخل عليها حرف الجرّ نحو لم وممّ وعلى م وإلى م ، والتساؤل سؤال القوم بعضهم بعضاً عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر وإن كان المسؤل غيرهم فهم كان يسأل بعضهم بعضاً عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبي ﷺ عن أمر وحيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه إلا نذار والوعيد تأييده أن المتسائلين هم كفّار مكّة من المشركين النافين للنبوّة والمعاددون المؤمنين ودون الكفّار والمؤمنين جميعاً .

فالتساؤل من المشركين والإخبار عنه في صورة الاستفهام للإشعار بهوانه وحقارته لظهور الجواب عنه ظهوراً ما كان ينبغي معه أن يتساءلوا عنه .

قوله تعالى: « عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون » جواب عن الاستفهام السابق أي يتساءلون عن النبأ العظيم ، ولا يخفى ما في توصيف النبأ المتساءل عنه بالعظيم من تعظيمه وتفخيم أمره .

والمراد بالنبأ العظيم نبؤ البعث والقيامة الذي يهتمّ به القرآن العظيم في سورة المكيّة ولا سيّما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كلّ الاهتمام .

ويؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل وما تقدّم عليها من الحجّة على أنّه حقّ واقع .

وقيل: المراد به نبؤ القرآن العظيم ، ويدفعه كون السياق بحسب مصبّه اجنبياً عنه وإن كان الكلام لا يخلو من إشارة إليه استلزاما .

وقيل: النبؤ العظيم ما كانوا يختلفون فيه من إثبات الصانع وصفاته والملائكة والرسل والبعث والجنّة والنار وغيرها ، وكأنّ القائل به اعتبر فيه ما في السورة من الإشارة إلى حقيقة جميع ذلك ممّا تتضمنه الدعوة الحقّة الإسلامية .

ويدفعه أنّ الإشارة إلى ذلك كلّها من لوازم صفة البعث المتضمنة لجزاء الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح والكفر والإجرام ، وقد دخل فيما في السورة من صفة يوم الفصل تبعاً وبالقصد الثاني .

على أن المراد بهؤلاء المتسائلين - كما تقدّم - المشركون وهم يثبتون الصانع والملائكة وينفون ما وراء ذلك مما ذكر .

وقوله : « الذي هم فيه مختلفون » إنما اختلفوا في نحو إنكاره وهم متفقون في نفيه فمنهم من كان يرى استحالة فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله : « هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد » سبأ : ٧ ، ومنهم من كان يستبعده فينكره وهو قولهم : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هياها هياها لما توعدون » المؤمنون : ٣٦ ، ومنهم من كان يشك فيه فينكره قال تعالى : « بل ادّأرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها » النمل : ٦٦ ، ومنهم من كان يوقن به لكنّه لا يؤمن عناداً فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد والنبوة وسائر فروع الدين بعد تمام الحجّة عناداً قال تعالى : « بل لجوا في عتوّ ونفور » الملك : ٢١ .

والمحصل من سياق الآيات الثلاث وما يتلوها أنهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث والجزاء يوم الفصل ثقل عليهم ذلك فعدوا يسأل بعضهم بعضاً عن شأن هذا النبأ العجيب الذي لم يكن مما قرع أسماعهم حتى اليوم ، وربما راجعوا النبي ﷺ والمؤمنين وسألوهم عن صفة اليوم وأنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وربما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن واحتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب وخاصة اليهود ويستمدّونهم في فهمه .

وقد أشار تعالى في هذه السورة إلى قصّة تساؤلهم في صورة السؤال والجواب فقال : « عمّ يتساءلون » وهو سؤال عمّا يتساءلون عنه . ثم قال : « عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون » وهو جواب السؤال عمّا يتساءلون عنه . ثم قال : « كلا سيعلمون » الخ وهو جواب عن تساؤلهم .

وللمفسّرين في مفردات الآيات الثلاث وتقرير معانيها وجوه كثيرة تركناها لعدم ملائمتها السياق والذي أوردناه هو الذي يعطيه السياق .

قوله تعالى : « كلا سيعلمون ثمّ كلا سيعلمون » ردع عن تساؤلهم عنه بأئين

ذلك على الاختلاف في النفي أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبأ فيعلمونه ، وفي هذا التعبير تهديد كما في قوله : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » الشعراء : ٢٢٧ .

وقوله : « ثم كلاً سيعلمون » تأكيد للردع والتهديد السابقين ولحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعاً .

قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، الآية إلى تمام إحدى عشرة آية مسوقة سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء وتحقيق هذا النبأ العظيم ولازم ثبوته صحة ما في قوله : « سيعلمون » من الأخبار بأنهم سيشاهدونه فيعلمون .

تقرير الحجة أن العالم المشهود بأرضه وسماؤه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لأموارها من المحال أن يكون لعباً باطلاً لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروري أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر إلى عالم ذي نظام ثابت باق ، وأن يظهر فيه أثر الإصلاح الذي تدعو إليه الفطرة الانسانية والفساد الذي تردع عنه ، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتقين وشقاء المفسدين ، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزية أو ردعاً غريزياً بالنسبة إلى ما لا أثر له في الخارج ولا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الإنسان ويجزى فيه على عمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً .

فالآيات في معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ .

وبهذا البيان يثبت أن هناك يوماً يلقاه الإنسان ويجزى فيه بما عمل إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً فليس للمشركين أن يخلطوا فيه فيشك فيهم ويستبعده طائفة ، ويحيله قوم ، ولا يؤمن به مع العلم به عناداً آخرون ، فالיום ضروري الوقوع

والجزاء لا ريب فيه .

ويظهر من بعضهم أن الآيات مسوقة لإثبات القدرة وأن العود يماثل البدء والقادر على الإبداع قادر على الإعادة ، وهذه الحجة وإن كانت تامة وقد وقعت في كلامه تعالى لكنها حجة على الإمكان دون الوقوع والسياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الإمكان فالأنسب في تقريرها ما تقدم .

وكيف كان فقوله : « ألم نجعل الأرض مهاداً » الاستفهام للإثبات ، والمهاد الوطاء والقرار الذي يتصرف فيه ، ويطلق على البساط الذي يجلس عليه ، والمعنى قد جعلنا الأرض قراراً لكم تستقرون عليها وتصرّفون فيها .

قوله تعالى : « والجبال أوتاداً » الأوتاد جمع وتد وهو المسبار إلا أنه أغلظ منه كما في المجمع ، ولعل عدّ الجبال أوتاداً مبني على أن عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تنتصب على قمم الشقوق متراكمة كهيئة التود المنسوب على الأرض تسكن به فورة البركان الذي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان .

وعن بعضهم أن المراد بجعل الجبال أوتاداً انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لمادت الأرض بهم أي لما تهيأت لانتفاعهم . وفيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة .

قوله تعالى : « وخلقناكم أزواجاً » أي زوجاً زوجاً من ذكر وأنثى لتجري بينكم سنة التناسل فيدوم بقاء النوع إلى ما شاء الله .

وقيل : المراد به الأشكال أي كل منكم شكل للآخر . وقيل : المراد به الأصناف أي أصنافاً مختلفة كالأبيض والأسود والأحمر والأصفر إلى غير ذلك ، وقيل : المراد به خلق كل منهم من منيتين منى الرجل ومنى المرأة ، وهذه وجوه ضعيفة . قيل : الالتفات في الآية من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الإلزام والتبكيك . قوله تعالى : « وجعلنا نومكم سباتاً » السبات الراحة والدعة فإن في المنام

سكوناً وراحة للقوى الحيوانية البدنية مما اعتراها في اليقظة من التعب والكلال بواسطة تصرفات النفس فيها .

وقيل : السبات بمعنى القطع وفي النوم قطع التصرفات النفسانية في البدن ، وهو قريب من سابقه .

وقيل : المراد بالسبات الموت ، وقد عدَّ سبحانه النوم من الموت حيث قال : « وهو الذي يتوفاكم بالليل » الأنعام : ٦٠ وهو بعيد ، وأما الآية فإنه تعالى عدَّ النوم توفياً ولم يعدّه موتاً بل القرآن يصرّح بخلافه قال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » الزمر : ٤٢ .

قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً » أي ساتراً يستر الأشياء بما فيه من الظلمة السائرة للمبصرات كما يستر اللباس البدن وهذا سبب إلهي يدعو إلى ترك التقلب والحركة والميل إلى السكن والدعة والرجوع إلى الأهل والمنزل .

وعن بعضهم أن المراد بكون الليل لباساً كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه ، وهو كما ترى .

قوله تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » العيش هو الحياة - على ما ذكره الراغب - غير أن العيش يختصّ بحياة الحيوان فلا يقال : عيشه تعالى وعيش الملائكة ويقال حياته تعالى وحياة الملائكة ، والمعاش مصدر ميميّ واسم زمان واسم مكان ، وهو في الآية بأحد المعنيين الأخيرين ، والمعنى وجعلنا النهار زماناً لحياتكم أو موضعاً لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم ، وقيل : المراد به المعنى المصدرى بحذف مضاف والتقدير وجعلنا النهار طلب معاش أي مبتغى معاش .

قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً » أي سبع سماوات شديدة في بنائها .

قوله تعالى : « وجعلنا سراجاً وهاجاً » الوهاج شديد النور والحرارة والمراد بالسراج الوهاج الشمس .

قوله تعالى : « وأترلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً » المعصرات السحب الماطرة
وقيل : الرياح التي تعصر السحب لتمطر والثجاج الكثير الصب للماء ، والأولى
على هذا المعنى أن تكون « من » بمعنى الباء .

قوله تعالى : « لنخرج به حباً ونباتاً » أي حباً ونباتاً يقتات بهما الإنسان
وسائر الحيوان .

قوله تعالى : « وجنّات ألفافا » معطوف على قوله : « حباً » وجنّات ألفاف
أي ملتفة أشجارها بعضها ببعض .
قيل : إنّ الألفاف جمع لا واحد له من لفظه .

﴿ بحث روائي ﴾

في بعض الأخبار أن النبأ العظيم عليّ عليه السلام وهو من البطن .
عن النخصل عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله أسرع
إليك الشيب . قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون .
في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً » قال : يمهّد فيها
الإنسان « والجبّال أوتاداً » أي أوتاد الأرض .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام ووتد بالصخور ميدان أرضه .
وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً » قال : يلبس على النهار .
أقول : ولعلّ المراد به أنه يخفي ما يظهره النهار ويستر ما يكشفه .
وفيه في قوله تعالى : « وجعلنا سراجاً وهاجاً » قال : الشمس المضيئة « وأترلنا
من المعصرات » قال : من السحاب « ماءً ثجاجاً » قال : صبّاً على صبّ .
و عن تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام « عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ،
بالباء يمطرون .

ثم قال : أما سمعت قوله : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » .
أقول : المراد أن « يعصرون » بضم الياء بصيغة المجهول والمراد به أنهم يمطرون
 واستشهادہ ﷺ بقوله : « وأنزلنا من المعصرات » دليل على أنه ﷺ أخذ المعصرات
 بمعنى الممطرات من أعصرت السحابة إذا أمطرت .
 وروى العياشي مثل الحديث عن علي بن معمر عن أبيه عن أبي عبد الله ﷺ
 وروى القمي في تفسيره مثله عن أمير المؤمنين ﷺ .





اِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
 أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ
 سَرَابًا (٢٠) اِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا بُشِينَ
 فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا
 وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) اِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ
 إِلَّا عَذَابًا (٣٠) اِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ
 أَتْرَابًا (٣٣) وَكَاسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥)
 جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
 الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا
 لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ
 فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) اِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ
 الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

﴿ بيان ﴾

نصف الآيات يوم الفصل الذي أخبر به إجمالاً بقوله : «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ثم تصف ما يجري فيه على الطاغين والمتقين ، وتختتم بكلمة في الإنذار وهي كالنتيجة .
قوله تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » قال في المجمع : الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الأمور وهو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد والمقدار من القدر . انتهى .

شروع في وصف ما تضمنته النبأ العظيم الذي أخبر بوقوعه وهدد بهم به في قوله : «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ثم أقام الحجّة عليه بقوله : «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» الخ وقد سمّاه يوم الفصل ونسبه به على أنه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفة ما يستحقه بعمله فهو ميقات واحد مضروب لفصل القضاء بينهم والتعبير بلفظ «كان» للدلالة على ثبوته وتعيينه في العلم الإلهي على ما ينطق به الحجّة السابقة الذكر ، ولذا أكد الجملة بأن .

والمعنى إن يوم فصل القضاء الذي نبؤه نبأ عظيم كان في علم الله يوم خلق السماوات والأرض وحكم فيها النظام الجاري حدًا مضروبًا ينتهي إليه هذا العالم فإنّه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التي أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء إلى يوم يفصل فيه القضاء بينهم .

قوله تعالى : « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » قد تقدّم الكلام في معنى نفخ الصور كراراً ، والأفواج جمع فوج وهي الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب .

وفي قوله : «فتأتون أفواجا» جري على الخطاب السابق الملتفت إليه قضاء لحق الوعيد الذي يتضمنه قوله : «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» وكأنّ الآية ناظرة إلى قوله تعالى : «يوم تدعو كلّ أناس بأسمهم» أسرى : ٧١ .

قوله تعالى : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة .

وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ، وقيل : صار فيها طرق ولم يكن كذلك من قبل ، ولا يخلو الوجهان من تحكّم فليتبّر .

قوله تعالى : « وسيّرت الجبال فكانت سراباً » السراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز و يطلق على كلّ ما يتوهّم ذاحقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة .

ولعلّ المراد بالسراب في الآية هو المعنى الثاني .

بيان ذلك أنّ تسيير الجبال ودكّها ينتهي بالطبع إلى تفرّق أجزائها وزوال شكلها كما وقع في مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزلة الساعة وآثارها إذ قال : « وتسير الجبال سيراً » الطور : ١٠ وقال : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » الحاقة : ١٤ ، و قال : « وكانت الجبال كنيباً مهيلاً » المزمل ١٤ ، و قال : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » القارعة : ٥ ، وقال : « وبست الجبال بساً » الواقعة : ٥ ، وقال : « وإذا الجبال نسفت » المرسلات : ١٠ .

فتسيير الجبال ودكّها ينتهي بها إلى بسّها و نسفها و صيرورتها كنيباً مهيلاً وكالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى وأمّا صيرورتها سراباً بمعنى ما يتوهّم ماء لأمعاً فلا نسبة بين التسيير وبين السراب بهذا المعنى .

نعم ينتهي تسييرها إلى انعدامها وبطلان كينونتها وحقيقتها بمعنى كونها جبلاً فالجبال الراسيات التي كانت ترى حقائق ذوات كينونة قويّة لا تحركه العواصف تتبدّل بالتسيير سراباً باطلاً لا حقيقة له ، وتظيره من كلامه تعالى قوله في أقوام أهلكتهم وقطع دابرهم : « فجعلناهم أحاديث » سبأ : ١٩ ، وقوله : « فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث » المؤمنون : ٤٣ ، وقوله في الأصنام : « إن هي إلا أسماءٌ سمّيتوها أنتم وآباؤكم » النجم : ٢٣ .

فَالْآيَةُ بِوَجْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »
النمل : ٨٨ - بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِهِ نَظَرًا إِلَى صِفَةِ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ - .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ : الرصد الاستعداد للترقب - إِلَى أَنْ قَالَ - وَالْمِرْصَدُ مَوْضِعُ الرصد قَالَ تَعَالَى : « وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مِرْصَدٍ »
وَالْمِرْصَادُ نَحْوُهُ لَكِنْ يُقَالُ لِلْمَكَانِ الَّذِي اخْتَصَّ بِالرصد قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ عَلَيْهَا مَجَازَ النَّاسِ ، وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . انْتَهَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « لِلطَّاغِينَ مَأْبَأٌ » الطَّاغُونَ الْمُتَلَبِّسُونَ بِالطَّغْيَانِ وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْحَدِّ ، وَالْمَأْبَأُ اسْمُ مَكَانٍ مِنَ الْأَوْبِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ ، وَالْعَنَاءُ فِي عَدَّامًا بَاءً لِلطَّاغِينَ أَنَّهُمْ هَيَّئُوا مَأْوًى لَا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِذَا انْقَطَعُوا عَنِ الدُّنْيَا آبَوْا وَرَجَعُوا إِلَيْهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا » الْأَحْقَابُ الْأَزْمَنَةُ الْكَثِيرَةُ وَالْدهور الطَوِيلَةُ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ .

وَهُوَ جَمْعُ اخْتَلَفُوا فِي وَاحِدِهِ فَقِيلَ : وَاحِدُهُ حَقْبٌ بِالضَّمِّ فَالسَّكُونُ أَوْ بَضْمَتَيْنِ ، وَقَدْ وَقَعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَوْ أَمْضَى حَقْبًا » الْكَهْفُ : ٦٠ ، وَقِيلَ : حَقْبٌ بِالْفَتْحِ فَالسَّكُونُ وَوَاحِدُ الْحَقْبِ حَقْبَةٌ بِالْكَسْرِ فَالسَّكُونُ قَالَ الرَّائِغُ : وَالْحَقُّ أَنَّ الْحَقْبَةَ مَدَّةٌ مِنَ الزَّمَانِ مُبْهَمَةٌ . انْتَهَى .

وَاحِدٌ بَعْضُهُمُ الْحَقْبُ بِشَمَانَيْنِ سَنَةً أَوْ بِبِضْعِ وَثَمَانَيْنِ سَنَةً وَزَادَ آخِرُونَ أَنَّ السَّنَةَ مِنْهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْمًا كُلَّ يَوْمٍ يَعْدِلُ أَلْفَ سَنَةٍ : وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْحَقْبَ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَعَنْ آخَرِينَ أَنَّهُ سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَلَا دَلِيلَ مِنَ الْكِتَابِ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ التَّحْدِيدَاتِ وَلَمْ يَثْبُتْ مِنَ اللُّغَةِ شَيْءٌ مِنْهَا .

وَنَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالطَّاغِينَ الْمُعَانِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ذِيلاً : « إِنَّهُمْ كَانُوا لِالْبَرْجُونِ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا » .

وَقَدْ فُسِّرُوا « أَحْقَابًا » فِي الْآيَةِ بِالْحَقْبِ بَعْدَ الْحَقْبِ فَالْمَعْنَى حَالُ الْكُونِ الطَّاغِينَ

لابئين في جهنم حقباً بعد حقب بالاتحديد ولأنهاية فلا تنافي الآية مانصّ عليه القرآن من خلود الكفار في النار .

وقيل : إن قوله : «لا يذوقون فيها» الخ صفة «أحقاباً» والمعنى لابئين فيها أحقاباً هي على هذه الصفة وهي أنهم لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حميماً وغساقاً ، ثم يكونون على غير هذه الصفة إلى غير النهاية . وهو حسن لو ساعد السياق .

قوله تعالى : «لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً» ظاهر المقابلة بين البرد والشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرّد به غير الشراب كالظلّ الذي يستراح إليه بالاستظلّال فالمراد بالذوق مطلق النيل والمسّ .

قوله تعالى : «إلّا حميماً وغساقاً» الحميم الماء الحارّ شديد الحرّ ، والغساق صديد أهل النار .

قوله تعالى : «جزاء وفاقاً - إلى قوله - كتاباً» المصدر بمعنى اسم الفاعل والمعنى يجزون جزاء موافقاً لما عملوا أو بتقدير مضاف أي جزاء ذافق أو إطلاق الوفاق على الجزاء للمبالغة كزيد عدل .

وقوله : «إنّهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً» أي تكذّبوا عجباً بصرونّ عليه ، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم ، وذلك أنّهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخرة وكذبوا بالآيات الدالة عليها فأنكروا التوحيد والنبوة وتعدّوا في أعمالهم طور العبوديّة فنسوا الله تعالى فنسيهم وحرّم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلّا الشقاء ولا يجدون فيها إلّا مايكرهون ، ولا يواجهون إلّا ما يتعدّون به وهو قوله : «فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذاباً» .

وفي الآية أعني قوله : «جزاء وفاقاً» دلالة على المطابقة التامة بين الجزاء والعمل فلا نسا لا يريد بعمله إلّا الجزاء الذي بائزائه والتلبّس بالجزاء تلبّس بالعمل بالحقيقة قال تعالى : «يا أيّها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنّما تجزون ما كنتم تعملون» التحريم : ٧ .

وقوله : « وكل شيء أحصيناه كتاباً » أي كل شيء ومنه الأعمال ضبطناه وبينناه في كتاب جليل القدر فالآية في معنى قوله تعالى : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » يس : ١٢ .

أو المراد وكل شيء حفظناه حال كونه مكتوباً أي في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال ، وجوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتاب بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط والمعنى كل شيء أحصيناه إحصاءً أو كل شيء كتبناه كتاباً .

والآية على أي حال متمم للتعليل السابق ، والمعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا وكذا وقد حفظناها عليهم فجزيناهاهم بها جزاءً وفاقاً .
قوله تعالى : « فذوقوا فلن تزيدكم إلا عذاباً » فريغ على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإياسهم من أن يرجوا نجاة من الشقوة وراحة ينالونها .
والالتفات إلى خطابهم بقوله : « فذوقوا » تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ والتقريع بلا واسطة .

والمراد بقوله : « فلن تزيدكم إلا عذاباً » أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب وعذاب على عذاب فلا تزالون يضاف عذاب جديد إلى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئاً مما تطلبون وتحبسون .
والآية لا تخلو من ظهور في كون المراد بقوله : « لابئين فيها أحقاباً » الخلود دون الانقطاع .

قوله تعالى : « إن للمتقين مفازاً » إلى قوله - كذاباً » الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة - على ما قاله الراغب - ففيه معنى النجاة والتخلص من الشر والحصول على الخير ، والمفاز مصدر ميمي أو اسم مكان من الفوز والآية تحتل الوجين جميعاً .

وقوله : « حدائق وأعنابا » الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحوط ، والأعناب جمع عنب وهو نمر شجرة الكرم وربما يطلق على نفس الشجرة .

وقوله : « وكواعب » جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعب ثديهاها واستدار مع ارتفاع سير ، والترائب جمع ترب وهي المماثلة لغيرها من اللدات .

وقوله : « وكأساً دهاقاً » أي ممتلئة شراباً مصدر بمعنى اسم الفاعل .

وقوله : « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاً أباً » أي لا يسمعون في الجنة لغواً من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب ولا تكذيباً من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حقّ له أثره المطلوب وصدق مطابق للواقع .

قوله تعالى : « جزاء من ربك عطاء حساباً » أي فعل بالمتقين مافعل حال كونه جزاء من ربك عطية محسوبة فقوله : « جزاء » حال وكذا « عطاء » « وحساباً » بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء ، ويحتمل أن يكون عطاء تمييزاً أو مفعولاً مطلقاً .

قيل : إضافة الجزاء إلى الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ تشریف له ، ولم يصف جزاء الطاغين إليه تعالى تنزهاً منه تعالى فليس يغشاهم شر إلا من عند أنفسهم قال تعالى : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » الأنفال : ٥١ .

ووقوع لفظ الحساب في ذيل جزاء الطاغين والمتقين معاً لتثبيت ما يلوّح إليه يوم الفصل الواقع في أوّل الكلام .

قوله تعالى : « ربّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » بيان لقوله : « ربك » أريد به أن ربوبيّته تعالى عامّة لكل شيء وأنّ الربّ الذي يتخذ النبيّ صلى الله عليه وآله وآله ربّاً ويدعو إليه ربّ كل شيء لا كما كان يقول المشركون : إنّ لكل طائفة من الموجودات ربّاً والله سبحانه ربّ الأرباب أو كما كان يقول بعضهم : إنّ ربّ السماء .

وفي توصيف الربّ بالرحمان - صيغة مبالغة من الرحمة - إشارة إلى سعة رحمته وأنها سمة ربوبيّته لا يحرم منها شيء إلا أن يمتنع منها شيء بنفسه لقصوره وسوء اختياره فمن شقوة هؤلاء الطاغين أنّهم حرّموا على أنفسهم بالخروج عن طور العبودية .

قوله تعالى : « لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً » وقوع صدر الآية في سياق قوله :

« ربّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » - وشأن الربوبية هو التدبير وشأن الرحمانية بسط الرحمة - دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي إلى الفعل كأن يقال : لم فعلت هذا ؟ ولم لم تفعل كذا ؟ كما يسأل الفاعل منّا عن فعله فتكون الجملة « لا يملكون منه خطاباً » في معنى قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » الأنبياء : ٢٣ وقد تقدّم الكلام في معنى الآية .

لكن وقوع قوله : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » بعد قوله : « لا يملكون منه خطاباً » الظاهر في اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافاً إلى وقوعه في سياق تفصيل جزاء الطاغين والمتقين منه تعالى يوم الفصل يعطي أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضي ويفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعته فيهم لكن الملائكة - وهم ممّن لا يملكون منه خطاباً - منزّهون عن وصمة الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم : « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء ٢٧ وكذلك الروح الذي هو ^(١) كلمته وقوله ، وقوله ^(٢) حقّ ، وهو تعالى ^(٣) الحقّ المبين والحقّ لا يعارض الحقّ ولا يناقضه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالخطاب الذي لا يملكونه هو الشفاععة وما يجري مجراها من وسائل التخلص من الشرّ كالعدل والبيع والخلة والدعاء والسؤال قال تعالى : « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاععة » البقرة : ٢٥٤ ، وقال : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاععة » البقرة : ١٢٣ ، وقال : « يوم يأت لا تكلم نفس إلاّ بإذنه » هود : ١٠٥ .

وبالجملة قوله : « لا يملكون منه خطاباً » ضمير الفاعل في « لا يملكون » لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة والروح والانس والجن كما هو المناسب

(١) النحل : ٤٠ .

(٢) الانعام : ٧٣ .

(٣) النور : ٢٥ .

للسياق الحاكي عن ظهور العظمة والكبرياء دون خصوص الملائكة والروح لعدم سبق الذكر ودون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل ، والمراد بالخطاب الشفاعة وما يجري مجراها كما تقدّم .

وقوله : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » ظرف لقوله : « لا يملكون » ، وقيل : لقوله : « لا يتكلمون » وهو بعيد مع صلاحية ظرفيته لما سبقه .
والمراد بالروح المخلوق الأمرى الذي يشير إليه قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ .

وقيل : المراد به أشراف الملائكة ، وقيل حفظة الملائكة وقيل : ملك موكل على الأرواح . ولا دليل على شيء من هذه الأقوال .

وقيل : المراد به جبريل ، وقيل : أرواح الناس وقيامها مع الملائكة صفّاً إنما هو بين النفختين قبل أن تلج الأجساد ، وقيل : القرآن والمراد من قيامه ظهور آثاره يومئذ من سعادة المؤمنين به وشقاوة الكافرين .

وبدفعها أن هذه الثلاثة وإن أُطلق على كلّ منها الروح في كلامه تعالى لكنه مع التقييد كقوله : « ونفخت فيه من روحي » الحجر : ٢٩ ، وقوله : « نزل به الروح الأمين » الشعراء : ١٩٣ ، وقوله : « قل نزلّه روح القدس » النحل : ١٠٢ ، وقوله : « فأرسلنا إليها روحنا » مريم : ١٧ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى : ٥٢ والروح في الآية التي نحن فيها مطلق . على أن في القولين الأخيرين تحكماً ظاهراً .

و « صفّاً » حال من الروح والملائكة وهو مصدر أريد به اسم الفاعل أي حال كونهم صافين ، وربما استفيد من مقابلة الروح للملائكة أن الروح وحده صفّ والملائكة جميعاً صفّ .

وقوله : « لا يتكلمون » بيان لقوله : « لا يملكون منه خطاباً » وضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح والملائكة والانس والجنّ على ما يفيد السياق .
وقيل : الضمير للروح والملائكة ، وقيل : للناس ووقوع « لا يملكون » بـ « بامر »

من معناه و « لا يتكلمون » في سياق واحد لا يلائم شيئاً من القولين .
 وقوله : « إلاً من أذن له الرحمان » بدل من ضمير الفاعل في « لا يتكلمون »
 أريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ بإذن الله فالجملة في معنى قوله : « يوم
 يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه » هود : ١٠٥ على ظاهر إطلاقه .
 وقوله : « وقال صواباً » أي قال قولاً صواباً لا يشوبه خطأ وهو الحق الذي
 لا يداخله باطل ، والجملة في الحقيقة قيد للإذن كأنه قيل : إلاً من أذن له الرحمان
 ولا يأذن إلا لمن قال صواباً فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون
 من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ .
 وقيل : « إلاً من أذن » الخ استثناء ممن يتكلم فيه والمراد بالصواب التوحيد
 وقول لا إله إلا الله والمعنى لا يتكلمون في حق أحد إلا في حق شخص أذن له الرحمان
 وقال ذلك الشخص في الدنيا صواباً أي أقر بالوحدانية وشهد أن لا إله إلا الله فالآية
 في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ .
 ويدفعه أن العناية الكلامية في المقام متعلقة بنفي أصل الخطاب والتكلم
 يومئذ من كل متكلم لا بنفي التكلم في كل أحد مع تسليم جواز أصل التكلم
 فالمستثنون هم المتكلمون المأذون لهم في أصل التكلم من دون تعرض لمن يتكلم فيه .

﴿ كلام فيهما هو الروح في القرآن ﴾

تكررت كلمة الروح - والمتبادر منه ما هو مبدء الحياة - في كلامه تعالى
 ولم يقصرها في الإنسان أو في الإنسان والحيوان فحسب بل أثبتتها في غيرهما كما في
 قوله : « فأرسلنا إليها روحنا » مريم : ١٧ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً
 من أمرنا » الشورى : ٥٢ إلى غير ذلك فللروح مصداق في الإنسان ومصداق في غيره .
 والذي يصلح أن يكون معرفاً لها في كلامه تعالى ما في قوله : « يسألونك عن
 الروح قل الروح من أمر ربي » أسرى : ٨٥ حيث أطلقها إطلاقاً وذكر معرفاً لها أنها

من أمره وقد عرّف أمره بقوله: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء» يس : ٨٣ فبيّن أنّه كلمة الإيجاد التي هي الوجود من حيث انتسابه إليه تعالى وقيامه به لا من حيث انتسابه إلى العلم والأسباب الظاهرية .

وبهذه العناية عدّ المسيح عليه السلام كلمة له وروحاً منه إنقال : «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» النساء : ١٧١ لمّا وهبه لمريم عليها السلام من غير الطريق العادية ويقرب منه في العناية قوله تعالى : «إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون» آل عمران : ٥٩ .

وهو تعالى وإن ذكرها في أغلب كلامه بالاضافة والتقييد كقوله : «ونفخت فيه من روحي» الحجر : ٢٩ ، وقوله : «ونفخ فيه من روحه» السجدة : ٩ ، وقوله : «فأرسلنا إليها روحنا» مريم : ١٧ ، وقوله : «وروح منه» النساء : ١٧١ ، وقوله : «وأيدناه بروح القدس» البقرة ٨٧ إلى غير ذلك إلّا أنّه أوردّها في بعض كلامه مطلقة من غير تقييد كقوله : «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر» القدر : ٤ وظاهر الآية أنّها موجود مستقلّ وخلق سماويّ غير الملائكة ، ونظير الآية بوجه قوله تعالى : «تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» المعارج : ٤ ..

وأما الروح المتعلّقة بالإنسان فقد عبّر عنها بمثل قوله : «ونفخت فيه من روحي» ونفخ فيه من روحه ، وأتى بكلمة «من» الدالة على المبدئية وسمّاه نفخاً وعبّر عن الروح التي خصّها بالمؤمنين بمثل قوله : «وأيدهم بروح منه» المجادلة : ٢٢ فأتى بالباء الدالة على السببية وسمّاه تأييداً وتقوية ، وعبّر عن الروح التي خصّها بالأنبياء بمثل قوله : «وأيدناه بروح القدس» البقرة : ٨٧ فأضاف الروح إلى القدس وهو النزاهة والطهارة وسمّاه أيضاً تأييداً .

وبانضمام هذه الآيات إلى مثل آية سورة القدر يظهر أنّ نسبة الروح المضافة التي في هذه الآيات إلى الروح المطلقة المذكورة في سورة القدر نسبة الإضافة إلى المفيض

والظِّلَّ إلى ذي الظِّلِّ بِإِذْنِ اللَّهِ .

وكذلك الروح المتعلقة بالملائكة من إفاضات الروح بإذن الله ، وإتمامهم يعبر في روح الملك بالنفخ والتأييد كالإنسان بلسماء روحاً كما في قوله تعالى : « فأرسلنا إليها روحنا » ، وقوله : « قل نزله روح القدس » النحل : ١٠٢ ، وقوله : « نزل به الروح الأمين » الشعراء : ١٩٣ لأنَّ الملائكة أرواح محضة على اختلاف مراتبهم في القرب والبعد من ربهم ، وما يترآى من الأجسام لهم تمثلات كما يشير إليه قوله تعالى : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » مريم : ١٧ وقد تقدّم الكلام في معنى التمثيل في ذيل الآية بخلاف الإنسان المخلوق مؤلفاً من جسم ميت وروح حيّة فيناسبه التعبير بالنفخ كما في قوله : « فأذاسو يته ونفخت فيه من روحي » الحجر : ٢٩ . وكما أوجب اختلاف الروح في خلق الملك والإنسان اختلاف التعبير بالنفخ وعدمه كذلك اختلاف الروح من حيث أثرها وهو الحياة شرفاً وخسّة أوجب اختلاف التعبير بالنفخ والتأييد وعدّ الروح ذات مراتب مختلفة باختلاف أثر الحياة .

فمن الروح الروح المنفوخة في الإنسان قال : « ونفخت فيه من روحي » .

ومن الروح الروح المؤيّد بها المؤمن قال : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ وهي أشرف وجوداً وأعلى مرتبة وأقوى أثراً من الروح الانسانية العامة كما يفيد قوله تعالى وهو في معنى هذه الآية : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ فقد عدّ المؤمن حياً ذا نور يمشي به وهو أثر الروح والكافر ميتاً وهو ذو روح منفوخة فلمؤمن روح ليست للكافر ذات أثر ليس فيه .

ومن ذلك يظهر أنّ من مراتب الروح ماهو في النبات لما فيه من أثر الحياة يدلّ على ذلك الآيات المتضمنة لأحياء الأرض بعد موتها .

ومن الروح الروح المؤيّد بها الأنبياء قال : « وأيدناه بروح القدس » البقرة ٨٧ وسياق الآيات يدلّ على كون هذه الروح أشرف وأعلى مرتبة من غيرها ممّا في الإنسان .

وأما قوله : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » المؤمن : ١٥ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى ٥٢ فيقبل الانطباق على روح الإيمان وعلى روح القدس والله أعلم .

وقد تقدّم بعض ما ينفع من الكلام في المقام في ذيل هذه الآيات الكريمة .
قوله تعالى : « ذلك اليوم الحق » إشارة إلى يوم الفصل المذكور في السورة الموصوف بما مرّ من الأوصاف وهو في الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة إلى فاتحة السورة وما بعده أعني قوله : « فمن شاء اتّخذ إلى ربه مآباً » الخ فضل تفرّيع على البيان السابق .

والإشارة إليه بالإشارة البعيدة للدلالة على فخامة أمره والمراد بكونه حقّاً ثبوته حتماً مقضياً لا يتخلف عن الوقوع .

قوله تعالى : « فمن شاء اتّخذ إلى ربه مآباً » أي مرجعاً إلى ربه ينال به ثواب المتّقين وينجو به من عذاب الطّاغين والجملة كما أشرنا إليه تفرّيع على ما تقدّم من الاخبار بيوم الفصل والاحتجاج عليه ووصفه ، والمعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع إلى ربه فليرجع .

قوله تعالى : « إنّنا أنذركم عذاباً قريباً » الخ المراد به عذاب الآخرة ، وكونه قريباً لكونه حقّاً لا ريب في إثباته وكلّ ما هو آت قريب .

على أنّ الأعمال التي سيجزى بها الإنسان هي معه أقرب ما يكون منه .
وقوله : « يوم ينظر المرء ما قدّم يداه » أي ينتظر المرء جزاء أعماله التي قدّمها يداه بالاكْتِسَاب ، وقيل : المعنى ينظر المرء إلى ما قدّم يداه من الأعمال لحضورها عنده قال تعالى : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

وقوله : « ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » أي يتمنّى من شدّة اليوم أن لو كان تراباً فاقداً للشعور والارادة فلم يعمل ولم يجز .

﴿بحث روائى﴾

في تفسير القمى : وقوله : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » قال : تفتح أبواب الجنان ، وقوله : « وسيرت الجبال فكانت سراباً » قال : تصير الجبال مثل السراب الذي يلعب في المفازة .

وفيه : وقوله : « لاثنين فيها أحقاباً » قال : الأحقاب السنين والحقب سنة والسنة عددها ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كالف سنة مما تعدون .

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً والحقب بضع وستون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم كالف سنة مما تعدون فلا يتكلم أحد على أن يخرج من النار .

أقول : وأورد الرواية في الدر المنثور وفيها ثمانون مكان ستون ولفظ آخرها : قال ابن عمر : فلا يتكلم أحد الق ، وأورد أيضاً رواية أخرى عنه ﷺ أن الحقب أربعون سنة .

وفيه وروى العياشي بإسناده عن حمزان قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال : هذه في الذين يخرجون من النار ، وروى عن الأحوال مثله .

وفي تفسير القمى وقوله : « إن للمتقين مفازاً » قال : يفوزون ، وقوله : « وكواعب أتراباً » قال : جوار وأتراب لأهل الجنة ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله : « إن للمتقين مفازاً » قال : هي الكرامات « وكواعب أتراباً » أي الفتيات النواهد .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل ثم قرء : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند .

أقول : وقد تقدمت الرواية في ذيل الآيات المشتملة على الروح عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل ، وتقدمت الرواية أيضاً عن علي عليه السلام أن الروح غير الملائكة واستدل عليه السلام عليه بقوله تعالى : « تنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » الآية .

نعم في رواية القمّي عن حران أنه ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة عليهم السلام ، ولعل المراد بالملك مطلق الموجودات السماوي أو هو من وهم بعض الرواة في النقل بالمعنى ولادليل على انحصار الموجودات الأمرية السماوية في الملائكة بل الدليل على خلافه كما يستفاد من قوله تعالى لا إبليس حين أبى عن السجود لآدم وقد سجد له الملائكة كلهم أجمعون : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين » ص : ٧٥ وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآية .

وفي أصول الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قلت : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون » الآية قال نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً . قلت : ما تقولون إذا تكلمتم ؟ قال : نمجد ربنا ونصلي على نبيّنا ونشفع لشيعتنا ولا يردّنا ربنا الحديث .

أقول : ورواه في المجمع عن العياشي مرفوعاً عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام .

والرواية من قبيل ذكر بعض المصاديق فهناك شفعاء آخر من الملائكة والأنبياء والمؤمنين مأذون لهم في التكلم ، وهناك شهداء من الأمم مأذون لهم في التكلم على ما ينص عليه القرآن والحديث .

﴿سورة النازعات مكيّة وهي ست وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢)
 وَالسَّابِقَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ
 تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُنَا الرُّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)
 أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) ءَإِذَا كُنَّا
 عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
 وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥)
 إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ
 فَتَخْشَى (١٩) فَآرِيهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ
 يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ
 نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) ءَأَنْتُمْ
 أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنِينَهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ
 لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحِيهَا (٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا (٣٠) أَخْرَجَ
 مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسِينَهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)
 فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥)

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (٣٦) فَلَمَّا مَنَ طَغَى (٣٧) وَآثَرُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة إخبار مؤكّد بوقوع البعث والقيامة ، واحتجاج عليه من طريق التدبير الربوبي المنتج أن الناس سينقسمون يومئذٍ إلى قسمين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم وتختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة والجواب عنه. والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سباحاً » فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً « اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات الخمس اختلافاً عجيباً مع اتفاقهم على أنها إقسام وقول أكثرهم بأنّ جواب القسم محذوف والتقدير أقسم بكذا وكذا لتبعثنّ .

فقوله : « والنازعات غرقاً » قيل : المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد ، و « غرقاً » مصدر مؤكّد بحذف الزوائد أي إغراقاً وتشديداً في النزاع . وقيل : المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشدة ، وقيل : هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزاعاً بالغا .

وقيل : المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب في أفق أي تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها ، وقيل : المراد بها القسي تنزع بالسهم أي تمدّ بجذب وترها إغراقاً في المدّ فالإقسام بقسّي المجاهدين في سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم وقيل : المراد بها الوحش تنزع إلى الكلا .

وقوله : « والناشطات نشطاً » النشاط الجذب والخروج والإخراج برفق وسهولة

وحلّ العقدة قيل : المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد ، وقيل المراد بها خصوص الملائكة الذين يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق وسهولة كما أن المراد بالنازعات غرقاً الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم. وقيل : هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم ، وقيل : المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم ، وقيل : هي النجوم تنشط وتذهب من أفق إلى أفق ، وقيل : هي السهام تنشط من قسيها في الغزوات ، وقيل : هو الموت ينشط ويخرج الأرواح من الأجساد ، وقيل : هي الوحش تنشط من قطر إلى قطر .

وقوله : « والسابحات سبحاً » قيل : المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار و السبح الإسراع في الحركة كما يقال للفرس سابح إذا أسرع في جريه ، وقيل : المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسكنونها من الأبدان سلاً رفيقاً ثم يدعونها حتى يستريح كالسباح بالشيء في الماء يرمي ، وقيل : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين ، وقيل : هي النجوم تسبح في فلكها كما قال تعالى : « وكل في فلك يسبحون » .

وقيل : هي خيل الغزاة تسبح في عدوها وتسرع ، وقيل : هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان ، وقيل : هي السفن تسبح في المياه ، وقيل : السحاب ، وقيل : دواب البحر . وقوله : « فالسابقات سبقاً » قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح ، وقيل : ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار ، وقيل : الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها إلى الجنة ، وقيل : ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، وقيل : أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله سبحانه ، وقيل : هي النجوم تسبق بعضها بعضاً في السير ، وقيل : هي خيل الغزاة تسبق بعضها بعضاً في الحرب ، وقيل : هي المنايا تسبق الآمال .

وقوله : « فالمدبّرات أمراً » قيل : المراد بها مطلق الملائكة المدبّرين للأمر كذا فسر الأكثرون حتى ادّعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه ، وقيل : المراد بها

الملائكة الأربعة المدبرون لأُمُور الدنيا : جبريل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل
فجبريل يدبّر أُمُور الرياح والجنود والوحي ، وميكائيل يدبّر أُمُور القطر والنبات ، و
عزرائيل موكل بقبض الأرواح ، وإسرافيل يتنزل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور ،
وقيل : إنّها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجري بها القضاء في الدنيا .
وهناك قول بأنّ الأقسام في الآيات بمضاف محذوف والتقدير وربّ النازعات
نزعاً « الخ .

وأنت خبير بأنّ سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء
لايلائم كثيراً من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعاني المقسم بها ككون المراد بالنازعات
الملائكة القابضين لأرواح الكفّار ، وبالناشطات الوحش ، وبالسابحات السفن ، وبالسابقات
المنيايتسبق الآمال وبالمدبرات الأفلاك .

مضافاً إلى أنّ كثيراً منها لادليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية
اللفظ بحسب اللغة للاستعمال فيه أعمّ من الحقيقة والمجاز .
على أنّ كثيراً منها لا تناسب سياق آيات السورة التي تذكّر يوم البعث وتحتجّ
على وقوعه على ما تقدّم في سورة المرسلات من حديث المناسبة بين ما في كلامه تعالى
من الأقسام وجوابه .

والذي يمكن أن يقال - والله أعلم - أنّ ما في هذه الآيات من الأوصاف المقسم
بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة في امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة
العرّة المتعلقة بتدبير أُمُور هذا العالم المشهود ثمّ قيامهم بالتدبير بإذن الله .

والآيات شديدة الشبه سياقاً بآيات مفتتح سورة الصافات : « والصفات صفّاً
فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً » وآيات مفتتح سورة المرسلات : « والمرسلات عرفاً
فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرّاً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً » وهي تصف الملائكة
في امتثالهم لأمر الله غير أنّها تصف ملائكة الوحي ، والآيات في مفتتح هذه السورة
تصف مطلق الملائكة في تدبيرهم أمر العالم بإذن الله .

ثمّ إنّ أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة

قوله : « فالمدبّرات أمراً » وقد أطلق التدبير ولم يقيّد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمي بإطلاقه ، وقوله : « أمراً » تمييز أو مفعول به للمدبّرات ومطلق التدبير . شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبّرات مطلق الملائكة .

وإذا كان قوله : « فالمدبّرات أمراً » مفتتحاً بقاء التفريع الدالة على تفرّع صفة التدبير على صفة السبق ، وكذا قوله : « فالسابقات سبقاً » مقروناً بقاء التفريع الدالة على تفرّع السبق على السبق دلّ ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث : « والسابحات سبحاً » فالسابقات سبقاً فالمدبّرات أمراً » فمدلولها أنهم يدبّرون الأمر بعد ما سبقوا إليه و يسبقون إليه بعدما سبحوا أي أسرعوا إليه عند النزول فالمراد بالسابحات والسابقات هم المدبّرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما أمروا بتدبيره .

فلا آيات الثلاث في معنى قوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » الرعد : ١١ على ما تقدّم من توضيح معناه فاللائكة ينزلون على الأشياء وقد تجمّعت عليها الأسباب وتنازعت فيها وجوداً وعدماً وبقاء وزوالاً وفي مختلف أحوالها فما قضاه الله فيها من الأمر وأبزم قضاءه أسرع إليه الملك المأمور به - بما عيّن له من المقام - وسبق غيره وتممّ السبب الذي يقضيه فكان ما أراد الله فافهم ذلك .

وإذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة إلى إسراع الملائكة في النزول على ما أمروا به من أمر وسبقهم إليه وتدبيره تعيّن حمل قوله : « والنازعات غرقاً » والناشطات نشطاً ، على اقتزاعهم وخروجهم من موقف الخطاب إلى ما أمروا به فنزعهم غرقاً شروعهم في النزول نحو المطلوب بشدّة وجدّ ، ونشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أنّ سبحهم إسراعهم إليه بعد الخروج ويتعقب ذلك سبقهم إليه وتدبير الأمر بأذن الله .

فلا آيات الخمس إقسام بما يتلبّس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من أمور هذا العالم المشهود من حين يأخذون في النزول إليه إلى تمام التدبير . وفيها إشارة إلى نظام التدبير المملوكوتي عند حدوث الحوادث كما أنّ الآيات التالية أعني قوله : « هل أذكّك » الخ إشارة إلى التدبير الربوبيّ الظاهر في هذا العالم

وفي التدبير المملكوني حجة على البعث والجزاء كما أن في التدبير الديني المشهود حجة عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه .
هذا ما يعطيه التدبير في سياق الآيات الكريمة ويؤيده بعض التأييد ماسياتي من الأخبار في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

﴿كلام في أن الملائكة وسائط في التدبير﴾

الملائكة وسائط بينه تعالى وبين الأشياء بدءً وعوداً على ما يعطيه القرآن الكريم بمعنى أنهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادية في العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة بعده .

أما في العود أعني حال ظهور آيات الموت وقبض الروح وإجراء السؤال والنواب القبر وعذابه وإماته الكل بنفخ الصور وإحيائهم بذلك والحشر وإعطاء الكتاب ووضع الموازين والحساب والسوق إلى الجنة والنار فوساطتهم فيها غني عن البيان، والآيات الدالة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها ، والأخبار الماثورة فيها عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام فوق حد الإحصاء .

وكذا وساطتهم في مرحلة التشريع من النزول بالوحي ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وتسديد النبي وتأييد المؤمنين وتطهيرهم بالاستغفار .

وأما وساطتهم في تدبير الأمور في هذه النشأة فيدل عليها ما في مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله : «والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً والسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً» بما تقدم من البيان .

وكذا قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، فاطر : ١ الظاهر بإطلاقه - على ما تقدم من تفسيره - في أنهم خلقوا وشأنهم أن يتوسطوا بينه تعالى وبين خلقه ويرسلوا لإفاد أمره الذي يستفاد من قوله

تعالى في صفتهم: « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون »
 الأنبياء : ٢٧ وقوله : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » النحل : ٥٠
 وفي جعل الجناح لهم إشارة ذلك .

فلا شغل للملائكة إلا التوسط بينه تعالى وبين خلقه بانفاذ أمره فيهم وليس
 ذلك على سبيل الاتفاق بأن يجري الله سبحانه أمراً بأيديهم ثم يجري مثله لا بتوسيطهم
 فلا اختلاف ولا تخلف في سنته تعالى : « إن ربّي على صراط مستقيم » هود : ٥٦ ، وقال
 « فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » فاطر : ٤٣ .

ومن الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاماً وأمر العالي منهم السافل بشيء من
 التدبير فإنه في الحقيقة توسط من المتبوع بينه تعالى وبين تابعه في إيصال أمر الله
 تعالى كتوسط ملك الموت في أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح قال تعالى
 حاكياً عن الملائكة : « وما منّا إلاّ له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ ، وقال : « مطاع ثمّ
 أمين » التكوير : ٢١ ، وقال : « حتّى إذا فرّغ عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربّكم قالوا
 الحقّ » سبأ : ٢٣ .

ولا ينافي هذا الذي ذكر من توسطهم بينه تعالى وبين الحوادث أعني كونهم
 أسباباً تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة الماديّة فإنّ
 السببيّة طوليّة لاعرضيّة أي إنّ السبب القريب سبب للحدث والسبب البعيد سبب
 للسبب .

كما لا ينافي توسطهم واستناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى وكونه
 هو السبب الوحيد لها جميعاً على ما يقتضيه توحيد الربوبيّة فإنّ السببيّة طوليّة كما
 سمعت لاعرضيّة ولا يزيد استناد الحوادث إلى الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعيّة
 القريبة وقد صدّق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى أسبابها الطبيعيّة كما صدّق
 استنادها إلى الملائكة .

وليس لشيء من الأسباب استقلال قبالة تعالى حتى ينقطع عنه فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه على ما يقول به الوثنية من تفويضه تعالى تدير الأمر إلى الملائكة المقرّبين فالتوحيد القرآني ينفي الاستقلال عن كل شيء من كل جهة : لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

فمثل الأشياء في استنادها إلى أسبابها المترتبة القريبة والبعيدة وانتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد كمثل الكتابة يكتبها الإنسان بيده وبالقلم فللكتاب استناد إلى القلم ثم إلى اليد التي توسلت إلى الكتابة بالقلم ، وإلى الإنسان الذي توسل إليها باليد والقلم ، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقل بالسببية من غير أن ينافي سببيته استناد الكتابة بوجه إلى اليد وإلى القلم .

ولا منافاة أيضاً بين ما تقدّم أن شأن الملائكة هو التوسط في التدبير وبين ما يظهر من كلامه تعالى أن بعضهم أوجعهم مداومون على عبادته تعالى وتسبيحه والسجود له كقوله : «ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون» الأنبياء : ٢٠ ، وقوله : «إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون» الأعراف : ٢٠٦ .

وذلك لجواز أن تكون عبادتهم وسجودهم و تسبيحهم عين عملهم في التدبير وامتنالهم الأمر الصادر عن ساحة العزة بالتوسط كما ربما يؤمى إليه قوله تعالى : «ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون» النحل : ٢٩ .



قوله تعالى : «يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة» فسّرت الراجفة بالصيحة العظيمة التي فيها تردّ واضطراب والرادفة بالمتأخرة التابعة ، وعليه تنطبق الآيتان على نفختي الصور التي يدلّ عليهما قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » الزمر : ٦٨ .

وقيل : الراجفة بمعنى المحرّكة تحريكاً شديداً - فإنّ الرّجف يستعمل لازماً بمعنى التّحرّك الشديد و متعدّياً بمعنى التّحريك الشديد - و المراد بها أيضاً النفخة الأولى المحرّكة للأرض و الجبال ، و بالرافدة النفخة الثانية المتأخّرة عن الأولى .

وقيل : المراد بالراجفة الأرض و بالرافدة السماوات والكواكب التي ترّجف وتضطرب وتنشقّ ، وتلاشى والوجهان لا يخلوان من بعد ولا سيّما الأخير .
والأنّسب بالسياق على أيّ حال كون قوله : « يوم ترّجف ، إلخ » ظرفاً لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته وبلوغه الغاية في الشدّة وهو لتبعثنّ ، وقيل : إنّ « يوم » منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفة يوم ترّجف الراجفة ، ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة » تنكير « قلوب » للتنوع وهو مبتدأ خبره « واجفة » والوجيف الاضطراب ، و « يومئذ » ظرف متعلّق بواجفة والجملة استئناف مبين لصفة اليوم .

وقوله : « أبصارها خاشعة » ضمير « أبصارها » للقلوب ونسبة الأبصار وإضافتها إلى القلوب لمكان أنّ المراد بالقلوب في أمثال هذه المواضع التي تضاف إليها الصفات الإدراكية كالعلم و الخوف والرجاء وما يشبهها هي النفوس ، وقد تقدّمت الإشارة إليها .

ونسبة الخشوع إلى الأبصار وهو من أحوال القلب إنّما هي لظهور أثره الدالّ عليه في الأبصار أقوى من سائر الأعضاء .

قوله تعالى : « يقولون ء إنّنا لمرّدودون في الحافرة » إخبار وحكاية لقولهم في الدنيا استبعاداً منهم لوقوع البعث والجزاء وإشارة إلى أنّ هؤلاء الذين لقلوبهم وجيف ولا أبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث وهم في الدنيا ويقولون كذا وكذا .

والحافرة - على ما قيل - أوّل الشيء ومبتداه ، والاستفهام للإِ نكار استبعادا ، والمعنى يقول هؤلاء : «إِنّا لمردودون بعد الموت إلى حالتنا الأولى وهي الحياة .
وقيل : الحافرة بمعنى المحفورة وهي أرض القبر ، والمعنى أنرد من قبورنا بعد موتنا أحياء ، وهو كما ترى .

وقيل : الآية تخبر عن اعتراضهم بالبعث يوم القيامة ، والكلام كلامهم بعد الإِحياء والاستفهام للاستغراب كأنّهم لمّابعدوا وشاهدوا ما شاهدوا يستغربون ما شاهدوا فيستفهمون عن الردّ إلى الحياة بعد الموت .

وهو معنى حسن لولم يخالف ظاهر السياق .

قوله تعالى : «إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخْرَةً» تكرر للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام وتفتّت الأجزاء أشدّ استبعاداً ، والنخر بفتحين البلى والتفتّت يقال : نخر العظم ينخر نخرأ فهو ناخر ونخر .

قوله تعالى : «قالوا تلك إذا كرّة خاسرة» الإِشارة بتلك إلى معنى الرجعة المفهوم من قوله «إِنّا لمردودون في الحافرة» والكرّة الرجعة والعطفة ، وعدّ الكرّة خاسرة إمّا مجاز والخاسر بالحقيقة صاحبها ، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران والمعنى قالوا : تلك الرجعة - وهي الرجعة إلى الحياة بعد الموت - رجعة متلبّسة بالخسران .

وهذا قول منهم أوردوه استهزاء - على أن يكون قولهم : «إِنّا لمردودون» إلخ ممّا قالوه في الدنيا - ولذا غيّر السياق وقال : «قالوا تلك إذا» إلخ بعد قوله : «يقولون» «إِنّا لمردودون» إلخ وأمّا على تقدير أن يكون ممّا سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشأم والتحسّر .

قوله تعالى : «فإِنّما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة» ضمير «هي» للكرّة وقيل : للرافدة المراد بها النفخة الثانية ، والزجر طرد بصوت وصياح عبّر عن النفخة

الثانية بالزجرة لما فيها من نقلهم من نشأة الموت إلى نشأة الحياة ومن بطن الأرض إلى ظهرها ، و«إذا» فجائية ، والساهرة الأرض المستوية أو الأرض المستوية الخالية من النبات ،

والآيتان في محلّ الجواب عما يدلّ عليه قولهم «إنا لمرودون» الخ من استبعاد البعث واستصعابه والمعنى لا يصعب علينا إحيائهم بعد الموت وكرّتهم فإنّما كرّتهم - أو الرادفة التي هي النفخة الثانية - زجرة واحدة فأذاهم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها .

فالأيتان في معنى قوله تعالى : « وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب »

النحل : ٧٧ .

قوله تعالى «هل أتاك حديث موسى» الآية إلى تمام انّتي عشرة آية إشارة إلى إجمال قصّة موسى ورسالته إلى فرعون وردّه دعوته إلى أن أخذه الله نكال الآخرة والأولى .

وفيها عظة وإنذار للمشرّكين المنكرين للبعث وقد توسّلوا به إلى ردّ الدعوة الدينية إذ لا معنى لتشريع الدين لولا المعاد ، وفيها مع ذلك تسليّة للنبي ﷺ من تكذيب قومه ، وتهديد لهم كما يؤيّد به توجيه الخطاب في قوله : «هل أتاك» .

وفي القصّة مع ذلك كلّ حجة على وقوع البعث والجزاء فإنّ هلاك فرعون وجنوده تلك الهلكة الهائلة دليل على حقيقة رسالة موسى من جانب الله إلى الناس ولا تتمّ رسالته من جانبه تعالى إلّا برؤية منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أن لا برؤية له تعالى بالنسبة إلى الناس وأنّ هناك أبواباً دونه وأنّه سبحانه ربّ الأرباب لا غير .

ففي قوله : «هل أتاك حديث موسى» استفهام بداعي ترغيب السامع في استماع الحديث ليتسلّى به هو ويكون للمنكرين إنذاراً بما فيه من ذكر العذاب وإتماماً للحجّة كما تقدّم .

ولا ينافي هذا النوع من الاستفهام تقدّم علم السامع بالحديث لأنّ الغرض

توجيه نظر السامع إلى الحديث دون السؤال والاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أوّل ما يقصّه الله من قصّة موسى أو تكون مسبقة بذكر قصّته كما في سورة المزمل إجمالاً - وهي أقدم نزولاً من سورة النازعات - وفي سورة الأعراف وطه وغيرهما تفصيلاً .

قوله تعالى : « إن ناداه ربّه بالواد المقدّس طوى » ظرف للحديث وهو أوّل ما أوحى الله إليه فقلّده الرسالة ، وطوى اسم للوادي المقدّس .

قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنّه طغى » تفسير للنداء ، وقيل : الكلام على تقدير القول أي قائلاً اذهب الخ أو بتقدير أن المفسرة أي أن اذهب الخ وفي الوجهين أن التقدير مستغنى عنه ، وقوله : « إنّه طغى » تعليل للأمر .

قوله تعالى : « فقل هل لك إلى أن تزكّي » متعلّق «إلى» محذوف والتقدير هل لك ميل إلى أن تزكّي أو مافي معناه ، والمراد بالتزكّي التطهّر من قذارة الطغيان .

قوله تعالى : « وأهديك إلى ربّك فتخشى » عطف على قوله : « تزكّي » ، والمراد بهدايته إياه إلى ربّه - كما قيل - تعريفه له وإرشاده إلى معرفته تعالى وتترتب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان وتعدّي طور العبوديّة قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر : ٢٨ .

والمراد بالتزكّي إن كان هو التطهّر عن الطغيان بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى كانت الخشية مترتبة عليه والمراد بها الخشية الملزمة للإيمان الداعية إلى الطاعة والرادعة عن المعصية ، وإن كان هو التطهّر بالطاعة وتجنب المعصية كان قوله : « وأهديك إلى ربّك فتخشى » مفسّراً لما قبله والعطف عطف تفسير .

قوله تعالى : « فأراه الآيّة الكبرى » الفاء فصيحة وفي الكلام حذف وتقدير والأصل فأراه فدعاه فأراه الخ .

والمراد بالآيّة الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصّة آية العصا ، وقيل : المراد بها مجموع معجزاته التي أراها فرعون وملأه وهو بعيد .

قوله تعالى : « فكذب وعصى » أي كذب موسى فجحده رسالته وسمّاه ساحراً

وعصاه فيما أمره به أو عصى الله .

قوله تعالى : «ثم أدبر يسعى» الإِدْبَار التَّوَلَّى والسَّعْي هو الجَدُّ والاجتهاد أي ثم تَوَلَّى فرعون يَجْدُّ ويَجْتَهِد في إِبْطَال أمر موسى ومعارضته .

قوله تعالى : «فحشر فنادى» الحشْر جمع الناس بإِزعاج والمراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدلُّ عليه تفريع قوله : « فنادى فقال أنا ربكم الأعلى » عليه فإنّه كان يدّعي الربوبية لأهل مملكته جميعاً لالطائفة خاصّة منهم .

وقيل : المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالى : « فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، الشعراء : ٥٣ ، وقوله : «فتولّى فرعون فجمع كبده ثم أتى» طه : ٦٠ وفيه أنّه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر والجمع في تينك الآيتين .

قوله تعالى : « فقال أنا ربكم الأعلى » دعوى الربوبية وظاهره أنّه يدّعي أنّه أعلى في الربوبية من سائر الأرباب التي كان يقول بها قومه الوثنيون فيفضل نفسه على سائر آلهتهم .

ولعلّ مراده بهذا التفضيل مع كونه وثنيّاً يعبد الآلهة كما يدلُّ عليه قوله تعالى حكاية عن ملائكة يخاطبونه : « أتندر موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ويذكرك وآلهتك » الأعراف : ١٢٧ أنّه أقرب الآلهة منهم تجري بيده أرزاقهم وتصلح بأمره شؤون حياتهم ويحفظ يمشيته شرفهم وسوددهم ، وسائر الآلهة ليسوا على هذه الصفة .

وقيل : مراده بما قال تفضيل نفسه على كلّ من يلي أمورهم ومحصله دعوى الملك وأنّه فوق سائر أولياء أمور المملكة من حكام وعمال فيكون في معنى قوله فيما حكاه الله عنه إذ قال : « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر » الآية الزخرف : ٥١ .

وهو خلاف ظاهر الكلام وفيما قال قوله لملائكة : « يا أيّها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » القصص : ٣٨ ، وقوله لموسى : « لئن اتَّخَذت إلهاً غيري لأجعلنّك

من المسجونين، الشعراء : ٢٩ .

قوله تعالى : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » الأخذ كناية عن التعذيب ، والنكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله ، وعذاب الآخرة نكال حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدّي إليه من المعصية كما أن عذاب الاستئصال في الدنيا نكال .

والمعنى فأخذ الله فرعون أي عذّبه ونكله نكال الآخرة والأولى وأما عذاب الدنيا فأغراقه وإغراق جنوده ، وأما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت ، فالمراد بالأولى والآخرة الدنيا والآخرة .

وقيل : المراد بالآخرة كلمته الآخرة : « أنا ربكم الأعلى » وبالأولى كلمته الأولى قالها قبل ذلك : « ما علمت لكم من إله غيري » فأخذه الله بهاتين الكلمتين ونكله نكالهما ، ولا يخلو هذا المعنى من خفاء .

وقيل : المراد بالأولى تكذيبه ومعصيته المذكوران في أوّل القصة وبالأخرى كلمة - أنا ربكم الأعلى - المذكورة في آخرها ، وهو كسابقه .
وقيل : الأولى أوّل معاصيه والأخرى آخرها والمعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه ولا يخلو أيضاً من خفاء .

قوله تعالى : « إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » الإشارة إلى حديث موسى ، والظاهر أن مفعول « يخشى » منسيّ معرض عنه ، والمعنى إن في هذا الحديث - حديث موسى - لعبرة لمن كان له خشية وكان من غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والإنسان من غريزته ذلك ففيه عبرة لمن كان إنساناً مستقيماً الفطرة .

وقيل : المفعول محذوف والتقدير لمن يخشى الله والوجه السابق أبلغ .

قوله تعالى : « وأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها - إلى قوله - ولأنعامكم » خطاب توبيخيّ للمشرّكين المنكرين للبعث المستهزئين به على سبيل العتاب ويتضمّن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم : « إنّا لمرّدودون في الحافرة » إذا كنّا عظاماً نخرة ، بأنّ الله خلق ما هو أشدّ منكم خلقاً فهو على خلقكم وإنشائكم النشأة الأخرى تقدير .

ويتضمن أيضاً الإشارة إلى الحجّة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العامّ العالميّ وارتباطه بالعالم الإنسانيّ ولازمه ربوبيّته تعالى ، ولازم الربوبيّة صحّة النبوة وجعل التكليف ، ولازم ذلك الجزاء الذي موطنه البعث والحشر ، ولذا فرّغ عليه حديث البعث بقوله : «فإذا جاءت الطامة الكبرى» إلخ .

فقوله : «أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء» استفهام توبيخيّ بداعي رفع استبعادهم البعث بعد الموت ، والإشارة إلى تفصيل خلق السماء بقوله : «بناها» إلخ دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشدّ خلقاً .

وقوله : «بناها» استئناف وبيان تفصيليّ لخلق السماء .

وقوله : «رفع سمكها فسوّاها» أي رفع سقفها وما ارتفع منها ، وتسويتها ترتيب أجزائها وتركيبها بوضع كلّ جزء في موضعه الذي تقتضيه الحكمة كما في قوله : «فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي» الحجر: ٢٩ .

وقوله : «وأغطش ليلها وأخرج ضحاها» أي أظلم ليلها وأبرز نهارها ، والأصل في معنى الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار أريد به مطلق النهار بقرينة المقابلة ونسبة الليل والضحى إلى السماء لأنّ السبب الأصليّ لها سماويّ وهو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماويّة كنور الشمس وغيره وخفاؤها بالاستتار ولا يختصّ الليل والنهار بالأرض التي نحن عليها بل يعمّان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة .

وقوله : «والأرض بعد ذلك دحاها» أي بسطها ومدّها بعد ما بنى السماء ورفع سمكها وسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

وقيل : المعنى والأرض مع ذلك دحاها كما في قوله : «عتلّ بعد ذلك زنيم» وقد تقدّم كلام فيما يظهر من كلامه تعالى في خلق السماء والأرض في تفسير سورة المّ السجدة وذكر بعضهم أنّ الدحو بمعنى الدحرجة .

وقوله : «أخرج منها ماءها ومرعيها» قيل : المرعى يطلق على الرعي بالكسر فالسكون وهو الكلاء كما يجيء مصدرأ ميمياً واسم زمان ومكان ، والمراد بإخراج مائها منها تفجير العيون وإجراء الأنهار عليها ، وإخراج المرعى إنبات النبات عليها

مما يتغذى به الحيوان والإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذي يتغذى به الحيوان والإنسان كما يشعر به قوله: «متاعاً لكم ولا نعامكم» لا ما يختص بالحيوان كما هو الغالب في استعماله .

وقوله : « والجبال أرساها » أي أثبتتها على الأرض لثلاً تميد بكم وأدّخر فيها المياه والمعادن كما ينبئ عنه سائر كلامه تعالى .

وقوله : « متاعاً لكم ولا نعامكم » أي خلق ما ذكر من السماء والأرض ودبر ما دبر من أمرهما ليكون متاعاً لكم ولا نعامكم التي سخرها لكم تتمتعون به في حياتكم فهذا الخلق والتدبير الذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربكم وخوف مقامه وشكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً كما أن هذا الخلق والتدبير أشد من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانياً وتستصعبوه عليه تعالى .

قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى » في المجمع : والطامة العالية الغالبة يقال : هذا أطم من هذا أي أعلى منه ، وطم الطائر الشجرة أي علاها وتسمى الداهية التي لا يستطاع دفعها طامة . انتهى فالمراد بالطامة الكبرى القيامة لأنها داهية تملو وتغلب كل داهية هائلة ، وهذا معنى اتّصافها بالكبرى وقد أطلقت إطلاقاً .
وتصدير الجملة بفاء التفريع للإشارة إلى أن مضمونها أعني مجيء القيامة من لوازم خلق السماء والأرض وجعل التدبير الجاري فيهما المترتبة على ذلك كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « يوم يتذكر الإنسان ما سعى » ظرف لمجيء الطامة الكبرى ، والسعي هو العمل بجِدٍّ .

قوله تعالى : « وبرّزت الجحيم لمن يرى » التبريز الإظهار ومفعول « يرى » منسى معرض عنه والمراد بمن يرى من له بصير يرى به ، والمعنى وأظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكل ذي بصير فيشاهدونها مشاهدة عيان .

فآية في معنى قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك

فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ غير أن آية ق أوسع معنى .

والآية ظاهرة في أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة وإنما تظهر يومئذ ظهوراً بكشف الغطاء عنها .

قوله تعالى : «فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» تفصيل حال الناس يومئذ في انقسامهم قسمين أقيم مقام الاجال الذي هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الاجال ، والتقدير فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس قسمين فأما من طغى إلخ .

وقد قسم تعالى الناس في الآيات الثلاث إلى أهل الجحيم وأهل الجنة - وقدّم صفة أهل الجحيم لأن وجه الكلام إلى المشركين - وعرف أهل الجحيم بما وصفهم به في قوله : «من طغى وآثر الحياة الدنيا» وقابل تعريف أهل الجنة بقوله : «من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» وسبيل ما وصف به الطائفتين على أي حال سبيل بيان الضابط .

وإذا كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما يبين لكل منهما من الوصف مقابلاً لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم - والخوف تأثر الضعيف المقهور من القوي القاهر وخشوعه وخضوعه له - يقتضي كون طغيان أهل الجحيم - والطغيان التعدي عن الحد - هو عدم تأثرهم من مقام ربهم بالاستكبار وخرجهم عن زبي العبودية فلا يخشعون ولا يخضعون ولا يجرون على ما أراده منهم ولا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهووا أنفسهم من زينة الحياة الدنيا .

فمن لوازم طغيانهم اختيارهم الحياة الدنيا وهو الذي وصفهم به بعد وصفهم بالطغيان إذ قال : «وآثر الحياة الدنيا» .

وإذا كان من لوازم الطغيان رفض الآخرة وإثارة الحياة الدنيا وهوانها للنفس فيما تريده و طاعتها فيما تهووا ومخالفته تعالى فيما يريده كان لما يقابل الطغيان من

الوصف وهو الخوف ما يقابل الايثار واتباع هوى النفس و هو قريحة الردع عن
الاخلاق إلى الأرض ونهى النفس عن اتباع الهوى وهو قوله في وصف أهل الجنة
بعد وصفهم بالخوف : « و نهى النفس عن الهوى » .

وإنما أخذ في وصفه النهي عن الهوى دون ترك اتباعه عملاً لأن الإنسان
ضعيف ربما ساقته الجهالة إلى المعصية من غير استكبار والله واسع المغفرة قال تعالى
« والله ما في السماوات و ما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين
أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللّٰم إن ربك واسع
المغفرة » النجم : ٣٢ ، وقال : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم
وندخلكم مدخلاً كريماً » النساء : ٣١ .

ويتحصل معنى الآيات الثلاث في إعطاء الضابط في صفة أهل الجحيم وأهل
الجنة في أن أهل الجحيم أهل الكفر والفسوق وأهل الجنة أهل الايمان والتقوى ،
وهناك غير الطائفتين طوائف أخرى من المستضعفين والذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا
عملاً صالحاً و آخر سيئاً وغيرهم أمرهم إلى الله سبحانه عسى أن يشملهم المغفرة
بشفاعة وغيرها .

فقوله : « فأمّا من طغى - إلى قوله - هي المأوى » أي هي مأواه على أن تكون
اللام عوضاً عن الضمير أو الضمير محذوف والتقدير هي المأوى له .

وقوله : « و أمّا من خاف مقام ربه » إلخ المقام اسم مكان يراد به المكان الذي
يقوم فيه جسم من الأجسام وهو الأصل في معناه ككونه اسم زمان ومصدراً ميمياً
لكن ربما يعتبر ما عليه الشيء من الصفات والأحوال محلاً ومستقراً للشيء بنوع
من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزلة كما في قوله تعالى في الشهادة : « فأخراهم يقومان
مقامهما » المائدة : ١٠٧ وقول نوح عليه السلام لقومه على ما حكاه الله : « إن كان كبر عليكم
مقامي وتذكيري بآيات الله » يونس : ٧١ ، وقول الملائكة على ما حكاه الله : « وما منّا
إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ .

فمقامه تعالى المنسوب إليه بما أنه ربّ هو صفة ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف

عليه من صفاته الكريمة كالعلم والقدر المطلق والقهر والغلبة والرحمة والغضب وما يناسبها قال إيداناً به : «ولا تطغوا فيدحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى » طه : ٨٢ ، وقال : «نبىء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم» الحجر : ٥٠ .

فمقامه تعالى الذي يخوّف منه عباده مرحلة ربوبيّته التي هي المبدء لرحمته ومغفرته لمن آمن واتقى ولائيم عذابه وشديد عقابه لمن كذب وعصى .

وقيل : المراد بمقام ربّه مقامه من ربّه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله وهو كما ترى .

وقيل : معنى خاف مقام ربّه خاف ربّه بطريق الإقحام كما قيل في قوله « أكرمي مثواه » .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه وروى عليّ بن مهزيار قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قوله عزّ وجلّ « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى » وقوله عزّ وجلّ : « والنجم إذا هوى » وما أشبه هذا ؟ فقال إنّ الله عزّ وجلّ أن يقسم من خلقه بما شاء وليس لخلقه أن يقسموا إلاّ به .

أقول : وتقدّم في هذا المعنى رواية الكافي عن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام في تفسير أوّل سورة النجم .

وفي الدرّ المنثور أخرج سعيد بن المنصور وابن المنذر عن عليّ في قوله : « والنازعات غرقاً » قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفّار « والناسطات نشطاً » هي الملائكة تنشط أرواح الكفّار ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها « والسابحات سبحاً » هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض « فالسابقات سبقاً » هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله « فالمدبّرات أمراً » قال هي الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة .

اقول : ينبغي أن تحمل الرواية - لو صحّت - على ذكر بعض المصاديق ، وقوله : « تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها ، ضرب من التمثيل لشدة العذاب .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أنّ ابن الكوّ سأله عن « المدبرّات أمراً » قال : الملائكة يدبّرون ذكر الرحمان وأمره .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة » قال : تنشق الأرض بأهلها والرادفة الصيحة .

وفيه في قوله : « إنّنا لمردودون في الحافرة » قال : قالت قريش : أنرجع بعد

الموت ؟

وفيه في قوله : « تلك إذا كرة خاسرة » قال : قالوا هذه على حدّ الاستهزاء .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قوله : « إنّنا لمردودون في الحافرة » يقول : في الخلق الجديد ، وأمّا قوله : « فإنّهم بالساهرة » والساهرة الأرض كانوا في القبور فلمّا سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستووا على الأرض . وفي أصول الكافي بإسناده إلى داود الرقي عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ولمن خاف مقام ربّه جنتان » قال : من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى .

اقول : يؤيّد الحديث ما تقدّم من معنى الخوف من مقامه تعالى :

وفيه بإسناده عن يحيى بن عقيل قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّما أخاف عليكم الاثنين : اتباع الهوى وطول الأمل أمّا اتباع الهوى فإنّه يصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة .



يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٤٣)
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهِيهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ
يُرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى (٤٦) .

﴿ بيان ﴾

تمرّض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة وردّ له بأنّ علمه ليس لأحد إلا الله فقد خصّه بنفسه .

قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيّان مرساها » الظاهر أنّ التعبير بيسألونك لإفادة الاستمرار فقد كان المشركون بعد ماسمعوا حديث القيامة يراجعون النبي ﷺ ويسألونه أن يعيّن لهم وقتها مصرّين على ذلك وقد تكرر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك .

والمرسى مصدر ميميّ بمعنى الإثبات والإقرار وقوله : « أيّان مرساها » بيان للسؤال والمعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزؤون به عن الساعة متى إثباتها وإقرارها ؟ أي متى تقوم القيامة ؟

قوله تعالى : « فيم أنت من ذكراها » استفهام إنكاريّ و « فيم أنت » مبتدأ وخبر ، و « من » لابتداء الغاية ، والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر على ما ذكره الراغب .

والمعنى في أيّ شيء أنت من كثرة ذكر الساعة أي ماذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها وبسبب ذلك أي لست تعلمها بكثرة ذكرها .

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشيء في القلب والمعنى - على الاستفهام

الإِنْكَارِيَّ - لست في شيء من العلم بحقيقتها وما هي عليه حتى تحيط بوقتها وهو أنسب من المعنى السابق .

وقيل : المعنى ليس ذكرها مما يرتبط ببعثتك إنما بعثت لتنذر من يخشاها .
وقيل : « فيم » إنكار لسؤالهم ، وقوله : « أنت من ذكرها » استثناء وتعليل
لإنكار سؤالهم والمعنى فيم هذا السؤال إنما أنت من ذكرى الساعة لاتصال بعثتك بها
وأنت خاتم الأنبياء ، وهذا المقدار من العلم يكفيهم ، وهو قوله ﷺ فيما روي :
« بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقني » .

وقيل : الآية من تمام سؤال المشركين خاطبوا به النبي ﷺ والمعنى ما الذي
عندك من العلم بها وبوقتها ؟ أو ما الذي حصل لك وأنت تكثر ذكرها .
وأنت خير بأن السياق لا يلائم شيئاً من هذه المعاني تلك الملامعة . على أنها
أو أكثرها لا تخلو من تكلف .

قوله تعالى : « إلى ربك منتهاها » في مقام التعليل لقوله : « فيم أنت من
ذكرها » والمعنى لست تعلم وقتها لأنّ انتهاءها إلى ربك فلا يعلم حقيقتها وصفاتها
ومنها تعيّن الوقت إلّا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها وليس في وسعك أن تجيب
عنها .

وليس من البعيد - والله أعلم - أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر
وهو أنّ الساعة تقوم بفناء الأشياء وسقوط الأسباب وظهور أن لا ملك إلّا لله الواحد
القهار فلا ينتسب اليوم إلّا إليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقة بينه تعالى وبين
اليوم أيّ سبب مفروض ومنه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتاً بحسب الحقيقة .
ولذا لم يرد في كلامه تعالى من التحديد إلّا تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا
كقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض » الزمر : ٦٨ وما في معناه
من الآيات الدالة على خراب الدنيا بتبدل الأرض والسماء وانتثار الكواكب وغير
ذلك .

وإلّا تحديده بنوع من التمثيل والتشبيه كقوله تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم

يلبثوا إلا عشيّة أوضّحها ، وقوله : « كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » الأحقاف : ٣٥ ، وقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » ثم ذكر حقّ القول في ذلك فقال : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الروم : ٥٦ .

ويلوِّح إلى ما مرّ ما في مواضع من كلامه أنّ الساعة لا تأتي إلا بغتة قال تعالى : « نقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنّك حفيّ عنها قل إنّما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » الأعراف : ١٨٧ إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا وجه عميق يحتاج في تمامه إلى تدبّر واف ليرتفع به ما يتراعى من مخالفته لظواهر عدّة من آيات القيامة وعليك بالتدبّر في قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ وما في معناه من الآيات والله المستعان .

قوله تعالى : « إنّما أنت منذر من يخشاها » أي إنّما كلّناك بإيذار من يخشى الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتّى تحييبهم عن وقتها إذا سألوك عنه فالقصر في الآية قصر أفراد بقصر شأنه وَاللَّهُ عَلِيمٌ في الإيذار وتنفي عنه العلم بالوقت وتعيينه لمن يسأل عنه .

والمراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكرّربها أي شائيّة الخشية لا فعليّتها قبل الإيذار .

قوله تعالى : « كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيّة أو ضحاها » بيان اقرب الساعة بحسب التمثيل والتشبيه بأنّ قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم في الأرض عشيّة أو ضحى تلك العشيّة أي وقتا نسبته إلى نهار واحد نسبة العشيّة إلى ما قبلها منه أو نسبة الضحى إلى ما قبله منه . وقد ظهر بما تقدّم أنّ المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا والبعث أي لبثهم في القبور لأنّ الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا .

وقيل : المراد به اللبث بين حين سؤالهم عن وقتها وبين البعث وفيه أنهم إنما يشاهدون لبثهم على هذه الصفة عند البعث والبعث الذي هو الأحياء بعد الموت إنما نسبته إلى الموت الذي قبله دون مجموع الموت وبعض الحياة التي بين زمان السؤال عن الوقت وزمان الموت .

على أنه لا يلائم ظواهر سائر الآيات المتعرضة للبثهم قبل البعث كقوله تعالى « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين » المؤمنون : ١١٢ .
وقيل : المراد باللبث اللبث في الدنيا وهو سخي .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » قال : هو العبد إذا وقف على معصية الله وقدر عليها ثم تركها مخافة الله ونهى الله ونهى النفس عنها فمكافاته الجنة قوله « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » قال : متى تقوم ؟ فقال الله : « إلى ربك منتهاها » أي علمها عند الله ، فوله : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » قال : بعض يوم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال : إن مشركي مكة سألو النبي ﷺ فقالوا : متى تقوم الساعة استهزاء منهم فنزلت « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » الآيات .

وفيه أخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل عليه « فيم أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها » فلم يسأل عنها .

أقول : ورواه أيضاً عن عدة من أصحاب الكتب عن عروة مرسل ، ورواه أيضاً عن عدة منهم عن شهاب بن طارق عن النبي ﷺ مثله ، والسياق لا يلائم كونه

جواباً عن سؤال النبي ﷺ .

وفي بعض الروايات : كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان فيهم فيقول : إن يعش هذا قرناً قامت عليكم ساعتكم رواها في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عائشة .

وهي من التوقيت الذي يجعل عنه ساحة النبي ﷺ وقد أوحى إليه في كثير من السور القرآنية سيما المكينة أن علم الساعة يختص به تعالى لا يعلمه إلا هو وأمر أن يجيب من سأل عن وقتها بنفي العلم به عن نفسه .



﴿سورة عبس مكيّة وهي اثنان وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)
 وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّه يَزْكَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مِنْ
 اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى (٧) وَأَمَا مِنْ
 جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا
 تَذِكْرَةٌ (١١) لِمَنْ شَاءَ ذِكْرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ
 مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦).

﴿بيان﴾

وردت الروايات من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في قصة ابن أم مكتوم
 الأعمى دخل على النبي ﷺ وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام
 فعبس النبي عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة
 إشارة إلى ذلك .

وفي بعض روايات الشيعة أن العباس المتولي رجل من بني أمية كان عند النبي
 ﷺ فدخل عليه ابن أم مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه فنزلت الآيات : وسيافاك
 تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

و كيف كان الأمر فغرض السورة عتاب من يقدم الأغنياء والمترفين على
 الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة ثم ينجر الكلام

إلى الإشارة إلى هوان أمر الإنسان في خلقه وتناهيه في الحاجة إلى تدبير أمره وكفره مع ذلك بنعم ربّه وتديره العظيم لأمره وتخلص إلى ذكر بعثه وجزائه إنذاراً ، والسورة مكّية بلا كلام .

قوله تعالى : «عبس وتولّى» أي بسرو قبض وجهه وأعرض .

قوله تعالى : « أن جاءه الأعمى » تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام

التعليل .

قوله تعالى : «وما يدريك لعلّه يزكّي أو يذكّر فتنبه الذكري» حال من فاعل «عبس وتولّى» والمراد بالتزكّي التطهّر بعمل صالح بعد التذكّر الذي هو الاتّعاظ والانتباه للاعتقاد الحقّ ، ونفع الذكري هو دعوتها إلى التزكّي بالإيمان والعمل الصالح .

ومحصل المعنى بسرو وأعرض عن الأعمى لما جاءه والحال أنّه ليس يدري لعلّ الأعمى الذي جاءه يتطهّر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه وتعلّمه وقد تذكّر قبل أو يتذكّر بسبب مجيئه واتّعاظه بما يتعلّم فتنبه الذكري فيتطهّر .

وفي الآيات الأربع عتاب شديد ويزيد شدّة بإتيان الآيتين الأوليين في سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة والدلالة على تشديد الإنكار وإتيان الآيتين الأخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ وإلزام الحجّة بسبب المواجهة بعد الإعراض والتفريع من غير واسطة .

وفي التعبير عن الجائي بالأعمى مزيد توبيخ لما أنّ المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقداً للبصر وكانت حاجته في دينه دعتّه إلى السعي فيها خشية الله كان من الحريّ أن يرحم ويخصّ بمزيد الإقبال والتعطّف لا أن ينقبض و يعرض عنه .

وقيل - بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبي ﷺ - : أنّ في التعبير عنه أوّلاً بضمير الغيبة إجلالاً له لا بهام أنّ من صدر عنه العبوس والتولّي غيره ﷺ

لأنه لا يصدر مثله عن مثله ، وثانياً بضمير الخطاب إجلالاً له أيضاً لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض .

وفيه أنه لا يلائمه الخطاب في قوله بعد : «أما من استغنى فأنت له تصدى ، الخ والعتاب والتوبيخ فيه أشدّ ممّا في قوله : « عبس وتولى ، الخ ولا إيناس فيه قطعاً .

قوله تعالى : «أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى» الفنى والاستغناء والتغنى والتغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبس بالفنى ولازمه التقدّم والرئاسة والعظمة في أعين الناس والاستكبار عن اتباع الحقّ قال تعالى : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» العلق : ٧ والتصدّي التعرّض للشىء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره .

وفي الآية إلى تمام ستّ آيات إشارة إلى تفصيل القول في ملاك ما ذكر من العبوس والتوكلي فعوتب عليه ومحصّله أنّك تعتنى وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتباع الحقّ وما عليك أن لا يزكى وتلهّى وتعرض عمّن يجتهد في التزكى وهو يخشى .

وقوله : «وما عليك أن لا يزكى» قيل : «ما» نافية والمعنى وليس عليك بأس أن لا يزكى حتّى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الاعراض والتلهّى عمّن أسلم والإقبال عليه .

وقيل : «ما» للاستفهام الإنكاري والمعنى وأي شيء يلزمك إن لم يتطهر من الكفر والفجور فإنّما أنت رسول ليس عليك إلّا البلاغ .

وقيل : المعنى ولا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور وهذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثمّ الذي قبله ثمّ الذي قبله .

قوله تعالى : « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى » السعي الإسراع في المشي فمعنى قوله : « وأما من جاءك يسعى » بحسب ما يفيد المقام : وأما من جاءك مسرعاً ليتذكّر ويتزكى بما يتعلّم من معارف الدين .

وقوله : « وهو يخشى » أي يخشى الله والخشية آية التذكّر بالقرآن قال تعالى :
« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » طه : ٣ ، وقال : « سيدّ كَرَمَن
يخشى » الأعلى : ١٠ .

وقوله : « فأنت عنه تلهي » أي تلهي وتتشاغل بغيره وتقديم ضمير « أنت »
في قوله : « فأنت له تصدّي » وقوله : « فأنت عنه تلهي » وكذا الضميرين « له » و
« عنه » في الآيتين لتسجيل العتاب وتثبيته .

قوله تعالى : « كلاًّ إنّهآ تذكرة فمن شاء ذكره » « كلاًّ » ردع عمّا عوتب عليه
من العبوس والتولي والتصدّي لمن استغنى والتلهي عمن يخشى .
والضمير في « إنّهآ تذكرة » للآيات القرآنية أو للقرآن وتأنيث الضمير لتأنيث
الخبر والمعنى إنّ الآيات القرآنية أو القرآن تذكرة أي موعظة يتعظ بها من
اتعظ أو مذكّر يذكّر حقّ الاعتقاد والعمل .

وقوله : « فمن شاء ذكره » جملة معترضة والضمير للقرآن أو ما يذكّر به
القرآن من المعارف ، والمعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكّر به القرآن
وهو الانتقال إلى ما تهدي إليه الفطرة ممّا تحفظه في لوحها من حقّ الاعتقاد والعمل .
وفي التعبير بهذا التعبير « فمن شاء ذكره » تلويح إلى أن لا إكراه في الدعوة
إلى التذكّر فلانفع فيها يعود إلى الداعي وإنّما المنفع بها المتذكّر فليختار ما يختاره .
قوله تعالى : « في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة » قال في المجمع : الصحف
جمع صحيفة ، والعرب تسمي كلّ مكتوب فيه صحيفة كما تسميه كتاباً رقاً كان أو
غيره انتهى ..

و « في صحف » خبر بعد خبر لأنّ وظاهره أنّه مكتوب في صحف متعدّدة
بأيدي ملائكة الوحي ، وهذا يضعف القول بأنّ المراد بالصحف اللوح المحفوظ ولم
يرد في كلامه تعالى إطارق الصحف ولا الكتب ولا الألواح بصيغة الجمع على اللوح
المحفوظ ، ونظيره في الضعف القول بأنّ المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم
ملاءمته لظهور قوله : « بأيدي سفرة » النح في أنّه صفة لصحف .

وقوله : « مكرّمة » أي معظّمة ، وقوله : « مرفوعة » أي قدراً عند الله ، وقوله : « مطهّرة » أي من قذارة الباطل ولغو القول والشكّ والتناقض قال تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حم السجدة : ٤٢ ، وقال : « إنّه لقول فصل وما هو بالهزل » الطارق : ١٤ وقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة : ٢ ، وقال : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » النساء : ٨٢ .

قوله تعالى : « بأيدي سفرة كرام بررة » صفة بعد صفة لصحف ، والسفرة هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و « كرام » صفة لهم باعتبار ذواتهم و « بررة » صفة لهم باعتبار عملهم وهو الإحسان في الفعل .

ومعنى الآيات أنّ القرآن تذكرة مكتوبة في صحف متعدّدة معظّمة مرفوعة قدراً مطهّرة من كلّ دنس وقذارة بأيدي سفراء من الملائكة كرام على ربّهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالى بحسن أعمالهم .

ويظهر من الآيات أنّ للوحي ملائكة يتصدّون لحمل الصحف وإيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل وتحت أمره ونسبة إلقاء الوحي إليهم لا تنافي نسبته إلى جبريل في مثل قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ وقد قال تعالى في صفته : « إنّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين » التكويم : ٢١ فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره ويأتي بما يريدّه والإيحاء الذي هو فعل أعوانه فعله كما أنّ فعله وفعلهم جميعاً فعل الله وذلك نظير كون التوفّي الذي هو فعل أعوان ملك الموت فعله ، وفعله وفعلهم جميعاً فعل الله تعالى ، وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا البحث مراراً .

وقيل : المراد بالسفرة الكتاب من الملائكة ، والذي تقدّم من المعنى أجلى .
وقيل : المراد بهم القراء يكتبونها ويقرؤونها وهو كما ترى .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع : قيل : نزلت الآيات في عبدالله بن أم مكتوم وهو عبدالله بن شريح ابن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي .

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبياً وأُميّة بن خلف يدعّوهم إلى الله ويرجو إسلامهم فقال : يا رسول الله أفرئني وعلمني ممّا علمك الله فجعل يناديه ويكرّر النداء ولا يدري أنه مشغل مقبل على غيره حتّى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه العميان والعبيد فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فنزلت الآيات .

وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربّي، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين .

أقول : روى السيوطي في الدر المنثور القصة عن عائشة وأنس وابن عباس على اختلاف يسير وما أورده الطبرسي محصّل الروايات .

وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أنّ المراد بها هو النبي ﷺ بل خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه بل فيها ما يدلّ على أنّ المعنى بها غيره لأنّ العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع الأعداء المبائنين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين . ثمّ الوصف بأنّه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله .

وقد عظم الله خلقه ﷻ إذ قال - وهو قبل نزول هذه السورة - : « وإنك لعلى خلق عظيم » والآية واقعة في سورة ن التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنّها نزلت بعد سورة اقرء باسم ربك فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في

أول بعثته ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية و يذمه بمثل التصدي للأغنياء وإن كفروا و التلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا .

وقال تعالى أيضاً : « وأنذر عشيرتك الأقربين و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » الشعراء : ٢١٥ فأمره بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكية والآية في سياق قوله : « و أنذر عشيرتك الأقربين » النازل في أوائل الدعوة .

وكذا قوله : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم و اخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ وفي سياق الآية قوله : « فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ النازل في أول الدعوة العلنية فكيف يتصور منه ﷺ العبوس والإعراض عن المؤمنين وقد أمر باحترام إيمانهم وخفض الجناح وأن لا يمد عينيه إلى دنيا أهل الدنيا .

على أن قبح ترجيح غنى الغني - وليس ملاكاً لشيء من الفضل - على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنب عنه إلى نهى لفظي .

وبهذا وما تقدّمه يظهر الجواب عما قيل : إن الله سبحانه لم ينهه ﷺ عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده وأما قبل النهي فلا .

وذلك أن دعوى أنه تعالى لم ينهه إلا في هذا الوقت تحكّم ممنوع ، ولو سلم فالعقل حاكم بقبحه ومعه ينافي صدوره كريمة الخلق وقد عظم الله خلقه ﷺ قبل ذلك إذ قال : « وإنك لعلی خلق عظیم » وأطلق القول ، والخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها .

وعن الصادق عليه السلام - على ما في المجمع - أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلمّا رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه .

وفي المجمع وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال : مرحباً مرحباً والله لا يعاتبني الله فيك أبداً ، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي ﷺ مما يفعل به .

اقول : الكلام فيه كالكلام فيما تقدمه ، ومعنى قوله : حتى أنه كان يكف الخ أنه كان يكف عن الحضور عند النبي ﷺ لكثرة صنيعه ﷺ به انفعالا منه وخجلا .





قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ
 خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا
 شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى
 طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا
 فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ
 غُلَبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ
 الصَّاعَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ
 وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
 مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاكِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)
 تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) .

﴿بيان﴾

دعاء على الانسان وتعجيب من مبالغته في الكفر بربوبيته ربّه وإشارة إلى أمره
 حدوثاً وبقاءً فإنّه لا يملك لنفسه شيئاً من خلق وتدير بل الله سبحانه هو الذي خلقه
 من نطفة مهينة فقدّره ثمّ السبيل يسره ثمّ أماته فأقبره ثمّ إذا شاء أنشره فهو سبحانه

ربه الخالق له المدبر لأمره مطلقاً وهو في مدى وجوده لا يقضي ما أمره به ربه ولا يهتدي بهداه .

ولو نظر الإنسان إلى طعامه فقط وهو مظهر واحد من مظاهر تدبيره وغرفة من بحار رحمته رأى من وسيع التدبير والطياف الصنع ما يبهر عقله ويدهش لبّه ووراء ذلك نعم لا تعدّ - وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها - .

فستره تدبير ربه وتركه شكر نعمته عجيب وإن الإنسان لظلم كفّار وسيرون تبعة شكرهم وكفرهم من السرور والاستبشار أو الكآبة وسواد الوجه .

والآيات - كما ترى - لاتأبى الاتصال بما قبلها سياقاً واحداً وإن قال بعضهم أنها نزلت لسبب آخر كما سيحيى .

قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره » دعاء على الإنسان لما أن في طبعه التوغل في اتباع الهوى ونسيان ربوبيّة ربه والاستكبار عن اتباع أوامره .

وقوله : « ما أكفره » تعجيب من مبالغته في الكفر وستر الحق الصريح وهو يرى أنه مدبر بتدبير الله لا يملك شيئاً من تدبير أمره غيره تعالى .

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق وينطبق على إنكار الربوبيّة وترك العبادة و يؤيّد ما في ذيل الآية من الإشارة إلى جهات من التدبير الربوبي المتناسبة مع الكفر بمعنى ستر الحق وترك العبادة ، وقد فسّر بعضهم الكفر بترك الشكر وكفران النعمة وهو وإن كان معنى صحيحاً في نفسه لكنّ الأُنسب بالنظر إلى السياق هو المعنى المتقدّم .

قال في الكشف : « قتل الإنسان » دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأنّ القتل قصارى شدائد الدنيا وظائفائها و« ما أكفره » تعجّب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أخشن مستأً ، ولا أدلّ على سخط ، ولا أبعد شوطاً في المذمّة مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه . انتهى .

وقيل : جملة « ما أكفره » استفهاميّة والمعنى ما هو الذي جعله كافراً ، والوجه المتقدّم أبلغ .

قوله تعالى : «من أي شيء خلقه» معناه على ما يعطيه المقام من أي شيء خلق الله الإنسان حتى يحقّ له أن يطفى ويستكبر عن الإيمان والطاعة ، وحذف فاعل قوله : «خلقه» وما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة - وقد اعترف به المشركون - أن لا خالق إلا الله تعالى .

والاستفهام بداعي تأكيد ما في قوله : «ما أكفره» من العجب - والعجب إنما هو في الحوادث التي لا يظهر لها سبب - فأفيد أولاً أن من العجب إفراط الإنسان في كفره ثم سئل ثانياً هل في خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط في الكفر فأجيب بنفيه وأن لاجبة له يحتج بها ولا عذر يعتذر به فأنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شيئاً من خلقته ولا من تدبير أمره في حياته ومماته ونشوره ، وبالجملّة الاستفهام نوطئة للجواب الذي في قوله : «من نطفة خلقه» الخ .

قوله تعالى : «من نطفة خلقه فقدّره» تنكير «نطفة» للتحقير أي من نطفة مهينة حقيرة خلقه فلا يحقّ له وأصله هذا الأصل أن يطفى بكفره ويستكبر عن الطاعة .

وقوله : «فقدّره» أي أعطاه القدر في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له أن يتعدّى الطور الذي قدّر له ويتجاوز الحدّ الذي عيّن له فقدّ أحاط به التدبير الربوبيّ من كلّ جانب ليس له أن يستقلّ بنيل ما لم يقدر له .

قوله تعالى : «ثمّ السبيل يسّره» ظاهر السياق المقصود به نفي العذر من الإنسان في كفره واستكباره أن المراد بالسبيل - وقد أطلق - السبيل إلى طاعة الله وامتنال أوامره وإن شئت فقل : السبيل إلى الخير والسعادة .

فتكون الآية في معنى دفع الدخّل فإنّه إذا قيل : «من نطفة خلقه فقدّره» أمكن أن يتوهّم السامع أن الخلق والتقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كلّ جهة كانت أفعال الإنسان لذاته وصفاته مقدّرة مكتوبة ومتعلّقة للمشيّة الربويّة التي لا تتخلّف فتكون أفعال الإنسان ضروريّة الثبوت واجبة التحقيق والإنسان مجبراً عليها فاقداً للاختيار فلا صنع للإنسان في كفره إذا كفر ولا في فسقه إذا فسق ولم

يقض ما أمره الله به وإثما ذلك بتقديره تعالى وإرادته فلا ذم ولا لائمة على الإنسان ولا دعوة دينية تتعلق به لأن ذلك كله فرع للاختيار ولا اختيار .

فدفع الشبهة بقوله : « ثم السبيل يسره » ومحصله أن الخلق والتقدير لا ينافيان كون الإنسان مختاراً فيما أمر به من الإيمان والطاعة له طريق إلى السعادة التي خلق لها فكل ميسر لما خلق له وذلك أن التقدير واقع على الأفعال الإنسانية من طريق اختياره ، والإرادة الربوبية متعلقة بأن يفعل الإنسان بإرادته واختياره كذا وكذا فالفعل صادر عن الإنسان باختياره وهو بما أنه اختياري متعلق بالتقدير . فلا إنسان مختار في فعله مسؤول عنه وإن كان متعلقاً للقدر ، وقد تقدم البحث عن هذا المعنى كراراً في ذيل الآيات المناسبة له في هذا الكتاب .

وقيل : المراد بتيسير السبيل تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه والمعنى ثم سهل للإنسان سبيل الخروج وهو جنين مخلوق من نطفة .

وقيل : المراد الهداية إلى الدين وتبيين طريق الخير والشر كما قال : « وهديناه النجدين » البلد : ١٠ والوجه المتقدم أوجه .

قوله تعالى : « ثم أماته فأقبره » الإماتة إيقاع الموت على الإنسان ، والمراد بالأقبار دفنه في القبر وإخفاؤه في بطن الأرض وهذا بالبناء على الغالب الذي جرى عليه ديدن الناس وبهذه المناسبة نسب إليه تعالى لا تـه تعالى هو الذي هداهم إلى ذلك وألهمهم إيتاء فللفعل نسبة إليه كماله نسبة إلى الناس .

وقيل : المراد بالأقبار جعله ذاقبر ومعنى جعله ذاقبر أمره تعالى بدفنه تكريماً له لتتوارى جيفته فلا يتأذى بها الناس ولا يتنفروا .

والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات المسروود لتذكير تـديره تعالى التكوين للإنسان دون التدبير التشريعي الذي عليه بناء هذا الوجه .

قوله تعالى « ثم إذا شاء أنشره » في المجمع : الإِشْيار الإِحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي . انتهى فالمراد به البعث إذا شاء الله ، وفيه إشارة إلى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى .

قوله تعالى : «كَلَّا لَمَّا يَقْضُ مَا أَمْرُهُ» الذي يعطيه السياق أن «كَلَّا» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق ويلوِّح إليه قوله : «لَمَّا يَقْضُ مَا أَمْرُهُ» كأنه لما أُشير إلى أن الإنسان مخلوق مدبّر له تعالى من أوّل وجوده إلى آخره من خلق وتقدير وتيسير للسبيل وإماتة وإقبار وإنشار وكلّ ذلك نعمة منه تعالى سئل فقيل : فما ذا صنع الإنسان والحال هذه الحال وهل خضع للربوبيّة أو هل شكر النعمة فأجيب وقيل : كَلَّا تَمَّ أوضح فقيل : لَمَّا يَقْضُ مَا أَمْرُهُ الله به بل كفرو عصى .

فقد ظهر ممّا تقدّم أن ضمير «يقض» للإنسان والمراد بقضائه إتيانه بما أمر الله به ، وقيل : الضمير لله تعالى والمعنى لَمَّا يَقْضُ الله لهذا الكافر أن يأتي بما أمره به من الإيمان والطاعة بل إنّما أمره بما أمر إتماماً للحجّة ، وهو بعيد .

وظهر أيضاً أن ما في الآيات من الذمّ واللائمة إنّما هو للإنسان بما في طبعه من الإفراط في الكفر كما في قوله : «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» إبراهيم : ٣٤ فينطبق على من تلبّس بالكفر وأفرط فيه بالعناد ومنه يظهر عدم استقامة ما نقل عن بعضهم أن الآية على العموم في الكافر والمسلم لم يعبد أحد حقّ عبادته .

وذلك أن الضمير للإنسان المذكور في صدر الآيات بما في طبعه من داعية الإفراط في الكفر وينطبق على من تلبّس به بالفعل .

قوله تعالى : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» متفرّع على ما تقدّم تفرّع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان إلى طعامه الذي يقفّات به ويستمدّ منه لبقائه وهو واحد ممّا لا يحصى ممّا هيأه التدبير الربوبيّ لرفع حوائجه في الحياة حتّى يتأمّله فيشاهد سعة التدبير الربوبيّ التي تدّش لبّه وتحير عقله ، وتعلّق العناية الإلهيّة - على دقّتها وإحاطتها - بصلاح حاله واستقامة أمره .

والمراد بالإنسان - كما قيل - غير الإنسان المتقدّم المذكور في قوله : «قتل الإنسان ما أكفره» فإنّ المراد به خصوص الإنسان المبالغ في الكفر بخلاف الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنّه عامّ شامل لكلّ إنسان ، ولذلك أظهر ولم يضمن .

قوله تعالى : «أنا صببنا الماء صباً - إلى قوله- ولا نعامكم، القراءة الدائرة «أنا» بفتح الهمزة وهو بيان تفصيلي لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل وأما القول المستوفي لبيان خصوصيات النظام الذي هيأه هذه الأمور والنظام الواسع الجاري في كل من هذه الأمور والروابط الكونية التي بين كل واحد منها وبين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عادة .

وبالجملة قوله : «أنا صببنا الماء صباً» الصب إراقة الماء من العلو ، والمراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لا نبات النبات ، ولا يبعد أن يشمل إجراء العيون والأشجار فإن ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكوّن من الأمطار .
وقوله : « ثم شققنا الأرض شقاً » ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها ولذا عطف على صب الماء بتمّ وعطف عليه إنبات الحبّ بالفاء .

وقوله : « فأنبثنا فيها حباً » ضمير « فيها » للأرض ، والمراد بالحبّ جنس الحبّ الذي يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ونحوهما وكذا في العنب والقضب وغيرهما .

وقوله : «وعنباً وقضباً» العنب معروف ، ويطلق على شجر الكرم ولعله المراد في الآية ونظيره الزيتون .

والقضب هو الغضّ الرطب من البقول الذي يأكله الإنسان يقضب أي يقطع مرة بعد أخرى ، وقيل : هو ما يقطع من النبات فتعلّف به الدوابّ .

وقوله : «وزيتوناً ونخلًا» معروفان .

وقوله : «وحدائق غلباً» الحدائق جمع حديقة وهي على ما فسر البستان المحوّط والغلب جمع غلباء يقال : شجرة غلباء أي عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتمنة على أشجار عظام غلاظ .

وقوله : « وفاكهة وأباً » قيل : الفاكهة مطلق الثمار ، وقيل : ما عدا العنب والرمان . قيل : إن ذكرهما يدخل في الفاكهة أو لا كالزيتون والنخل للاعتناء بشأنه

والأبّ الكلاء والمرعى .

وقوله : « متاعاً لكم ولأنعامكم » مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا ممّا تطعمونه ليكون تمتيعاً لكم وللأنعام التي خصصتموها بأنفسكم .
والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب في الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بآ نعام
النعمة .

قوله تعالى : « فإذا جاءت الصاخّة » إشارة إلى ما ينتهي إليه ما ذكر من التدبير
العامّ الربوبيّ للإنسان بما أنّ فيه أمراً ربوبيّاً إلهيّاً بالعبودية يقضيه الإنسان
أولا يقضيه وهو يوم القيامة الذي يوفى فيه الإنسان جزاء أعماله .
والصاخّة الصيحة الشديدة التي تصمّ الأسماع من شدّتها والمراد بها نفخة
الصور .

قوله تعالى : « يوم يفرّ المرء من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه » إشارة
إلى شدّة اليوم فالذين عدّوا من أقرباء الإنسان وأخصّائه هم الذين كان يأوى إليهم ويأنس
بهم ويتخذهم أعزاداً وأنصاراً يلوذ بهم في الدنيا لكنّه يفرّ منهم يوم القيامة لما أنّ الشدّة
أحاطت به بحيث لا تدعه يشغل بغيره ويعتني بما سواه كائناً من كان فالبلية إذا عظمت
واشتدّت وأطلّت على الإنسان جذبته إلى نفسها وصرفته عن كلّ شيء .
والدليل على هذا المعنى قوله بعد : « اكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »
أي يكفيه من أن يشغل بغيره .

وقيل في سبب فرار الإنسان من أقربائه وأخصّائه يومئذ وجوه آخر للدليل
عليها أنعمنا عن إيرادها .

قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » بيان لانقسام الناس
يومئذ إلى قسمين : أهل السعادة وأهل الشقاء ، وإشارة إلى أنّهم يعرفون بسيماهم في
وجوههم وإسفار الوجه إشرافه وإضاءته فرحاً وسروراً واستبشاره تهلّله بمشاهدة ما
فيه البشري .

قوله تعالى : « ووجوه يومئذ عليها غبرة » هي الغبار والكدورة وهي سيما الهمّ والغمّ .

قوله تعالى : « ترهقها فترة » أي يعلوها ويغشاها سواد وظلمة ، وقديين حال الطائفتين في الآيات الأربع بيان حال وجوههما لأنّ الوجه مرآة القلب في سروره ومساءته .

قوله تعالى : « أولئك هم الكفرة الفجرة » أي الجامعون بين الكفر اعتقاداً والفجور وهو المعصية الشنيعة عملاً أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون ، وهذا تعريف للطائفة الثانية وهم أهل الشقاء ولم يأت بمثله في الطائفة الأولى وهم أهل السعادة لأنّ الكلام مسوق للإيذار والاعتناء بشأن أهل الشقاء .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدّال المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : « قتل الإنسان ما أكفره » قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت بربّ النجم إذا هوى فدعا عليه النبي ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : « قتل الإنسان ما أكفره » أي لعن الإنسان .

وفي تفسير القميّ « ثمّ السبيل يسره » قال : يسرّ له طريق الخير .

أقول : المراد به جعله مختاراً في فعله يسهل به سلوكه سبيل السعادة و وصوله إلى الكمال الذي خلق له . فالخبر منطبق على ما قدّمناه من الوجه في تفسير الآية .

وفيه في قوله : « وقضبا » قال : القضب القتّ .

وفيه قوله : « وفاكهة وأباً » قال : الأبّ الحشيش للبهائم .

وفي الدر المنثور أخرج أبو عبيد في فضائله عن إبراهيم التيمي قال : سئل أبو بكر الصديق عن قوله : « وأباً » فقال : أيّ سماء تظّلني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصحّحه عن أنس أن عمر قرء على المنبر « فأثبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً - إلى قوله - وأباً » قال : كل هذا قد عرفناه فما الأبّ ؟ ثم رفض عصاً كانت في يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلّف فما عليك أن لا تدري ما الأبّ ؟ اتبعوا ما بيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن يزيد أن رجلاً سأل عمر عن قوله « وأباً » فلمّا رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة .

اقول : هو مبني على منعهم عن البحث عن معارف الكتاب حتّى تفسير ألفاظه .

وفي إرشاد المفيد وروي أن أبا بكر سئل عن قول الله تعالى : « وفاكهة وأباً » فلم يعرف معنى الأبّ من القرآن فقال : أيّ سماء تظّلني أم أيّ أرض تقلّني أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ أمّا الفاكهة فنعرفها وأمّا الأبّ فالله أعلم .

فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله في ذلك فقال : سبحان الله أما علم أن الأبّ هو الكلاء والمرعى ؟ وأنّ قوله تعالى : « وفاكهة وأباً » اعتداد من الله بآي نعمه على خلقه فيما غذّاهم به وخلقهم لهم ولا نعمهم ممّا تحيي به أنفسهم وتقوم به أجسادهم .

وفي المجمع وروي عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي صلى الله عليه وآله قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يبعث الناس حفاة عراة غرلاً^(١) يلجمهم العرق ويبلغ شحمة الأذن

(١) النمل بالعين الممجمة جمع أغرل وهو الاقاف غير المختون .

قالت : قلت : يا رسول الله واسوأناہ ينظر بعضنا إلى بعض إذا جاء ؟ قال : شغل الناس عن ذلك وتلا رسول الله ﷺ « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .
وفي تفسير القمي قوله : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » قال : شغل يشغله عن غيره .



﴿سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَ إِذَا النُّجُومُ
 انْكَدَرَتْ (٢) وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَ إِذَا
 الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)
 وَ إِذَا النَّمُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)
 وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣)
 عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ (١٤) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراتها وما يقع فيها وتصفه بأنه يوم
 ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه إلى النبي ﷺ
 رسول سماوي وهو ملك الوحي وليس بإلقاء شيطاني ولا أن النبي ﷺ مجنون
 بمسه الشيطان .

ويشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة في أوائل البعثة كما يشهد
 به ما فيها من تنزيهه ﷺ مما رموه به من الجنون وقد اتهموه به في أوائل الدعوة
 وقد اشتملت على تنزيهه منه سورة ن وهي من العتائق .

والسورة مكية بلا كلام .

قوله تعالى : «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» التكوير اللف على طريق الإدارة كلف

العمامة على الرأس ، ولعل المراد بتكوين الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة .

قوله تعالى : « وإذا النجوم انكدرت » انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض ، وعليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيد قوله : « وإذا الكواكب انتثرت » الانفطار : ٢ . ويمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغير وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها .

قوله تعالى : « وإذا الجبال سيرت » بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير فتندك وتكون هباء منبثاً وتصير سراياً على ما ذكره سبحانه في مواضع من كلامه .
قوله تعالى : « وإذا العشار عطلت » قيل : العشار جمع عشاء كالنفاس جمع نفساء وهي الناقة الحامل التي أتت عليها عشرة أشهر فتسمى عشاء حتى تضع حملها وربما سميت عشاء بعد الوضع أيضاً وهي من أنفس المال عند العرب .

وتعطيل العشار تركها مهمل لا راعي لها ولا حافظ يحفظها وكأن في الجملة إشارة على نحو الكناية إلى أن نفائس الأموال التي يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم ولا صاحب لها يملكها ويتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شيء كما قال : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » عبس : ٣٧ .

قوله تعالى : « وإذا الوحوش حشرت » الوحوش جمع وحش وهو من الحيوان ما لا يتأنس بالإنسان كالسباع وغيرها .

وظاهر الآية من حيث وقوعها في سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أن الوحوش محشورة كالإنسان ، ويؤيده قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » الأنعام : ٣٨ .

وأما تفصيل حالها بعد الحشر وما يؤول إليه أمرها فلم يرد في كلامه تعالى ولا فيما يعتمد عليه من الأخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله في آية الأنعام :

«أُمُّ أَمْثَالِكُمْ» وقوله : «ما فرطنا في الكتاب من شيء» بعض ما يتضح به الحال في الجملة لا يخفى على الناقد المتدبر . وربما قيل : إن حشر الوحوش من أشراف الساعة لاممًا يقع يوم القيامة والمراد به خروجها من غاباتها وأكنانها .

قوله تعالى : « وإذا البحار سجرت » فسر التسجير بإضرام النار وفسر بالملاء والمعنى على الأول وإذا البحار أضربت نارا ، وعلى الثاني وإذا البحار ملئت .

قوله تعالى : « وإذا النفوس زوجت » أما نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى : « لهم فيها أزواج مطهرة » النساء : ٥٧ ، وقال : « و زوجناهم بحور عين » الدخان : ٥٤ ، وأما نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون » الصافات : ٢٢ ، وقال : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » الزخرف : ٣٦ .

قوله تعالى : « وإذا الموؤدة سئلت بأيّ ذنب قتلت » الموؤدة البنت التي تدفن حية وكانت العرب تئد البنات خوفاً من لحقوق العار بهن من أجلهنّ كما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » النحل : ٥٩ .

والمسؤل بالحقيقة عن قتل الموؤدة أبوها الوائد لها لينتصف منه وينتقم لكن عدّ المسؤل في الآية هي الموؤدة نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتّى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه ، فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى عليه السلام : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » المائدة : ١١٦ .

وقيل : إسناد المسؤولية إلى الموؤدة من المجاز العقلي والمراد كونها مسؤلاً عنها نظير قوله تعالى : « إن العهد كان مسؤلاً » أسرى : ٣٤ .

قوله تعالى : « وإذا الصحف نشرت » أي للحساب ، والصحف كتب الأعمال .

قوله تعالى : « وإذا السماء كشطت » في المجمع الكشط القلع عن شدة التراق

فينطبق على طيها كما في قوله : « والسماء مطويات يمينه » الزمر : ٦٧ ، وقوله : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً » الفرقان : ٢٥ وغير ذلك من الآيات المفصلة عن هذا المعنى .

قوله تعالى : « وإذا الجحيم سعرت » التفسير تهيج النار حتى تتأجج .
قوله تعالى : « وإذا الجنة أزلقت » الأزلاف التقريب والمراد تقربها من أهلها للدخول .

قوله تعالى : « علمت نفس ما أحضرت » جواب إذا ، والمراد بالنفس الجنس والمراد بما أحضرت عملها الذي عملته يقال : أحضرت الشيء أي وجدته حاضراً كما يقال : أحمده أي وجدته محموداً .

فالآية في معنى قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي : « إذا الشمس كورت » قال : تصير سوداء مظلمة « وإذا النجوم انكدرت » قال : يذهب ضوءها « وإذا الجبال سيرت » قال : تسيّر كما قال « تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . قوله : « وإذا العشار عطّلت » قال : الأبل تتعطل إذا مات الخلق فلا يكون من يحلبها ، قوله : « وإذا البحار سجّرت » قال : تتحوّل البحار التي حول الدنيا كلّها نيراناً « وإذا النفوس زوجت » قال : من الحور العين .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وإذا النفوس زوجت » قال : أمّا أهل الجنة فروّجوا الخيرات الحسان ، وأمّا أهل النار فمع كلّ إنسان منهم شيطان يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم .

أقول : الظاهر أنّ قوله : يعني الخ من كلام الراوي .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله : « إذا الشمس كورت » قال : كورت في جهنم « وإذا النجوم انكدرت » قال : انكدرت في جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى بن مريم وأمه ولورضيا أن يعبدوا لدخلاها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذا الصحف نشرت » قال : صحف الأعمال قوله : « وإذا السماء كشطت » قال : أبطلت .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وإذا النفوس زوجت » قال : هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار .



فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧)
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ
ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)
وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَمِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

﴿ بيان ﴾

تنزيه للنبي ﷺ من الجنون - وقد اتهموه به - ولما يأتي به - من القرآن -
من مداخله الشيطان ، وأنه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحي الذي لا يخون في
رسالته ، وأنه ذكر للعالمين هاد باذن الله لمن اهتدى منهم .

قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » الخنس جمع خانس
كطلب جمع طالب ، والخنوس الانقباض والتأخر والاستتار ، والجواري جمع جارية ،
والجري السير السريع مستعار من جري الماء ، والكنس جمع كانس والكنوس دخول
الوحش كالطبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذته لنفسه واستقراره فيه .

وتعقب قوله : « فلا أقسم بالخنس » الخ بقوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشد مناسبة وأوضح انطباقاً على ما ذكر من الصفات المقسم بها : الخنوس والجري والكنوس وهي السيارات الخمس المتحيرة : زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد فإن لها في حركاتها على ما نشاهد استقامة ورجعة وإقامة فهي تسير وتجري حركة متشابهة زماناً وهي الاستقامة وتنقبض وتناخر وتخنس زماناً وهي الرجعة وتقف عن الحركة استقامة ورجعة زماناً كأنها الوحش تكنس في كناسها وهي الإقامة .

وقيل : المراد بها مطلق الكواكب وخنوسها استتارها في النهار تحت ضوء الشمس وجريها سيرها المشهود في الليل وكنوسها غروبها في مغربها وتواربها .
وقيل : المراد بها بقر الوحش أو الظبي ولا يبعد أن يكون ذكر بقر الوحش أو الظبي من باب المثال والمراد مطلق الوحش .

وكيف كان فأقرب الأقوال أولها والثاني بعيد والثالث أبعد .

قوله تعالى : « والليل إذا عسعس » عطف على الخنس ، و « إذا عسعس » قيد لليل ، والعسعة تطلق على إقبال الليل وعلى إدباره قال الراغب : « والليل إذا عسعس » أي أقبل وأدبر وذلك في مبدء الليل ومنتهاه فالعسعة والعساس رقة الظلام وذلك في طرفي الليل . انتهى والأنسب لاتصال الجملة بقوله : « والصبح إذا تنفس » أن يراد بها إدبار الليل .

وقيل : المراد بها إقبال الليل : وهو بعيد لما عرفت .

قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس » عطف على الخنس ، و « إذا تنفس » قيد للصبح ، وعد الصبح متنفساً بسبب انبساط ضوئه على الأفق ودفعه الظلمة التي غشيت نوع من الاستعارة بتشبيه الصبح وقد طلع بعد غشيان الظلام الآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقة ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه وتنفس فعد

إضاءته للأفق تنفساً منه كذا يستفاد من بعضهم .

وذكر الزمخشريّ فيه وجهاً آخر فقال في الكشف : فإن قلت : ما معنى تنفس الصبح ؟ قلت : إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز . انتهى والوجه المتقدم أقرب إلى الذهن .

قوله تعالى : « إنّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين » جواب القسم ، وضمير « إنّه » للقرآن أو لما تقدّم من آيات السورة بما أنّها قرآن بدليل قوله : « لقول رسول » النخ والمراد بالرسول جبريل كما قال تعالى : « من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ .

وفي إضافة القول إليه بما أنّه رسول دلالة على أنّ القول لله سبحانه ، ونسبته إلى جبريل نسبة الرسالة إلى الرسول وقد وصفه الله بصفات ستّ مدحه بها .

فقوله : « رسول » يدلّ على رسالته وإلقائه وحي القرآن إلى النبيّ ﷺ ، وقوله : « كريم » أي ذي كرامة وعزّة عند الله بإعزازه ، وقوله : « ذي قوة » أي ذي قدرة وشدة بالغة ، وقوله : « عند ذي العرش مكين » أي صاحب مكانة عند الله والمكانة القرب والمنزلة ، وقوله : « مطاع ثمّ » أي مطاع عند الله فهناك ملائكة يأمرهم فيطيعونه ، ومن هنا يظهر أنّ له أعواناً من الملائكة يأمرهم فيأتمرون بأمره ، وقوله : « أمين » أي لا يخون فيما أمر به يبلغ ما حمّله من الوحي والرسالة من غير أيّ تصرف فيه .

وقيل : المراد بالرسول الجاري عليه الصفات هو النبيّ ﷺ ، وهو كما ترى ولا تلائم الآيات التالية .

قوله تعالى : « وما صاحبكم بمجنون » عطف على قوله : « إنّه لقول » النخ وردّ لرميهم له ﷺ بالجنون .

وفي التعبير عنه ﷺ بقوله : « صاحبكم » تكذيب لهم في رميهم له بالجنون وتنزيهه لساحته - كما قيل - فيه إيماء إلى أنّه صاحبكم لبث بينكم معاشراً لكم

طول عمره وأنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل ورزاقه من الرأي وصدق من القول ومن هذه صفته لا يرمى بالجنون .

وتوصيف جبريل بما مر من صفات المدح دون النبي ﷺ لا دلالة فيه على أفضليته من النبي ﷺ لأن الكلام مسوق لبيان أن القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبي ﷺ من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بالقاء من شيطان والذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال وتجليل المنزل - اسم فاعل - بذكر أوصافه الكريمة والمبالغة في تنزيهه عن الخطاء والخيانة ، وأما المنزل عليه فلا يتعلق به غرض إلا بمقدار الإشارة إلى دفع ما يرتاب فيه من صفته وقد أفيد بنفي الجنون الذي رموه به والتعبير عنه بقوله : «صاحبكم» كما تقدم توضيحه، كذا قيل .

و في مطاوي كلامه تعالى من نعوت النبي ﷺ الكريمة ما لا يرتاب معه في أفضليته ﷺ على جميع الملائكة ، وقد أسجد الله الملائكة كلهم أجمعين للإمام الذي هو خليفته في الأرض .

قوله تعالى : «و لقد رآه بالآفق المبين» ضمير الفاعل في «رآه» للصاحب و ضمير المفعول للرسول الكريم وهو جبريل .
و الآفق المبين الناحية الظاهرة ، و الظاهر أنه الذي أشار إليه بقوله : «و هو بالآفق الأعلى» النجم : ٧ .

و المعنى و أقسم لقد رأى النبي ﷺ جبريل حالكون جبريل كائنًا في الآفق المبين وهو الآفق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة .

وقيل: المعنى لقد رأى ﷺ جبريل على صورته الأصلية حيث تطلع الشمس و هو الآفق الأعلى من ناحية المشرق .

وفيه أن لادليل من اللفظ يدل عليه وخاصة في تعلق الرؤية بصورته الأصلية ورؤيته في أي مثال تمثل به رؤيته ، و كأنه مأخوذ مما ورد في بعض الروايات أنه

رآه في أول البعثة و هو بين السماء و الأرض جالس على كرسيّ ، و هو محمول على التمثل .

قوله تعالى : «وما هو على الغيب بضنين» الضمير للنبي ﷺ ، والمراد بالغيب الوحي النازل عليه ، والضنين صفة مشبهة من الضنّ بمعنى البخل يعني أنه ﷺ لا يبخل بشيء مما يوحى إليه فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيره بتبديل بعضه أو كله شيئاً آخر بل يعلم الناس كما علمه الله و يبلغهم ما أمر بتبليغه .

قوله تعالى : « و ما هو بقول شيطان رجيم » نفى لاستناد القرآن إلى إلقاء شيطان بما هو أعمّ من طريق الجنون فإنّ الشيطان بمعنى الشرير و الشيطان الرجيم كما أطلق في كلامه تعالى على إبليس و ذرّيته كذلك أطلق على أشرار سائر الجنّ قال تعالى : «قال فاخرج منها فإنّك رجيم» ص : ٧٧ ، وقال : «و حفظناها من كلّ شيطان رجيم» الحجر : ١٧ .

فالمعنى أنّ القرآن ليس بتسويل من إبليس و جنوده ولا بإلقاء من أشرار الجنّ كما يلقونه على المجانين .

قوله تعالى : «فأين تذهبون» أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدّمة ما هو الحقّ في أمر القرآن دافعاً عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائي به من الجنون و غيره على إيجاز متون الآيات فيبين أنّ الله واثكّاء هذه الحقيقة على آيات التحدّي ، و ثانياً أنّ نزوله برسالة ملك سماويّ جليل القدر عظيم المنزلة و هو أمين الوحي جبريل لاحاجز بينه و بين الله و لا بينه و بين النبي ﷺ ، ولا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه و لا حفظه و لا تبليغه ، و ثالثاً أنّ الذي أنزل عليه و هو يتلوه لكم و هو صاحبكم الذي لا يخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به و قد رأى الملك الحامل للوحي و أخذ عنه و ليس بكانم لما يوحى إليه و لا بمغيّر ، و رابعاً أنّه ليس بتسويل من إبليس و جنوده و لا بإلقاء من بعض أشرار الجنّ .

و نتيجة هذا البيان أنّ القرآن كتاب هدى يهتدي به من أراد الاستقامة على

الحقّ و هو قوله : « إنّ هو إلّا ذكر للعالمين » الخ .

فقوله : « فأين تذهبون » توطئة وتمهيد لذكر نتيجة البيان السابق ، وهو استئلال لهم فيما يرونه في أمر القرآن الكريم أنّه من طواري الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة .

فلاستفهام في الآية توبيخيّ والمعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون و تتركون الحقّ وراءكم ؟

قوله تعالى : « إنّ هو إلّا ذكر للعالمين » أي تذكرة لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصّروا للحقّ ، و قد تقدّم بعض الكلام في نظيرة الآية .
قوله تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم » بدل من قوله : « للعالمين » مسوق لبيان أنّ فعليّة الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاؤا الاستقامة على الحقّ و هو التلبّس بالثبات على العبوديّة و الطاعة .

قوله تعالى : « وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله ربّ العالمين » تقدّم الكلام في معناه في نظائر الآية .

و الآية بحسب ما يفيد السباق في معنى دفع الدخل فإنّ من الممكن أن يتوهّموا من قوله : « لمن شاء منكم أن يستقيم » أنّ لهم الاستقلال في مشيئة الاستقامة إن شاؤا استقاموا و إن لم يشاؤا لم يستقيموا ، فلكلّ إليهم حاجة في الاستقامة التي يريدونها منهم .

فدفع ذلك بأنّ مشيئتهم متوقفة على مشيئة الله سبحانه فلا يشاؤون الاستقامة إلّا أن يشاء الله أن يشاؤها ، فأفعال الإنسان الإرادية مرادة لله تعالى من طريق إرادته وهو أن يريد الله أن يفعل الإنسان فعلاً كذا وكذا عن إرادته .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور والفاريابيّ وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه من طرق عن عليّ في قوله : « فلا أقسم بالخنس » قال : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى .

وفي تفسير القمّي في قوله : « فلا أقسم بالخنس » قال : أي واقسم بالخنس وهو اسم النجوم . « الجوار الكنس » قال : النجوم تكنس بالنهار فلا تبين .

وفي المجمع « بالخنس » وهي النجوم تخنس بالنهار وتبدو بالليل « والجوار » صفة لها لأنها تجري في أفلاكها « الكنس » من صفتها أيضاً لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كناسها . وهي خمسة أنجم : زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد عن عليّ « والليل إذا عسعس » أي إذا أدبر بظلامه عن عليّ .

وفي تفسير القمّي « والليل إذا عسعس » قال : إذا أظلم و « الصبح إذا تنفس » قال : إذا ارتفع .

وفي الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرّة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ما أحسن ما أثنى عليك ربك : ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين فما كانت قوّةك ؟ وما كانت أمانتك ؟

قال : أمّا قوّتي فأنّي بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن ، وفي كلّ مدينة أربع مائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتّى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب ثمّ هويت بهم فقتلتهم ، وأمّا أمانتي فلم أؤمر بشيء فعُدوته إلى غيره .

اقول : والرواية لا تخلو من شيء وقد ضعفوا ابن عساكر وخاصة فيما نقرّ دبه .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قال في كلّ يوم من شعبان سبعين

مرّة : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. كَتَبَ فِي الْأَفْقِ الْمُبِينِ . قَالَ : قُلْتُ : وَمَا الْأَفْقُ الْمُبِينُ ؟ قَالَ : قَاعٌ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ فِيهِ أَنْهَارٌ تَطْرُدُ فِيهِ مِنَ الْقَدْحَانِ عَدَدُ النُّجُومِ .

وفي تفسير القمّي في حديث أسنده إلى أبي عبد الله عليه السلام قوله : « وما هو بقول شيطان رجيم » قال : يعني الكهنة الذين كانوا في قريش فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الذين كانوا معهم يتكلمون على ألسنتهم فقال : « وما هو بقول شيطان رجيم » مثل أولئك .

﴿ سورة الانفطار مكيّة وهي تسع عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ
 انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ
 نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)
 الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّيكَ فَعَدَدَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)
 كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)
 يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي
 جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الذِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)
 وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ (١٨)
 يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) .

﴿ بيان ﴾

تحدثُ السورة يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمة له المتصلة به وتصفه بما يقع فيه وهو ذكر الانسان ما قدّم وما أخر من أعماله الحسنة والسيئة - على أنها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكلين عليه - جزاءه بعمله إن كان برّاً فبنعيم وإن كان فاجراً مكذباً بيوم الدين فبجحيم يصلّاها مغلداً فيها .
 ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، وهي من غرر الآيات ، والسورة مكيّة بلا كلام .

قوله تعالى : « إذا السماء انفطرت ، الفطر الشقّ والانفطار الانشقاق والآية كقوله : « وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية » الحاقة : ١٦ .

قوله تعالى : « وإذا الكواكب انتثرت » أي تفرّقت بتركها مواضعها التي ركزت فيها شبّهت الكواكب بلآ لي منظومة قطع سلكها فانثرت وتفرّقت .

قوله تعالى : « وإذا البحار فجّرت » قال في المجمع : التفجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض على الكثير ، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب ، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء . انتهى . وإليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتّى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً ، وهذا المعنى يناسب تفسير قوله : « وإذا البحار سجّرت » التكوير : ٦ بامتلاء البحار .

قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت » قال في المجمع بعثرت الحوض وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه ، والبعثرة والبعثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره . انتهى ، فالمعنى وإذا قلب تراب القبور وأثير باطنها إلى ظاهرها لإخراج الموتى وبعثهم للجزاء .

قوله تعالى : « علمت نفس ما قدّمت وأخّرت » المراد بالعلم علمها التفصيلي بأعمالها التي عملتها في الدنيا ، وهذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » القيامة : ١٥ وقوله : « يوم يتذكّر الإنسان ما سعى » النازعات : ٣٥ ، وقوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

و المراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول ، والمراد بما قدّمت وما أخّرت هو ما قدّمته ممّا عملته في حياتها ، و بما أخّرت ما سنته من سنّة حسنة أو سيئة فعملت بها بعد موتها فتكتب في صحيفة عملها قال تعالى : « ونكتب ما قدّموا وآثارهم » يس : ١٢ .

و قيل : المراد بما قدّمت وأخّرت ما عملته في أوّل العمر و ما عملته في آخره فيكون كناية عن الاستقصاء .

و قيل في معنى التقديم و التأخير وجوه أخر لا يعابها مذكورة في مطوّلات التفسير من أراد الوقوف عليها فليراجعها .
و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيّب » الأنفال : ٣٧ ، كلام لا يخلو من نفع ههنا .

قوله تعالى : « يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم - إلى قوله - ربّك »
عتاب و توبيخ للإنسان ، و المراد بهذا الإنسان المكذّب ليوم الدين - على ما يفيدّه السياق المشتمل على قوله : « بل تكذّبون بيوم الدين » وفي تكذيب يوم الدين كفر وإنكار لتشريع الدين و في إنكاره إنكار لربوبيّة الربّ تعالى ، و إنّما وجه الخطاب إليه بما أنّه إنسان ليكون حجة أو كالحجة لثبوت الخصال التي يذكرها من نعمه عليه المختصة من حيث المجموع بالإنسان .

و قد علّق الفرور بصفتي ربوبيّته و كرمه تعالى ليكون ذلك حجة في توجّه العتاب و التوبيخ فإنّ تمرّد المربوب و توغّله في معصية ربّه الذي يدبّر أمره و يغشيه نعمه ظاهرة و باطنة كفران لآثر تاب الفطرة السليمة في قبحه و لا في استحقاق العقاب عليه و خاصّة إذا كان الربّ المنعم كريماً لا يريد في نعمه و عطاياه نفعاً ينتفع به و لا عوضاً يقابله به المنعم عليه ، و يسامح في إحسانه و يصفح عمّا يأتي به المربوب من الخطيئة و الإثم بجهالة فإنّ الكفران حينئذ أقبح و أقبح و توجّه الذمّ و اللائمة أشدّ و أوضح .

فقوله تعالى : « يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم » استفهام توبيخيّ يوبّخ الإنسان بكفران خاصّ لا عذر له يعتذر به عنه و هو كفران نعمة ربّ كريم .
وليس للإنسان أن يجيب فيقول : أي ربّ غرّني كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى وبلغه بلسان أنبيائه : « لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي

لشديد « إبراهيم : ٧ ، وقال : « فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى » النازعات : ٣٩ إلى غير ذلك من الآيات الناصّة في أن لا مخلص للمعاندن من العذاب وأنّ الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال : « ورحتي وسعت كلّ شيء فسأكتبها للذين يتّقون » الأعراف : ١٥٦ .

ولو كفى الإنسان العاصي قوله : « غرّني كرمك » لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي ، ولا عذر بعد البيان .
ومن هنا يظهر أن لا محلّ لقول بعضهم : إنّ توصيف الربّ بالكريم من قبيل تلقين الحجّة وهو من الكرم أيضاً .

كيف ؟ والسياق سياق الوعيد والكلام ينتهي إلى مثل قوله : « وإنّ الفجّار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين » .

وقوله : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » بيان لربوبيّته المتلبّسة بالكرم فإنّ من تديره خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده ثمّ تسويته بوضع كلّ عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثمّ عدله بعدل بعض أعضائه وقواه ببعض يجعل التوازن والتعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتمّ به فعله كما أنّ الأكل مثلاً بالالتقام وهو للفم ، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها فيتمّ ذلك بمختلف الأسنان ، ويحتاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب من الفم إلى آخر وقلبها من حال إلى حال فجعل ذلك للسان ثمّ الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه فتوصّل إلى ذلك باليد وتمّم عملها بالكفّ وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها وعملها بالأُتْمَل ، وتحتاج اليد في الأخذ والوضع إلى الانتقال المكانيّ نحو الغذاء وعدل ذلك بالرجل .

وعلى هذا القياس في أعمال سائر الجوارح والقوى وهي ألوف وألوف لا يحصيها العدّ ، والكلّ من تديره تعالى وهو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعاً لنفسه ومن غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الإنسان من نسيان الشكر وكفران النعمة فهو تعالى ربّه الكريم .

وقوله : « في أي صورة ما شاء ربك » بيان لقوله : « عدلك » ولذا لم يعطف على ما تقدمه والصورة ما ينتقش به الأعيان ويتميز به الشيء من غيره و « ما » زائدة للتأكيد .

والمعنى في أي صورة شاء أن يركبك - ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة - ركبك من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم وقوي وضعيف إلى غير ذلك وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميّزة لها من غيرها كاليدنين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » التين : ٤ والجميع ينتهي إلى تدبير الرب الكريم لاصنع للإنسان في شيء من ذلك . قوله تعالى : « كلاً بل تكذبون بالدين » « كلاً » ردع عن اغترار الإنسان بكرم الله وجعل ذلك ذريعة إلى الكفر والمعصية أي لا تغترّوا فلا ينفعكم الاغترار . وقوله : « بل تكذبون بالدين » أي بالجزاء . إضراب عما يفهم من قوله : « ما غرّك ربك الكريم » من غرور الإنسان بربه الكريم على اعتراف منه ولو بالقوة بالجزاء لقضاء الفطرة السليمة به .

فاذعائب الإنسان ووبخه على غروره بربه الكريم واجترائه على الكفران والمعصية من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطباً للإنسان وكل من يشاركه في كفره ومعصيته فقال : بل أنت ومن حاله حالك تكذبون بيوم الدين والجزاء فتجحدونه ملحين عليه .

قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » إشارة إلى أن أعمال الإنسان حاضرة محفوظة يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للإنسان العامل لها من طريق الذكر وذلك حفظها بكتابة كتّاب الأعمال من الملائكة الموكّلين بالإنسان فيحاسب عليها كما قال تعالى : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » أسرى : ١٤ .

فقوله : « وإن عليكم لحافظين » أي إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون

أعمالكم بالكتابة كما يفيد السياق .

وقوله : « كراماً كاتبين » أي أولي كرامة وعزّة عند الله تعالى وقد تكرر في القرآن الكريم وصف الملائكة بالكرامة ولا يبعد أن يكون المراد به بإعانة من السياق كونهم بحسب الخلقة مصوتين عن الإثم والمعصية مفطورين على العصمة ، ويؤيّد قوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٦ حيث دلّ على أنهم لا يريدون إلّا ما أراد الله ولا يفعلون إلّا ما أمرهم به ، وكذا قوله : « كرام بررة » عبس : ١٦ .

والمراد بالكتابة في قوله : « كاتبين » كتابة الأعمال بقرينة قوله : « يعملون ما تفعلون » وقد تقدّم في تفسير قوله : « إنّنا كنّا ننسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ كلام في معنى كتابة الأعمال فليراجع من شاء .

وقوله : « يعملون ما تفعلون » نفي لخطأهم في تشخيص الخير والشر وتمييز الحسنة والسيئة كما أنّ الآية السابقة متضمنة لتنزيههم عن الإثم والمعصية فهم محيطون بالأفعال على ما هي عليه من الصفة وحافظون لها على ما هي عليه .

ولانعين في هذه الآيات لعدّة هؤلاء الملائكة الموكّلين على كتابة أعمال الإنسان نعم المستفاد من قوله تعالى : « إذ يتلقّى الملقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » ق : ١٧ أنّ على كلّ إنسان منهم اثنين عن يمينه وشماله ، وقد ورد في الروايات الماثورة أنّ الذي على اليمين كاتب الحسنات والذي على الشمال كاتب السيئات .

وورد أيضاً في تفسير قوله : « إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً » أسرى : ٧٨ أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالة على أنّ كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس وينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتّى إذا طلع الفجر صعدوا ونزل ملائكة النهار وهكذا .

وفي الآية أعني قوله : « يعملون ما تفعلون » دلالة على أنّ الكتبة عالمون بالنيّات إذ لا طريق إلى العلم بخصوصيّات الأفعال وعناوينها وكونها خيراً أو شراً أو حسنة أو سيئة إلّا العلم بالنيّات فعلمهم بالأفعال لا يتمّ إلّا عن العلم بالنيّات .

قوله تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » استئناف مبين لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتب وظهورها يوم القيامة .

و الأبرار هم المحسنون عملاً ، و الفجار هم المنمقرون بالذنوب والظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن في النار ، وفي تنكير «نعيم» و«جحيم» إشعار بالتفخيم و التهويل - كما قيل - .

قوله تعالى : « يصلونها يوم الدين » الضمير للجحيم أي يلزمون يعني الفجار الجحيم يوم الجزاء ولا يفارقونها .

قوله تعالى : « وما هم عنها بغائبين » عطف تفسيري على قوله : « يصلونها » الخ يؤكّد معنى ملازمتهم للجحيم وخلودهم في النار ، و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية في معنى قوله : «وما هم بخارجين من النار» البقرة : ١٦٧ .

قوله تعالى : « و ما أدراك ما يوم الدين » تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين ، و المعنى لا تحيط علماً بحقيقة يوم الدين و هذا التعبير كناية عن فخامة أمر الشيء و علوّه من أن يناله وصف الواصف ، و في إظهار اليوم - و المحلّ محلّ الضمير - تأكيد لأمر التفخيم .

قوله تعالى : « ثمّ ما أدراك ما يوم الدين » في تكرار الجملة تأكيد للتفخيم .
قوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » الظرف منصوب بتقدير اذكر ونحوه ، و في الآية بيان إجمالي لحقيقة يوم الدين بعد ما في قوله : «وما أدراك ما يوم الدين» من البحث على معرفته .

و ذلك أن رابطة التأثير و التأثير بين الأسباب الظاهرية ومسبباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى : « وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ ، و قوله : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً » البقرة : ١٦٥ فلا تملك نفس لنفس شيئاً فلا تقدر على دفع شرّها ولا جلب خير لها ، و لا ينافي ذلك آيات الشفاعة لأنّها باذن الله فهو المالك لها لا غير .

وقوله : « و الأمر يومئذ لله » أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء .

والمراد بالأمركما قيل واحداً وأمر لقوله تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ وشأن الملك المطاع الأمر بالنعنى المقابل للنهى ، والأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلك الملاءمة .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت » قال : تنشقّ فتخرج الناس منها .

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصحّحه عن حذيفة قال : قال النبي ﷺ من استنّ خيراً فاستنّ به فله أجره ومثلاً جور من اتّبعه غير منتقص من أجورهم ومن استنّ شراً فاستنّ به فله وزره ومثلاً أوزار من اتّبعه غير منتقص من أوزارهم ، وتلاحذيفة « علمت نفس ما قدّمت وأخّرت » .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال : بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية « يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم » ثمّ قال : جهله . وفي تفسير القميّ « في أيّ صورة ما شاء ربّك » قال : لو شاء ربّك على غير هذه الصورة .

أقول : و رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام مرسل .

وفيه « وإنّ عليكم لحافظين » قال : الملكان الموكّلان بالإنسان . وعن سعد السعود وفي رواية أنّهما - يعني الملكين الموكّلين - يأتیان المؤمن عند حضور صلاة الفجر فإذا هبطا صعد الملكان الموكّلان بالليل فإذا غربت الشمس نزل إليهما الموكّلان بكتابة الليل ، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عزّ وجلّ .

فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله فإذا حضر أجله قال للرجل الصالح : جزاك الله من صاحب عنّا خيراً فكم من عمل صالح أرى تناء : و كم من قول حسن أسمع تناء ، و كم من مجلس خير أحضر تناء فنحن اليوم على ما نحبّه و شفعا إلى

ربك ، و إن كان عاصياً قالاله : جزاك الله من صاحب عنا شراً فلقد كنت تؤذينا فكم
من عمل سيئ أريتناه ، وكم من قول سيئ أسمعناه ، و [كم] ظ من مجلس سوء أحضر تناه
و نحن اليوم لك على ما تكره ، وشهيدان عند ربك .

و في المجمع في قوله تعالى : «والأمر يومئذ لله» روى عمرو بن شعمر عن جابر
عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : الأمر يومئذ و اليوم كله لله . يا جابر إذا كان يوم القيامة
بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله .

أقول : مراده عليه السلام أن كون الأمر لله لا يختص بيوم القيامة بل الأمر لله دائماً ،
و تخصيصه بيوم القيامة باعتبار ظهوره لا باعتبار أصله فالذي يختص به ظهور هذه الحقيقة
ظهور عيان فيسقط اليوم أمر غيره تعالى وحكمه ، و نظير الأمر سائر ما عد في كلامه
تعالى من مختصات يوم القيامة ؛ فالرواية من غرر الروايات .

﴿سورة المطففين مكية أو مدنية وهي ست وثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ (٧) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ (١١) وَ مَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ (١٨) وَ مَا أَدْرِيكَ مَا عَلَيْونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

﴿بيان﴾

تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل و الوزن و تنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم و هو يوم القيامة ثم تتخلص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجار و الأبرار .

والأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون أوّل السورة المشتمل على وعيد المطففين نازلاً بالمدينة وأماما يتلوه من الآيات إلى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكيّة والمدنيّة .

قوله تعالى : « ويل للمطففين » دعاء على المطففين و التطفيف نقص المكيال و الميزان ، و قد نهى الله تعالى عنه و سمّاه إفساداً في الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب : « ويا قوم اوفوا المكيال و الميزان بالقسط و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين » هود : ٨٤ ، و قد تقدّم الكلام في تفسير الآية في معنى كونه إفساداً في الأرض .

قوله تعالى : « الذين إذا اكْتالوا على الناس يستوفون و إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل ، و تعديته بعلی لا إفادة معنى الضرر ، و الكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال : كاله طعامه و وزنه و كال له طعامه و وزن له و الأوّل لغة أهل الحجاز و عليه التمزيل و الثاني لغة غيرهم كما في المجموع ، و الاستيفاء أخذ الحقّ تاماً كاملاً ، و الإخسار الإيقاع في الخسارة .

و المعنى الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقّهم تاماً كاملاً ، و إذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم في الخسران .

فمضمون الآيتين جميعاً أنّ واحد وهو أنّهم يراعون الحقّ لأنفسهم و لا يراعونه لغيرهم و بعبارة أخرى لا يراعون لغيرهم من الحقّ مثل ما يراعونه لأنفسهم و فيد إفساد الاجتماع الإنسانيّ المبنيّ على تعادل الحقوق المتقابلة و في إفساده كلّ الفساد . و لم يذكر الاتزان مع الاكتيال كما ذكر الوزن مع الكيل إذ قال : « و إذا كالوهم أو وزنوهم » قيل : لأنّ المطففين كانوا باعة و هم كانوا في الأغلب يشترون الكثير من الحبوب و البقول و نحوهما من الأمتعة ثمّ يكسبون بها فيبيعونها يسيراً يسيراً تدريجاً ، و كان دأبهم في الكثير من هذه الأمتعة أن يؤخذ و يعطى بالكيل لا بالوزن فذكر الاكتيال وحده في الآية مبنيّ على الغالب .

و قيل : لم يذكر الاتزان لأنّ الكيل و الوزن بهما البيع و الشراء فذكر

أحدهما يدلّ على الآخر . وفيه أنّ ما ذكر في الاكتيال جار في الكيل أيضاً وقد ذكر معه الوزن فالوجه لا يخلو من تحكّم .

وقيل : الآيتان تحاكيان ما كان عليه دأب الذين نزلت فيهم السورة فقد كانوا يشترون بالاكتيال فقط و يبيعون بالكيل و الوزن جميعاً ، و هذا الوجه دعوى من غير دليل .

إلى غير ذلك ممّا ذكره في توجيه الاختصار على ذكر الاكتيال في الآية ، و لا يخلو شيء منها من ضعف .

قوله تعالى : « أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » الاستفهام للإِنكار و التعجيب ، و الظنّ بمعناه المعروف و الإشارة إلى المطففين بأُولئِكَ الموضوعة للإشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله ، و اليوم العظيم يوم القيامة الذي يجازون فيه بعملهم .

و الاكتفاء بظنّ البعث و حساباته - مع أنّ من الواجب الاعتقاد العلميّ بالمعاد - لأنّ مجرد حسابان الخطر و الضرر في عمل يوجب التجنّب عنه و التحرّز عن اقترافه و إنّ لم يكن هناك علم فالظنّ بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذي يستتبع العذاب الأليم .

و قيل : الظنّ في الآية بمعنى العلم .

قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » المراد به قيامهم من قبورهم - كناية عن تلبّسهم بالحياة بعد الممات - لحكمه تعالى و قضائه بينهم .

قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينَ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينَ كِتَابَ مَرْقُومٍ وَ بِلَ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » ردع - كما قيل - عمّا كانوا عليه من التطفيف و الغفلة عن البعث و الحساب .

و قوله : « إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينَ » النّح الذي يعطيه التدبّر في سياق

الآيات الأربع بقياس بعضها إلى بعض وقياس المجموع إلى مجموع قوله : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي عِلِّيِّينَ » إلى تمام أربع آيات أن المراد بسجّين ما يقابل عليّين ومعناه علو على علو مضاعف ففيه شيء من معنى السفلى والانحباس فيه كما يشير إليه قوله : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » التين : ٥ فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكّير و شرب من السكر والشرب فمعناه الذي يحبس من دخله على التخليد كما قيل .

و الكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم والمراد بكتاب الفجّار ما قدّره الله لهم من الجزاء وأثبتته بقضائه المحتوم .
فمحصل الآية أن الذي أثبتّه الله من جزائهم أو عدّه لهم لفي سجّين الذي هو سجن يحبس من دخله حبساً طويلاً أو خالداً .
و قوله : « و ما أدراك ما سجّين » مسوق للتهويل .

و قوله : « كتاب مرقوم » خبر لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى سجّين و الجملة بيان لسجّين و « كتاب » أيضاً بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء و الإثبات ، و « مرقوم » من الرقم قال الراغب : الرقم الخطّ الغليظ ، و قيل : هو تعجيم الكتاب ، و قوله تعالى : « كتاب مرقوم » حمل على الوجهين . انتهى ، والمعنى الثاني أنسب للمقام فيكون إشارة إلى كون ما كتب لهم متبيّناً لا إبهام فيه أي إن القضاء حتم لا يتخلف .

و المحصل أن سجّين مقضيّ عليهم مثبت لهم متبيّن متميّز لا إبهام فيه .
ولا ضير في لزوم كون الكتاب ظرفاً للكتاب على هذا المعنى لأنّ ذلك من ظرفية الكلّ للجزء و هي ممّا لا ضير فيه فيكون سجّين كتاباً جامعاً فيه ما قضي على الفجّار و غيرهم من مستحقّي العذاب .

و قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » نعي و دعاء على الفجّار و فيه تفسيرهم بالمكذّبين ، و « يومئذ » ظرف لقوله : « إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين » بحسب

المعنى أي ليهلك الفجّار .. وهم المكذّبون - يومئذ تحقق ما كتب الله لهم وقضى عليهم من الجزاء وحلّ بهم ما أعدّ لهم من العذاب .
هذا ما يفيد التدبّر في هذه الآيات الأربع ، وهي ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء .

و للقوم في تفسير مفردات الآيات الأربع و جملها أقوال متفرقة كقولهم : « إن الكتاب في قوله : » « إن كتاب الفجّار » بمعنى المكتوب و المراد به صحيفة أعمالهم ، و قيل : مصدر بمعنى الكتابة وفي الكلام مضاف محذوف و التقدير كتابة عمل الفجّار لفي سجين .

و قولهم : « إن الفجّار أعمّ من المكذّبين فيشمل الكفّار و الفسقة جميعاً .
و قولهم : « إن المراد بسجين الأرض السابعة السفلى يوضع فيها كتاب الفجّار و قيل : واد في جهنّم ، و قيل : جبّ فيها ، و قيل : سجين اسم لكتابهم ، و قيل : سجين الأوّل اسم الموضع الذي يوضع فيه كتابهم و الثاني اسم كتابهم ، و قيل : هو اسم كتاب جامع هو ديوان الشرّ دوّن فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، و قيل : المراد به الخسار و الهوان فهو كقولهم : بلغ فلان انحضيض إذا صار في غاية الخمول ، و قيل : هو السجين بدّل لاهه نونا كما يقال جبرين في جبريل إلى غير ذلك ممّا قيل .
و قولهم : « إن قوله : » « كتاب مرقوم » ليس بياناً و تفسيراً لسجين بل تفسير للكتاب المذكور في قوله : « إن كتاب الفجّار » .

و قولهم : « إن قوله : » « ويل يومئذ للمكذّبين » متصل بقوله : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين » و الآيات الثلاث الواقعة بين الآيتين اعتراض .
و أنت إن تأملت هذه الأقاويل وجدت كثير أمنها تحكماً محضاً لا دليل عليه .
على أنّها تقطع ما في الآيات من السياق الواحد المتصل الذي يحاذي به ما في الآيات الأربع الآتية في صفة كتاب الأبرار من السياق الواحد المتصل فلا تطيل الكلام بالتعرّض لواحد واحد منها و المناقشة فيها .

قوله تعالى: « الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ » تفسير للمكذِّبين و ظاهر الآية .. و يؤيده الآيات التالية - أن المراد بالكذب هو التكذيب القولي الصريح فيختصّ الذمّ بالكفّار ولا يشمل الفسقة من أهل الإيمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفّار منهم .

اللهم إلا أن يراد بالتكذيب ما يعمّ التكذيب العملي كما ربّما أيده قوله السابق : « أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » فيشمل الفجّار من المؤمنين كالكفّار .
قوله تعالى: « و ما يكذبُ به إلا كلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ » المعتدي اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز و المراد به المتجاوز عن حدود العبوديّة ، و الأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهماكد في الأهواء .

و من المعلوم أن المانع الوحيد الذي يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث و الجزاء ، و المنهمك في الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء و الإثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها و التزهد عن المعاصي و ينتهي إلى تكذيب البعث و الجزاء قال تعالى : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُا السَّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ » الروم : ١٠ .

قوله تعالى: « إِذَا تَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » المراد بالآيات آيات القرآن بقرينة قوله : « تَلَى » و الأساطير ما سطره و كتبوه و المراد بها أباطيل الأمم الماضين و المعنى إذا تلى عليه آيات القرآن ممّا يحذّرهم المعصية و ينذّرهم بالبعث و الجزاء قال : هي أباطيل .

قوله تعالى: « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ردع عمّا قاله المكذّبون : « أساطير الأوّلين » قال الراغب : الرين صدأ يعلو الشيء الجليل ^(١) قال تعالى : « بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أي صار ذلك كصدء على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشرّ . انتهى . فكون ما كانوا يكسبون و هو الذنوب ريناً على

قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم و بين أن يدركوا الحق على ما هو عليه .
و يظهر من الآية :

أولاً أنّ للأعمال السيئة نقوشاً و صوراً في النفس تنتقش و تصوّر بها .
و ثانياً أنّ هذه النقوش و الصور تمنع النفس أن تدرك الحقّ كما هو و تحول
بينها و بينه .

و ثالثاً أنّ للنفس بحسب طبعها الأولي صفاء و جلاء تدرك به الحقّ كما
هو و تميّز بينه و بين الباطل و تفرّق بين التقوى و الفجور قال تعالى : « و نفس و
ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ .

قوله تعالى : « كلاًّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ردع عن كسب الذنوب
الحائلة بين القلب و إدراك الحقّ ، و المراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة
حرمانهم من كرامة القرب و المنزلة و لعلّه مراد من قال : إنّ المراد كونهم محجوبين
عن رحمة ربهم .

و أمّا ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسّطة بينه تعالى و بين خلقه
و المعرفة التامة به تعالى فهو حاصل لكلّ أحد قال تعالى : « لمن الملك اليوم لله
الواحد القهار » المؤمن : ١٦ و قال : « و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين »
النور : ٢٥ .

قوله تعالى : « ثمّ إنهم لصالوا الجحيم » أي داخلون فيها ملازمون لها أو
مقاسون حرّها على ما فسّره بعضهم و « ثمّ » في الآية و ما بعدها للتراخي بحسب
رتبة الكلام .

قوله تعالى : « ثمّ يقال هذا الذي كنتم به تكذّبون » هو توبيخ و تفرّيع ،
و القائل خزنة النار أو أهل الجنة .

قوله تعالى : « كلاًّ إنّ كتاب الأبرار لفي عليّين و ما أدراك ما عليّون
كتاب مرقوم » ردع في معنى الردع الذي في قوله : « كلاًّ إنّ كتاب الفجار » و

عليّون - كما تقدّم - علو على علو مضاعف ، وينطبق على الدرجات العالية ومنازل القرب من الله تعالى كما أنّ السجّين بخلافه .

و الكلام في معنى الآيات الثلاث نظير الكلام في الآيات الثلاث المتقدمة التي تحاذيها من قوله : « إنّ كتاب الفجر لفى سجّين و ما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم » .

فالمنعنى أنّ الذي كتب للأبرار وقضى جزاء لبرّهم لفى عليّين و ما أدراك ما عليّون هو أمر مكتوب و مقضى قضاءً حتماً لازماً متبيّن لا إبهام فيه .

و للقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال غير أنّ من أقوالهم في عليّين أنّه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين ، و قيل سدة المنتهى التي إليها تنتهي الأعمال ، و قيل : لوح من زبرجدة تحت العرش معلق مكتوب فيه أعمالهم ، و قيل : هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة ، و الكلام فيها كالكلام فيما تقدّم من أقوالهم .

قوله تعالى : « يشهده المقرّبون » الأنسب لما تقدّم من معنى الآيات السابقة أن يكون « يشهده » من الشهود بمعنى المعاينة و المقرّبون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامّة الأبرار على ما سيأتى استفادته من قوله : « عينا يشرب بها المقرّبون » فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إياه لهم وقد قال الله تعالى في مثله من أمر الجحيم : « كلاً لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم » التكاثر : ٦ و منه يظهر أنّ المقرّبين هم أهل اليقين .

و قيل : الشهادة هي الحضور و المقرّبون الملائكة ، و المراد حضور الملائكة على صحيفة عملهم إذا صعدوا بها إلى الله سبحانه .

و قيل : المقرّبون هم الأبرار والملائكة جميعاً .

و القولان مبنيان على أنّ المراد بالكتاب صحيفة الأعمال وقد تقدّم ضعفه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : نزلت يعني سورة المطففين على نبيّ الله صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوء الناس كيلاً فأحسنوا الكيل .

و في أصول الكافي بإسناده عن أبي حمزة الثماليّ قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : إنّ الله عزّ وجلّ خلقنا من أعلى عليّين و خلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا منه و خلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوى إلينا لأنّها خلقت ممّا خلقنا ثمّ تلا هذه الآية « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّينَ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ كِتَابَ مَرْقُومٍ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » .

و خلق قلوب عدوّنا من سجين و خلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم منه و أبدانهم من دون ذلك ، قلوبهم تهوى إليهم لأنّها خلقت ممّا خلقوا منه ثمّ تلا هذه الآية « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِّينَ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينَ كِتَابَ مَرْقُومٍ وَيْلَ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

أقول و روى مثله في أصول الكافي بطريق آخر عن الثماليّ عنه عليه السلام ، و رواه في علل الشرائع بإسناد فيه رفع عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام مثله ، و الأحاديث - كما ترى - تؤيد ما قدّمناه في معنى الآيات .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِّينَ » قال : ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : السجين الأرض السابعة و عليّون السماء السابعة .

أقول : الرواية لو صحّت مبنية على انتساب الجنة و النار إلى جهتي العلو و السفل بنوع من العناية و لذلك نظائر في الروايات كعدّ القبر روضة من رياض

الجنة أو حفرة من حفر النار وعدّ وادي برهوت مكاناً لجهنّم .

و في الدر المنثور أخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيّب قال : التقى سلمان و عبدالله بن سلام فقال أحدهما لصاحبه : إن متّ قبلي فالقني فأخبرني بما صنع ربك بك و إن أنا متّ قبلك لفيتك فأخبرتك فقال عبدالله : كيف يكون هذا ؟ قال : نعم إنّ أرواح المؤمنين تكون في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت و نفس الكافر في سجين والله أعلم .

و في أصول الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ما من عبد إلا و في قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد ، و إن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض فإذا غطّي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً و هو قول الله عزّ وجلّ : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

اقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) .

و فيه بإسناده عن عبدالله بن محمد الحجاجال عن بعض أصحابنا رفعه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : تذاكروا و تلاقوا و تحدّثوا فإنّ الحديث جلاء للمقلوب إنّ القلوب لتربن كما يربن السيف و جلاؤه الحديث .

و عن روضة الواعظين قال الباقر (عليه السلام) ما شيء أفسد للقلب من الخطيئة إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه و إن ازداد زادت فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .



إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقُونَ مِنْ رَحِمٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَ مِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَ مَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

﴿بيان﴾

بيان فيه بعض التفصيل اجلالة قدر الأبرار و عظم منزلتهم عند الله تعالى و غزارة عيشهم في الجنة ، و أنهم على كونهم يستهزئ بهم الكفار و يتغامزون بهم و يضحكون منهم سيضحكون منهم و ينظرون إلى ما ينالهم من العذاب .
قوله تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » النعيم النعمة الكثيرة و في تنكيره دلالة على فخامة قدره ، و المسمى إن الأبرار لفي نعمة كثيرة لا يحيط بها الوصف .
قوله تعالى : « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » الأرائك جمع أريكة و الأريكة السرير

في الجملة وهي البيت المزيّن للعروس وإطلاق قوله : « ينظرون » من غير تقييد يؤيد أن يكون المراد نظرهم إلى مناظر الجنة البهجة وما فيها من النعيم المقيم، وقيل : المراد به النظر إلى ما يجزى به الكفار وليس بذلك .

قوله تعالى : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » النضرة البهجة والرويق، و الخطاب للنبي ﷺ باعتبار أن له أن ينظر فيعرف فالحكم عام والمعنى كد من نظر إلى وجوههم يعرف فيها بهجة النعيم الذي هم فيه .

قوله تعالى : « يسقون من رحيق مختوم » الرحيق الشراب الصافي الخالص من الغش ، ويناسبه وصفه بأنه مختوم فإنه إنما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغش والخلط وإدخال ما يفسده فيه .

قوله تعالى : « ختامه مسك » وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » قيل : الختام بمعنى ما يختم به أي إن الذي يختم به مسك بدلاً من الطين ونحوه الذي يختم به في الدنيا ، وقيل : أي آخر طعمه الذي يجده شارب به رائحة المسك .

و قوله : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » التنافس التغالب على الشيء و يفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى : « ساقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ وقال : « فاستبقوا الخيرات » المائدة : ٤٨ ، ففيه ترغيب إلى ما وصف من الرحيق المختوم .

واستشكل في الآية بأن فيها دخول العاطف على العاطف إذ التقدير وفليتنافس في ذلك النخ .

وأجيب بأن الكلام على تقدير حرف الشرط والفاء واقعة في جوابه وقدّم الظرف ليكون عوضاً عن الشرط والتقدير وإن أريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون .

ويمكن أن يقال : إن قوله : « وفي ذلك » معطوف على ظرف آخر محذوف متعلق بقوله : « فليتنافس » يدل عليه المقام فإن الكلام في وصف نعيم الجنة فيفيد قوله : « وفي ذلك » ترغيباً مؤكداً بتخصيص الحكم بعد التعميم ، والمعنى فليتنافس

المتنافسون في نعيم الجنة عامة وفي الرحيق المختوم الذي يسقونه خاصة فهو كقولنا:
أكرم المؤمنين والصالحين منهم خاصة ، ولا تكن عيباً وللعلماء خاصة .

قوله تعالى : « و مزاجه من تسنيم » المزاج ما يمزج به ، و التسنيم على ما
تفسره الآية التالية عين في الجنة سماء الله تسنيماً وفي لفظه معنى الرفع والملاءمة يقال:
سنّمه أي رفعه ومنه سنام الإبل ، و يقال : سنّم الإنياء أي ملأه .

قوله تعالى : « عيناً يشرب بها المقرّبون » يقال : شربه و شرب به بمعنى
و « عيناً » منصوب على المدح أو الاختصاص و « يشرب بها المقرّبون » وصف لها
والمجموع تفسير للتسنيم .

ومفاد الآية أن المقرّبين يشربون التسنيم صرفاً كما أن مفاد قوله : « و مزاجه
من تسنيم » أنه يمزج بها ما في كأس الأبرار من الرحيق المختوم ، و يدل ذلك أو لا
على أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذي يزيل لذّة مزجها ، و ثانياً أن المقرّبين
أعلى درجة من الأبرار الذين يصفهم الآيات .

قوله تعالى : « إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » يعطي
السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون في الآيات و إنما عبّر عنهم
بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم و استهزائهم بهم إنما هو إيمانهم كما
أن التعبير عن الكفار بالذين أجزموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين .

قوله تعالى : « و إذا مرّوا بهم يتغامزون » عطف على قوله : « يضحكون »
أي كانوا إذا مرّوا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضاً و يشيرون بأعينهم استهزاء بهم .
قوله تعالى : « و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » الفكّه بالفتح فالكسر
المرح البطر و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا إلى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم
انقلبوا ملتدّين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوي الأُنس والمعنى
انقلبوا وهم يحدثون بما فعلوا تفكّها .

قوله تعالى : « و إذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالّون » على سبيل الشهادة عليهم
بالضلال أو القضاء عليهم والثاني أقرب .

قوله تعالى : « وما أُرسل هؤلاء الذين أُجرموا حافظين على المؤمنين يقضون في حقهم بما شأوا أو يشهدون عليهم بما هؤوا ، و هذا نهكم بالمستهزئين .

قوله تعالى : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » المراد باليوم يوم الجزاء ، و التعبير عن الذين أُجرموا بالكفار رجوع إلى حقيقة صفتهم . قيل : تقديم الجارّ و المجرور على الفعل أعني « من الكفار » على « يضحكون » لإفادة قصر القلب ، و المعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا

قوله تعالى : « على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ، الثواب في الأصل مطلق الجزاء وإن غلب استعماله في الخير ، وقوله : « على الأرائك ، خبر بعد خبر للذين آمنوا و « ينظرون » خبر آخر ، وقوله : « هل ثوب » الخ متعلق بقوله : « ينظرون » قائم مقام المفعول .

والمعنى الذين آمنوا على سرر في الحجال ينظرون إلى جزاء الكفار بأفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا من أنواع الإجرام ومنها ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم إذا مروا بهم و انقلبهم إلى أهلهم فكهين وقولهم : إن هؤلاء لضالون .

﴿ بحثر واثني ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و في ذلك فليتنافس المتنافسون » قال : فيما ذكرناه من الثواب الذي يطلبه المؤمن .

و في المجمع في قوله تعالى : « و إذا مروا بهم يتغامزون » : قيل نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذلك أنه كان في نفر من المسلمين جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وآله فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلح

فضحكنا منه فنزلت الآية قبل أن يصل عليؑ وأصحابه إلى النبي ﷺ . عن مقاتل
و الكلبي .

اقول : وقد أورده في الكشف .

وفيه ذكر الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل
بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس قال : «إن الذين أجرموا» منافقوا قريش والذين
آمنوا ، علي بن أبي طالب وأصحابه .

و في تفسير القمّي «إن الذين أجرموا - إلى قوله - فكهين ، قال : يسخرون .



﴿سورة الانشقاق مكيّة وهي خمس وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَنَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَأَلَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى قيام الساعة ، و تذكر أنّ للإنسان سيراً إلى ربّه حتّى يلاقيه فيحاسب على ما يقتضيه كتابه وتؤكد القول في ذلك و الغلبة فيها للإنذارعلى التبشير . و سياق آياتها سياق مكّي .

قوله تعالى : « إذا السماء انشقت » شرط جزاؤه محذوف يدلّ عليه قوله : « يا أيّها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » و التقدير : لاقى الإنسان ربّه فحاسبه و جازاه على ما عمل .

و انشقاق السماء و هو تصدّعه و انفراجه من أشرط الساعة كمدّ الأرض و سائر ما ذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس و اجتماع الشمس والقمر و انتشار الكواكب ونحوها .

قوله تعالى : « و أذنت لربّها وحقّت » الإذن الاستماع و منه الأذن لجارحة السمع و هو مجاز عن الانقياد و الطاعة ، و « حقّت » أي جعلت حقيقة و جديرة بأن تسمع ، و المعنى و أطاعت و انقادت لربّها و كانت حقيقة و جديرة بأن تستمع و تطيع .

قوله تعالى : « و إذا الأرض مدّت » الظاهر أن المراد به اتساع الأرض ، و قد قال تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض » إبراهيم : ٤٨ .

قوله تعالى : « و ألقت ما فيها و تخلّت » أي ألقت الأرض ما في جوفها من الموتى و بالفت في الخلوص مما فيها منهم .

و قيل : المراد إلقاؤها الموتى والكنوز كما قال تعالى : « و أخرجت الأرض أثقالها » الزلزال : ٢ .

وقيل : المعنى ألقت ما في بطنها و تخلّت ممّا على ظهرها من الجبال والبحار ، و لعلّ أوّل الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « و أذنت لربّها و حقّت » ضمائر التانيث للأرض كما أنّها في

نظيرتها المتقدمّة للسماء ، و قد تقدّم معنى الآية .

قوله تعالى : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه » قال الراغب: الكدح السعي و العناء انتهى ففيه معنى السير، و قيل: الكدح جهد النفس في العمل حتّى يؤثّر فيها انتهى وعلى هذا فهو مضمّن معنى السير بدليل تعدّيه بإلى ففي الكدح معنى السير على أيّ حال.

وقوله : « فملاقيه » عطف على « كادح » و قد بيّن به أن غاية هذا السير والسعي و العناء هو الله سبحانه بما أن له الربوبية أي إنّ الإنسان بما أنّه عبد مربوب و مملوك مدبّر ساع إلى الله سبحانه بما أنّه ربّه و مالكه المدبّر لأمره فإنّ العبد لا يملك لنفسه إرادة و لا عملاً فعليّه أن يريد و لا يعمل إلّا ما أَرادَه ربّه و مولاه وأمره به فهو مسؤل عن إرادته وعمله .

ومن هنا يظهر أوّلاً أن قوله : « إنّك كادح إلى ربّك » يتضمّن حجة على المعاد لما عرفت أن الربوبية لا تتم إلّا مع عبودية و لا تتمّ العبودية إلّا مع مسؤولية و لا تتمّ مسؤولية إلّا برجوع و حساب على الأعمال و لا يتمّ حساب إلّا بجزاء . و ثانياً أن المراد بملاقاته انتهاءه إلى حيث لا حكم إلّا حكمه من غير أن يحجبه عن ربّه حاجب .

و ثالثاً أن المخاطب في الآية هو الإنسان بما أنّه إنسان فالمراد به الجنس و ذلك أن الربوبية عامّة لكل إنسان .

قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه يمينه » تفصيل مترتب على ما يلوّح إليه قوله : « إنّك كادح إلى ربّك » أن هناك رجوعاً و سؤالاً عن الأعمال و حساباً ، و المراد بالكتاب صحيفة الأعمال بقرينة ذكر الحساب ، و قد تقدّم الكلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين في سورتي الإسراء و الحاقة .

قوله تعالى : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » الحساب اليسير ما سهّل فيه و خلا عن المناقشة .

قوله تعالى : « و ينقلب إلى أهله مسروراً » المراد بالأهل من أعداء الله له في

الجنة من الحور و الغلمان و غيرهم و هذا هو الذي يفيد السياق ، و قيل : المراد به عشيرته المؤمنون ممن يدخل الجنة ، و قيل المراد فريق المؤمنين و إن لم يكونوا من عشيرته فالمؤمنون إخوة . والوجهان لا يخلوان من بعد .

قوله تعالى : « و أمّا من أوتى كتابه وراء ظهره » الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدير من وراء ظهره ، ولعلهم إنّما يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لردّ وجوههم على أدبارهم كما قال تعالى : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها » النساء : ٢٧ .

ولامنافاة بين إيتاء كتابهم من وراء ظهورهم و بين إيتائهم بشمالهم كما وقع في قوله تعالى : « و أمّا من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابي » الحاقة : ٢٧ . سيأتي في البحث الروائي التالي ما ورد في الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم .

قوله تعالى : « فسوف يدعو ثبوراً » الثبور كالويل الهلاك و دعاؤهم الثبور قولهم : وا ثبوراه .

قوله تعالى : « و يصلى سعيراً » أي يدخل ناراً مؤجّجة لا يوصف عذابها ، أو يقاسي حرّها .

قوله تعالى : « إنّّه كان في أهله مسروراً » يسرّه ما يناله من متاع الدنيا و تنجذب نفسه إلى زينتها و ينسيه ذلك أمر الآخرة و قد ذمّ تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا و سمّاه فرحاً بغير حقّ قال تعالى بعد ذكر النار و عذابها : « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ و بما كنتم تمرحون » المؤمن : ٧٥ .

قوله تعالى : « إنّهم ظنّ أنّ لن يحور » أي لن يرجع والمراد الرجوع إلى ربّه للحساب و الجزاء ، ولا سبب يوجب عليه إلاً التوغّل في الذنوب والآثام الصارفة عن الآخرة الداعية إلى استبعاد البعث .

قوله تعالى : « بلى إنّ ربّه كان به بصيراً » ردّ لظنّه أي ليس الأمر كما ظنّه بل يحور و يرجع ، و قوله : « إنّ ربّه كان به بصيراً » تعليل للردّ المذكور فإنّ الله

سبحانه كان ربه المالك له المدبر لأمره و كان يحيط به علماً و يرى ما كان من أعماله و قد كلّفه بما كلّف و لأعماله جزاء خيراً أو شراً فلا بد أن يرجع إليه و يجزى بما يستحقّه بعمله .

و بذلك يظهر أن قوله : «إن ربه كان به بصيراً» من إعطاء الحجة على وجوب المعاد نظير ما تقدّم في قوله : «إنك كادح إلى ربك» الآية .

و يظهر أيضاً من مجموع هذه الآيات التسع أن إيتاء الكتب و نشر الصحف قبل الحساب كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى : «و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» أسرى : ١٤ .

ثمّ الآيات كما ترى تخصّ إيتاء الكتاب من وراء الظهر بالكفّار فيقع الكلام في عصاة المؤمنين من أصحاب الكبائر ممّن يدخل النار فيمكث فيها برهة ثمّ يخرج منها بالشفاعة على ما في الأخبار من طرق الفريقين فهؤلاء لا يؤتون كتابهم من وراء ظهورهم لاختصاص ذلك بالكفّار و لا يمينهم لظهور الآيات في أن أصحاب اليمين يحاسبون حساباً يسيراً و يدخلون الجنة ، و لا سبيل إلى القول بأنهم لا يؤتون كتاباً لمكان قوله تعالى : «و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه» الآية المفيد للعموم .

و قد تخلص بعضهم عن الإشكال بأنهم يؤتون كتابهم باليمين بعد الخروج من النار .

و فيه أن ظاهر الآيات إن لم يكن صريحاً أن دخول النار أو الجنة فرع مترتب على القضاء المترتب على الحساب المترتب على إيتاء الكتب و نشر الصحف فلا معنى لإيتاء الكتاب بعد الخروج من النار .

واحتمل بعضهم أن يؤتوا كتابهم بشمالهم و يكون الإيتاء من وراء الظهر مخصوصاً بالكفّار كما تفيد الآيات .

وفيه أن الآيات التي تذكر إيتاء الكتاب بالشمال - وهي التي في سورة الواقعة و الحاقة و في معناها ما في سورة الإسراء أيضاً - تخصّ إيتاء الكتاب بالشمال بالكفّار

و يظهر من مجموع الآيات أن الذين يؤتون كتابهم بشمالهم هم الذين يؤتونه من وراء ظهورهم .

و قال بعضهم من الممكن أن يؤتوا كتابهم من وراء ظهورهم و يكون قوله : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » من قبيل وصف الكل بصفة بعض أجزائه .
و فيه أن المقام لا يساعد على هذا التجوّز فإن المقام مقام تمييز السعداء من الأشقياء و تشخيص كلّ بجزائه الخاصّ به فلا مجوّز لإدغام جمع من أهل العذاب في أهل الجنة .

على أن قوله : « فسوف يحاسب » الخ وعد جميل إلهيّ و لا معنى لشموله لغير مستحقّيه ولو بظاهر من القول .

نعم يمكن أن يقال : إنّ اليسر و العسر معنيان إضافيان و حساب العصاة من أهل الإيمان يسير بالإضافة إلى حساب الكفار المخلّدين في النار و لو كان عسيراً بالإضافة إلى حساب المتّقين .

و يمكن أيضاً أن يقال إنّ قسمة أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال غير حاصرة كما يدلّ عليه قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة و السابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ فمدلول الآيات خروج المقرّبين من الفريقين ، و مثلهم المستضعفون كما ربّما يستفاد من قوله تعالى : « و آخرون مرجون لأمر الله إمّا يعدّ بهم و إمّا يتوب عليهم » التوبة : ١٠٦ .

فمن الجائز أن لا يكون تقسيم أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال تقسيماً حاصراً لجميعهم بل تخصيصاً لأهل الجنة من المتّقين و أهل الخلود في النار بالذكر بتوصيفهم بايتاء الكتاب باليمين و بالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان و التقوى و نظير ذلك ما في سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثمّ بيان حال المتّقين و المكذّبين فحسب و ليس ينحصر الناس في القبيلين ، و نظيره ما في سورة النبا و النازعات و عبس و الانفطار ، و المطففين و غيرها فالغرض فيها ذكر أ نموذج من أهل الإيمان و الطاعة و أهل الكفر

والتكذيب والسكوت عمن سواهم ليتذكر أن السعادة في جانب التقوى والشفاء في جانب التمرّد والطغوى .

قوله تعالى : « فلا أقسم بالشفق » الشفق الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل .

قوله تعالى : « والليل وما وسق » أي ضمّ وجمع ما تفرّق وانتشر في النهار من الإنسان والحيوان فإنّها تنفرّق و تنتشر بالطبع في النهار وترجع إلى ماؤها في الليل فتسكن .

وفسر بعضهم « وسق » بمعنى طرد أي طرد الكواكب من الخفاء إلى الظهور .
قوله تعالى : « والقمر إذا اتسق » أي اجتمع وانضمّ بعض نوره إلى بعض فاكتمل نوره و تبدّر .

قوله تعالى : « لتركنّ طبقاً عن طبق » جواب القسم والخطاب للناس والطبق هو الشيء أو الحال الذي يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا والمراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربّه من الحياة الدنيا ثمّ الموت ثمّ الحياة البرزخية ثمّ الانتقال إلى الآخرة ثمّ الحياة الآخرة ثمّ الحساب والجزاء .

وفي هذا الإقسام - كما ترى - تأكيد لما في قوله : « يا أيّها الإنسان إنك كادح » الآية وما بعده من نباء البعث وتوطئة وتمهيد لما في قوله : « فما لهم لا يؤمنون » من التعجيب والتوبيخ وما في قوله : « فبشّرهم بعذاب » النخ من الإنذار والتبشير .
وفي الآية إشارة إلى أن المراحل التي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربّه مترتبة متطابقة .

قوله تعالى : « فما لهم لا يؤمنون وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون » استفهام للتعجيب والتوبيخ ولذا ناسب الالتفات الذي فيه من الخطاب إلى الغيبة كأنّه لما رأى أنهم لا يتذكرون بتذكيره ولا يتعظون بعظته أعرض عنهم إلى النبي ﷺ فخطابه بقوله : « فما لهم لا يؤمنون » النخ .

قوله تعالى : « بل الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » « يَكْذِبُونَ » يفيد الاستمرار ، والتعبير عنهم بِالَّذِينَ كَفَرُوا للدلالة على علة التكذيب ، والايحاء كما قيل جعل الشيء في وعاء .

والمعنى أَنَّهُمْ لَمْ يَتَرَكُوا الْإِيمَانَ لِقُصُورٍ فِي الْبَيَانِ أَوْ لَانْقِطَاعٍ مِنَ الْبُرْهَانِ لَكُنْهُمْ اتَّبَعُوا أَسْلَافَهُمْ وَرُؤْسَاءَهُمْ فَرَسَخُوا فِي الْكُفْرِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى التَّكْذِيبِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا جَمَعُوا فِي صُدُورِهِمْ وَأَضْمَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ .

وقيل : المراد بقوله : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » أَنَّ لَهُمْ وَرَاءَ التَّكْذِيبِ مَضْمَرَاتٍ فِي قُلُوبِهِمْ لَا يَحِيطُ بِهَا الْعِبَارَةُ وَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » التعبير عن الاخبار بالعذاب بالتبشير مبني على التهكم ، والجملة متفرعة على التكذيب .

قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » استثناء منقطع من ضمير « فَبَشِّرْهُمْ » والمراد بكون أجْرهم غير ممنون خلوه من قول ينقل على المجاور .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » قال : يوم القيامة . وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال تنشق السماء من المجرة . وفي تفسير القميّ في قوله : « وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » قال : تمدّ الأرض فتتنشق فيخرج الناس منها .

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم بسند جيّد عن جابر عن النبي ﷺ قال : تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلّا موضع قدميه . وفي الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث قال والناس يومئذ على صفات ومنازل فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يلبسوا من أمر الدنيا بشيء وإنما الحساب هناك على من

يلبس بها ههنا ، ومنهم من يحاسب على النقيير و القطمير ويصير إلى عذاب السعير .
وفي المعاني بإسناده عن ابن سنان عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ :
كلّ محاسب معذب فقال له قائل : يا رسول الله فأين قول الله عزّ وجلّ : « فبؤس
يحاسب حساباً يسيراً » قال : ذلك العرض يعني التصفّح .
اقول : وروى في الدرّ المنثور عن البخاريّ ومسلم والترمذيّ وغيرهم عن
عائشة مثله .

وفي تفسير القميّ وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « فأما
من أوتي كتابه يمينه » فهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزوميّ وهو
من بني مخزوم ، « وأما من أوتي كتابه وراء ظهره » فهو أخوه الأسد بن عبد الأسد
المخزوميّ فقتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر .
وفي المجمع في قوله تعالى : « لتركبنّ طبقاً عن طبق » وقيل : معناه شدة بعد
شدة حياة ثمّ موت ثمّ بعث ثمّ جزاء ، وروى ذلك مرفوعاً .
وعن جوامع الجامع في الآية وعن أبي عبيدة : لتركبنّ سنن من كان قبلكم
من الأوّلين وأحوالهم وروى ذلك عن الصادق عليه السلام .



﴿سورة البروج مكية وهي اثنتان وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ
 الْمَوْعُودِ (٢) وَشَهِيدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ (٤) النَّارِ
 ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ
 شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)
 الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ
 الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
 وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
 لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤)
 ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
 الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩)
 وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي نُوحٍ
 مَّخْفُوظٍ (٢٢) .

﴿ بيان ﴾

سورة إنذار وتبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات لا يمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبى ﷺ فيعدّونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق فمنهم من كان يصبر ولا يرجع بلغ الأمر ما بلغ ، ومنهم من رجع وارتدّ وهم ضعفاء الايمان كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » العنكبوت : ١٠ ، وقوله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج : ١١ .

وقد قدّم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصة أصحاب الأخدود ، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى ، وأتبعها بالإشارة إلى حديث الجنود فرعون وثمود وفيه تطيب لنفس النبي ﷺ بوعد النصر وتهديد للمشركين .
والسورة مكّية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والسماء ذات البروج » البروج جمع برج وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين ويسمى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجاً وهو المراد في الآية لقوله تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر : ١٧ ، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء .

وبذلك يظهر أن تفسير البروج بالبروج الاثنى عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد .

وفي الآية إقسام بالسماء المحفوظة بالبروج ، ولا يخفى مناسبتها لما سيشار إليه من القصة ثم الوعد والوعيد وسنشير إليه .

قوله تعالى : « واليوم الموعود » عطف على السماء وإقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة الذي وعد الله القضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : «وشاهد ومشهود» معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم على ما أريد بيانه في السورة وهو - كما تقدّمت الإشارة إليه - الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين والمؤمنات لا إيمانهم والوعد الجميل لمن آمن وعمل صالحاً .

فكأنّه قيل : أقسم بالسماء ذات البروج التي يدفع الله بها عنها الشياطين إن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين ، وأقسم باليوم الموعود الذي يجزى فيه الناس بأعمالهم ، وأقسم بشاهد يشهد ويعاين أعمال أولئك الكفار وما يفعلونه بالمؤمنين لا إيمانهم بالله وأقسم بمشهود سيشهده الكلّ ويعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، إلى آخر الآيتين .

ومن هنا يظهر أن الشهادة في «شاهد» و «مشهود» بمعنى واحد وهو المعاينة بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حق التعبير «ومشهود عليه» لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى .

وعلى هذا يقبل «شاهد» الانطباق على النبي ﷺ لشهادته أعمال أمته ثم يشهد عليها يوم القيامة ، ويقبل «مشهود» الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين وما فعلوا بهم من الفتنة وإن شئت فقل : على جزائه وإن شئت فقل : على ما يقع يوم القيامة من العقاب والثواب لهؤلاء الظالمين والمظلومين ، وتنكير «مشهود» و «شاهد» على أي حال للتفخيم .

ولهم في تفسير شاهد ومشهود أقاويل كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كقول بعضهم إن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، والقول بأن الشاهد يوم النحر والمشهود يوم عرفة ، والقول بأن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة ، والقول بأن الشاهد الملك يشهد على بني آدم والمشهود يوم القيامة ، والقول بأن الشاهد الذين يشهدون على الناس والمشهود الذين يشهد عليهم .

والقول بأن الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم ، والقول بأن الشاهد أعضاء بني آدم والمشهود أنفسهم والقول بأن الشاهد الحجر الأسود والمشهود الحاج والقول بأن الشاهد الأيام والليالي والمشهود بنو آدم ، والقول بأن الشاهد الأنبياء والمشهود

مُحَمَّدٌ ﷺ ، والقول بأنّ الشاهد هو الله والمشهود لا إله إلا الله .

والقول بأنّ الشاهد الخلق والمشهود الحقّ ، والقول بأنّ الشاهد هو الله والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد آدم وذريّته والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، والقول بأنّها يوم الإثنين ويوم الجمعة ، والقول بأنّ الشاهد المقرّبون والمشهود عليّون ، والقول بأنّ الشاهد هو الطفل الذي قال لأمّه في قصّة الأخدود : اصبري فإنّك على الحقّ والمشهود الواقعة ، والقول بأنّ الشاهد الملائكة المتعاقبون لكتابة الأعمال والمشهود قرآن الفجر إلى غير ذلك من أقوالهم .

وأكثر هذه الأقوال - كما ترى - مبنيّ على أخذ الشهادة بمعنى أداء ما محتمل من الشهادة ، وبعضها على التفريق بين الشاهد والمشهود في معنى الشهادة وقد عرفت ضعفه ، وأنّ الأنسب للسياق أخذها بمعنى المعاينة وإن استلزم الشهادة بمعنى الأداء يوم القيامة ، وأنّ الشاهد يقبل الانطباق على النبيّ ﷺ .

كيف لا ؟ وقد سمّاه الله تعالى شاهداً إذ قال : «يا أيّها النبيّ إنّنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً» الأحزاب : ٤٥ ، وسمّاه شهيداً إذ قال : «ليكون الرسول شهيداً عليكم» الحجّ ٧٨ ، وقد عرفت معنى شهادة الأعمال من شهادتها فيما مرّ .

ثمّ إنّ جواب القسم محذوف يدلّ عليه قوله : «إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات» إلى تمام آيتين ، ويشعر به أيضاً قوله : «قتل أصحاب الأخدود» النخ وهو وعيد الفاتنين ووعد المؤمنين الصالحين وأنّ الله يوفّقهم على الصبر ويؤيّدهم على حفظ إيمانهم من كيد الكائدين إنّ أخلصوا كما فعل بالمؤمنين في قصّة الأخدود .

قوله تعالى : «قتل أصحاب الأخدود» إشارة إلى قصّة الأخدود لتكون توطئة وتمهيداً لما سيجيء من قوله : «إنّ الذين فتنوا» النخ وليس جواباً للقسم البتّة .

والأخدود الشقّ العظيم في الأرض ، وأصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين خدّوا الأخدوداً وأضرّموا فيها النار وأمرّوا المؤمنين بدخولها فأحرّقوهم عن آخرهم

نقما منهم لايمانهم .

فقوله : «قتل» الخ دعاء عليهم والمراد بالقتل اللعن والطرده .

وقيل : المراد بأصحاب الأُخُدود المؤمنون والمؤمنات الذين أُحرقوا فيه ،
و قوله : «قتل» إخبار عن قتلهم بالأحراق وليس من الدعاء في شيء . و يضعفه
ظهور رجوع الضامير في قوله : «إنهم عليها» و «هم على ما يفعلون» و «ما تقوموا» إلى
أصحاب الأُخُدود ، والمراد بها وخاصةً بالثاني والثالث الجبابرة الناقمون دون المؤمنين
المعدّين .

قوله تعالى : «النار ذات الوقود» بدل من الأُخُدود ، والوقود ما يشعل به النار
من حطب وغيره ، وفي توصيف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمر هذه النار وشدّة
اشتعالها وأجيجها .

قوله تعالى : «إنهم عليها قعود» أي في حال أو لئلك الجبابرة قاعدون في أطراف
النار المشرفة عليها .

قوله تعالى : «وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» أي حضور ينظرون ويشاهدون
إحراقهم واحتراقهم .

قوله تعالى : «وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله» النقم بفتحتي الكراهة
الشديدة أي ما كرهوا من أو لئلك المؤمنين إلا إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل
إيمانهم .

قوله تعالى : «العزیز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل
شيء شهيد» أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير إلى الحجّة على أن أو لئلك المؤمنين
كانوا على الحقّ في إيمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله وسيجزئهم
خير الجزاء ، وعلى أن أو لئلك الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما
فعلوا وسيدوقون وبال أمرهم .

وذلك أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أي الغالب غير المغلوب على الإطلاق
والجميل في فعله على الإطلاق فله وحده كلّ الجلال والجمال فمن الواجب أن يخضع

له وأن لا يتعرّض لجانبه ، وإذ كان له ملك السماوات والأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر وله الحكم فهو ربّ العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلهاً معبوداً ولا يشرك به أحد فالؤمنون به على الحقّ والكافرون في ضلال .

ثمّ إنّ الله - وهو الموجد لكلّ شيء - على كلّ شيء شهيد لا يخفى عليه شيء من خلقه ولا عمل من أعمال خلقه ولا يحتاج عنه إحسان محسن ولا إساءة مسيء فسيجزى كلّاً بما عمل .

وبالجملة إذ كان تعالى هو الله المتّصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لأولئك الجبارة أن يتعرّضوا لحالهم ولا أن يمسّوهم بسوء .

وقال بعض المفسّرين في توجيه إجراء الصفات في الآية : إنّ القوم إن كانوا مشركين فالذي كانوا ينقمونه من المؤمنين وينكرونه عليهم لم يكن هو الإيمان بالله تعالى بل نفي ما سواه من معبوداتهم الباطلة ، وإن كانوا معظّلة فالمنكر عندهم ليس إلّا إثبات معبود غير معبود لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود الحقّ الموصوف بصفات الجلال والإكرام عبسّ بما عبسّ بإجراء الصفات عليه تعالى .

وفيه غفلة عن أنّ المشركين وهم الوثنيّة ما كانوا ينسبون إلى الله تعالى إلّا الصنع والإيجاد . وأمّا الربوبيّة التي تستتبع التدبير والألوهيّة التي تستوجب العبادة فكانوا يقصرونهما في أربابهم وآلهتهم فيعبّدونها دون الله سبحانه ، فليس له تعالى عندهم إلّا أنّه ربّ الأرباب وإله الآلهة لا غير .

قوله تعالى : « إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمّ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم ولهم عذاب الحريق » الفتنة المحنة والتعذيب ، والذين فتنوا الخ عامّ يشمل أصحاب الأخدود ومشركي قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبيّ ﷺ من المؤمنين والمؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم .

قال في المجمع : يسأل فيقال : كيف فصلّ بين عذاب جهنّم وعذاب الحريق وهما واحد ؟ أجيب عن ذلك بأنّ المراد لهم أنواع العذاب في جهنّم سوى الإحراق

مثل الزقوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » وعد جميل للمؤمنين بطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعدّين .

قوله تعالى : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية إلى تمام سبع آيات تحقيق و تأكيد لما تقدّم من الوعيد والوعد ، والبطش - كما ذكره الراغب - تناول الشيء بصولة .

وفي إضافة البطش إلى الرب وإضافة الرب إلى الكاف تطيب لنفس النبي ﷺ بالتأييد والنصر ، وإشارة إلى أن لجابرة أمته نصيباً من الوعيد المتقدّم .

قوله تعالى : « إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ » المقابلة بين المبدئ والمعيد يعطي أن المراد بالابداء البدء ، والافتتاح بالشيء قالوا : ولم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلك وفي بعض القراءات الشاذة يبدء بفتح الياء والdal .

وعلى أي حال فالآية تعليل لشدة بطشه تعالى وذلك أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريد من شيء إيجاداً ابتدائياً من غير أن يستمدّ على ذلك من شيء غير نفسه ، وهو تعالى يعيد كل ما كان إلى ما كان وكل حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل وإذ كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدّي حدّه ، من العذاب ما هو فوق حدّه ووراء طاقته ، ويحفظه على ما هو عليه ليدوق العذاب قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيموتُوا وَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » فاطر : ٣٦ .

و هو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب إلى حالته الأولى ليدوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » النساء : ٥٦ .

وبهذا البيان يتضح :

أولاً أن سياق قوله : « إِنَّهُ هُوَ » الخ يفيد القصر أي إن إبداع الوجود

وإعادته لله سبحانه وحده إذ الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى وحده .
وثانياً أنّ حدود الأشياء إليه تعالى ولو شاء أن لا يحدّ لم يحدّ أو بدّل حدّاً
من آخر فهو الذي حدّ العذاب والفتنة في الدنيا بالموت والزوال ولو لم يشألم يحدّ
كما في عذاب الآخرة .

ونالنا أنّ المراد من شدّة البطش - وهو الأخذ بعنف - أن لا دافع لأخذه
ولارادّ لحكمه كيفما حكم إلا أن يحول بين حكمه و متعلّقه حكم آخر منه يقيّد
الأوّل .

قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » أي كثير المغفرة والمودة ناظر إلى وعد
المؤمنين كما أنّ قوله : « إنّ بطش ربك » النح ناظر إلى وعيد الكافرين .

قوله تعالى : « ذوالعرش المجيدفعال لما يريد » العرش عرش الملك ، وذوالعرش
كناية عن الملك أي هو ملك له أن يتصرّف في مملكته كيفما تصرّف ويحكم بماشاء
والمجيد صفة من المجد وهو العظمة المعنوية وهي كمال الذات والصفات ، وقوله :
« فعّال لما يريد » أي لا يصرفه عمّا أراداه صارف لامن داخل لضجر وكسل وملل وتغيّر
إرادة وغيرها ولا من خارج لمانع يحول بينه وبين ما أراد .

فله تعالى أن يوعد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ويعد الذين آمنوا
وعملوا الصالحات بالجنة لأنّه ذوالعرش المجيد ولن يخلف وعده لأنّه فعّال
لما يريد .

قوله تعالى : « هل أتاك حديث الجنودفرعون وثمود » تقرير لما تقدّم من شدّة
بطشه تعالى وكونه ملكاً مجيداً فعّالاً لما يريد ، وفيه تسليّة للنبي ﷺ وتطيب
لنفسه الشريفة بالإشارة إلى حديثهم ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « بل الذين كفروا في تكذيب » لا يبعد أن يستفاد من السياق كون
المراد بالذين كفروا هم قوم النبي ﷺ .

وفي الآية إضراب عمّا تقدّم من الموعظة والحجّة من حيث الأثر ، والمعنى لا
ينبغي أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإنّ الذين كفروا مصرّون على

تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة .

ومن هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب أي بظرفية التكذيب لهم إصرارهم عليه .

قوله تعالى : « والله من ورائهم محيط » وراء الشيء الجهات الخارجة منه المحيطة به . إشارة إلى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهة ، وفيه أيضاً تطيب لنفس النبي ﷺ .

وعن بعضهم أن في قوله : « من ورائهم » تلويحاً إلى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهرياً ، وهو مبني على أخذ وراء بمعنى خلف .

قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » إضراب عن إصرارهم على تكذيب القرآن ، و المعنى ليس الأمر كما يدعون بل القرآن كتاب مقروء عظيم في معناه عزيز في معارفه في لوح محفوظ عن الكذب و الباطل مصون من مس الشياطين .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن « السماء ذات البروج » فقال : الكواكب ، وسئل عن « الذي جعل في السماء بروجاً » فقال : الكواكب . قيل : « فبروج مشيدة » فقال : قصور .

وفيه أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن أبي الدنيا في الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة . الحديث .

أقول : وروى مثله بطرق أخرى عن أبي مالك وسعيد بن المسيب وجبير بن مطعم عنه ﷺ ، ولفظ الأخير : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

وروى هذا اللفظ عن عبد الرزاق والفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علي قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم النحر .

وفي المجمع وروي أن رجلاً دخل مسجد رسول الله ﷺ فإذا رجل يحدث عن رسول الله ﷺ .

قال : فسألته عن الشاهد والمشهود فقال : نعم الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال : أمّا الشاهد فيوم الجمعة وأمّا المشهود فيوم النحر .

فجزتهما إلى غلام كان وجهه الدينار وهو يحدث عن رسول الله ﷺ فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود فقال : نعم أمّا الشاهد فمحمد وأمّا المشهود فيوم القيامة أما سمعت الله سبحانه يقول : «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً» وقال : ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .

فسألت عن الأول فقالوا : ابن عباس ، وسألت عن الثاني فقالوا : ابن عمر ، و سألت عن الثالث فقالوا : الحسن بن علي .

اقول : والحديث مروي بطرق مختلفة وألفاظ متقاربة وقد تقدم في تفسير الآية أن ما ذكره عليه السلام أظهر بالنظر إلى سياق الآيات ، وإن كان لفظ الشاهد والمشهود لا يابى الانطباق على غيره أيضاً بوجه .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «قتل أصحاب الأخدود» قال : كان سببه أن الذي هبج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس وهو آخر من ملك من حمير تهوّد و اجتمعت معه حمير على اليهوديّة و سمى نفسه يوسف وأقام على ذلك حيناً من الدهر . ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانيّة و كانوا على دين عيسى و حكم الإنجيل ، و رأس ذلك الدين عبد الله بن بريمان فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهوديّة و يدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران فجمع من كان

بها على دين النصرانية ثم عرض عليهم دين اليهودية و الدخول فيها فأبوا عليه فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا التزل .

فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النار فمَنهم من أُحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ومثل بهم كل مثله فبلغ عدد من قتل و أُحرق بالنار عشرين ألفاً وأفلت منهم رجل يدعى دوش ذو ثعلبان على فرس له ركضة ، واتبعوه حتى أعجزهم في الرمل ، ورجع ذو نواس إلى صنيعة في جنوده فقال الله: «قتل أصحاب الأخدود - إلى قوله - العزيز الحميد».

وفي المجمع و روى سعيد بن جبير قال : لما انهمز أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب : ما هم يهود ولا نصارى ولألهم كتاب وكانوا مجوساً فقال علي بن أبي طالب : بلى قد كان لهم كتاب رفع .

و ذلك أن ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته - أو قال : على أخته - فلما أفاق قال لها : كيف المخرج ممّا وقعت فيه ؟ قالت : تجمع أهل مملكتك و تخبرهم أنك ترى نكاح البنات و تأمرهم أن يحلّوه فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخذلهم أخدوداً في الأرض ، و أوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار ، و من أجاب خلّى سبيله .

أقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن عبد بن حميد عنه عليه السلام .

وعن تفسير العياشي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أرسل علي عليه السلام إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشيء فقال عليه السلام : ليس كما ذكرت و لكن سأخبرك عنهم :

إن الله بعث رجلاً حبشياً نبياً و هم حبشية فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه و أسروا أصحابه ثم بنوا له حيراً ثم ملؤوه ناراً ثم جمعوا الناس فقالوا : من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل ، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار فجعل أصحابه يتهافتون في النار فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر فلما هجمت هابت و

رقت على ابنها فنادى الصبي: لاتهابي وارميني و نفسك في النار فان هذا والله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار وصبيتها، وكان ممن تكلم في المهدي.

اقول: و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عبدالله بن نجعي عنه عليه السلام، و روى أيضا عن ابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن نجعي عنه عليه السلام قال: كان نبي أصحاب الأخدود حبشياً.

و روى أيضاً عن ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عنه عليه السلام في قوله تعالى: «أصحاب الأخدود» قال: هم الحبشة.

ولا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة واليمن والعجم والإشارة في الآية إلى جميعها وهناك روايات تقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.

و في تفسير القمّي في قوله تعالى: «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» قال: اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش على جبين إسرافيل فإذا تكلم الرب جل ذكره بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل فنظر في اللوح فيوحي بما في اللوح إلى جبرئيل.

و في الدر المنثور أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ خلق الله لوحاً من درة بيضاء دفتاه من زبرجدة خضراء كتابه من نور يلحظ إليه في كل يوم ثلاث مائة وستين لحظة يحيي ويميت و يخلق ويرزق و يعز و يذل و يفعل ما يشاء.

اقول: و الروايات في صفة اللوح كثيرة مختلفة وهي على نوع من التمثيل.

﴿سورة الطارق مكيّة وهي سبع عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ (١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا
 الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
 فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ
 الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)
 فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ
 ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ
 يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ
 رُوَيْدًا (١٧) .

﴿بيان﴾

في السورة إنذار بالمعاد و تستدلّ عليه بإطارق القدرة و تؤكّد القول في ذلك، و
 فيها إشارة إلى حقيقة اليوم ، و تختتم بوعيد الكفار .
 و السورة ذات سياق مكّي .

قوله تعالى : « و السماء و الطارق و ما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » الطرق
 في الأصل - على ما قيل - هو الضرب بشدّة يسمع له صوت و منه المطرقة و الطريق
 لأنّ السابلة تطرقها بأقدامها ثمّ شاع استعماله في سلوك الطريق ثمّ اختصّ بالآتيان
 ليلاً لأنّ الآتي بالليل في الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ويدقّها ثمّ شاع الطارق

في كلّ ما يظهر ليلاً، والمراد بالطارق في الآية النجم الذي يطلع بالليل .
والثقب في الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى النير المضي . لأنّه يتقب
الظلام بنوره و يأتي بمعنى العلوّ والارتفاع و منه ثقب الطائر أي ارفع وعلا كأنّه
يتقب الجو بطيرانه .

فقوله : « و السماء و الطارق » إقسام بالسماء و بالنجم الطالع ليلاً ، و قوله :
« وما أدراك ما الطارق » تفخيم لشأن المقسم به و هو الطارق ، و قوله : « النجم الثاقب »
بيان للطارق و الجملة في معنى جواب استفهام مقدّر كأنّه لما قيل : و ما أدراك ما
الطارق ؟ سئل فقيل : فما هو الطارق ؟ فأجيب و قيل : النجم الثاقب .

قوله تعالى : « إن كل نفس لما عليها حافظ » جواب للقسم و لما بمعنى إلّا و
المعنى ما من نفس إلّا عليها حافظ ، و المراد من قيام الحافظ على حفظها كتابة أعمالها
الحسنة و السيئة على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة و يجزى بها فالحافظ
هو الملك و المحفوظ العمل كما قال تعالى : « و إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون
ما تفعلون » الانفطار : ١٢ .

ولا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها ، والمراد بالحافظ
جنسه فتفيد أنّ النفوس محفوظة لا تبطل بالموت ولا تفسد حتّى إذا أحيا الله الأبدان
أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الديوي بعينه و شخصه ثم يجزيه بما
يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شر .

و يؤيد ذلك كثير من الآيات الدالة على حفظ الأشياء كقوله تعالى : « قل
يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم » المّ السجدة : ١١ ، و قوله : « الله يتوفّى
الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ،
الزمر : ٤٢ .

و لا ينافي هذا الوجه ظاهر آية الانفطار السابقة من أنّ حفظ الملائكة هو
الكتابة فإنّ حفظ نفس الإنسان أيضاً من الكتابة على ما يستفاد من قوله : « إنّا كنّا
نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ و قد تقدّمت الإشارة إليه .

و يندفع بهذا الوجه الاعتراض على ما استدلل به على المعاد من إطلاق القدرة كما سيجيء ومحصله أن إطلاق القدرة إنما ينفع فيما كان ممكناً لكن إعادة الإنسان بعينه محال فإن الإنسان المخلوق ثانياً مثل الإنسان الدنيوي المخلوق أولاً لا يخصه الذي خلق أولاً ومثل الشيء غير الشيء لاعينه .

وجه الاندفاع أن شخصية الشخص من الإنسان بنفسه لا يبدنه والنفس محفوظة فإذا خلق البدن وتعلقت به النفس كان هو الإنسان الدنيوي بشخصه وإن كان البدن بالقياس إلى البدن مع الفسخ عن النفس ، مثلاً لاعيناً .
قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق » أي ما هو مبدء خلقه؟ وما هو الذي صيّرهُ الله إنساناً؟

والجملة متفرعة على الآية السابقة وما تدل عليه بفحواها بحسب السياق ومحصل المعنى وإذ كانت كل نفس محفوظة بذاتها وعملها من غير أن تفنى أو ينسى عملها فليدعن الإنسان أن سيرجع إلى ربه و يجزى بما عمل ولا يستبعد ذلك و لينظر لتحصيل هذا الإذعان إلى مبدء خلقه و يتذكر أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

فالذي بدء خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه وإحيائه بعد الموت .
وفي الإتيان بقوله : « خلق » مبنياً للمفعول وترك ذكر الفاعل وهو الله سبحانه إيماء إلى ظهور أمره ، و نظيره قوله : « خلق من ماء » الخ .
قوله تعالى : « خلق من ماء دافق » الدفق تصبب الماء و سيلانه بدفع و سرعة و الماء الدافق هو المنى و الجملة جواب عن استفهام مقدّر يهدي إليه قوله : « مم خلق » .

قوله تعالى : « يخرج من بين الصلب و الترائب » الصلب الظهر ، و الترائب جمع تريبة وهي عظم الصدر .

و قد اختلفت كلماتهم في الآية و ما قبلها اختلافاً عجيباً ، و الظاهر أن المراد بقوله : « بين الصلب و الترائب » البعض المحصور من البدن بين جداري عظام الظهر و

عظام الصدر^(١) .

قوله تعالى : « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » الرجوع الإعادة ، و ضمير « إِنَّهُ » له تعالى و اكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله : « خلق » مبنياً للمفعول .

و المعنى أن الذي خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة ، على إعادته وإحيائه بعد الموت - وإعادته مثل بدئه - لقادر لأن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز واحد .

قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ » ظرف للرجع ، و السريرة ما أسره الإنسان وأخفاه في نفسه ، والبلاء الاختبار والتعرف والتصفح .

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان وأسرّه من العقائد و آثار الأعمال خيراً وشرّاً فيميز خيراً من شرّاً ويجزى الإنسان به فالآية في معنى قوله تعالى : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ .

قوله تعالى : « فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » أي لا قدرة له في نفسه يمتنع بهامن عذاب الله ولا ناصر له يدفع عنه ذلك أي لا قدرة هناك يدفع عنه الشرّ لا من نفسه و لا من غيره .

قوله تعالى : « وَ السَّمَاءُ ذَاتَ الرِّجْعِ وَ الْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ » إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة و الرجوع إلى الله .

و المراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها و غروبها بعد طلوعها ، و قيل : رجعها إمطارها ، و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدّعها و انشقاقها بالنبات ، و مناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت والخروج من القبور ظاهرة .

قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلُ » الفصل إبانة أحد الشئيين من

(١) وقد أورد المراغى فى تفسيره فى ذيل الآية غن الأطباء بعضها دقيفا علميا لهذه

الاية من أراد فليراجعه .

الآخر حتى يكون بينهما فرجة ، والتعبير بالفصل - والمراد الفاصل - للمبالغة كزيد عدل والهزل خلاف الجد .

و الآيتان جواب القسم ، و ضمير «إنه» للقرآن و المعنى أقسم بكذا و كذا إن القرآن لقول فاصل بين الحقّ و الباطل و ليس هو كلاماً لا جدّ فيه فما يحقّ فيه حقّ لا ريب فيه و ما يبطله باطل لا ريب فيه فما أخبركم به من البعث و الرجوع حقّ لا ريب فيه .

و قيل : الضمير لما تقدّم من خبر الرجوع والمعاد ، والوجه السابق أوجه .
قوله تعالى : «إنّهم يكيدون كيداً و أكيد كيداً» أي الكفّار يحنّالون بكفرهم و إنكارهم المعاد احتيالاً يريدون به إطفاء نور الله و إبطال دعوتك ، و أحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج والإملاء والإضلال بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وأبصارهم احتيالاً أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : «فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً» التمهيل والإمهال بمعنى واحد غير أن باب التفعيل يفيد التدريج والإفعال يفيد الدفعة ، و الرويد القليل .
و المعنى إذا كان منهم كيد و منّي كيد عليهم بعين ما يكيدون به و الله غالب على أمره ، فانتظر بهم ولا تعاجلهم انتظر بهم قليلاً فسيأتينهم ما أوعدهم به فكلّ ما هوآت قريب .

و في التعبير أوّلاً بمهّل الظاهر في التدريج و ثانياً مع التقييد برويداً بأمهل الظاهر في الدفعة لطف ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : «إن كلّ نفس لما عليها حافظ» قال : الملائكة .
و فيه في قوله تعالى : « خلق من ماء دافق » قال : النطفة التي تخرج بقوّة .
و فيه في قوله تعالى : «يخرج من بين الصلب والترائب» قال : الصلب الرجل

والترائب المرأة . وهو صدرها .

أقول : الرواية على إضمارها وإرسالها لا تخلو من شيء .

وفيه في قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » قال : يكشف عنها .

وفي المجمع روي مرفوعاً عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ضمن الله خلقه أربع خصال : الصلاة ، والزكاة ، وصوم شهر رمضان ، والغسل من الجنابة ، وهي السرائر التي قال الله تعالى : يوم تبلى السرائر .

أقول : ولعله من قبيل ذكر بعض المصاديق كما تؤيده الرواية التالية .

وفيه عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة ؟ فقال : سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء الرجل قال : صليت ولم يصل وإن شاء قال : توضيت ولم يتوض فذلك قوله : « يوم تبلى السرائر » .

وفي تفسير التمحي في قوله تعالى : « فما له من قوة ولا ناصر » قال : ماله من قوة يهوي بها على خالقه ، ولا ناصر من الله ينصره إن أراد به سوء .

وفيه في قوله تعالى : « والسماء ذات الرجع » قال : ذات المطر « والأرض ذات الصدع » أي ذات النبات .

وفي المجمع « إنّه لقول فصل » يعني أن القرآن يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأثير في المصاحف عن الحارث الأعور قال : دخلت المسجد فإذا الناس قد وقفوا في الأحاديث فأتيت علياً فأخبرته فقال : أوقد فعلوها ؟

سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله

قال : كتاب الله فيه نأمن قبلكم وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، من ابتغى الهوى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله

المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تلتبس منه الألسن ، ولا يخلق من الرد ، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا إننا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم .

أقول : وروى ما يقرب منه عن معاذ بن جبل عنه عليه السلام ، ورواه مختصراً عن ابن مردويه عن علي عليه السلام .



﴿سورة الأعلى مكيّة وهي تسع عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ
 فَسْوَى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ
 غَنَاءً أَحْوَى (٥) سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ
 وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَتِ الذِّكْرِى (٩)
 سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ
 الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)
 وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ
 خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى (١٩).

﴿بيان﴾

أمرُ بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدّسة وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر
 مع اسمه اسم غيره أو يسند إلى غيره ما يجب أن يسند إليه كالخلق والتدبير والرزق
 وعدله ﷺ بتأييده بالعلم والحفظ وتمكينه من الطريقة التي هي أسهل وأيسر
 للتبليغ وأنسب للدعوة .

وسياق الآيات في صدر السورة سياق مكّيّ وأما ذيلها أعني قوله : «قد أفلح
 من تزكّى» الخ فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت ﷺ وكذا من طريق أهل السنة

أن المراد به زكاة الفطرة و صلاة العيد و من المعلوم أن الصوم و ما يتبعه من زكاة الفطرة و صلاة العيد إنما شرعت بالمدينة بعد الهجرة فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة .

فالسورة صدرها مكّي وذيّلها مدنيّ ؛ ولا ينافي ذلك ما جاء في الآثار أن السورة مكّيّة فإنّه لا يأتى الحمل على صدر السورة .

قوله تعالى : «سبح اسم ربك الأعلى» أمر بتنزيه اسمه تعالى وتقديسه ، وإن علق التنزيه على الاسم - وظاهره اللفظ الدال على المسمى - والاسم إنما يقع في القول فنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزّه عنه كذكر الآلهة والشركاء والشفعاء ونسبة الربوبية إليهم وكذكر بعض ما يختصّ به تعالى كالخلق والإيجاد والرزق والإحياء والإماتة ونحوها ونسبته إلى غيره تعالى أ وكذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز والجهل والظلم والغفلة وما يشبهها من صفات النقص والشين ونسبته إليه تعالى .

و بالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى و هو تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل . و هو يلزم التوحيد الكامل بنفي الشرك الجليّ كما في قوله : «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون» الزمر : ٢٥ ، وقوله : «وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا» أسرى : ٤٦ .

وفي إضافة الاسم إلى الربّ و الربّ إلى ضمير الخطاب تأييد لما قدّمناه فإنّ المعنى سبح اسم ربك الذي اتخذته ربّاً و أنت تدعو إلى أنّه الربّ الإله فلا يقعنّ في كلامك مع ذكر اسمه بالربوبية ذكر من غيره بحيث ينافي تسميته بالربوبية على ما عرّف نفسه لك .

وقوله : «الأعلى» وهو الذي يعلو كلّ عال و يقهر كلّ شيء صفة «ربك» دون الاسم و يعللّ به عناء الحكم أي سبح اسمه لأنّه أعلى .

وقيل : معنى «سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قل: سبحان ربِّي الأعلى كما عن ابن عباس ونسب إليه أيضاً أن المعنى صلّ.

وقيل : المراد بالاسم المسمّى والمعنى نزّهه تعالى عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه من الصفات والأفعال .

و قيل : إنّه ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمّى و استشهد عليه بقول لبيد : «إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما» فالمعنى سَبَّحَ رَبُّكَ الْأَعْلَى .

و قيل : المراد تنزيه أسمائه تعالى عمّا لا يليق بأن لا يؤوّل ممّا ورد منها اسم من غير مقتض ، ولا يبقى على ظاهره إذا كان ماوضع له لا يصحّ له تعالى ، ولا يطلقه على غيره تعالى إذا كان مختصّاً كاسم الجلالة ولا يتلفظ به في محلّ لا يناسبه كبيت الخلاء ، وعلى هذا القياس .

وما قدّمناه من المعنى أوسع و أشمل و أنسب لسياق قوله الآتي « سنقرئك فلا تنسى » و نيسرك لليسرى فذكر ، فإنّ السياق سياق البعث إلى التذكّرة والتبليغ فيدى أوّلاً بإصلاح كلامه ﷺ و تجريده عن كلّ ما يشعر بجليّ الشك و خفيّه بأمره بتنزيه اسم ربّه ، و وعد ثانياً بإقراءه بحيث لا ينسى شيئاً ممّا أوحى إليه وتسهيل طريقة التبليغ عليه ثمّ أمر بالتذكير والتبليغ فافهم .

قوله تعالى : «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» خلق الشيء جمع أجزائه ، و تسويته جعلها متساوية بحيث يوضع كلّ في موضعه الذي يليق به و يعطى حقّه كوضع كلّ عضو من أعضاء الإنسان فيما يناسبه من الموضع .

والخلق و التسوية و إن كانا مطلقين لكنّهما إنّما يشمالان ما فيه تركيب أو شائبة تركيب من المخلوقات .

و الآية إلى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهيّ و هي برهان على ربوبيّته تعالى المطلقة .

قوله تعالى : « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة و حدود معيّنة في ذواتها و صفاتها وأفعالها لاتعدّها و جهّزها بما يناسب

ما قدّر لها فهداها إلى ما قدّر فكلّ يسلك نحوها قدّر له بهداية ربّانية تكوينية كالطفل يهتدي إلى ندي أمّه والفرخ إلى زق أمّه وأبيه، والذكر إلى الأنثى وذي النفع إلى نفعه وعلى هذا القياس .

قال تعالى : « وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وقال : « ثمّ السبيل يسره » عبس : ٢٠ ، وقال : « لكلّ وجهه هو مولّيهها » البقرة : ١٤٨ .

قوله تعالى : « والذي أخرج المرعى » المرعى ما ترعاه الدوابّ فالتعالى هو الذي أخرجها أي أنبتها .

قوله تعالى : « فجعله غثاء أحوى » الغثاء ما يقذفه السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات ، والمراد هنا - كما قيل - اليابس من النبات ، والأحوى الأسود .

وإخراج المرعى لتغذيّ الحيوان ثمّ جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبيّ ودلائله كما أنّ الخلق والتسوية والتقدير والهداية كذلك .

قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلاّ ما شاء الله إنّه يعلم الجهر وما يخفى » قال في المفردات : والقراءة ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، وليس يقال ذلك لكلّ جمع لا يقال : قرأت القوم إذا جمعتهم ، وبدل على ذلك أنّه لا يقال للحرف الواحد إذا نفوّه به قراءة ، انتهى ، وقال في المجمع : والإقراء أخذ القراءة على القاري بالاستماع لتقويم الزلل ، والقاري التالي . انتهى .

وليس إقراؤه تعالى نبيّه ﷺ القرآن مثل إقراء بعضنا بعضاً باستماع المقرئ لما يقرؤه القاري وإصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبيّ ﷺ أن يقرء شيئاً من القرآن فلا يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثمّ يقرء فيصلح بل المراد تمكينه ﷺ من قراءة القرآن كما أنزل من غير أن يغيّره بزيادة أو نقص أو تحريف بسبب النسيان .

فقوله : « سنقرئك فلا تنسى » وعدّه منه لنبيّه ﷺ أن يمكّنه من العلم

بالقرآن و حفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل وهو الملاك في تبليغ الوحي كما أوحى إليه .

وقوله : « إلا ما شاء الله » استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهية على إطلاقها وأن هذه العطية وهي الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على إنساك بل هو باق على إطلاق قدرته له أن يشاء إنساك متى شاء وإن كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذي في قوله : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك غطاء غير مجدذون » هود : ١٠٨ و قد تقدم توضيحه .

وليس المراد بالاستثناء إخراج بعض أفراد النسيان من عموم النفي والمعنى سنقرئك فلا تنسى شيئاً إلا ما شاء الله أن تنساه وذلك أن كل إنسان على هذه الحال يحفظ أشياء وينسى أشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبي ﷺ بلحن الامتنان مع كونه مشتركاً بينه وبين غيره فالوجه ما قد مناه .

والآية بسياقها لا تخلو من تأييد لما قيل : إنه كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي يقرؤه مخافة أن ينساه فكان لا يفرغ جبريل من آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله فلمّا نزلت هذه الآية لم ينس بعده شيئاً .

ويقرب من الاعتبار أن تكون هذه الآية أعني قوله : « سنقرئك فلا تنسى » فazole أو لا ثم قوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » القيامة : ١٩ ثم قوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً » طه : ١١٤ .

وقوله : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » الجهر كمال ظهور الشيء لحاسة البصر كقوله : « فقالوا أرنا الله جهرة » النساء : ١٥٣ ، وأول حاسة السمع كقوله : « إنه يعلم الجهر من القول » الأنبياء : ١١٠ ، والمراد بالجهر الظاهر للإدراك بقربة مقابلته لقوله : « وما يخفى » من غير تقييده بسمع أو بصر .

والجملة في مقام التمليل لقوله : « سنقرئك فلا تنسى » والمعنى سنصلح لك بالك

في تلقى الوحي وحفظه لأننا نعلم ظاهر الأشياء وباطنها فنعلم ظاهر حالك وباطنها وما أنت عليه من الاهتمام بأمر الوحي والحرص على طاعته فيما أمر به .
وفي قوله : «إلا ما شاء الله إنه يعلم» الخ التفات من التكم مع الغير إلى الغيبة والنكته فيه الإشارة إلى حجة الاستثناء فإضافة العلم والحفظ للنبي ﷺ إنما لا يسلب القدرة على خلافه ولا يحدّها منه تعالى لأنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال ومنها القدرة المطلقة ثم جرى الالتفات في قوله : «إنه يعلم» الخ لمثل النكته .

قوله تعالى : «ويسرّك اليسرى» اليسرى - مؤنث أيسر - وهو وصف قائم مقام موصوفه المحذوف أي الطريقة اليسرى والتيسير التسهيل أي ونجعلك بحيث تتخذ دائما أسهل الطرق للدعوة والتبليغ قولاً وفعلاً فتهدى قوما وتمّ الحجة على آخرين وتصر على أذاهم .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ويسرّك اليسرى كما قال : «ويسرّلي أمري» طه : ٢٦ وإتما عدل عن ذلك إلى قوله : «ويسرّك اليسرى» لأنّ الكلام في تجهيزه تعالى نفس النبي الشريفة وجعله إيّاها صالحة لتأدية الرسالة ونشر الدعوة . على ما في يسرّ اليسرى من إيهام تحصيل الحاصل .

فالمراد جعله ﷺ صافي الفطرة حقيقاً على اختيار الطريقة اليسرى التي هي طريقة الفطرة فالآية في معنى قوله حكاية عن موسى : «حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق» الأعراف : ١٠٥ .

قوله تعالى : «فذكر إن نفعت الذكرى» تفريع على ما تقدّم من أمره ﷺ بمنزلة اسم ربه ووعده إقراء الوحي بحيث لا ينسى و تيسيره اليسرى وهي الشرائط الضرورية التي يتوقّف عليها نجاح الدعوة الدينية .
والمعنى إذن لك الأمر بامثال ما أمرناك به وإقراءك فلا تنسى وتيسيرك لليسى فذكر إن نفعت الذكرى .

وقد اشترط في الأمر بالتذكّرة أن تكون نافعة وهو شرط على حقيقته فإنها إذا

لم تنفع كانت لغوا وهو تعالى يجلّ عن أن يأمر باللغو فالتذكرة لمن يخشى لأوّل مرّة تفيد ميلاً من نفسه إلى الحقّ وهو نفعها وكذا التذكرة بعد التذكرة كما قال : « سيدّكّر من يخشى » والتذكرة للأشقى الذي لاختية في قلبه لأوّل مرّة تفيد تمام الحجّة عليه وهو نفعها ويلازمها تجنّبها وتوليّه عن الحقّ كما قال : « ويتجنّبها الأشقى » ، والتذكرة بعد التذكرة له لا تنفع شيئاً ولذا أمر بالاعراض عن ذلك قال تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا » النجم : ٢٩ .

وقيل : الشرط شرط صوري غير حقيقي وإنّما هو إخبار عن أن الذكرى نافعة لا محالة في زيادة الطاعة والانتفاء عن المعصية كما يقال : سله إن نفع السؤال ولذا قال بعضهم « إن وإن » في الآية بمعنى قد ، وقال آخرون : إنّها بمعنى إذ .

وفيه أن كون الذكرى نافعة مفيدة دائماً حتّى فيمن يعاند الحقّ - وقد تمت عليه الحجّة - ممنوع كيف ؟ وقد قيل فيهم : « سواء عليهم ما أذنتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » البقرة : ٧ .

وقيل : إنّ في الكلام إيجازاً بالحذف ، والتقدير فذكّر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع وذلك لأنّه ^{وَاللَّهُ يَسْمَعُ} بعث للتذكرة والإعذار فعليه أن يذكر نفع أولم ينفع فالآية من قبيل قوله : « وجعل لكم سراييل تقيكم الحرّ » النحل : ٨١ أي والبرد .

وفيه أن وجوب التذكرة عليه صلى الله عليه وآله حتّى فيما لا يترتب عليها أثر أصلاً ممنوع .

وقيل : إنّ الشرط مسوق للإشارة إلى استبعاد النفع في تذكرة هؤلاء المذكورين نعيّاً عليهم كأنّه قيل : افعل ما أمرت به لتوخر به وإن لم ينتفعوا به .

وفيه أنّه يردّه قوله تعالى بعده بلافصل : « سيدّكّر من يخشى » .

قوله تعالى : « سيدّكّر من يخشى » أى سيتذكّر ويتعظّ بالقرآن من في قلبه

شيء من خشية الله وخوف عقابه .

قوله تعالى : « ويتجنّبها الأشقى » الضمير للذكرى والمراد بالأشقى بقرينة

المقابلة من ليس في قلبه شيء من خشية الله تعالى ، وتجنب الشيء التباعد عنه ، والمعنى وسيتباعد عن الذكرى من لا يخشى الله .

قوله تعالى : « الذي يصلى النار الكبرى » الظاهر أن المراد بالنار الكبرى نار جهنم وهي نار كبرى بالقياس إلى نار الدنيا ، وقيل : المراد بها أسفل دركات جهنم وهي أشدّها عذابا .

قوله تعالى : « ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ثم للتراخي بحسب رتبة الكلام ، والمراد من نفي الموت والحياة عنه معاً نفي النجاة نفياً مؤكداً فإن النجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إما بالموت حتى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده وإما يتبدل صفة الحياة من الشقاء إلى السعادة ومن العذاب إلى الراحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيبة على حد قولهم في الحرض : لحي فيرجى ولا ميت فينسى .

قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » التزكى هو التطهر والمراد به التطهر من ألوان التعلقات الدنيوية الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد « بل تؤثرن الحياة الدنيا » الخ ، والرجوع إلى الله بالتوجه إليه تطهر من الإخلاد إلى الأرض ، والإنفاق في سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالمالى حتى أن وضوء الصلاة تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه والأيدي والأقدام .

وقوله : « وذكر اسم ربه فصلى » الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظي ، وبالصلاة التوجه الخاص المشروع في الإسلام .

والآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد في المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهما نزلتا في زكاة الفطرة وصلاة العيد وكذا من طرق أهل السنة .

قوله تعالى : « بل تؤثرن الحياة الدنيا » إضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشري من التعلق التام بالدنيا والاشتغال بتعميرها ، والإيثار الاختيار ، وقيل : الخطاب للكفار ، والكلام على أي حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده .

قوله تعالى : «والآخرة خير وأبقى» عدّ الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيامع أنها باقية أبدية في نفسها لأنّ المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ويكفي في الترجيح مجرد كون الآخرة خيراً وأبقى بالنسبة إلى الدنيا وإن قطع النظر عن كونها باقية أبدية .

قوله تعالى : «إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» الإشارة بهذا إلى ما يتّين في قوله : «قد أفلح من تزكّى» إلى تمام أربع آيات ، وقيل : هذا إشارة إلى مضمون قوله : «والآخرة خير وأبقى» .

قيل : وفي إبهام الصحف ووصفها بالتقدم أو لا ثمّ بيانها وتفسيرها بصحف إبراهيم وموسى ثانياً ما لا يخفى من تفخيم شأنها وتعظيم أمرها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشيّ عن عقبة بن عامر الجهنيّ قال : لما نزلت : « فسبح باسم ربك العظيم » قال رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزل « سبح اسم ربك الأعلى » قال : اجعلوها في سجودكم .

أقول : ورواه أيضاً في الدر المنثور عن أحمد وأبي داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه ﷺ .

وفي تفسير القمّيّ «سبح اسم ربك الأعلى» قال : قل : سبحان ربّي الأعلى «الذي خلق فسوّى والذي قدّره هدى» قال : قدّر الأشياء بالتقدير الأوّل ثمّ هدى إليها من يشاء .

وفيه في قوله تعالى : «والذي أخرج المرعى» قال : أي النبات . وفي قوله : «غشاء أحوى» قال : يصير هشيماً بعد بلوغه ويسودّ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينساه ف قيل له : كفي بذلك وتزلت : «سنقرئك فلا تنسى» .

وفي الفقيه وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل : «قد أفلح من تزكى» قال : من أخرج الفطرة قيل له : «ذكر اسم ربه فصلّى» قال : خرج إلى الجبانة ^(١) فصلّى .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن حماد عن جرير عن أبي بصير وزرارة عنه عليه السلام ورواه القمي في تفسيره مرسلًا مضمراً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يقول : «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى» ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر .

أقول : وروى أيضاً نزول الآيتين في زكاة الفطرة وصلاة العيد بطريقين عن أبي سعيد موقوفاً ، وكذا بطريقين عن ابن عمر وبتريق عن نائلة بن الأصقع وبتريقين عن أبي العالية وبتريق عن عطاء وبتريق عن محمد بن سيرين وبتريق عن إبراهيم النخعي وكذا عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ .

وفي الخصال عن عتبة بن عمرو الليثي عن أبي ذر في حديث قلت : يا رسول الله فما في الدنيا مما أنزل الله عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا باذر أفرء «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» .

أقول : يؤيد الحديث كون الإشارة بهذا إلى مجموع الآيات الأربع كما تقدم .

وفي البصائر بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : عندنا الصحف التي قال الله : «صحف إبراهيم وموسى» قلت : الصحف هي الألواح ؟ قال : نعم .

أقول : ورواه أيضاً بتريق آخر عن أبي بصير عنه عليه السلام والظاهر أن المراد بكون الصحف هي الألواح كونها هي التوراة المعبر عنها في مواضع من القرآن بالألواح كقوله تعالى : «وكتبنا له في الألواح من كل شيء» الأعراف : ١٤٥ وقوله : «وألقي

الألواح ، الأعراف : ١٥٠ وقوله : « أخذ الألواح » الأعراف : ١٥٤ .
 وفي المجمع روي عن أبي ذرٍّ أنه قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال :
 مائة ألف نبيٍّ وأربعة وعشرون ألفاً قلت : يا رسول الله كم المرسلون منهم ؟ قال : ثلاث
 مائة وثلاثة عشر وبقيتهم أنبياء . قلت : كان آدم نبياً ؟ قال : نعم كلمه الله وخلقه
 بيده .

يا بازدر أربعة من الأنبياء عرب : هود و صالح و شعيب و نبيك .
 قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة و أربعة كتب أنزل منها
 على آدم عشرة صحف ، و على شيث خمسين صحيفة ، و على أخنوخ و هو إدريس
 ثلاثين صحيفة و هو أول من خط بالقلم وعلى إبراهيم عشر صحائف و التوراة و الأناجيل
 و الزبور و الفرقان .

أقول : و روى ذلك في الدر المنثور عن عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر
 عن أبي ذرٍّ غير أنه لم يذكر صحف آدم و ذكر لموسى عشر صحف قبل التوراة .

﴿سورة الغاشية مكّية وهي ست وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تَسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَآكُوبٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزُرَابِي مَبْنُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

﴿بيان﴾

سورة إنذار وتبشير تصف الغاشية وهي يوم القيامة الذي يحيط بالناس تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين : السعداء والأشقياء واستقرارهم فيما أعدّ لهم من الجنة والنار وتنتهي إلى أمره ﷺ أن يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبي

في العالم الدالة على ربوبيته تعالى لهم ورجوعهم إليه لحساب أعمالهم .
و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «هل أتاك حديث الفاشية» استفهام بداعي التفتيح والإعظام ،
و المراد بالفاشية يوم القيامة سميت بذلك لأنّها تغشى الناس و تحيط بهم كما قال :
« و حشرناهم فلم تغادر منهم أحداً» الكهف: ٤٧ ، أو لأنّها تغشى الناس بأهوالها بقتة
كما قيل ، أو لأنّها تغشى وجوه الكفار بالعذاب .

قوله تعالى : «وجوه يومئذ خاشعة» أي مذلة بالغمّ والعذاب يغشاها ، والخشوع
إنّما هو لأرباب الوجوه و إنّما نسب إلى الوجوه لأنّ الخشوع و المذلة يظهر فيها .
قوله تعالى : «عاملة ناصبة» النصب التعب و «عاملة» خبر بعد خبر لوجوه ،
وكذا قوله : « ناصبة » و «تصلى» و «تسقى» و «ليس لهم» ، و المراد من عملها و نصبها
بقرينة مقابلتهما في صفة أهل الجنة الآتية بقوله : «لسعيها راضية» عملها في الدنيا و
نصبها في الآخرة فإنّ الإنسان إنّما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به و يظفر بالمطلوب
لكن عملهم حبط باطل لا ينفعهم شيأ كما قال تعالى : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل
فجعلناه هباء منثورا» الفرقان: ٢٣ فلا يعود إليهم من عملهم إلّا النصب و التعب بخلاف
أهل الجنة فإنّهم لسعيهم الذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم إلى الجنة والراحة .
و قيل : المراد أنّها عاملة في النار ناصبة فيها فهي تعالج أنواع العذاب الذي
تعدّب به وتتعب لذلك .

و قيل : المراد أنّها عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة .

قوله تعالى : «تصلى ناراً حامية» أي تلمزم ناراً في نهاية الحرارة .

قوله تعالى : «تسقى من عين آنية» أي حارة بالغة في حرارتها .

قوله تعالى : «ليس لهم طعام إلّا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع» قيل :

الضريع نوع من الشوك يقال له : الشبرق و أهل الحجاز يسمّونه الضريع إذا يبس
و هو أخبث طعام و أبشعه لارتفاعه دابة ، ولعلّ تسمية ما في النار به لمجرّد المشابهة
شكلا و خاصّة .

قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناعمة » من النعمة فيكون كناية عن البهجة و السرور الظاهر على البشرة كما قال : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » المطففين : ٢٤ ، أو من النعمة أي متنعمة . قيل : ولم يعطف على قوله : « وجوه يومئذ خاشعة » إشارة إلى كمال البينونة بين حالي الفريقين .

قوله تعالى : « لسعيها راضية » اللام للتقوية ، والمراد بالسعي سعيها في الدنيا بالعمل الصالح ، والمعنى رضيت سعيها وهو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسنا .

قوله تعالى : « في جنة عالية - إلى قوله - وزراي مبثوثة » المراد بعلوها ارتفاع درجاتها وشرها وجلالتها وغزارة عيشها فإن فيها حياة لاموت معها ، ولذّة لا ألم يشوبها و سرور لا غم ولا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاؤون . وقوله : « لا نسمع فيها لاغية » أي لا تسمع تلك الوجوه في الجنة كلمة ساقطة لافائدة فيها .

وقوله : « فيها عين جارية » المراد بالعين جنسها فقد عدّ تعالى فيها عينون في كلامه كالسبيل و الشراب الطهور وغيرهما .

وقوله : « فيها سرر مرفوعة » السرر جمع سرير وفي ارتفاعها جلالة القاعد عليها ، « وأكواب موضوعة » الأكواب جمع كوب وهو الإبريق لا خرطوم له ولا عروة يتخذ فيه الشراب « و نمارق مصفوفة » النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة و كونها مصفوفة وضعها في المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا « و زراي مبثوثة » الزراي جمع زريبة مثلثة الزاي وهي البساط الفاخر و بثها بسطها للقعود عليها .

قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت » بعد ما فرغ من وصف الغاشية و بيان حال الفريقين ، المؤمنين و الكفار عقبه بإشارة إجمالية إلى التدبير الربوبي الذي يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضية لوجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظارف الذي فيه ذلك هو الغاشية .

و قد دعاهم أولاً أَنْ ينظروا إلى الأبل كيف خلقت ؟ و كيف صورَّ الله سبحانه أرضاً عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها و حملها و لحمها و ضرعها و جلدها و وبرها حتى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقاً غير مطلوب بحيلاله ؟

و تخصيص الأبل بالذكر من جهة أن السورة مكيّة و أوّل من تتلى عليهم الأعراب و اتّخاذ الآبال من أركان عيشتهم .

قوله تعالى : « و إلى السماء كيف رفعت » و زينت بالشمس و القمر و سائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض و قد جعل دونها الهواء الذي يضطر إليه الحيوان في تنفّسه .

قوله تعالى : « و إلى الجبال كيف نصبت » وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها و مخازن الماء التي تتفجّر منها العيون و الأنهار و محافظ للمعادن .

قوله تعالى : « و إلى الأرض كيف سطحت » أي بسطت و سوّيت فصلحت لسكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرفات الصناعيّة التي للإنسان .

فهذه تدبيرات كليّة مستندة إليه تعالى بلاريب فيه فهو ربّ السماء و الأرض و ما بينهما فهو ربّ العالم الإنسانى يجب عليهم أن يتخذوه ربّاً و يوحدوه و يعبدوه و أمامهم الفاشية و هو يوم الحساب و الجزاء .

قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر » تفريع على ما تقدّم و المعنى إذا كان الله سبحانه هو ربّهم لا ربّ سواه و أمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكر هم بذلك .

و قوله : « إنّما أنت مذكر » بيان أنّ وظيفته - وهو رسول - التذكير رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إجاء .

قوله تعالى : « لست عليهم بمسيطر » المسيطر - أصله المسيطر - المتسلط ، و الجملة بيان و تفسير لقوله : « إنّما أنت مذكر » .

قوله تعالى : «إلا من تولّى وكفر» استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق : « فذكر » و التقدير فذكر الناس إلا من تولّى منهم عن التذكرة و كفر . إذ تذكرته لغو لا فائدة فيها ، و معلوم أن التولّى و الكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفى بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنّه قيل : ذكرهم و آدم التذكرة إلا لمن ذكرته فتولّى عنها و كفر ، فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذّب به الله العذاب الأكبر .

فتوله : « فذكر - إلى أن قال - إلا من تولّى وكفر فيعذّب به الله العذاب الأكبر » في معنى قوله : « فذكر إن نفعت الذكرى - إلى أن قال - و يتجنبها الأشفى الذي يصلّى النار الكبرى » الأعلى : ١٢ وقد تقدّم بيانه .

وقيل : الاستثناء من ضمير «عليهم» في قوله : «لست عليهم بمسيطر» والمعنى لست عليهم بمتسلّط إلا على من تولّى منهم عن التذكرة وأقام على الكفر فسيُسلّطك الله عليه و يأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله .

وقيل : الاستثناء منقطع والمعنى لست عليهم بمتسلّط لكن من تولّى وكفر منهم يعذّب به الله العذاب الأكبر ، وما قدّمناه من الوجه أرجح وأقرب .
قوله تعالى « فيعذّب به الله العذاب الأكبر » هو عذاب جهنّم فالآية كما تقدّم محاذية لقوله في سورة الأعلى «الذي يصلّى النار الكبرى» .

قوله تعالى : «إنّ إلينا إيابهم» الإياب الرجوع و «إلينا» خبر إنّ وإنّما قدّم للتأكيد ولرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا فائـل برجـوع الناس إلى غير الله سبحانه والآية في مقام التعليل للتعذيب المذكور في الآية السابقة .

قوله تعالى : « ثم إنّ علينا حسابهم » الكلام فيه كالكلام في الآية السابقة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع وقال أبو عبد الله عليه السلام : كل ناصب وإن تعبد واجتهد يصير إلى هذه الآية «عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية» .

أقول : ورواه في ثواب الأعمال مسنداً ولفظه كل ناصب وإن تعبد واجتهد يصير إلى هذه الغاية «عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية» .

وفيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمر من الصبر وأتقن من الجيفة وأشدّ حرّاً من النار سمّاه الله الضريع .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «لا تسمع فيها لأغية» قال : الهزل والكذب .

وفيه في قوله تعالى : «لست عليهم بمسيطر» قال : بحافظ ولا كاتب عليهم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرء «فذكّر إنّا أنتم مذكّر لست عليهم بمسيطر» .

أقول : لادلالة في الرواية على كون الاستثناء من ضمير «عليهم» وهو ظاهر .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «إلا من تولى وكفر» يريد من لم يتعظ ولم يصدقك ووجد ربوبيتي وكفر نعمتي «فيعذب به الله العذاب الأكبر» يريد الغليظ الشديد الدائم «إن إلينا إيابهم» يريد مصيرهم «ثم إن علينا حسابهم» يريد جزاءهم .

وفي النهج وسئل عليه السلام : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم . قيل : فكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ قال : كما يرزقهم ولا يرونه .

و فيه قال الصادق عليه السلام : كل أمة يحاسبها إمام زمانها ، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله : «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم الحديث .

اقول : قد تقدّم توضيح معنى الحديث في تفسير الآية من سورة الأعراف ، وروى هذا المعنى في البصائر عن الصادق عليه السلام مسنداً وفي الكافي عن الباقر والكاظم عليهما السلام وفي الفقيه عن الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة .



﴿سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ
وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ (٥) أَلَمْ
تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) أَرَمَ ذَاتَ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَكَثُرُوا فِيهَا الْفُسَادُ (١٢)
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمْرِضَادٍ (١٤) فَمَا
الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ
لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ
تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا
إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)
وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣)
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥)
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُظْمِنَةُ (٢٧) ارْجِعِي
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي
جَنَّتِي (٣٠) .

﴿ بيان ﴾

في السورة ذمّ التعلّق بالدنيا المتعقّب للطغيان والكفران وإبعاد أهله بأشدّ عذاب الله في الدنيا والآخرة فتبيّن أنّ الإنسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أنّ ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله وأنّ ما يتلبّس به من الفقر والعدم من هوانه فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد ويكفر إذا فقد وقد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدرة والثروة ومن الفقر وضيق المعاش امتحان وابتلاء إلهيّ ليظهر به ماذا يقدر من دنياه لأخراه .

فليس الأمر على ما يتوهّمه الإنسان ويقول به بل الأمر كما سيذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب أنّ ما أصابه من فقر أو غنى أو قوّة أو ضعف كان امتحاناً إلهياً وكان يمكنه أن يقدر من يومه لغده فلم يفعل وآثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلّا النفس المطمئنّة إلى ربّها المسلمة لأمره التي لا تنزلز بعواصف الابتلاءات ولا يطغيه الوجدان ولا يكفره فقدان .

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسرهل في ذلك قسم لذي حجر » الفجر الصبح والشفع الزوج قال الراغب : الشفع ضمّ الشيء إلى مثله ويقال للمشفوع شفع . انتهى . وسرى الليل مضيه وإدباره ، والحجر العقل فقوله : « والفجر » إقسام بالصبح وكذا الحال فيما عطف عليه من ليال و الشفع و الوتر والليل .

ولعلّ ظاهر قوله : « والفجر » أنّ المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضاً أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذي الحجة .

وقيل : المراد فجر ذي الحجة ، وقيل : فجر المحرمّ أوّل السنة وقيل : فجر يوم الجمعة ، وقيل : فجر ليلة جمع ، وقيل : المراد به صلاة الفجر ، وقيل : النهار كلّّه

وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها وهي وجوه رديئة .

وقوله : « وليال عشر » لعل المراد بها الليالي العشر من أول ذي الحجة إلى عاشرها والتنكير المتفخيم .

وقيل : المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان ، وقيل : الليالي العشر من أوله ، وقيل الليالي العشر من أول المحرم ، وقيل : المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر .

وقوله « والشفع والوتر » يقبل الانطباق على يوم التروية و يوم عرفة وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر و ليال عشر فجر ذي الحجة و العشر الأول من لياليها .

وقيل : المراد صلاتا الشفع والوتر في آخر الليل ، وقيل : مطلق الصلاة فمنها شفع ومنها وتر ، وقيل : الشفع يوم النحر و الوتر يوم عرفة ، وقيل : الشفع جميع الخلق لأنه قال : « وخلقناكم أزواجاً » النبأ : ٨ والوتر هو الله تعالى ، وعلى هذه الأقوال روايات ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وقيل : المراد الزوج والفرد من العدد ، وفي الأقسام بهما تذكير بالعدد لما في ضبط المقادير به من عظيم النعمة من الله سبحانه ، وقيل : الشفع والوتر جميع المخلوقات لأن الأشياء إما زوج وإما فرد ، وقيل : الوتر آدم شفع بزوجته ، وقيل : الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لاليل بعده وهو يوم القيامة ، وقيل : الشفع الصفا والمرودة والوتر البيت الحرام ، وقيل : الشفع أيام عاد والوتر لياليها ، وقيل : الشفع أبواب الجنة وهي ثمانية و الوتر أبواب جهنم وهي سبعة إلى غير ذلك من الأقوال وهي كثيرة أنهاها بعضهم إلى ستة وثلاثين قولاً ولا يخلو أكثرها من تحكّم .

وقوله : « والليل إذا يسر » أي يمضي فهو كقوله : « والليل إذا دبر » المدثر : ٣٣ وظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل ، وقيل : المراد به ليلة المزدلفة وهي ليلة النحر التي يسرى فيها الحاج من عرفات إلى المزدلفة فيجتمع فيها على طاعة الله ثم يغدو منها إلى منى وهو كما ترى وخاصة على القول بكون المراد بليال

عشر هو الليالي العشر الأوائل منها .

وقوله : « هل في ذلك قسم لذي حجر » الإشارة بذلك إلى ما تقدّم من القسم ، والاستفهام للتقرير ، والمعنى أنّ في ذلك الذي قدّمناه قسماً كافياً لمن له عقل يفقه به القول ويميّز الحقّ من الباطل ، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر - ولا يقسم إلاّ بماله شرف ومنزلة - كان من القول الحقّ المؤكّد الذي لا ريب في صدقه .

وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنّة ، وأنّ إناعمه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنّما هو ابتلاء وامتحان .

وحذف الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : « ألم تركب فعل ربك بعاد » هم عاداً وأولى قوم هود تكرّرت قصّتهم في القرآن الكريم وأشار إلى أنّهم كانوا بالأحقاف ، وقد قدّمنا ما يتحصّل من قصصهم في القرآن الكريم في تفسير سورة هود .

قوله تعالى : « إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » العماد وجمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية ، وظاهر الآيتين أنّ إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممدّدة ، وقد انقطعت أخبار القوم لقدم عهدهم وانمحت آثارهم ، فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم تطمئنّ إليها النفس إلّا ما قصّه القرآن الكريم من إجمال قصّتهم أنّهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف وكانوا ذوي بسطة في الخلق وأولى قوّة وبطش شديد ، وكان لهم نقدّم ورفق في المدنيّة والحضارة لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم وقد تقدّمّت القصّة .

وقيل : المراد بإرم قوم عاد - وهو في الأصل اسم أبيهم سمّوا باسم أبيهم كما يقال : قريش ويراد به القرشيّون ويطلق إسرائيل ويراد به بنو إسرائيل - والمراد بكونهم ذات عماد كونهم أولى قوّة وسطوة .

والمعنى ألم تركيف فعل ربك بقوم عاد الذين هم قوم إرم ذوو القوة والشدة الذين لم يخلق مثلهم في بسطة الجسم والقوة والبطش في البلاد أو في أقطار الأرض ولا يخلو من بعد من ظاهر اللفظ .

وأبعد منه ما قيل : إن المراد بكونهم ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع فاذا هاج النبات رجعوا إلى منازلهم .
ومن الأساطير قصة جنة إرم المشهورة المروية عن وهب بن منبه وكعب الأخبار .

قوله تعالى : « وئمود الذين جابوا الصخر بالواد » الجوب القطع أي قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتاً فهو في معنى قوله : « وتنتحون من الجبال بيوتاً » الشعراء : ١٤٩ .

قوله تعالى : « وفرعون ذي الأوتاد » هو فرعون موسى، وسمي ذا الأوتاد - على ما في بعض الروايات - لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلاً بسطه على الأرض ووند يديه ورجليه بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب وفعل به ذلك ، ويؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحرة إذ آمنوا بموسى : « ولأصلبكنم في جذوع النخل » طه : ٧٤ فإنيهم كانوا يوتدون يدي المصلوب ورجليه على خشبة الصليب .

قوله تعالى : « الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد » صفة للمذكورين من عاد وئمود وفرعون ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فصب عليهم ربك سوط عذاب » صب الماء معروف وصب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد ، وتنكير عذاب للتفخيم .
والمعنى فأنزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم وإكثارهم الفساد عذاباً شديداً متتابعاً متوالياً لا يوصف .

قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » المرصاد المكان الذي يرصد منه ويرقب وكونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن

يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمرّ به وهو لا يشعر بالله سبحانه
 رقيب يرقب أعمال عباده حتّى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشدّ العذاب .
 وفي الآية تعليل ما تقدّم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين
 وفي قوله : « ربّك » باضافة الربّ إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أنّ سنّة العذاب
 جارية في أمته ﷺ على ما جرت عليه في الأمم الماضية .

قوله تعالى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمه فيقول ربّي
 أكرمن » متفرّع على ما قبله ، فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتي من نعم الدنيا أو
 حرم كأنّه قيل : إنّ الإنسان تحت رقوب إلهيّ يرصده ربّه هل يصلح أو يفسد ؟
 وببتيه ويمتحنه فيما آتاه من نعمه أو حرمه هذا هو الأمر في نفسه وأما الإنسان
 فإنّه إذا أنعم الله عليه بنعمه حسب أنّ ذلك إكرام إلهيّ له أن يفعل بها ما يشاء
 فيطغي ويكثر الفساد ، وإنّ أمسك وقد رزقه حسب أنّه إهانة إلهيّة فيكفر
 ويجزع .

فقوله : « فأما الإنسان » المراد به النوع بحسب الطبع الأوّليّ فالآدم للجنس
 دون الاستغراق .

وقوله : « إذا ما ابتلاه ربّه » أي امتحنه واختبره ، والعامل في الظرف محذوف .
 تقديره كأنّما إذا الخ وقيل : العامل فيه « فيقول » .

وقوله : « فأكرمه ونعمه » تفسير للابتلاء ، والمراد بالإكرام والتنعيم الصورتان
 وإن شئت فقل : الإكرام والتنعيم حدوثاً لبقاء أي إنّه تعالى أكرمه وآتاه النعمة
 ليشكره ويعبده لكنّه جعلها نعمة على نفسه تستتبع العذاب .

وقوله : « فيقول ربّي أكرمن » أي جعلني على كرامة منه بالنعم التي آتانيها
 وإن شئت فقل : القدرة والجدة الموهوبتان إكرام وتنعيم حدوثاً وبقاءً فلي أن أفعل
 ما أشاء .

والجملة أعني قوله : « فيقول ربّي أكرمن » حكاية ما يراه الإنسان بحسب
 الطبع ، وقول الإنسان : « ربّي أكرمن » الظاهر في نسبة التدبير إلى الله سبحانه -

ولا يقول به الوثنيّة والمنكرون للصانع - مبني على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى وإن استنكف عنه لساناً ، وأيضاً لرعاية المقابلة مع قوله : « إذا ما ابتلاه ربّه » .
قوله تعالى : « وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه عليه رزقه فيقول ربّي أهانن ، أي وأما إذا ما امتحنه واختبره فضيق عليه رزقه فيقول ربّي أذلني واستخفّ بي .
ويظهر من مجموع الآيتين أو لآحيث كرّر الابتلاء وأثبتته في صورتي التنعيم والإيساك عنه أنّ إيتاء النعم والإيساك عنه جميعاً من الابتلاء والامتحان الإلهي كما قال : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ لا كما يراه الإنسان .
وثانياً أنّ إيتاء النعم بما أنّه فضل ورحمة إكرام إن لم يبدّلها الإنسان نقماً على نفسه .

وثالثاً أنّ الآيتين معاً تفيدان أنّ الإنسان يرى سعادته في الحياة هي التنعيم في الدنيا بنعم الله تعالى وهو الكرامة عنده والحرمان منه شقاء عنده والحال أنّ الكرامة هي في التقرب إليه تعالى بالإيمان والعمل الصالح سواء في ذلك الغنى والفقر وأيّ وجدان وفقدان فإنّما ذلك بلاء وامتحان .

ولهم في معنى الآيتين وجوه آخر تركنا التعرّض لها لقلة الجدوى .
قوله تعالى : « كلاً بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » ردع لقولهم : إنّ الكرامة هي في الغنى والتنعم ، وفي الفقر والفقدان هوان ومذلّة والمعنى ليس كما تقولون وإنّما إيتاؤه تعالى النعمة وإيساكه عنه كلّ ذلك ابتلاء وامتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته .

وفي قوله : « بل لا تكرمون اليتيم » النخ إضراب يؤكّد الردع بذكر بعض التنعم الذي لا يجامع الكرامة البتّة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل ترانه ومنعه منه وعدم التحريض على إطعام المسكين حبّاً للمال فالفطرة الإنسانية لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه .

وفي الإضراب مضافاً إلى أصل الردع تقريع ولتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

فقوله : « بل لا تكرمون اليقيم » عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه - كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث - وتركه صفر الكفّ بلغ به الجهد ما بلغ كما تؤيده الآية التالية « وتأكلون التراث » الخ .

وقوله : « ولاتحاضنّ على طعام المسكين » أصله ولاتتحاضنّ ، وهو تحريض بعضهم بعضاً على التصدّق على المساكين المعدمين ، ومنشأه حبّ المال كما في الآية الآتية « وتحبّون المال » الخ .

قوله تعالى : « وتأكلون التراث أكلاً لما » اللّم أكل الإنسان نصيب نفسه وغيره وأكله ما يجده من دون أن يميّز الطيب من الخبيث ، والآية تفسير لعدم إكرامهم اليقيم كما تقدّم .

قوله تعالى : « وتحبّون المال حباً جماً » الجمّ الكثير العظيم ، والآية تفسّر عدم تحاضنّهم على طعام المسكين كما تقدّم .

قوله تعالى : « كلاًّ إذا دكّت الأرض دكّاً » الدكّ هو الدقّ الشديد ، والمراد بالظرف حضور يوم القيامة .

ردع ثانٍ عما يقوله الإنسان في حاله الغنى والفقر ، وقوله : « إذا دكّت الأرض » الخ في مقام التعليل للردع ومحصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيّذكر إذا قامت القيامة أن الحياة الدنيا وما فيها من الغنى والفقر وأضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى يميّز به السعيد من الشقيّ ويهيئ للإنسان فيها ما يعيش به في الآخرة وقد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها ولم يقدم لحياته الآخرة شيئاً فيتمنّى عند ذلك ويقول : يا ليتني قدّمت لحياتي ولن يصرف التمنيّ عنه شيئاً من العذاب .

قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً » نسبة المجيء إليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » الشورى : ١١ وما ورد في آيات القيامة من خواصّ اليوم كتقطع الأسباب وارتفاع الحجب عنهم وظهور أن الله هو الحقّ المبين .

وإلى ذلك يرجع ماورد في الروايات أن المراد بمجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى : «والأمر يومئذ لله» الانفطار : ١٩ ، ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد قوله تعالى «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر» البقرة : ٢١٠ إذا انضم إلى قوله : «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك» النحل : ٣٣ وعليه فهناك مضاف محذوف والتقدير جاء أمر ربك أو نسبة المجيء إليه تعالى من المجاز العقلي .

والكلام في نسبة المجيء إلى الملائكة وكونهم صفًا صفا كما مر .

قوله تعالى : «وجيء يومئذ بجهنم» إلى آخر الآية لا يبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنم إبرازها لهم كما في قوله تعالى : «وبرزت الجحيم لمن يرى» النازعات : ٣٦ وقوله : «وبرزت الجحيم للغاوين» الشعراء : ٩١ ، وقوله : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ .

وقوله : «يومئذ يتذكر الإنسان» أي يتذكر أجلى التذكر أن ما كان يؤتاه في الحياة الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله وامتحان وأنة قصر في أمره ، هذا ما يفيد السياق .

وقوله : «وأنسى له الذكرى» أي و من أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك ما فرط فيه بتوبة وعمل صالح واليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع والعمل .

قوله تعالى : «يقول يا ليتني قدمت لحياتي» أي لحياتي هذه وهي الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقية وهي الحياة الآخرة على ما نبه تعالى عليه بقوله : «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت : ٦٤ .

والمراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة وما في الآية تمنّ يتمناه الإنسان عندما يتذكر يوم القيامة ويشاهد أنه لا ينفعه .

قوله تعالى : «فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد» ضميرا «عذابه

ووثاقه» لله تعالى والمعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي إن عذابه ووثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم . تشديد في الوعيد .

وقرء «لا يعذب» بفتح الدال و«لا يوثق» بفتح الثاء بالبناء للمفعول وضمير «عذابه ووثاقه» على هذا للإِنسان والمعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الإِنسان ولا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه .

قوله تعالى : «يا أَيُّهَا النفس المطمئنة» الذي يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف وعيّن لها من حسن المنقاب وبين الإِنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلّق بالدنيا والطغيان والفساد والكفران ، وما أوعد من سوء المصير هو أنّ النفس المطمئنة هي التي تسكن إلى ربّها وترضى بما رضى به فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أيّ نفع وضرّ ابتلاء وامتحاناً إلهياً فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد والعلو والاستكبار ، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر بل هو في مستقرّ من العبوديّة لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط .

قوله تعالى : «ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة» خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها إلى استقرارها في الجنّة بل من حين نزول الموت إلى دخول جنّة الخلد وليس خطاباً واقعاً بعد الحساب كما ذكره بعضهم .

وتوصيفها بالراضية لأنّ اطمئنانها إلى ربّها يستلزم رضاها بما قدّر وقضى تكويناً أو حكماً به تشريعاً فلا تسخطها سائحة ولا تزيغها معصية ، وإذا رضى العبد من ربّه رضى الربّ منه إذ لا يسخطه تعالى إلّا خروج العبد من زيّ العبوديّة فاذا لزم طريق العبوديّة استوجب ذلك رضى ربّه ولذا عقب قوله : «راضية» بقوله : «راضية» .

قوله تعالى : «فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي» تفرّيع على قوله : «ارجعي

إلى ربك» وفيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة في زمرة عباد الله حائز مقام العبودية.

وذلك أنه لما اطمأن إلى ربه انقطع عن دعوى الاستقلال ورضي بما هو الحق من ربه فرآى ذاته وصفاته وأفعاله ملكاً طلقاً لربه فلم يرد فيما قدر وقضى ولا فيما أمر ونهى إلا ما أَرَادَهُ ربه، وهذا ظهور العبودية التامة في العبد ففي قوله: « فادخلي في عبادي » تقرير لمقام عبوديتها .

وفي قوله: « وادخلي جنتي » تعيين لمستقرها، وفي إضافة الجنة إلى ضمير التكلم تشریف خاص، ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة إلى نفسه تعالى وتقدس إلا في هذه الآية .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى: « والشفع والوتر » : وقيل: الشفع الخلق لا لله قال: « وخلقناكم أزواجا » والوتر الله تعالى ، عن عطية العوفي وأبي صالح وابن عباس ومجاهد وهي رواية أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، وقيل: الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر وهي رواية ابن حصين عن النبي ﷺ ، وقيل: الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة عن ابن عباس وعكرمة والضحاك ، وهي رواية جابر عن النبي ﷺ والوجه فيه أن يوم النحر يشفع بيوم نحر بعده ويتفرّد يوم عرفة بالموقف ، وقيل: الشفع يوم التروية والوتر يوم عرفة وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله ع .

أقول : الروايات الثلاث المشار إليها مروية عن النبي ﷺ من طرق أهل السنة ويمكن الجمع بينها بأن المراد مطلق الشفع والوتر والروايات من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

وفي تفسير القمي « وليال عشر » قال : عشر ذي الحجة « والشفع والوتر » قال : الشفع ركعتان والوتر ركعة ، وفي حديث : الشفع الحسن والحسين والوتر أمير-

المؤمنين ﷺ « والليل إذا يسر » قال : هي ليلة جمع .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله : « لذي حجر » يقول : لذي عقل .

وفي العلل باسناده إلى أبان الأحمر قال : سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عز وجل : « وفرعون ذي الأوتاد » لأي شيء سمّي ذا الأوتاد ؟ فقال : لأنه كان إذا عذّب رجلاً بسطه على الأرض على وجهه ومدّ يديه ورجليه فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض . وربما بسطه على خشب منبسط فوتردّ رجليه ويديه بأربعة أوتاد ثم تركه على حاله حتى يموت فسمّاه الله عز وجل فرعون ذا الأوتاد .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » وروي عن علي ﷺ أنه قال : إن معناه أن ربك قادر أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم .
اقول : بناء الرواية على أخذ الجملة استعارة تمثيلية .

وفيه عن الصادق ﷺ أنه قال : المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد .

وعن الغوالي عن الصادق ﷺ في حديث في تفسير قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه » إنما ظنّ بمعنى استيقن أن الله تعالى لن يضيّق عليه رزقه ألا تسمع قول الله تعالى : « وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه » أي ضيّق عليه .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله : « كلاً إذا دكت الأرض دكاً دكاً » قال : هي الزلزلة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون ما تفسير هذه الآية « كلاً إذا دكت الأرض - إلى قوله - وجيء يومئذ بجهنّم » قال : إذا كان يوم القيامة نقاد جهنّم بسبعين ألف زمام بيد سبعين ألف ملك فتشرد شرده لولا أن الله حبسها لأحرقت السماوات والأرض .

اقول : وهو مروي أيضاً عن أبي سعيد وابن مسعود ومن طرق الشيعة في أمالي

الشيخ باسناده عن داود بن سليمان عن الرضا عن آباءه عن عليٍّ عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا من أخبار التوحيد باسناده عن عليٍّ بن فضال عن أبيه قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وجاء ربك والملك صفًا صفًا » فقال : إن الله سبحانه لا يوصف بالمجيء والذهاب تعالى عن الانتقال إنما يعني بذلك وجاء أمر ربك .

وفي الكافي باسناده عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك يا بن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك فيقول ملك الموت : يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمدًا لا نبي أبرك وأشفق عليك من والد رحيم لوحضرك ، افتح عينيك فانظر .

قال : ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام فيقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقاؤك .

قال : فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه مناد من قبل رب العزة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته ارجعي إلى ربك راضية بالولاية مرضية بالثواب فادخلي في عبادي يعني محمدًا وأهل بيته وادخلي جنّتي فما من شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي .

اقول : وروى هذا المعنى القمّي في تفسيره والبرقي في المحاسن .

﴿سورة البلد مكيّة وهي عشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا
 الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ
 لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ
 أَحَدٌ (٧) أَنْهُمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ
 (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣)
 أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا
 مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ
 (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَأْيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ
 الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة أن خلقه الإنسان مبنية على التعب والمشقة فلا تجد شأنا من
 شؤون الحياة إلا مقرونا بمرارة الكد والتعب من حين يلج في جثمانه الروح إلى أن
 يموت فلا راحة له عارية من التعب والمشقة ولا سعادة له خالصة من الشقاء والمشأمة
 إلا في الدار الآخرة عند الله .

فليتحمّل ثقل التكاليف الإلهية بالصبر على الطاعة وعن المعصية وليجدّ في
 نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر كاليتيم والفقر والمرض وأضرابها حتّى يكون

من أصحاب الميمنة وإلا فأخرته كأولاه وهو من أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة .
 وسياق آيات السورة، يشبه السياق المكيّ فيؤيد به كون السورة مكيّة وقد ادّعى
 بعضهم عليه الإجماع ، وقيل : السورة مدنيّة والسياق لا يساعد عليه ، وقيل : مدنيّة
 إلا أربع آيات من أوّلها وسيأتي في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .
قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » ذكروا أنّ المراد بهذا البلد مكة وتأييده
 مكيّة سياق السورة وقوله : « ووالد وما ولد » خاصّة بناء على كون المراد بوالد هو إبراهيم
 عليه السلام على ما سيجيء .

قوله تعالى : « وأنت حلّ بهذا البلد » حال من هذا البلد ، و وضع الظاهر
 موضع الضمير في قوله : « بهذا البلد » للدلالة على عظم شأنه والاعتناء بأمره وهو البلد
 الحرام ، والحلّ مصدر كالحلول بمعنى الإقامة والاستقرار في مكان والمصدر بمعنى الفاعل .
 والمعنى أقسم بهذا البلد والحال أنك حال به مقيم فيه وفي ذلك تنبيه على
 تشرّف مكة بحلوله ﷺ فيها وكونها مولده ومقامه .

وقيل : الجملة معترضة بين القسم والمقسم به والمراد بالحلّ المستحلّ الذي لا حرمة له
 قال في الكشف : واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله : « وأنت حلّ بهذا البلد »
 يعني ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحلّ بهذا البلد الحرام كما يستحلّ
 الصيد في غير الحرم - عن شرحبيل - بحرّ مون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا^(١) بها
 شجرة ويستحلّون إخراجك وقتلك ، وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ وبعث على
 احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته انتهى .

ثم قال : أو سأل رسول الله ﷺ بالقسم ببلده أن الإنسان لا يخلو من مقاساة
 الشدائد واعترض بأن وعده فتح مكة تميماً للتسليّة والتنفيس عنه فقال : « وأنت حلّ
 بهذا البلد » يعني وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر إلى
 آخر ما قال ، ومحصله تفسير الحلّ بمعنى المحلّ ضدّ المحرم ، والمعنى وسنحلّ لك
 يوم فتح مكة حيناً فتقاتل وتقتل فيه من شئت .

(١) عضد الشجرة قطعها ونشر ورقها للابل . وشرحبيل راوى الحديث .

قوله تعالى : « ووالد وماولد » لزوم نوع من التناسب و الارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد وماولد من بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم و ولده إسماعيل عليهما السلام وهما السبيان الأصليّان لبناء بلدة مكّة والبائيان للبيت الحرام قال تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، البقرة : ١٢٧ وإبراهيم عليه السلام هو الذي سأل الله أن يجعل مكّة بلداً آمناً قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً » إبراهيم : ٣٥ . وتنكير « والد » للتعظيم والتفخيم ، والتعبير بقوله : « وماولد » دون أن يقال : و من ولد ، للدلالة على التعجب من أمره مدحاً كما في قوله : « والله أعلم بما وضعت » آل عمران : ٣٦ . والمعنى وأقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم وماولد من ولد عجيب أمره مبارك أثره وهو إسماعيل ابنه وهما البائيان لهذا البلد فمقاد الآيات الثلاث الإقسام بمكّة المشرفة وبالنبي ﷺ الذي هو حل فيها وإبراهيم وإسماعيل اللذين بنياها . وقيل : المراد بالوالد إبراهيم وبما ولد جميع أولاده من العرب .

وفيه أن من البعيد أن يقارن الله سبحانه بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام وبين أمثال أبي لهب وأبي جهل وغيرهم من أئمة الكفر فيقسم بهم جميعاً في سياق وقد تبرأ إبراهيم عليه السلام ممن لم يتبعه من بنيه على التوحيد إذ قال فيما حكاها الله : « واجنبنني و بني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني و من عصاني فإنه لك غفور رحيم » إبراهيم : ٣٦ .

فعلى من يفسر ما ولد بأولاد إبراهيم أن يخصهم بالمسلمين من ذريته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عند بنائهما الكعبة على ما حكاها الله : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا » البقرة : ١٢٨ . وقيل : المراد بوالد وما ولد ، آدم عليه السلام و ذريته جميعاً بتقريب أن المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان في كبد وقد سن الله في خلق هذا النوع وإبقاء وجوده سنّة الولادة فقد أقسم في هذه الآيات بمحصول هذه السنّة وهو الوالد وما ولد على أن الإنسان في كبد وتعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى حين يموت .

وهذا الوجه في نفسه لا بأس به لكن يبقى عليه بيان المناسبة بين بلدة مكّة و بين والد وكلّ مولود في الجمع بينهما في الإقسام .

و قيل : المراد بهما آدم والصالحون من ذريّته ، و كأنّ الوجه فيه تنزيهه تعالى من أن يقسم بأعدائه الطغاة والمفسدين من الكفار والفساق .

و قيل : المراد بهما كلّ والد وكلّ مولود وقيل : من يلد ومن لا يلد منهم بأخذ « ما » في « ما ولد » نافية لاموصولة .

وقيل : المراد بالدهو النبي ﷺ وبما ولد أمّته لأنّه بمنزلة الأب لأمّته وهي وجوه بعيدة .

قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » الكبد الكدّ والتعب ، والجملة جواب القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطة الكدّ والتعب به في جميع شؤون حياته ممّا لا يخفى على ذي لبّ فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة في طيبها محضة في هنائها ولا ينال شيئاً منها إلا مشوبة بما ينقص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة مضافاً إلى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحداث .

قوله تعالى : « أيعسب أن لن يقدر عليه أحد » بمنزلة النتيجة لحجّة الآية السابقة تقريرها أن الإنسان ممّا كان خلقته مبنية على كبد مظلوفة له لا ينال قطّ شيئاً ممّا يريد إلاّ دون ما يريد أو غير ما يريد فهو محاط في خلقه مغلوب في إرادته مقهور فيما قدر له من الأمر والذي يغلبه في إرادته ويقهره على التلبّس بما قدر له وهو الله سبحانه يقدر عليه من كلّ جهة فله أن يتصرّف فيه بما شاء ويأخذه إذا أراد . فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك إلى أن يعلمو على الله ويستكبر عن عبادته أو يطيعه في بعض ما أمر به كالألفاق في سبيله فيستكثره ويمتنّ به على الله أو يمكر به تعالى بعد ما عمله رياء وسمعة عملاً لوجهه الكريم فيقول : أهلك ما لا لبدا .

قوله تعالى : « يقول أهلك ما لا لبدا » اللبد الكثير ، سياق الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنّه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال إليه

قد أنفق بعض ماله وامتنَّ به مستكثراً له بقوله : «أهلكت مالاّ لبدأ» فنزلت الآيات وردَّ الله عليه بأنَّ الفوز بميمنة الحياة لا يتمُّ إلّا باقتحام عقبة الانفاق في سبيل الله والدخول في زمرة الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والرحمة ، ويتأيّد به ما سيأتي في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » إنكار لما هو لازم قول الإنسان : «أهلكت مالاّ لبدأ» على طريق التكنية و محصّل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالاّ لبدأ أنّه يحسب أنّا في غفلة وجهل بما أنفق وقد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكنّ هذا المقدار لا يكفي في الفوز بميمنة الحياة بل لابدّ له من أن يتحمّل ما هو أزيد من ذلك من مشاقّ العبوديّة فيقتحم العقبة ويكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه .

قوله تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » النجد الطريق المرتفع ، والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق الشرّ وسمّيا النجدين لما في سلوك كلّ منهما من الجهد والكدح ، وفسّرا بشديي الأُمّ وهو بعيد .

و قوله : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ » أي جهّزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها ، وقوله : « وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ » أي أولم نجعل له لساناً وشفتين يستعين بها على التكلّم والدلالة على ما في ضميره من العلم و يهتدي بذلك غيره على العلم بالأُمور الغائبة عن البصر .

وقوله : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » أي علّمناه طريق الخير وطريق الشرّ بإلهام منّا فهو يعرف الخير ويميّزه من الشرّ فالآية في معنى قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

وفي الآيات الثلاث حجّة على قوله : « أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » أي على أنّه تعالى يرى أعمال عباده ويعلم ما في ضمائرهم من وجوه الأعمال ويميّز الخير من الشرّ والحسنة من السيئة .

محصلها أن الله سبحانه هو الذي يعرف المرئيات للإنسان بوسيلة عينيه وكيف يتصور أن يعرفه أمراً وهو لا يعرفه؟ وهو الذي يدل الإنسان على ما في الضمير بواسطة الكلام وهل يعقل أن يكشف له عما هو في حجاب عنه؟ وهو الذي يعلم الإنسان ويميزه الخير والشر بالإنعام وهل يمكن معه أن يكون هو نفسه لا يعلم به ولا يميزه؟ فهو تعالى يرى ما عمله الإنسان ويعلم ما ينويه بعمله ويميز كونه خيراً أو شراً وحسنة أو سيئة .

قوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة » الاقتحام الدخول بسرعة و ضغط و شدة ، والعقبة الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود من الجبل ، واقتحام العقبة إشارة إلى الإنفاق الذي يشق على منفقته كما سيصرح به .

و قيل : الجملة دعاء على الإنسان القائل : أهلك ما لا لبدأ ، وليس بشيء .

قوله تعالى : « وما أدراك ما العقبة » تفخيم لشأنها كما مر في نظائره .

قوله تعالى : « فك رقية » أي عتقها وتحريرها أو التقدير هي أي العقبة فك رقية فالمراد بالعقبة نفس الفك الذي هو العمل واقتحامه الإتيان به ، والإتيان بالعمل نفس العمل .

وبه يظهر فساد قول بعضهم إن فك رقية اقتحام للعقبة لانفس العقبة فهناك مضاف محذوف يعود إليه الضمير والتقدير وما أدراك ما اقتحام العقبة هو - أي الاقتحام فك رقية .

وما ذكر في بيان العقبة من فك الرقية والإطعام في يوم ذي مسغبة من مصاديق نشر الرحمة خص بالذكر لمكان الأهمية ، وقدم فك الرقية وابتدى به لكمال عناية الدين بفك الرقاب .

قوله تعالى : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذامترية » المسغبة المجاعة ، والمقربة القرابة بالنسب ، والذامترية من التراب ومعناها الالتصاق بالتراب من شدة الفقر ، والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيماً من ذي القربى أو

مسكيناً شديد الفقر .

قوله تعالى : « ثمَّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »
المرحمة مصدر ميمي من الرحمة ، والتواصي بالصبر وصيئة بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله
والتواصي بالمرحمة وصيئة بعضهم بعضاً بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكينة .

والجملة أعني قوله : « ثمَّ كان » الخ معطوفة على قوله : « اقتحم » والتقدير
فلا اقتحم العقبة ولا كان من الذين آمنوا الخ وقيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه .
قوله تعالى : « أولئك أصحاب الميمنة » بمعنى اليمن مقابل الشؤم ، والإشارة
بأولئك إلى ما يدل عليه السياق السابق أي الذين اقتحموا العقبة وكانوا من الذين
آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة أصحاب اليمن لا يرون ممّا قدّموه من الإيمان وعملهم
الصالح إلاّ أمراً مباركاً جميلاً مرضياً .

وقيل : المراد بالميمنة جهة اليمين وأصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتابهم
بيمينهم ، ومقابلة الميمنة بالمشأمة لاثلاثهم .

قوله تعالى : « والذين كفروا بآياتناهم أصحاب المشأمة » الآيات الآفاقية
والأنفسية آيات وأدلة عليه تعالى تدلّ على توحده في الربوبية والألوهية وسائر
ما يتفرّع عليه وردّها كفر بها والكفر بها كفر بالله وكذا القرآن الكريم وآياته ، وكذا
ما نزل وبلغ من طريق الرسالة .

والظاهر أنّ المراد بالآيات مطلقها ، والمشأمة خلاف الميمنة .

قوله تعالى : « عليهم نار مؤصدة » أي مطبقة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله : « وأنت حلّ بهذا البلد » : قيل : معناه وأنت محلّ بهذا
البلد وهو ضدّ المحرم ، والمراد أنت حلال لك قتل من رأيت من الكفار ، وذلك
حين أمر بالقتال يوم فتح مكة فأحلّها الله له حتّى قاتل و قتل ، وقد قال ﷺ : لم
يحلّ لأحد قبلي ولا يحلّ لأحد بعدي ولم يحلّ لي إلاّ ساعة من نهار . عن ابن عباس

ومجاهد وعطاء .

و فيه في الآية وقيل : لا أقسم بهذا البلد وأنت حلال منتهك الحرمة مستباح العرض لا تحترم فلا تبقى للبلد حرمة حيث هتكت عن أبي مسلم وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

قال : كانت قریش تعظم البلد و تستحلّ تجداً فيه فقال : « لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد » يريد أنهم استحلّوك فيه وكذبوك و شتموك ، و كانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتل أبيه و يتقلّدون إحصاء شجر الحرم فيأمنون بتقلّدهم إيّاه فاستحلّوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يستحلّوه من غيره فعاب الله ذلك عليهم .

و فيه في قوله تعالى : « و والد وما ولد » : و قيل : آدم و ما ولد من الأنبياء والأوصياء و أتباعهم . عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : والمعاني السابقة مروية من طرق أهل السنة في أحاديث موقوفة ، و روى القميّ في تفسيره الأخيرين بالإرسال والإضمار .

وفي تفسير القميّ « يقول أهلك ما لا لبداً » قال : اللبد المجتمع وفي المجمع في الآية قيل : هو الحارث بن نوفل بن عبد مناف و ذلك أنّه أذنب ذنباً فاستفتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأمره أن يكفّر فقال : لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد ، عن مقاتل .

و في المجمع أنّه قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : إنّ أناساً يقولون في قوله : « وهديناه النجدين » : أنّهما الثديان فقال : لا ، هما الخير والشر .

وفي أصول الكافي بإسناده عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله تعالى : « وهديناه النجدين » قال : نجد الخير والشر .

أقول : و روى في الدّر المنثور هذا المعنى بطرق عن عليّ عليه السلام وأنس وأبي أمامة وغيرهم عن النبيّ صلى الله عليه وآله ورواه القميّ في تفسيره مراسلاً مضمراً .

وفي الكافي بإسناده عن جعفر بن خلاد قال : كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أنّي بصحفة فتوضع قرب مائدته فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ

شيء شيئاً فيضع في تلك الصفحة ثم يأمر بها للمساكين ثم يتلو هذه الآية « فلا اقتحم العقبة » .

ثم يقول : علم الله عز وجل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة .

وفي المجمع وروى مرفوعاً عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، أعتق النسمة و فك الرقبة ، فقال : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا . عتق الرقبة أن يتفرد بعتمتها و فك الرقبة أن يعين في ثمنها ، والفيء على ذي الرحم الظالم .

فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وامر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « او مسكيناً ذامتربة » قال : لا يقيه من التراب شيء .



﴿سورة الشمس مكية وهي ست عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَيَّهَا (٢)
وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥)
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ
ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ
اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا (١٤) فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
فَاسْوَاهَا (١٥) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٦).

﴿بيانات﴾

تذكر السورة أن فلاح الإنسان - وهو يعرف التقوى والفجور بتعريف إلهي - وإلهام باطني - أن يزكّي نفسه وينميها إنماءً صالحاً بتحليلتها بالتقوى وتطهيرها من الفجور، والخيبة والحرمان من السعادة لمن يدسّسها، ويستشهد لذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحاً وعقروا الناقة، وفي ذلك تعريض لأهل مكة، والسورة مكية بشهادة من سياقها.

قوله تعالى: «والشمس وضحاها» في المفردات: الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار وسمي الوقت به انتهى والضمير للشمس، وفي الآية إقسام بالشمس وانبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: «والقمر إذا تلاها» عطف على الشمس والضمير لها وإقسام بالقمر

حالكونه تاليا للشمس ، والمراد بتلوّء لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة وإن كان طلوعه بعد غروبها فالاقسام به من حال كونه هلالاً إلى حال تبدّره .

قوله تعالى : « والنهار إذا جلاّها » التجلية الاظهار والابراز ، وضمير التأنيث للأرض ، والمعنى وأقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار .

وقيل : ضمير الفاعل في « جلاّها » للنهار وضمير المفعول للشمس ، والمراد الاقسام بحال إظهار النهار للشمس فانّها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار ، وفيه أنّه لا يلائم ما تقدّمه فإنّ الشمس هي المظهرة للنهار دون العكس .

وقيل : الضمير المؤنث للدنيا ، وقيل : للظلمة ، وقيل : ضمير الفاعل لله تعالى وضمير المفعول للشمس والمعنى وأقسم بالنهار إذا أظهر الله الشمس ، وهي وجوه بعيدة .

قوله تعالى : « والليل إذا يغشاها » أي يغطّي الأرض ، فالضمير للأرض كما في « جلاّها » ، وقيل : للشمس وهو بعيد فالليل لا يغطّي الشمس وإنما يغطّي الأرض وما عليها .

والتعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل : « والنهار إذا جلاّها » والليل إذا يغشاها ، للدلالة على الحال ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل زمن ظهور الدعوة الاسلاميّة لما تقدّم أنّ بين هذه الأقسام وبين المقسم بها نوع اتصال وارتباط ، هذا مضافاً إلى رعاية الفواصل .

قوله تعالى : « والسماء وما بناها والأرض وما طحاها » طحو الأرض ودحوها بسطها ، و « ما » في « وما بناها » و « ما طحاها » موصولة ، والذي بناها وطحاها هو الله تعالى والتعبير عنه تعالى بما دون من لا يثار الابهام المفيد للتفخيم والتعجيب فالمعنى وأقسم بالسماء والشيء القويّ العجيب الذي بناها وأقسم بالأرض والشيء القويّ العجيب الذي بسطها .

وقيل : ما مصدرية والمعنى وأقسم بالسماء وبنائها والأرض وطحوها ، والسياق

- وفيه قوله : « ونفس وما سوّاها فألهمها النّخ - لا يساعده .

قوله تعالى : « ونفس وما سوّاها » أي وأقسم بنفس والشيء ذي القدرة والعلم والحكمة الذي سوّاها ورتّب خلقها ونظم أعضائها وعدّل بين قواها .

وتنكير « نفس » قيل : للتنكير ، وقيل : للتفخيم ولا يبعد أن يكون التنكير للإشارة إلى أنّ لها وصفاً وأنّ لها نبأ .

والمراد بالنفس النفس الانسانية مطلقاً وقيل : المراد بها نفس آدم ﷺ ولا يلائمه السياق وخاصة قوله : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها » إلا بالاستخدام على أنّه لا موجب للتخصيص .

قوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها » الفجور - على ما ذكره الراغب - شقّ ستر الديانة فالنهي الالهيّ عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الانسان وبينه واقتراف المنهيّ عنه شقّ للستر وخرق للحجاب .

والتقوى - على ما ذكره الراغب - جعل النفس في وقاية ممّا يخاف ، والمراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها وبين الفجور التجنب عن الفجور والتحرّز عن المنافي وقد فسّرت في الرواية بأنّها الورع عن محارم الله .

والإلهام الإلقاء في الروح وهو إفاضته تعالى الصور العلمية من تصوّر أو تصديق على النفس .

وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أنّ المراد تعريفه تعالى للانسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأوّليّ المشترك بين التقوى والفجور كأكل المال مثلاً المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى ، والمباشرة المشتركة بين الزنا وهو فجور والنكاح وهو من التقوى وبالجملة المراد أنّه تعالى عرّف الانسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى وميّز له ما هو تقوى ممّا هو فجور .

وتفريع الإلهام على التسوية في قوله : « وما سوّاها فألهمها » النّخ للإشارة إلى أنّ إلهام الفجور والتقوى وهو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت

خلقتها كما قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ .

وإضافة الفجور والتقوى إلى ضمير النفس للإشارة إلى أن المراد بالفجور والتقوى الملمهين الفجور والتقوى المختصين بهذه النفس المذكورة وهي النفس الانسانية ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلفين بالإيمان والعمل الصالح .

قوله تعالى : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية ، والخيبة خلافه ، والزكاة نموّ النبات نموّاً صالحاً ذا بركة والتزكية إنماءه كذلك ، والتدسّي - وهو من الدسّ بقلب إحدى السينين - إدخال الشيء في الشيء بضرب من الاخفاء ، والمراد بها ، بقرينة مقابلة التزكية ، الانماء على غير ما يقتضيه طبعها ورُكبت عليه نفسها .

والآية أعني قوله : « قد أفلح » الخ جواب القسم ، وقوله : « وقد خاب » الخ معطوف عليه .

والتعبير بالتزكية والتدسّي عن إصلاح النفس وإفسادها مبني على ما يدل عليه قوله : « فألهمها فجورها وتقواها » على أن من كمال النفس الانسانية أنها ملهمة مميزة - بحسب فطرتها - للفجور من التقوى أي أن الدين وهو الاسلام لله فيما يريد فطريّ للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزكية وإنماء صالح وتزويدها بما يمدّها في بقائها قال تعالى : « وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الاباب » البقرة : ١٩٧ وأمرها في الفجور على خلاف التقوى .

قوله تعالى : « كذّبت ثمود بطغواها » الطغوى مصدر كالطغيان ، والباء للسببية .

والآية وما يتلوها إلى آخر السورة استشهاد وتقدير لما تقدّم من قوله « قد أفلح من زكّاها » الخ .

قوله تعالى : « إذ أنبعث أشقاها » ظرف لقوله : « كذّبت » أو لقوله : « بطغواها »

والمراد بأشقى ثمود هو الذي عقر الناقة واسمه على ما في الروايات قدار بن سالف وقد كان انبعاثه يبعث القوم كما تدلّ عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع .
قوله تعالى : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها » المراد برسول الله صالح عليه السلام نبيّ ثمود ، وقوله : « ناقة الله » منصوب على التحذير ، وقوله : « وسقياها » معطوف عليه .

والمعنى فقال لهم صالح برسالة من الله : احذروا ناقة الله وسقياها ولا تتعرّضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها في شرب الماء ، وقد فصلّ الله القصّة في سورة هود وغيرها .
قوله تعالى : « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربّهم بذنبيهم فسوّاها » العقر إصابة أصل الشيء ويطلق على نحر البعير والقتل ، والدمدمة على الشيء الإطباق عليه يقال : دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه والمراد شمولهم بعدذاب يقطع دابرهم ويمحو أثرهم بسبب ذنبيهم .

وقوله : « فسوّاها » الظاهر أنّ الضمير لثمود باعتبار أنّهم قبيلة أي فسوّاها بالأرض أو هو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها وإعفاء ما فيها من ارتفاع وانخفاض .
 وقيل : الضمير للدمدمة المفهومة من قوله : « فدمدم » والمعنى فسوّى الدمدمة بينهم فلم يفلت منهم قويّ ولا ضعيف ولا كبير ولا صغير .
قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها » الضمير للدمدمة أو التسوية ، والواو للاستئناف أو الحال .

والمعنى ولا يخاف ربّهم عاقبة الدمدمة عليهم وتسويتهم كما يخاف الملوك والاقوياء عاقبة عقاب أعدائهم و تبعته ، لأنّ عواقب الأمور هي ما يريد و على وفق ما يأنّ فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « لا يسأل عمنّا يفعل وهم يسألون » الأنبياء : ٢٣ .
 وقيل : ضمير « لا يخاف » للأشقى ، والمعنى ولا يخاف عاقر الناقة عقبى ما صنع بها .
 وقيل : ضمير « لا يخاف » لصالح وضمير « عقباها » للدمدمة والمعنى ولا يخاف صالح عقبى الدمدمة عليهم لثقتة بالنجاة وضعف الوجهين ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى: «نفس وماسواها» قال: خلقها وصورها .
وفي المجمع وروى زرارة وحمزان ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام
في قوله تعالى: «فألهمها فجورها وتقواها» قال: بين لهما يأتني وما يترك ، وفي قوله تعالى:
«قد أفلح من زكاها» قال: قد أفلح من أطاع «وقدخاب من دساها» قال: قدخاب من
عصى .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن
عمران بن حصين أن رجلاً قال: يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون
فيه شيء قد قضي عليهم ومضى عليهم في قدر قد سبق؟ أوفيما يستقبلون به نبيهم واتخذت
عليهم به الحجّة؟ قال: بل شيء قصي عليهم .

قال: فلم يعملون إذا؟ قال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هياً لعملها
وتصديق ذلك في كتاب الله «نفس وماسواها فاجورها وتقواها» .

أقول: قوله: أوفيما يستقبلون الخ الظاهر أن الهمة فيه للاستفهام والواو
للعطف والمعنى وهل في طاعتهم لنبيهم قضاء من الله وقدر قد سبق؟ وقوله: فلم يعملون
إذا، أي فما معنى عملهم واستناد الفعل إليهم؟

وقوله صلى الله عليه وآله: من كان الله الخ معناه أن وجوب صدور الفعل حسنة أو سيئة
منهم بالنظر إلى القضاء والقدر السابقين لا ينافي إمكان صدوره بالنظر إلى الإنسان و
اختياره ، وقد اتضح ذلك في الآبحاث السابقة من الكتاب مراراً .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جوير عن
الضحّاك عن ابن عباس: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «قد أفلح من زكاها» الآية
أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس خبيثها الله من كل خير .

أقول: انتساب التزكية والتخييب إليه تعالى بوجه لا ينافي انتسابهما بالطاعة
والمعصية إلى الإنسان .

وإنما ينتسب إلى الله سبحانه من الإضلال ما كان على طريق المجازاة كما قال:
«وما يضلّ به إلا الفاسقين» البقرة: ٢٦.

وفي المجمع وقد صحّت الرواية بالسناد عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: من أشقى الأولين؟ قال: عافر الناقة. قال: صدقت فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لأعلم يا رسول الله. قال: الذي يضربك على هذه فأشار إلى يافوخه.

أقول: وروى فيه هذا المعنى أيضاً عن عثمان بن ياسر.

وفي تفسير البرهان: وروى الثعلبي والواحدي بالسناد عن عثمان بن صهيب وعن الضحّاك وروى ابن مردويه بالسناد عن جابر بن سمرة وعن عثمان عن ابن عديّ وعن الضحّاك وروى الخطيب في التاريخ عن جابر بن سمرة وروى الطبري والموصلي وروى أحمد عن الضحّاك عن عثمان أنّه قال: قال النبي ﷺ: يا عليّ أشقى الأولين عافر الناقة وأشقى الآخرين قاتلك، وفي رواية من يخضب هذه من هذا.



﴿سورة الليل مكيّة وهي إحدى وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) .

﴿بيان﴾

غرض السورة الانذار وتسلك إليه بالإشارة إلى اختلاف مساعي الناس وأن منهم من أنفق واتقى وصدق بالحسنى فسيمكّنه الله من حياة خالدة سعيدة ومنهم من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فيسلك الله به إلى شقاء العاقبة ، وفي السورة اهتمام وعناية خاصّة بأمر الإيفاق المالي .

والسورة تحتمل المكيّة والمدنيّة بحسب سياقها .

قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حدّ قوله تعالى : « يغشى الليل النهار » الأعراف : ٥٤ ، ويحتمل أن يكون المراد غشائه الأرض أو الشمس .

قوله تعالى : « والنهار إذا تجلّى » عطف على الليل ، والتجلى ظهور الشيء بعد خفائه ، والتعبير عن صفة الليل بالمضارع وعن صفة النهار بالماضي حيث قيل : « يغشى » و « تجلّى » تقدّم فيه وجه في تفسير أوّل السورة السابقة .

قوله تعالى : « وما خلق الذكر والأنثى » عطف على الليل كسابقه ، و « ما » موصولة والمراد به الله سبحانه وإنّما عبر بما دون من إثارة للإبهام المشعر بالتعظيم والتفخيم والمعنى وأقسم بالشيء العجيب الذي أوجد الذكر والأنثى المختلفين على كونهما من نوع واحد .

وقيل : ما مصدرية والمعنى وأقسم بخلق الذكر والأنثى وهو ضعيف . والمراد بالذكر والأنثى مطلق الذكر والأنثى أينما تحققا ، وقيل : الذكر والأنثى من الإنسان ، وقيل : المراد بهما آدم وزوجته حواء ، وأوجه الوجوه أولها .

قوله تعالى : « إنّ سعيكم لشتّى » السعي هو المشي السريع ، والمراد به العمل من حيث يهتمّ به ، وهو في معنى الجمع ، وشتّى جمع شتيت بمعنى المتفرّق كمرضى جمع مريض .

والجملة جواب القسم والمعنى أقسم بهذه المتفرّقات خلقاً وأثراً إنّ مساعيكم لمتفرّقات في نفسها وآثارها فمنها إعطاء وتقوى وتصديق ولها أثر خاصّ بها ، ومنها بخل واستغناء وتكذيب ولها أثر خاصّ بها .

قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » تفصيل تفرّق مساعيهم واختلاف آثارها .

والمراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابلته للبخل الظاهر في الإمساك عن إنفاق المال وقوله بعد : « وما يغني عنه ماله إذا تردّى » .

وقوله : « واتقى » كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينية .

وقوله : « وصدق بالحسنى » الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف والظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى وهي ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم وهو تصديق البعث والإيمان به ولازمه الإيمان بوحدايته تعالى في الربوبية والألوهية ، وكذا الإيمان بالرسالة فإنها طريق بلوغ وعده تعالى للثواب .
ومحصل الآيتين أن يكون مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر و ينفق المال لوجه الله وابتغاء ثوابه الذي وعده بلسان رسوله .

وقوله : « فسنيسره اليسرى » التيسير التهيئة والإعداد واليسرى الخصلة التي فيها يسر من غير عسر ، وتوصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره اليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعداً للحياة السعيدة عند ربّه ودخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة التي يأتي بها ، والوجه الثاني أقرب وأوضح انطباقاً على ما هو المعهود من مواعد القرآن .

قوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى » البخل مقابل الإعطاء ، والاستغناء طلب الغنى والثروة بالإمساك والجمع ، والمراد بالكذب بالحسنى الكفر بالعدة الحسنى و ثواب الله الذي بلغه الأنبياء والرسل ويرجع إلى إنكار البعث .

والمراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحة ، بتثقلها عليه وعدم شرح صدره للإيمان أو إعداده للعذاب .

وقوله : « وما يغني عنه ماله إذا تردى » التردى هو السقوط من مكان عال ويطلق على الهلاك فالمراد سقوطه في حفرة القبر أو في جهنم أو هلاكه .
و « ما » استفهامية أو نافية أي شيء يغنيه ماله إذا مات وهلك أو ليس يغني عنه ماله إذا مات وهلك .

قوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى » تعليل لما تقدم من حديث تيسيره لليسرى وللعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان محصله أننا إنما فعلنا هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنّه من الهدى والهدى علينا لا يزاحمنا في ذلك شيء ولا يمنعنا عنه مانع .

فقوله : « إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى » يفيد أن هدى الناس ممّا قضى سبحانه به وأوجه على نفسه بمقتضى الحكمة وذلك أنّه خلقهم ليعبدوه كما قال : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » الذاريات : ٥٦ فجعل عبادته غاية لخلقهم وجعلها صراطاً مستقيماً إليه كما قال : « إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » آل عمران : ٥١ ، وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطُ اللَّهِ » الشورى : ٥٣ وقضى على نفسه أن يبين لهم سبيله ويهديهم إليه بمعنى إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز » النحل : ٩ ، وقال : « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » الأحزاب : ٤ وقال : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » الانسان : ٣ ولا ينافي ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بأذنه كالانبياء كما قال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » الشورى : ٥٢ ، وقال : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » يوسف : ١٠٨ .

وقد تقدم لهذه المسألة بيان عقلي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب . هذا في الهداية بمعنى إراءة الطريق وأمّا الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب - والمطلوب في المقام الآتيا الحسنة التي تترتب على الاهتداء بهدى الله والتلبس بالعبودية كالحياة الطيبة المعجلة في الدنيا والحياة السعيدة الأبدية في الآخرة - فمن البين أنّه من قبيل الصنع والإيجاد الذي يختص به تعالى فهو ممّا قضى به الله وأوجه على نفسه وسجله بوعده الحق قال تعالى : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » طه : ١٢٣ ، وقال : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهمْ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النحل : ٩٧ ، وقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً

وعدا لله حقاً و من أصدق من الله قيلاً ، النساء : ١٢٢ .

ولا ينافي انتساب هذا المعنى من الهداية إليه تعالى بنحو الأصلة انتسابه إلى غيره تعالى بنحو التبع بتخلل الأسباب بينه تعالى وبين ما ينسب إليه من الأثر بإذنه .

ومعنى الآية - إن كان المراد بالهدى إراءة الطريق - أننا إنمّا نبين لكم ما نبين لأنّه من إراءة طريق العبوديّة وإراءة الطريق علينا ، وإن كان المراد به الإيصال إلى المطلوب أننا إنمّا نيسر هؤلاء ليسرى من الأعمال الصالحة أو من الحياة السهلة الأبديّة ودخول الجنة لأنّه من إيصال الأشياء إلى غاياتها وعلينا ذلك .

وأما التيسير للعسرى فهو ممّا يتوقف عليه التيسير ليسرى « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيزكّمه جميعاً فيجعل في جهنّم » الأنفال : ٣٧ وقد قال سبحانه في القرآن الذي هو هدى للعالمين : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً » أسرى : ٨٢ .

ويمكن أن يكون المراد به مطلق الهداية أعمّ من الهداية التكوينية الحقيقية والتشريعية الاعتبارية - على ما هو ظاهر إطلاق اللفظ - فله تعالى الهداية الحقيقية كما قال : « الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، والهداية الاعتبارية كما قال : « إنّنا هدينه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً » الإنسان : ٣ .

وقوله : « وإنّ لنا للآخرة والأولى » أي عالم البدء و عالم العود فكلّ ما يصدق عليه أنّه شيء فهو مملوك له تعالى بحقيقة الملك الذي هو قيام وجوده بربّه القيوم ويتفرّع عليه الملك الاعتباري الذي من آثاره جواز التصرفات .

فهو تعالى يملك كلّ شيء من كلّ جهة فلا يملك شيء منه شيئاً فلا معارض يعارضه ولا مانع يمنعه ولا شيء يغلبه كما قال : « والله يحكم لامعقب لحكمه » الرعد : ٤١ وقال : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ ، وقال « ويفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

قوله تعالى : « فأنذرتكم نارا نلظى لا يصلاحها إلّا الأشفى الذي كذب وتولى »

تفريع على ما تقدم أي إذا كان الهدى علينا فأنذرتكم نار جهنم وبذلك يوجه ما في قوله : « فأنذرتكم » من الالتفات عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده أي إذا كان الهدى مقضية محتومة فالمنذر بالأصالة هو الله وإن كان بلسان رسوله .

وتلظى النار تلهبها وتوهجها ، والمراد بالنار التي تلتظى جهنم كما قال تعالى : « كلاًّ إنها لظى » المعارج : ١٥ .

والمراد بالأشقى مطلق الكافر الذي يكفر بالكذيب والتولي فإنه أشقى من سائر من شقى في دنياه فمن ابتلى في بدنه شقى ومن أصيب في ماله أو ولده مثلاً شقى ومن خسر في أمر آخرته شقى والشقى في أمر آخرته أشقى من غيره . إكون شقوته أبدية لا مطمع في التخلص منها بخلاف الشقوة في شأن من شؤون الدنيا فإنها مقطوعة لا محالة مرجوة الزوال عاجلاً .

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوة الحقّة المعرض عنها على ما يدلّ عليه توصيفه بقوله : « الذي كذب وتولى » ويؤيده إطلاق الإنذار ، وأما الأشقى بمعنى أشقى الناس كلّهم فمما لا يساعد عليه السياق البتة .

والمراد بصلي النار اتباعها ولزومها فيفيد معنى الخلود وهو ممّا قضى الله به في حقّ الكافر قال تعالى : « والذين كفروا كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

وبذلك يندفع ما قيل : إن قوله : « لا يصلاها إلاّ الأشقى » ينفي عذاب النار عن فساق المؤمنين على ما هو لازم القصر في الآية ، وجه الاندفاع أن الآية إنّما تنفي عن غير الكافر الخلود فيها دون أصل الدخول .

قوله تعالى : « وسيجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى » التجنّب التباعد ، وضمير « سيجنّبها » للنار ، والمعنى سيبعد عن النار الأتقى .

والمراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقى المخاطر فهناك من يتقى ضيعة النفوس كالموت والقتل ومن يتقى فساد الأموال ومن يتقى العدم والفقر فيمسك عن

بذل المال وهكذا ومنهم من يتقي الله فيبذل المال ، وأتقى هؤلاء الطوائف من يتقي الله فيبذل المال لوجهه وإن شئت فقل يتقي خسران الآخرة فيتزكى بالإعطاء .
فالمفضل عليه للأتقى هو من لا يتقي بإعطاء المال وإن اتقى سائر المخاطر الدنيوية أو اتقى الله بسائر الأعمال الصالحة .

فآية عامة بحسب مدلولها غير خاصة ويدل عليه توصيف الأتقى بقوله : «الذي يؤتي ماله» الخ وهو وصف عام وكذا ما يتلوه ، ولا ينافي ذلك كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاص كما ورد في أسباب النزول .

وأما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح ولازمة انحصار المفضل في واحد مطلقاً أو واحد في كل عصر ، ويكون المعنى وسيجنبها من هو أتقى الناس كلهم وكذا المعنى في نظيره : لا يصلها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة ، وكذا الإيذار العام الذي في قوله : « فأندرتكم ناراً تلظى » فلامعنى لأن يقال : أندرتكم جميعاً ناراً لا يخلد فيها إلا واحداً منكم جميعاً ولا ينجو منها إلا واحداً منكم جميعاً .

وقوله : «الذي يؤتي ماله يتزكى» صفة للأتقى أي الذي يعطي وينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماءً صالحاً .

وقوله : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » تقرير لمضمون الآية السابقة أي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى تلك النعمة بما يؤتيه من المال وتكافأ وإنما يؤتيه لوجه الله ويؤيد هذا المعنى تعقيبه بقوله : «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» .
فالتقدير من نعمة تجزى به ، وإنما حذف الظرف رعاية للفواصل ، ويندفع بذلك ما قيل : إن بناء « تجزى » للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين .

قوله تعالى : «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» استثناء منقطع والمعنى ولكنه يؤتي ماله طلباً لوجه ربه الأعلى وقد تقدم كلام في معنى وجه الله تعالى وفي معنى الاسم الأعلى .

قوله تعالى : «ولسوف يرضى» أي ولسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربه

الأعلى من الأجر الجزيل والجزاء الحسن الجميل .

وفي ذكر صفتي الربّ والأعلى إشعار بأنّ ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء وأعلاه وهو المناسب لربوبيته تعالى وعلوه ، ومن هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقة في قوله : «وجه ربّه الأعلى» من سياق التكلّم وحده إلى الغيبة بالإشارة إلى الوصفين : ربّه الأعلى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قول الله عزّ وجلّ «والليل إذا يغشى» «والنجم إذا هوى» وما أشبه ذلك ؟ فقال : إن الله عزّ وجلّ أن يقسم من خلقه بما شاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به .

أقول : ورواه في الفقيه بإسناده عن عليّ بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني عليه السلام . وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » قال : حين يغشى النهار وهو قسم .

و عن الحميريّ في قرب الأسناد عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : سمعته يقول في تفسير « والليل إذا يغشى » إن رجلاً كان لرجل في حائطه نخلة فكان يضرب به فشكى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدعاه فقال : أعطني نخلتك بنخلة في الجنة فأبى فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنى أبا الدحداح فجاء إلى صاحب النخلة فقال : بعني نخلتك بحائطي فباعه فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله قد اشتريت نخلة فلان بحائطي فقال رسول الله : لك بدلها نخلة في الجنة .

فأنزل الله تعالى على نبيّه «وما خلق الزوجين الذكور والأنثى إنّ سعيكم لشتى فأما من أعطى» يعني النخلة «واتقى وصدق بالحسنى» هو ما عند رسول الله صلى الله عليه وآله «فسنيسره لليسرى» - إلى قوله - تردى .

أقول : ورواه القميّ في تفسيره مرسلًا مضمرا ، وقوله : الزوجين تفسير منه عليه السلام

للذكر والأنثى .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «وسيجنبها الأتقى» قال : أبو الدحداح .

قول : هذا مامن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وروى الطبرسي في مجمع البيان القصة عن الواحدي باسناده عن عكرمة عن ابن عباس وفيه أن الأنصاري ساوم صاحب النخلة في نخلته ثم اشتراها منه بأربعين نخلة ثم وهبها للنبي صلى الله عليه وآله فوهبها النبي لصاحب الدار ثم روى الطبرسي عن عطاء أن اسم الرجل أبو الدحداح ، وروى السيوطي في الدر المنثور القصة عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس وضعفه .

وقد ورد من طرق أهل السنة أن السورة نزلت في أبي بكر قال الرازي في التفسير الكبير : أجمع المفسرون منّا على أن المراد منه - يعني من الأتقى - أبو بكر ، واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ، ويقولون إنما نزلت في حق علي بن أبي طالب والدليل عليه قوله تعالى : «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» فقوله : «الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى» إشارة إلى ما في تلك الآية من قوله : «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» ثم أخذ الأتقى بمعنى أفضل الخلق أي أتقى الناس جميعاً وقد تقدّم الكلام فيه .

أمّا ما نسب إلى الشيعة بأسرهم من القول فالعتمد عليه من طرقهم صحيح الحميري المتقدم وما في معناه من الروايات الدالة على نزولها في أبي الدحداح الأنصاري .

نعم ورد في رواية ضعيفة عن البرقي عن إسماعيل بن مهران عن أيمن بن محرز عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام وفيها : وأما قوله : «وسيجنبها الأتقى» قال : رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبعه ، و«الذي يؤتي ماله يتزكى» قال : ذاك أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله : «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» ، وقوله : «وما لأحد عنده من نعمة تجزى» فهو رسول الله الذي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى ونعمته جارية على جميع الخلق صلوات الله عليه .

والرواية على ضعف^(١) سندها من قبيل الجري و التطبيق دون التفسير ومن واضح الدليل عليه تطبيقه الموصوف على رسول الله ﷺ والوصف على عليّ عليه السلام ثم الآية التالية على النبي ﷺ ولو كانت من التفسير لفسد بذلك النظم قطعاً . هذا لو كانت الواو في قوله : « والذي يؤتي ماله يتزكى » من الرواية ولو فرضت من الآية كانت الرواية من روايات التحريف المردودة .

وعن الحميري عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت : قول الله تبارك وتعالى : « إن علينا للهدى » قال : إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

فقلت له : أصلحك الله إن قوماً من أصحابنا يزعمون أن المعرفة مكتسبة وأنهم إن ينظروا من وجه النظر أدر كوه .

فأنكر ذلك وقال : ما هؤلاء القوم لا يكتبون الخير لأنفسهم ؟ ليس أحد من الناس إلّا و يجب أن يكون خيراً أمّنه هو خير منه هؤلاء بنو هاشم موضعهم موضعهم وقرابتهم قرابتهم وهم أحقّ بهذا الأمر منكم أفترى أنهم لا ينظرون لأنفسهم ؟ وقد عرفتم ولم يعرفوا .

قال أبو جعفر : لو استطاع الناس لأحبونا .

أقول : أمّا الهداية والمراد بها الإيصال إلى المطلوب - فهي لله تعالى لأنها من شؤون الربوبية ، وأمّا الإضلال والمراد به الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي الذي لا يضاف إليه تعالى فهو لله أيضاً لكونه إمساكاً عن إنزال الرحمة وعدمها للهداية وإذا كانت الهداية له فالإمساك عنه أيضاً منسوب إليه تعالى .

﴿ سورة الضحى مكيّة أو مدنيّة وهي إحدى عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا
وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهْدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

﴿ بيان ﴾

قيل : انقطع الوحي عن النبي ﷺ أيّاماً حتى قالوا : إن ربّه ودّعه فنزلت
السورة فطيب الله بها نفسه ، والسورة تحتل المكيّة والمدنيّة .
قوله تعالى : « والضحي والليل إذا سجي » إقسام والضحي - على ما في المفردات -
انبساط الشمس و امتداد النهار وسمي الوقت به ، وسجوا الليل سكونه وهو غشيان
ظلمته .

قوله تعالى : « ماودّعك ربك وما قلى » التوديع الترك ، والقلى بكسر القاف
البغض أو شدّته ، والآية جواب القسم ، ومناسبة نور النهار وظلمة الليل لنزول الوحي
وانقطاعه ظاهرة .

قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى » في معنى الترقّي بالنسبة إلى ما
تفيده الآية السابقة من كونه ﷺ على ما هو عليه من موقف الكرامة والعناية الإلهيّة
كأنّه قيل : أنت على ما كنت عليه من الفضل والرحمة مادمت حيّاً في الدنيا وحياتك
الآخرة خير لك من حياتك الدنيا .

قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » تقرير و تثبت لقوله :
« و للآخرة خير لك من الأولى » وقد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضى
مطلق .

وقيل : الآية ناظرة إلى الحياتين جميعاً دون الحياة الآخرة فقط .

قوله تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى » الآية وما يتلوها من الآيتين إشارة إلى
بعض نعمه تعالى العظام عليه صلى الله عليه وآله فقد مات أبوه و هو في بطن أمه ثم
ماتت أمه و هو ابن سنتين ثم مات جدّه الكفيل له و هو ابن ثمان سنين فكفله عمه
وربّاه .

وقيل : المراد باليتيم الوحيد الذي لا نظير له في الناس كما يقال : درّيتيم ، والمعنى
ألم يجدك وحيداً بين الناس فآوى إليك وجمعهم حولك .

قوله تعالى : « و وجدك ضالاً فهدى » المراد بالضلال عدم الهداية و المراد
بكونه صلى الله عليه وآله ضالاً حاله في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلا هدى له صلى الله عليه وآله
ولا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه فقد كانت نفسه في نفسها ضالّة وإن كانت الهداية
الإلهيّة ملازمة لها منذ وجدت فالآية في معنى قوله تعالى : « ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الإيمان » الشورى : ٥٢ ، و من هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه : « فعلتها
إذا وأنا من الضالّين » الشعراء : ٢٠ أي لم أهد بهدى الرسالة بعد .

ويقرب منه ما قيل : إن المراد بالضلال الذهاب من العلم كما في قوله : « أن تضلّ
إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » البقرة : ٢٨٢ ، و يؤيّد قوله : « وإن كنت من
قيله لمن الغافلين » يوسف : ٣ .

و قيل المعنى وجدك ضالاً بين الناس لا يعرفون حقك فهداهم إليك ودلهم
عليك .

وقيل : إنّه إشارة إلى ضلاله في طريق مكّة حينما كانت تجيء به حليلة بنت
أبي نؤب من البدو إلى جدّه عبدالمطلب على ما روى .

وقيل : إشارة إلى ما روي من ضلاله في شعاب مكّة صغيراً .

وقيل : إشارة إلى ماروي من ضلاله في مسيره إلى الشام مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة .

وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة ظاهرة الضعف .

قوله تعالى : « ووجدك عائلاً فأغنى » العائل الفقير الذي لا مال له وقد كان ﷺ فقيراً لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوج بخديجة بنت خويلد ﷺ فوهبت له مالها وكان لها مال كثير ، وقيل المراد بالأغناء استجابة دعوته .

قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » فالراغب : القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما . انتهى .

قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » النهر هو الزجر والرد بغلظة .

قوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » التحديث بالنعمة ذكرها قولاً وإظهارها فعلاً وذلك شكرها ، وهذه الأوامر عامة للناس وإن كانت موجهة إلى النبي ﷺ .

والآيات الثلاث متفرعة على الآيات الثلاث التي تسبقها وتذكر نعمه تعالى عليه كأنه قيل : فقد وجدت ما يجده اليتيم من ذلة اليتيم وانكساره فلا تقهر اليتيم باستذلاله في نفسه أو ماله ، ووجدت مرارة حاجة الضال إلى الهدى والعائل إلى الغنى فلا تزجر سائلاً يسألك رفع حاجته إلى هدى أو معاش ، ووجدت أن ما عندك نعمة أنعمها عليك ربك بجوده وكرمه ورحمته فاشكر نعمته بالتحديث بها ولا تسترها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « والضحى » قال : إذا ارتفعت الشمس والليل إذا سجد : قال : إذا أظلم .

وفيه في قوله تعالى : « وما قلبي » قال : لم يفيضك .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إننا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة

على الدنيا « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

وفيه أخرج العسكري في المواعظ وابن لال وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من حلة الابل فلما نظر إليها قال : يا فاطمة تعجلني فتجري عي مرارة الدنيا لنعيمها الآخرة غداً فأنزله الله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

أقول : تحتل الرواية نزول الآية وحدها بعد نزول بقية آيات السورة قبلها ثم الإلحاق وتحتل نزولها وحدها ثانياً .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : أرايت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال : إي والله حدثني عمي محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله ﷺ قال : أشفع لأمتي حتى ينادينني ربّي : أراضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت .

ثم أقبل علي فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق : إن أرجى آية في كتاب الله : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » قلت : إننا لنقول ذلك . قال : فكلنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » الشفاعة .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن ابن الجهم عن الرضا عليه السلام في مجلس المأمون قال : قال الله تعالى لنبيهم محمد ﷺ : « ألم يجذك يتيماً فأوى » يقول : ألم يجذك وحيداً فأوى إليك الناس ؟ « ووجدك ضالاً » يعني عند قومك « فهدى » أي هداهم إلى معرفتك ؟ « ووجدك عائلاً فأغنى » يقول : أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً ؟ فقال المأمون : بارك الله فيك يا ابن رسول الله .

وفيه عن البرقي بإسناده عن عمرو بن أبي نصر قال : حدثني رجل من أهل البصرة قال : رأيت الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن عمر يطوفان بالبيت فسألت ابن عمر فقلت : قول الله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » قال : أمره أن يحدث بما

أنعم الله عليه .

ثم إنني قلت للحسين بن عليّ عليه السلام : قول الله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » ؟ قال : أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه .

وفي الدر المنثور عن البيهقي عن الحسن بن عليّ في قوله : « وأما بنعمة ربك فحدث » قال : إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك .

وفيه أخرج أبوداود عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ومن كتبه فقد كفره ، ومن تحلى بمالم يعط فإِنَّه كلابس ثوب زور .



﴿سورة ألم نشرح مكِّيَّة أومدنيَّة وهي ثمان آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا
عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧)
وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

﴿بيان﴾

أمر بالنصب في الله والرغبة إليه توصل إليه بتقديم الامتنان و السورة تحتل
المكيَّة والمدنيَّة وساق آياتها أوفق للمدنيَّة .

وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الضحى وألم نشرح سورة
واحدة ، و يروى ذلك أيضاً عن طاوس وعمر بن عبد العزيز قال الرازي في التفسير
الكبير بعد نقله عنهما : و الذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى : « ألم نشرح
لك » كالعطف على قوله : « ألم يجذك يتيماً » و ليس كذلك لأن الأول كان
نزوله حال اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر ،
والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنتى يجتمعان
انتهى .

وفيه أن المراد بشرح صدره ﷺ في الآية جعله بحيث يسع ما يلقي إليه من
الحقائق ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها كما
سيجيء لاطيب القلب والسرور كما فسره .

ويدل على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :
قال رسول الله ﷺ : لقد سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله قلت : أي رب إنه

قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى . قال : فقال :
 ألم أجذك يتيماً فأوَيْتَكَ ؟ قال : قلت : بلى قال : ألم أجذك ضالاًّ فهدَيْتَكَ ؟ قال : قلت :
 بلى أي رب . قال : ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك ؟ قال : قلت : بلى أي
 رب ، وللکلام تمة ستوافيك في تفسير سورة الإيلاف إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » قال الراغب : أصل الشرح بسط اللحم و
 نحوه يقال : شرحت اللحم وشرّحته ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة
 من جهة الله وروح منه قال تعالى : « ربّ اشرح لي صدري » « ألم نشرح لك صدرك »
 « فمن شرح الله صدره » انتهى .

وترتب الآيات الثلاث الأولى في مضامينها ثمّ تعليلها بقوله : « فإنّ مع العسر
 يسراً » الظاهر في الانطباق على حاله ﷺ في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها ثمّ تكرار
 التعليل ثمّ تفريع آيتي آخر السورة كلّ ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره ﷺ
 بسطه بحيث يسع ما يلقى إليه من الوحي ويؤمر بتبليغه وما يصيبه من المكابر والأذى
 في الله ، وبعبارة أخرى جعل نفسه المقدّسة مستعدّة تامّة الاستعداد لقبول ما يفاض
 عليها من جانب الله تعالى .

قوله تعالى : « ووضعتنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك » الوزر الحمل الثقيل ،
 وإنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير ونحوه عند استقرار
 شيء ثقيل عليه ، والمراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهوراً بالغاً .

ووضع الوزر إذهاب ما يحسّ من ثقله وجملة : « ووضعتنا عنك وزرك » معطوف على
 قوله : « ألم نشرح » الخ لما أن معناه قد شرحتنا لك صدرك .

والمراد بوضع وزره ﷺ على ما يفيد السياق - وقد أشرنا إليه - إنفاذ دعوته
 وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإنّ الرسالة والدعوة وما يتفرّع على ذلك هي
 الثقل الذي حمّله إثر شرح صدره .

وقيل : وضع الوزر إشارة إلى ماوردت به الرواية أن ملكين نزلا عليه ولفقا
 صدره وأخرجاه قلبه وطهّراه ثمّ ردّاه إلى محله وستوافيك روايته .

وقيل : المراد بالوزر ما صدر عنه ﷺ قبل البعثة ، وقيل : غفلته عن الشرائع ونحوها مما يتوقف على الوحي مع تطلبه ، وقيل : حيرته في بعض الأمور كأداء حق الرسالة ، وقيل : الوحي وثقله عليه في بادئ أمره ، وقيل : ما كان يرى من ضلال قومه وعنادهم مع عجزه عن إرشادهم ، وقيل : ما كان يرى من تعدّ بهم ومبالغتهم في إيذائه ، وقيل : همته لوفاء عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، وقيل : الوزر المعصية ورفع الوزر عصمته ، وقيل : الوزر ذنب أمته ووضعه غفرانه .

وهذه الوجوه بعضها سخيّف وبعضها ضعيف لا يلائم السياق ، وهي بين ما قيل به وبين ما احتمل احتمالاً .

قوله تعالى : « ورفعنا لك ذكرك » رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس وقد فعل سبحانه به ذلك ، ومن رفع ذكره أن قرن الله اسمه ﷺ باسمه فاسمه قرين اسمه ربّه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله ، وعلى كل مسلم أن يذكره مع ربّه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة ، ومن اللطف وقوع الرفع بعد الوضع في الآيتين .

قوله تعالى : « فإنّ مع العسر يسراً » لا يبعد أن يكون تعليلاً لما تقدّم من وضع الوزر ورفع الذكر فما حمّله الله من الرسالة وأمر به من الدعوة - وذلك أثقل ما يمكن لبشر أن يحمله - كان قد اشتدّ عليه الأمر بذلك ، وكذا تكذيب قومه دعوته واستخفافهم به وإصرارهم على إجماع ذكره كان قد اشتدّ عليه فوضع الله وزره الذي حمّاه بتوفيق الناس لإجابة دعوته ورفع ذكره الذي كانوا يريدون إجماعه وكان ذلك جرياً على سنته تعالى في الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلم رفع الشدة عنه ﷺ بما أشار إليه من سنته ، وعلى هذا فالآم في « العسر » للجنس دون الاستغراق ولعلّ السنة سنة تحوّل الحوادث وتقلب الأحوال وعدم دوامها .

وعن الزمخشريّ في الكشف أنّ الفاء في « فإنّ مع العسر » النخ فصيحة والكلام مسوق لتسليته ﷺ بالوعد الجميل .

قال : كان المشركون يميّزون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتّى

سبق إلى ذهنه الشريف أنهم رغبوا عن الإسلام لاقتقار أهلها واحتقارهم فذكره سبحانه ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال : « إن مع العسر يسرا كأنه قال : خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا .
وظاهره أن اللّام في العسر للعهد دون الجنس وأن المراد باليسر ما رزقه الله المؤمنين بعد من الغنائم الكثيرة .

وهو ممنوع فذهنه الشريف ﷺ أجل من أن يخفى عليه حالهم وأنهم إنما يرغبون عن دعوته استكبارا على الحق واستعلاء على الله على أن القوم لم يرغبوا في الإسلام حتى بعد ظهور شوكتهم وإثراء المؤمنين وقد أيأس الله نبيّه من إيمان أكثرهم حيث قال : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون - إلى أن قال - وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون ، يس : ١٠ و الآيات مكيّة وقال : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون ، البقرة : ٦ والآية مدنيّة .
ولو حمل اليسر بعد العسر على شوكة الإسلام ورفعته بعد وضعته مع أخذ السورة مكيّة لم يكن به كثير بأس .

قوله تعالى : « إن مع العسر يسرا » تكرار للتأكيد والتثبيت وقيل : استئناف وذكروا أن في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسرا بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى بخلاف النكرة كما أنه لو قيل : إذا اكتسبت الدرهم أو درهما فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول بخلاف ماله قيل : إذا اكتسبت درهما فأنفق درهما وليست القاعدة بمطردة .

و التثنيون في « يسرا » للتنوع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم ، و المعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمان واحد .

قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » خطاب للنبي ﷺ متفرّع على ما بين قبل من تحميلة الرسالة والدعوة ومنه تعالى عليه بما من من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وكل ذلك من اليسر بعد العسر .

وعليه فالمعنى إذا كان العسر ياتي بعده باليسر والأمر فيه إلى الله لا غير فإذا فرغت

مما فرض عليك فاتعب نفسك في الله - بعبادته ودعائه - وارغب فيه ليعنّ عليك بما لهذا التعب من الراحة ولهذا العسر من اليسر .

وقيل : المراد إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل ، وقيل : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، وما يتضمنه القولان بعض المصاديق .
وقيل : المعنى إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة وقيل : المراد إذا فرغت من دنياك فانصب في آخرتك وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدّر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : لقد سألت أبا هريرة إنني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهرا إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قطّ ، وأرواح لم أجدّها في خلق قطّ وثياب لم أجدّها على أحد قطّ فأقبلا إليّ يمشيان حتّى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسّا .

فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجمني بلا قصر ولا هصر فقال أحدهما : افلق صدره فحوّى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلام ولا وجع فقال له : أخرج الغلّ والحسد فأخرج شيئا كههيئة العلقمة ثم نبذها فطرحها فقال له : أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضّة ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى وقال : اغد وأسلم فرجعت بها أغدوبها رقّة على الصغير ورحمة للكبير .

أقول : وفي نقل بعضهم - كما في روح المعاني - ابن عشرين حجاج مكان قوله : ابن عشرين سنة وأشهرا ، وفي بعض الروايات نقل القصّة عند نزول سورة اقرء باسم ربك وفي بعضها كما في صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي نقل القصّة عند إسرائ النبي ﷺ .

والقصّة على أيّ حال من قبيل التمثيل بلا إشكال ، وقد أطالوا البحث في توجيه

ما تتضمنه على أنها واقعة مادية فتمحلوا بوجوه لا جدوى في التعرض لها بعد فساد أصلها .

وفيه أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : أتاني جبرئيل فقال : إن ربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معي .

وفيه أخرج عبدالرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسريسين « إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » .

وفي المجمع في قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » معناه فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة . قال : وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .



﴿سورة التين مكّية وهي ثمان آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ
سِنِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ
الْحَاكِمِينَ (٨) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة البعث والجزاء وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم اختلافهم بالبقاء على الفطرة الأولى وخروجهم منها بالانحطاط إلى أسفل سافلين ووجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة .
والسورة مكّية وتحتمل المدينة ويؤيد نزولها بمكة قوله : «وهذا البلد الأمين» وليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة وهو ﷺ بمكة .

قوله تعالى : «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين» قيل : المراد بالتين والزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمّة والخواصّ النافعة ، وقيل المراد بهما شجرتا التين والزيتون ، وقيل : المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، ولعلّ إطلاق اسم الفاكيتين على الجبلين لكونهما منبئيهما ولعلّ الأقسام بهما لكونهما مبعثي جمّ غفير من الأنبياء وقيل غير ذلك .

والمراد بطور سينين الجبل الذي كلم الله تعالى فيه موسى بن عمران عليه السلام ، ويسمى أيضا طور سيناء .

والمراد بهذا البلد الأمين مكة المشرفة لأن الأمان خاصة مشرعة للحرم وهي فيه قال تعالى : «أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً» العنكبوت : ٦٧ وفي دعاء إبراهيم عليه السلام على ما حكى الله عنه : «رب اجعل هذا بلداً آمناً» البقرة : ١٢٦ ، وفي دعائه ثانياً : «رب اجعل هذا البلد آمناً» إبراهيم : ٣٥ .

وفي الإشارة بهذا إلى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص وتوصيفه بالأمين إما لكونه فعلاً بمعنى الفاعل ويفيد معنى النسبة والمعنى ذي الأمان كاللبن والتامر وإما لكونه فعلاً بمعنى المفعول والمراد البلد الذي يؤمن الناس فيه أي لا يخاف فيه من غوائلهم ففي نسبة الأمان إلى البلد نوع تجوز .

قوله تعالى : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» جواب للقسم والمراد بكون خلقه في أحسن تقويم اشتغال التقويم عليه في جميع شؤونه وجهات وجوده ، والتقويم جعل الشيء ذاقوام وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة .

ومعنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقة على ما يستفاد من قوله بعد : «ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين» النخصلوحه بحسب الخلقة للعروج إلى الرفيع الأعلى والفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لاشقوة معها ، وذلك بما جهزه الله به من العلم النافع ومكّنه منه من العمل الصالح قال تعالى : «ونفس وما سوّاها فآلهمها فجورها وتقواها» الشمس : ٨ فإذا آمن بما علم وزاول صالح العمل رفعه الله إليه كما قال : «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» فاطر : ١٠ ، وقال : «ولكن يناله التقوى منكم» الحج : ٣٧ . وقال : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» المجادلة : ١١ وقال : «فأولئك لهم الدرجات العلى» طه : ٧٥ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح عطاء من الله غير مجذود ، وقد سمّاه تعالى أجراً كما يشير إليه قوله الآتي : «فلهم أجر غير ممنون» .

قوله تعالى : «ثم رددناه أسفل سافلين» ظاهر الرد أن يكون بمعنى المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض ، والمراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفلى

من أهل الشقوة والخسران والمعنى ثمّ رددنا الإنسان إلى أسفل من سفلى من أهل العذاب .

واحتمل أن يكون الردّ بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين ، وأن يكون بمعنى التغيير والمعنى ثمّ غيرناه حال كونه أسفل جمع سافلين ، والمراد بالسفالة على أي حال الشقاء والعذاب .

وقيل : المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم ما عليه وجوده أو أن الشباب من استقامة القوى وكمال الصورة وجمال الهيئة ، وبردّه إلى أسفل سافلين ردّه إلى الهرم بتضعيف قواه الظاهرة والباطنة ونكس خلقته فتكون الآية في معنى قوله تعالى : «ومن نعمه ننكسه في الخلق» يس : ٦٨ .

وفيه أنه لا يلائمه ما في قوله : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» من الاستثناء الظاهر في المتصل فإنّ حكم الخلق عام في المؤمن والكافر والصالح والطالح ودعوى أن المؤمن أو المؤمن الصالح مصون من ذلك مجازفة .

وكذا القول بأن المراد بالإنسان هو الكافر والمراد بالردّ ردّه إلى جهنّم أو إلى نكس الخلق والاستثناء منقطع .

قوله تعالى : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» أي غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان ، وتفريع قوله : «فلهم أجر غير ممنون» عليه يؤيد كون المراد من ردّه إلى أسفل سافلين ردّه إلى الشقاء والعذاب .

قوله تعالى : «فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» الخطاب للإنسان باعتبار الجنس ، وقيل للنبي ﷺ والمراد غيره ، و«ما» استفهامية توبيخية ، و«بالدين» متعلق بيكذبك ، والدين الجزاء والمعنى - على ما قيل - ما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة إلى أسفل سافلين وطائفة مأجورة أجرأ غير ممنون .

وقوله : «أليس الله بأحكم الحاكمين» الاستفهام للتقرير وكونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم في إتقان الحكم وحقيقته ونفوذه من غير اضطراب

ووهن وبطلان فهو تعالى يحكم في خلقه وتديره بما من الواجب في الحكمة أن يحكم به من حيث الاتقان والحسن والنفوذ وإذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين والناس طائفتان مختلفتان اعتقاداً وعملاً فمن الواجب في الحكمة أن يميز بينهم بالجزاء في حياتهم الباقية وهو البعث .

فالتفريع في قوله : « فما يكذبك بعد بالدين » من قبيل تفريع النتيجة على الحجّة وقوله : « أليس الله بأحكم الحاكمين » تتميم للحجّة المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها . والمحصّل أنّه إذا كان الناس خلقوا في أحسن تقويم ثمّ اختلفوا فطائفة خرجت عن تقويمها الأحسن وردّت إلى أسفل سافلين وطائفة بقيت في تقويمها الأحسن وعلى فطرتها الأولى والله المديّر لأمرهم أحكم الحاكمين ، ومن الواجب في الحكمة أن تختلف الطائفتان جزاء ، فهناك يوم تجزى فيه كلّ طائفة بما عملت ولا مسوغ للتكذيب به .

فالآيات - كما ترى - في معنى قوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، وقوله : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » الجاثية : ٢١ .

وبعض من جعل الخطاب في قوله : « فما يكذبك » للنبي ﷺ جعل « ما » بمعنى من والحكم بمعنى القضاء ، وعليه فالمعنى إذا كان الناس مختلفين ولازم ذلك اختلاف جزائهم في يوم معدّ للجزاء فمن الذي ينسبك إلى الكذب بالجزاء أليس الله بأقضى القاضين فهو يقضى بينك وبين المكذبين لك بالدين . وأنت خير بأنّ فيه تكلفاً من غير موجب .



﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « والتين والزيتون و طور سينين وهذا البلد الأمين » التين المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سينين الكوفة وهذا البلد الأمين مكة .

اقول : وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ولا يخلو من شيء ، وفي بعضها أن التين والزيتون الحسن والحسين والطور عليّ والبلد الأمين النبي صلى الله عليه وآله وليس من التفسير في شيء . وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاريّ سأل النبي صلى الله عليه وآله عن البلد الأمين فقال : مكة .



﴿ سورة العلق مكيّة وهي تسع عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ (٦) إِنَّ رَأْيَهُ اسْتَغْنَى (٧)
إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠)
أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)
سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطَعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبي ﷺ بتلقي القرآن بالوحي منه تعالى وهي أول سورة نزلت من القرآن ، وسياق آياتها لا يأبى نزولها دفعة واحدة كما سنشير إليه ، وهي مكّيّة قطعاً .

قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » قال الراغب : والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، وليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال : قرأت القوم إذا جمعتهم ، ويدل على ذلك أنه لا يقال : للحرف الواحد إذا تفوه به : قراءة انتهى .

وعلى أي حال ، يقال : قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في الذهن وإن لم تتلفظ بها ، و يقال : قرأته إذا جمعت الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في التلفظ ، ويقال قرأته عليه إذا جمعيت بين حروفه و كلماته في سمعه و يطلق عليها بهذا المعنى التلاوة أيضاً قال تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » البينة : ٢ .

وظاهر إطلاق قوله : « اقرء » المعنى الأول والمراد به الأمر بتلقي ما يوحىه إليه ملك الوحي من القرآن فالجملة أمر بقراءة الكتاب وهي من الكتاب كقول القائل في مفتتح كتابه لمن أرسله إليه : اقرء كتابي هذا واعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب وهو من الكتاب .

و هذا السياق يؤيد أولاً ماورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ .

وثانياً أن التقدير اقرء القرآن أو ما في معناه ، وليس المراد مطلق القراءة باستعمال « اقرء » استعمال الفعل اللازم بالأعراض عن المفعول ، ولا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلق وإن كان ذلك من أغراض النزول كما قال : « وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » أسرى : ١٠٦ ، ولا أن قوله : « باسم ربك » مفعول « اقرء » والباء زائدة والتقدير اقرء اسم ربك أي بسم .

وقوله : « باسم ربك » متعلق بمقدّم نحو مفتتحا ومبتدأ أو باقرء والباء للملابسة ولا ينافي ذلك كون البسملة المبتدأة بها السورة جزء من السورة فهي من كلام الله افتتح سبحانه بها وأمر أن يقرء مبتدأ بها كما أمر أن يقرء قوله : « اقرء باسم » النخ فيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء في قوله : « ولا تقولنّ شيء إنّي فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » الكهف : ٢٤ فافهم ذلك .

وفي قوله : « ربك الذي خلق » إشارة إلى قصر الربوبية في الله عز اسمه وهو توحيد الربوبية المقتضية لقصر العبادة فيه فإنّ المشركين كانوا يقولون : إنّ الله سبحانه ليس له إلا الخلق والإيجاد وأمّا الربوبية وهي الملك والتدبير فلمقرّب

خلفه من الملائكة والجنّ والانس فدفعه الله بقوله : « ربّك الذي خلق » الناصّ على أنّ الربوبية والخلق له وحده .

وقوله : « خلق الانسان من علق » المراد جنس الانسان المتناسل والعلق الدم المنجمد والمراد به ما يستحيل إليه النطفة في الرحم .

ففي الآية إشارة إلى التدبير الإلهي الوارد على الانسان من حين كان علقه إلى حين يصير إنساناً تاماً كاملاً له من أعاجيب الصفات والأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتمّ الاّ انسان إنساناً ولم يكمل إلاّ بتدبير متعاقب منه تعالى و هو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى ربّ مدبر لأمر الانسان بعين أنّه خالق له فليس للإنسان إلاّ أن يتخذ وحده ربّاً ففي الكلام احتجاج على توحيد الربوبية .

قوله تعالى : « اقرء وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم » أمر بالقراءة ثانياً تأكيداً للأمر الأوّل على ما هو ظاهر سياق الإطلاق .

وقيل : المراد به الأمر بالقراءة على الناس وهو التبليغ بخلاف الأمر الأوّل فالمراد به الأمر بالقراءة لنفسه ، كما قيل : إنّ المراد بالأمرين جمعياً الأمر بالقراءة على الناس ، والوجهان غير ظاهرين .

وقوله : « وربّك الأكرم » أي الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطي لآعن استحقاق وما من نعمة إلاّ وينتهي إبتاؤها إليه تعالى .

وقوله : « الذي علّم بالقلم » الباء للسببية أي علّم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم والجملة حالية أو استثنائية ، والكلام مسوق لتقوية نفس النبي ﷺ وإزالة القلق والاضطراب عنها حيث أمر بالقراءة وهو أمّي لا يكتب ولا يقرء كأنه قيل : اقرء كتاب ربّك الذي يوحى إليك ولا تخف والحال أنّ ربّك الأكرم الذي علّم الانسان القراءة بواسطة القلم الذي يخطّ به فهو قادر على أن يعلمك قراءة كتابه وأنت أمّي وقد أمرك بالقراءة ولولم يقدرك عليها لم يأمرك بها .

ثمّ عمّم سبحانه النعمة فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال : « علّم الانسان ما لم يعلم » وفيه مزيد تقوية لقلب النبي ﷺ وتطبيب لنفسه .

والمراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق وقيل : المراد به آدم عليه السلام ، و قيل : إدريس عليه السلام لأنه أوّل من خطّ بالقلم ، وقيل : كلّ نبيّ كان يكتب وهي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَرَّ » ردع عما يستفاد من الآيات السابقة أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم وسائر ما علّم والتعليم من طريق الوحي فعلى الإنسان أن يشكره على ذلك لكنّه يكفر بنعمته تعالى ويطغى .

وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَرَّ » أي يتعدّى طوره ، وهو إخبار بما في طبع الإنسان ذلك كقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ » إبراهيم : ٣٤ . وقوله : « أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » من الرأي دون الرؤية البصريّة ، وفاعل « رآه » ومفعوله الإنسان . وجملة « أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » في مقام التعليل أي ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنياً عن ربه المنعم عليه فيكفر به ، وذلك أنه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهريّة التي يتوصل بها إلى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجة منه إليه تبعثه إلى ذكره وشكره على نعمه فينسأه ويطغى .

قوله تعالى : « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ » الرجعى هو الرجوع والظاهر من سياق الوعيد الآتي أنه وعيد وتهديد بالموت والبعث ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وقيل : الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد ، والأوّل أظهر .

قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ » بمنزلة ذكر بعض المصدايق للإنسان الطاغى وهو كالتوطئة لوعيده بتصريح العقاب والنهي عن طاعته والأمر بعبادته تعالى ، والمراد بالعبد الذي كان يصلي هو النبيّ صلى الله عليه وآله على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهأ صلى الله عليه وآله عن طاعة ذلك الناهي ويأمره بالسجود والاقتراب .

وسياق الآيات - على تقدير كون السورة أوّل ما نزل من القرآن ونزولها دفعة واحدة - يدلّ على صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل نزول القرآن وفيه دلالة على نبوّته

قبل رسالته بالقرآن .

وأما ما ذكره بعضهم أنه لم يكن الصلاة مفروضة في أوّل البعثة وإنما شرعت ليلة المعراج على ما في الأخبار وهو قوله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر » أسرى : ٧٨ .

ففيه أنّ المسلم من دلالتها أنّ الصلوات الخمس اليومية إنما فرضت بهيئتها الخاصة ركعتين ركعتين ليلة المعراج ولا دلالة فيها على عدم تشريعها قبل وقد ورد في كثير من السور المكيّة ومنها النازلة قبل سورة الإسراء كالمائدة والمزمل وغيرهما ذكر الصلاة بتعبيرات مختلفة وإن لم يظهر فيها من كيفيتها إلا أنها كانت مشتملة على ثلاثة شيء من القرآن والسجود .

وقد ورد في بعض الروايات صلاة النبي ﷺ مع خديجة وعليّ في أوائل البعثة وإن لم يذكر كيفية صلاتهم .

وبالجملة قوله : « رأيت » بمعنى أخبرني ، والاستفهام للتعجب ، والمفعول الأوّل لقوله : « رأيت » الأوّل قوله : « الذي ينهى » ولا رأيت الثالث ضمير عائد إلى الموصول ، ولا رأيت الثاني ضمير عائد إلى قوله : « عبداً » والمفعول الثاني لا رأيت في المواضع الثلاث قوله : « ألم يعلم بأنّ الله يرى » .

ومحصل معنى الآيات أخبرني عن الذي ينهى عبداً إذا صلى وعبد الله الناهي يعلم أنّ الله يرى ما يفعله كيف يكون حاله . أخبرني عن هذا الناهي إن كان ذاك العبد المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى كيف يكون حال هذا الناهي وهو يعلم أنّ الله يرى . أخبرني عن هذا الناهي إن تلبس بالكذب للحق والتولي عن الإيمان به ونهى العبد المصلي عن الصلاة وهو يعلم أنّ الله يرى ؟ هل يستحقّ إلاّ العذاب ؟ وقيل : المفعول الأوّل لا رأيت في جميع المواضع الثلاث هو الموصول أو الضمير العائد إليه تحرّراً عن التفكيك بين الضمائر .

والأولى على هذا أن يجعل معنى قوله : « رأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى » أخبرني عن هذا الناهي إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وهو يعلم أنّ

الله يرى ماذا كان يجب عليه أن يفعله ويأمر به ؟ وكيف يكون حاله وقد نهى عن عبادة الله سبحانه ؟

وهو مع ذلك معنى بعيد ولا بأس بالتفكيك بين الضمائر مع مساعدة السياق وإعانة القرائن .

وقوله : « ألم يعلم بأن الله يرى » المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء هو الاعتقاد بأن له علماً بكل شيء وإن غفل عنه وقد كان الناهي وثيقاً مشركاً والوثنية معترفون بأن الله هو خالق كل شيء وينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يبجل شيئاً ولا يعجز عن شيء وهكذا .
قوله تعالى : « كلاً لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » قال في المجمع : والسفع الجذب الشديد يقال : سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبتة جذبا شديداً . انتهى ، وفي توصيف الناصية بالكذب والخطأ وهما وصفا صاحب الناصية مجاز .

وفي الكلام ردع وتهديد شديد ، والمعنى ليس الأمر كما يقول ويريد أو ليس له ذلك . أقسم لئن لم يكف عن نهيه ولم ينصرف لتأخذن بناصره أخذ الذليل المهان ونجذبته إلى العذاب تلك الناصية التي صاحبها كاذب فيما يقول خاطيء فيما يفعل ، وقيل : المعنى لنسمن ناصيته بالنار ونسودنّها .

قوله تعالى : « فليدع ناديه سندع الزبانية » النادي المجلس وكأن المراد به أهل المجلس أي الجمع الذين يجتمع بهم ، وقيل : المجلس ، والزبانية الملائكة الموكلون بالنار ، وقيل : الزبانية في كلامهم الشرط ، والأمر تعجيزي أشير به إلى شدة الأخذ والمعنى فليدع هذا الناهي جمعه لينجّوه منّا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصر .

قوله تعالى : « كلاً لا تطعه واسجد واقترب » تكرر الردع للتأكيد ، وقوله : « لا تطعه » أي لا تطعه في النهي عن الصلاة وهي القرينة على أن المراد بالسجود الصلاة ، ولعل الصلاة التي كان عليه السلام يأتي بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى والسجود له

وقيل : المراد به السجود لقراءة هذه السورة التي هي إحدى العزائم الأربع في القرآن .

والاقتراب التقرب إلى الله ، وقيل : الاقتراب من ثواب الله تعالى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأثير في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حبس إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق الإِنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم الآية .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة : كلا ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب ^(١) المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ^(٢) .

(١) تكسب ط .

(٢) الخلق ط .

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عمّ خديجة وكان امرء قد تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ فيكتب من الانجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: يا بن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى! يا ليتني أكون فيها جذعا يا ليتني أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله: يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر فحمي الوحي وتتابع.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شدّاد قال: أنى جبريل مجّداً صلى الله عليه وسلم فقال: يا مجّد أقرء. قال: وما أقرء فضمته ثم قال: يا مجّد أقرء. قال: وما أقرء. قال: أقرء باسم ربك الذي خلق. حتى بلغ «ما لم يعلم».

فجاء إلى خديجة فقال: يا خديجة ما أراه إلا قد عرض لي قالت: كلاً والله ما كان ربك يفعل ذلك بك وما أتيت فاحشة قط فأتت خديجة ورقة فأخبرته الخبر قال: لئن كنت صادقة إن زوجك لنبيّ وليلقين من أمته شدة ولئن أدركته لأؤمّنن به.

قال: ثم أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة: ما أرى ربك إلا قد فلاك فأنزل الله «والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربك وما قلى».

أقول : وفي رواية أن الذي ألفاه جبريل سورة الحمد .

والقصة لا تخلو من شيء وأهون ما فيها من الأشكال شك النبي ﷺ في كون ما شاهده حياً إلهياً من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله وتردده بل ظننه أنه من مس الشياطين بالجنون ، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوة إلى قول رجل نصراني مترهب وقد قال تعالى : «قل إنني على بينة من ربي» الأنعام : ٥٧ وأي حجة بينة في قول ورقة ؟ وقال تعالى : «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» فهل بصيرته ﷺ هي سكون نفسه إلى قول ورقة ؟ وبصيرة من اتبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى ما لاحجة فيه قاطعة ؟ وقال تعالى : «إننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» النساء : ١٦٣ فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما نقصه هذه القصة ؟

والحق أن وحي النبوة والرسالة يلزم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفي المجمع في قوله : «أرأيت الذي ينهى» الآية إن أباجهل قال : هل يعفر وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن رقبته ف قيل له : هاهو ذلك يصلي فانطلق ليطأ على رقبته فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه و يتقي يديه فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهؤلاء أجنحة ، وقال نبي الله : والذي نفسي بيده لودنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً فأنزل الله «أرأيت الذي ينهى» إلى آخر السورة . رواه مسلم في الصحيح .

وفي تفسير القمي في الآية : كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلاة وأن يطاع الله ورسوله فقال الله : «أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى» .

أقول : مفاده لا يلائم ظهور سياق الآيات في كون المصلي هو النبي ﷺ .

وفي المجمع في الحديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً .

وفي الكافي بإسناده إلى الوشاء قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله : «واسجد واقترب» .

وفي المجمع روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : العزائم الم التنزيل وحَمَّ السجدة والنجم إذا هوى واقراء باسم ربك ، وما عداها في جميع القرآن مسنون وليس بمفروض .



﴿سورة القدر مكّية وهي خمس آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة إنزال القرآن في ليلة القدر وتعظم الليلة بتفضيلها على ألف شهر وتنزل الملائكة والروح فيها ، والسورة تحتمل المكّية والمدنية ولا يخلو بعض (١) ما روي في سبب نزولها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم من تأييد لكونها مدنية .

قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » ضمير « أنزلناه » للقرآن وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة دون التنزيل الظاهر في التدرّج .

وفي معنى الآية قوله تعالى : « والكتاب المبين إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ » الدخان : ٣ وظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثمّ الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة .

فمدلول الآيات أن القرآن نزولاً جليّاً على النبي ﷺ غير نزوله التدريجي الذي تمّ في مدة ثلاث وعشرين سنة كما يشير إليه قوله : « وقرآنا فرقناه لتقرأه

(١) وهو ما دل على أن السورة نزلت بعد رؤيا النبي صلى الله عليه وآله أن بنى أمية

يصعدون منبره فآغتم فسلاه الله بها .

على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ، أسرى : ١٠٦ ، وقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبتت به قؤادك ورتلناه تنزيلاً » الفرقان : ٣٢ .

فلا يعبأ بما قيل : إن معنى قوله : « أنزلناه » ابتداءً بانزاله والمراد إنزال بعض القرآن .

وليس في كلامه تعالى ما يبين أن الليلة آية ليلة هي غير ما في قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » البقرة : ١٨٥ فإن الآية بانضمامها إلى آية القدر تدل على أن الليلة من ليالي شهر رمضان . وأما تعيينها أزيد من ذلك فمستفاد من الأخبار وسيجيء بعض ما يتعلق به في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقد سمّاها الله تعالى ليلة القدر ، والظاهر أن المراد بالقدر التقدير فهي ليلة التقدير يقدر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل من حياة وموت ورزق وسعادة وشقاء وغير ذلك كما يدل عليه قوله في سورة الدخان في صفة الليلة : « فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إننا كنا مرسلين رحمة من ربك » الدخان : ٤ فليس فرق الأمر الحكيم إلا إحكام الحادثة الواقعة بخصوصياتها بالتقدير .

ويستفاد من ذلك أن الليلة متكررة بتكرر السنين ففي شهر رمضان من كل سنة قمرية ليلة تقدّر فيها أمور السنة من الليلة إلى مثلها من قابل إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أوليال معدودة في طول الزمان تقدّر فيها الحوادث الواقعة التي قبلها والتي بعدها وإن صحّ فرض واحدة من ليالي القدر المتكررة ينزل فيها القرآن جملة واحدة .

على أن قوله : « يفرق » - وهو فعل مضارع - ظاهر في الاستمرار ، وقوله : « خير من ألف شهر » و « تنزل الملائكة » النخ يؤيد ذلك .

فلا وجه لما قيل : إنها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن يتكرر ، وكذا ما قيل : إنها كانت تتكرر بتكرر السنين في زمن النبي ﷺ ثم رفعها الله ، وكذا ما قيل : إنها واحدة بعينها في جميع السنة وكذا ما قيل : إنها في

جميع السنة غير أنها تبدّل بتكرّر السنين فسنة في شهر رمضان وسنة في شعبان وسنة في غيرهما .

وقيل : القدر بمعنى المنزلة وإنما سمّيت ليلة القدر للاهتمام بمنزلتها أو منزلة المتعبدين فيها ، وقيل : القدر بمعنى الضيق وسمّيت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة . والوجهان كما ترى .

فمحصل الآيات -- كما ترى -- أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها إحكام الأمور بحسب التقدير ، ولإينائي ذلك وقوع التغير فيها بحسب التحقق في ظرف السنة فإنّ التغير في كيفة تحقق المقدّر أمر والتغير في التقدير أمر آخر كما أنّ إمكان التغير في الحوادث الكونية بحسب المشيئة الإلهية لإينائي تعيينها في اللوح المحفوظ قال تعالى : « وعنده أمّ الكتاب » الرعد : ٣٩ .

على أنّ لاستحكام الأمور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها وشرائطها تامة وناقصة ومن المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الأحكام ويتأخّر تمام الأحكام إلى وقت آخر لكنّ الروايات كما ستأتي لا تلائم هذا الوجه .

قوله تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر » كناية عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها ويؤكد ذلك إظهار الاسم مرّة بعد مرّة حيث قيل : « ما ليلة القدر ليلة القدر خير » ولم يقل : وما أدراك ما هي هي خير .

قوله تعالى : « ليلة القدر خير من ألف شهر » بيان إجماليّ لما أُشير إليه بقوله : « وما أدراك ما ليلة القدر » من فخامة أمر الليلة .

والمراد بكونها خيراً من ألف شهر خيريتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسّره المفسّرون وهو المناسب لغرض القرآن وعنايته بتقريب الناس إلى الله فأحيّاها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر ، ويمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله : « إنّنا أنزلناه في ليلة مباركة » وهناك معنى آخر سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر » تنزل

أصله تنزّل، والظاهر من الروح هو الروح الذي من الأمر قال تعالى : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : ٨٥ والاذن في الشيء الرخصة فيه وهو إعلام عدم المانع منه .
 و « من » في قوله : « من كل أمر » قيل : بمعنى الباء وقيل : لابتداء الغاية وتفيد السببية أي بسبب كل أمر إلهي ، وقيل : للتعليل بالغاية أي لأجل تدير كل أمر من الأمور والحق أن المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهي المفسر بقوله « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٢ فمن للابتداء وتفيد السببية والمعنى تنزّل الملائكة والروح في ليلة القدر بإذن ربهم مبتداءً تنزّلهم وصادراً من كل أمر إلهي .

وإن كان هو الأمر من الأمور الكونية والحوادث الواقعة فمن بمعنى اللام التعليلية والمعنى تنزّل الملائكة والروح في الليلة بإذن ربهم لأجل تدير كل أمر من الأمور الكونية .

قوله تعالى : « سلام هي حتى مطلع الفجر » قال في المفردات : السلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة انتهى فيكون قوله : « سلام هي » إشارة إلى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقبلين إليه وسد باب نقمة جديدة تختص بالليلة ويلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين كما أشير إليه في بعض الروايات .
 وقيل : المراد به أن الملائكة يسلمون على من مروا به من المؤمنين المتعبدين ومرجعه إلى ما تقدم .

والآيتان أعني قوله : « تنزّل الملائكة » إلى آخر السورة في معنى التفسير لقوله : « ليلة القدر خير من ألف شهر » .



﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير البرهان عن الشيخ الطوسي عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ليلة القدر شيء يكون على عهد الأنبياء ينزل عليهم فيها الأمر فإذا مضوا رفعت ؟ قال : لا بل هي إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه غير واحد من الروايات من طرق أهل السنة .
وفي المجمع وعن حماد بن عثمان عن حسان بن أبي علي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ليلة القدر قال : أطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين .
أقول : وفي معناها غيرها ، وفي بعض الأخبار الترديد بين ليلتين الإحدى والعشرين والثلاث والعشرين كرواية العياشي عن عبد الواحد عن الباقر عليه السلام ويستفاد من روايات أنها ليلة ثلاث وعشرين وإنما لم يعين تعظيماً لأمرها أن لا يستهان بها بارتكاب المعاصي .

وفيه أيضاً في رواية عبد الله بن بكير عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال : ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة الجهنى ، وحديثه أنه قال لرسول الله ﷺ : إن منزلي نايء عن المدينة فمرني بليلة أدخل فيها فأمره بليلة ثلاث وعشرين .

أقول : وحديث الجهنى واسمه عبد الله بن أنيس الأنصاري مروي من طرق أهل السنة أيضاً أورده في الدر المنثور عن مالك والبيهقي .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : التقدير في تسع عشرة ، والإبرام في ليلة إحدى وعشرين ، والإمضاء في ليلة ثلاث وعشرين .
أقول : وفي معناها روايات آخر .

فقد اتفقت أخبار أهل البيت عليهم السلام أنها باقية متكررة كل سنة ، وأنها ليلة من ليالي شهر رمضان وأنها إحدى الليالي الثلاث .

وأما من طرق أهل السنة فقد اختلفت الروايات اختلافاً عجيباً يكاد لا يضبط

والمعروف عندهم أنها ليلة سبع وعشرين فيها نزل القرآن ، ومن أراد الحصول عليها فليراجع الدر المنثور وسائر الجوامع .

وفي الدر المنثور أخرج الخطيب عن ابن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ
أريت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك عليّ فأترل الله إنا أنزلناه في ليلة القدر .
أقول : وروى أيضاً مثله عن الخطيب في تاريخه عن ابن عباس ، وأيضاً ما في
معناه عن الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن الحسن بن
عليّ وهناك روايات كثيرة في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام
وفيها أن الله تعالى سلى نبيه ﷺ بإعطاء ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر
وهي مدة ملك بني أمية .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام قال له
بعض أصحابنا ولا أعلمه إلا سعيد السمان : كيف تكون ليلة القدر خيراً من ألف
شهر ؟ قال : العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

وفيه بإسناده عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن جرّان أنه سأل أبا جعفر
عليه السلام عن قول الله عز وجل : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » قال : نعم ليلة القدر
وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر
قال الله عز وجل : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل :
خير وشر طاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق فما قدر في تلك الليلة وقضى فهو
المحتوم والله عز وجل فيه المشيئة .

قال : قلت : « ليلة القدر خير من ألف شهر » أي شيء عنى بذلك ؟ فقال : والعمل
الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر ليس فيها
ليلة القدر ، ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف
لهم الحسنات .

أقول : وقوله : والله فيه المشيئة يريد به إطلاق قدرته تعالى فله أن يشاء ما يشاء

وإن حتم فإنَّ إيجابه الأمر لا يقيّد القدرة المطلقة فله أن ينقض القضاء المحتوم وإن كان لا يشاء ذلك أبداً .

وفي المجمع روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سكّان سدرة المنتهى ومنهم جبرائيل فينزل جبرائيل ومعه ألوية ينصب لواء منها على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء في المسجد الحرام ولواء على طور سيناء ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ سلّم عليه إلاّ مدمن خمر وآكل لحم الخنزير ^(١) والمتضمّن بالزعفران .

وفي تفسير البرهان عن سعد بن عبدالله بإسناده عن أبي بصير قال : كنت مع أبي عبدالله عليه السلام فذكر شيئاً من أمر الإمام إذا ولد فقال : استوجب زيادة الروح في ليلة القدر فقلت : جعلت فداك أليس الروح هو جبرئيل ؟ فقال : جبرئيل من الملائكة والروح أعظم من الملائكة أليس إنَّ الله عزّ وجلّ يقول : « تنزل الملائكة والروح » . أقول : والروايات في ليلة القدر وفضلها كثيرة جداً ، وقد ذكرت في بعضها لها علامات ليست بدائمة ولا أكثرية كطلوع الشمس صبيحتها ولا شعاع لها واعتدال الهواء فيها أنعمنا عنها .

﴿سورة البينة مدنية وهي ثمان آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا
صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
أَلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

﴿بيان﴾

تسجل السورة رسالة محمد ﷺ لعامة أهل الكتاب والمشركون وبعبارة أخرى
للملئتين وغيرهم وهم عامة البشر فتفيد عموم الرسالة وأنها مما كانت تقتضيه السنة
الإلهية - سنة الهداية - التي تشير إليها أمثال قوله تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ
أَمَّا شَاكِرٌ أَوْ إِمَّا كَفُورًا » الا نسان : ٣ ، وقوله : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »

فاطر : ٢٤ ، وتحتجّ على عموم دعوته ﷺ بأنها لا تتضمن إلا ما يصلح المجتمع الإنسانيّ من الاعتقاد والعمل على ما سيتضح إن شاء الله .

والسورة تحتمل المكيّة والمدنيّة وإن كان سياقها بالمديّة أشبه .

قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشرّكين منفكّين حتّى تأتيهم البينة » ظاهر الآيات - وهي في سياق يشير إلى قيام الحجّة على الذين كفروا بالدعوة الإسلاميّة من أهل الكتاب والمشرّكين وعلى الذين أوتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف - أنّ المراد هو الإشارة إلى أنّ الرسول ﷺ من مصاديق الحجّة البينة القائمة على الناس التي تقتضي قيامها السنّة الإلهيّة الجارية في عبادة فقد كانت توجب مجيء البينة إليهم كما أوجبه من قبل ما تفرّقوا في دينهم .

وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا في الآية هم الكافرون بالدعوة النبويّة الإسلاميّة من أهل الكتاب والمشرّكين ، و « من » في قوله : « من أهل الكتاب » للتبعض لا للتبيين ، وقوله : « والمشرّكين » عطف على « أهل الكتاب » والمراد بهم غير أهل الكتاب من عبدة الأصنام وغيرهم .

وقوله : « منفكّين » من الانفكاك وهو الانفصال عن شدّة اتصال ، والمراد به - على ما يستفاد من قوله : « حتّى تأتيهم البينة » - انفكاكهم عمّا تقتضي سنّة الهداية والبيان كأنّ السنّة الإلهيّة كانت قد أخذتهم ولم تكن تركهم حتّى تأتيهم البينة ولما أتتهم البينة تركتهم وشأنهم كما قال تعالى : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون » التوبة : ١١٥ .

وقوله : « حتّى تأتيهم البينة » على ظاهره من الاستقبال والبينة هي الحجّة الظاهرة والمعنى لم يكن الذين كفروا برسالة النبيّ ﷺ أو بدعوته أو بالقرآن لينفكّوا حتّى تأتيهم البينة والبينة هي محمد ﷺ .

وللقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية ومعاني مفرداتها حتّى قال بعضهم - على ما نقل - : إنّ الآية من أصعب الآيات القرآنيّة نظماً وتفسيراً . انتهى ، والذي أوردناه من المعنى هو الذي يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات وتدافع بين

الجميل والمفردات ، ومن أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل ويقال فعليه أن يراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة » بيان للبيئة والمراد به محمد رسول الله ﷺ قطعاً على ما يعطيه السياق .

والصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها ، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم قال تعالى : « في صحف مكرّمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٦ .

والمراد بكون الصحف مطهرة تقدّسها من قذارة الباطل بمسّ الشياطين ، وقد تكرر منه تعالى أنه حقّ مصون من مداخله الشياطين وقال : « لا يمسه إلا المطهرون » الواقعة : ٧٩ .

وقوله : « فيها كتب قيمة » الكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب ويطلق على اللوح والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيه الألفاظ وعلى نفس الألفاظ التي تحكي عنها النقوش ، وربما يطلق على المعاني بما أنها محكية بالألفاظ ، ويطلق أيضاً على الحكم والقضاء يقال كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا قال تعالى : « كتب عليكم الصيام » البقرة : ١٨٣ وقال : « كتب عليكم القتال » البقرة : ٢١٦ .

والظاهر أن المراد بالكتب التي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهية المتعلقة بالاعتقاد والعمل ، ومن الدليل عليه توصيفها بالقيمة فإنّها من القيام بالشيء بمعنى حفظه ومراعاة مصلحته وضمان سعادته قال تعالى : « أمر أن لا تعبداً إلا إياه ذلك الدين القيم » يوسف : ٤٠ ، ومعلوم أن الصحف السماوية إنما تقوم بأمر المجتمع الإنساني وتحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام والقضايا المتعلقة بالاعتقاد والعمل .

فمعنى الآيتين : الحجّة البينة التي أتتهم رسول من الله يقرء صحائف سماوية مطهرة من دنس الباطل في تلك الصحائف أحكام وقضايا قائمة بأمر المجتمع الإنساني حافظة لمصالحه .

قوله تعالى : « وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءتهم البينة » كانت الآية الأولى - لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب الخ » تشير إلى كفرهم بالنبي ﷺ وكتابه المتضمن للدعوة الحقّة وهذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية وقد أُشير إلى ذلك في مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » آل عمران : ١٩ إلى غير ذلك من الآيات .

وهجاء البينة لهم هو البيان النبويّ الذي تبين لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياءهم قال تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم » الزخرف : ٤٥ .

فإن قلت : ما باله تعرّض لاختلاف أهل الكتاب وتفرّقه في مذاهبهم ولم يتعرّض لتفرّق المشركين وإعراضهم عن دين التوحيد وإنكارهم الرسالة .

قلت : لا يبعد أن يكون قوله : « وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب » الخ شاملاً للمشركين كما هو شامل لأهل الكتاب فقد بدّل أهل الكتاب - وهم في عرف القرآن اليهود والنصارى والصابئون والمجوس أو اليهود والنصارى - من الذين أوتوا الكتاب والتعبير ان متغايران وقد صرّح تعالى بأنّه أنزل الكتاب - وهو الشريعة المفروضة عليهم الحاكمة في اختلافاتهم في أمور الحياة -- أوّل ما بدا الاختلافات الحيويّة بينهم ثمّ اختلفوا في الدين بعد تبين الحقّ لهم وقيام الحجّة عليهم فعامّة البشر آتاهم الله كتاباً ثمّ اختلفوا فيه فممنهم من نسي ما أوتيّه ، وممنهم من أخذ به محرّفاً وممنهم من حفظه وآمن به قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ وقد مرّ تفسير الآية .

وفي هذا المعنى قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض -- إلى أن

قال - ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » البقرة : ٢٥٤ .

وبالجملة فالذين اوتوا الكتاب اعم من اهل الكتاب فقوله : « وما تفرق الذين اوتوا الكتاب » الخ يشمل المشركين كما يشمل اهل الكتاب .

قوله تعالى : « وما امرؤا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » الخ ضمير « امرؤا » للذين كفروا من اهل الكتاب والمشركون أي ولم يتضمن رسالة الرسول صلى الله عليه وآله والكتب القيّمة التي في صحف الوحي إلا أمرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص في الدين فلا يشركوا به شيئاً .

وقوله : « حنفاء » حال من ضمير الجمع وهو جمع حنيف من الحنف وهو الميل عن جانبي الإفراط والتفريط إلى حاق وسط الاعتدال وقد سمى الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر في جميع الأمور بلزوم الاعتدال والتحرّز عن الإفراط والتفريط .

وقوله : « وقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » من قبيل ذكر الخاص بعد العام أو الجزء بعد الكل اهتماماً بأمره فالصلاة والزكاة من أركان الإسلام وهما التوجه العبودي الخاص إلى الله وإيفاق المال في الله .

وقوله : « وذلك دين القيّمة » أي دين الكتب القيّمة على ما فسروا ، والمراد بالكتب القيّمة إن كان جميع الكتب السماوية أعني كتاب نوح ومن دونه من الأنبياء عليهم السلام فالمعنى إن هذا الذي أمرؤا به ودعوا إليه في الدعوة المحمّدية هو الدين الذي كلّفوا به في كتبهم القيّمة وليس بأمر بدع فدين الله واحد وعليهم أن يدينوا به لأنه القيم .

وإن كان المراد به ما كان يتلوه النبي ﷺ من الكتب القيّمة التي في الصحف المطهرة فالمعنى أنهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلا بأحكام وقضايا هي القيّمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها ويتدينوا .

فالآية على أي حال تشير إلى كون دين التوحيد الذي يتضمنه القرآن

الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن^(١) عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائماً بأمرهم حافظاً لمصالح حياتهم كما يبينه بأوفى البيان قوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ .

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبي ﷺ وشمول الدعوة الإسلامية لعامة البشر فقوله : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » الخ يشير إلى أنه كان من الواجب في سنة الهداية الإلهية أن تتمّ الحجة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب والمشركين ، وهؤلاء وإن كانوا بعض أهل الكتاب والمشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض والبعض في تعلق الدعوة فتعلقها ببعض لا ينفك عن تعلقها بالكل .

وقوله : « رسول من الله » الخ يشير إلى أن تلك البينة محمد ﷺ ، وقوله : « وما تفرّق » الخ يشير إلى أن تفرّقهم وكفرهم السابق بالحق أيضاً كان بعد مجيء البينة .

وقوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله » الخ يفيد أن الذي دعوا إليه وأمروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشري فعليهم جميعاً أن يؤمنوا به ولا يكفروا .
قوله تعالى : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرّ البرية » لما فرغ من الإشارة إلى كفرهم بالبينة التي كانت توجبها سنة الهداية الإلهية وما كانت تدعو إليه من الدين القيم أخذني الإنذار والتبشير بوعيد الكفار ووعد المؤمنين . والبرية الخلق ، والمعنى ظاهر .
قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » فيه قصر الخيرية في المؤمنين الصالحين كما أن في الآية السابقة قصر الشرية في الكفار .

قوله تعالى : « جزأؤهم عند ربهم - إلى قوله - ذلك لمن خشي ربه » العدن الاستقرار والثبات فجنّات عدن جنّات خلود ودوام وتوصيفها بقوله : « خالدين فيها أبدا » تأكيد بما يدلّ عليه الاسم .

وقوله : « رضى الله عنهم » الرضى منه تعالى صفة فعل ومصادقه الثواب الذي أعطاهموه جزاء لا يمانهم وعملهم الصالح .

وقوله : « ذلك لمن خشي ربه » علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة وقد قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر : ٢٨ فالعلم بالله يستتبع الخشية منه ، والخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيّته وألوهيته ثمّ العمل الصالح .

واعلم أنّ لهم في تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا وأقوالا كثيرة لا جدوى في التعرّض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : البينة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله من أكرم الخلق على الله ؟ قال : يا عائشة أمانقرئين « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » ؟

وفيه أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنّا عند النبي صلى الله عليه وآله فأقبل عليّ فقال النبي صلى الله عليه وآله : والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا أقبل عليّ قالوا : جاء خير البرية .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن ابن عديّ عن ابن عباس ، وأيضاً عن ابن

مردويه عن عليّ عليه السلام ، ورواه أيضاً في البرهان عن الموفق بن أحمد في كتاب المناقب عن يزيد بن شراحيل الأنصاريّ كاتب عليّ عنه ، وكذا في المجمع عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم عن يزيد بن شراحيل عنه ، ولفظه : سمعت عليّاً يقول : قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مسنده إلى صدري فقال : يا عليّ ألم تسمع قول الله : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» هم شيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا اجتمع الأمم للحساب يدعون غرّاً محجلين .

وفي المجمع عن مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عباس في قوله : «هم خير البريّة» قال : نزلت في عليّ وأهل بيته .



﴿سورة الزلزال مدنيّة وهي ثمان آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ
 الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)
 بَانَ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرًا أَعْمَالَهُمْ (٦)
 فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨).

﴿بيان﴾

ذكر للقيامة وصدور الناس للجزاء وإشارة إلى بعض أشراتها وهي زلزلة الأرض
 وتحديثها أخبارها . والسورة تحتل المكّة والمدنيّة .

قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها » الزلزال مصدر كالزلزلة ، وإضافته
 إلى ضمير الأرض تفيد الاختصاص والمعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصّة بها
 فتفيد التعظيم والتفخيم أي إنّها منتهية في الشدّة والهول .

قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » الأثقال جمع ثقل بفتحين بمعنى
 المتاع أو خصوص متاع المسافرين أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل ، وعلى
 أيّ حال المراد بأثقالها التي تخرجها ، الموتي على ما قيل أو الكنوز والمعادن التي
 في بطنها أو الجميع ولكلّ قائل وأوّل الوجوه أقربها ثمّ الثالث لتكون الآية إشارة
 إلى خروجهم للحساب ، وقوله : « يومئذ يصدر الناس » إشارة إلى انصرافهم إلى
 الجزاء .

قوله تعالى : « وقال الإنسان ما لها » أي يقول مدهوشاً متعجباً من تلك الزلزلة
 الشديدة الهائلة : ما للأرض تمززل هذا الزلزال ، وقيل : المراد بالإنسان الكافر غير

المؤمن بالبعث ، وقيل غير ذلك كما سيجيء .

قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم وكتباب الأعمال من الملائكة وشهداء الأعمال من البشر وغيرهم .

وقوله : « بأن ربك أوحى لها » اللام بمعنى إلى لأن الإيحاء يتعدى بإلى والمعنى تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى إليها أن تحدث فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرا وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٣٣ ، وقوله : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ أن المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك .

وقد اشتد الخلاف بينهم في معنى تحديث الأرض بالوحي أهو بإعطاء الحياة والشعور للأرض الميتة حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعد ذلك تكلما منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال ، ولا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت ولا أن الحجّة تتم على أحد بهذا النوع من الشهادة .

قوله تعالى : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم » الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده ، وأشتات كشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق ، والآية جواب بعد جواب لا إذا .

والمراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرافهم عن الموقف إلى منازلهم في الجنة و النار و أهل السعادة والفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء والهلاك ، وإراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسم الأعمال .

وقيل : المراد به خروجهم من قبورهم إلى الموقف متفرقين متميزين بسواد الوجوه وبياضها وبالفرع والأمن وغير ذلك لإعلامهم جزاء أعمالهم بالحساب والتعبير

عن العلم بالجزاء بالرؤية وعن الإعلام بالإراءة نظير ما في قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، والوجه الأول أقرب وأوضح .

قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره » المثقال ما يوزن به الأثقال ، و الذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء ، وتقال لصغار النمل .

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم ، فيه تأكيد البيان في أنه لا يستثنى من الإراءة عمل خيراً أو شراً كبيراً أو صغيراً حتى مثقال الذرة من خير أو شر ، وبيان حال كل من عمل الخير والشر في جملة مستقلة لغرض إعطاء الضابط وضرب القاعدة .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآياتان من العموم و بين الآيات الدالة على حبط الأعمال ، والدالة على انتقال أعمال الخير والشر من نفس إلى نفس كحسنيات القاتل إلى المقتول و سيئات المقتول إلى القاتل ، والدالة على تبديل السيئات حسنات في بعض التائبين إلى غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه في بحث الأعمال في الجزء الثاني من الكتاب وكذا في تفسير قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيب » الآية الأنفال : ٣٧ .

وذلك لأن الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيراً فلا عمل له خيراً حتى يراه وعلى هذا القياس في غيره فافهم .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها وقرء رسول الله ﷺ « إذا زلزلت الأرض زلزالها » حتى بلغ « يومئذ تحدث أخبارها » قال أتدرون ما إخبارها ؟ جاءني جبريل قال : خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عمل على ظهرها .

أقول : وروى مثله عن أبي هريرة .

وفيه أخرج الحسين بن سفيان في مسنده و أبو نعيم في الحلية عن شدّاد بن أوس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

أيّها الناس إنّ الدنيا عرض حاضرياً كل منه البرّ والفاجر ، وإنّ الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر يحقّ فيها الحقّ ويبطل الباطل .

أيّها الناس كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن كلّ أمّ يتبعها ولدها ، اعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنّكم معروضون على أعمالكم وأنكم ملاقو الله لا بدّ منه فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » قال : من الناس « وقال الانسان مالها » قال : ذلك أمير المؤمنين عليه السلام « يومئذ تحدّث أخبارها - إلى قوله - أثقانا » قال : يجيئون أثقانا مؤمنين وكافرين ومنافقين « ليروا أعمالهم » قال : يقفون على ما فعلوه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره » يقول : إن كان من أهل النار قد عمل مثقال ذرّة في الدنيا خيراً (كان عليه ظ) يوم القيامة حسرة إن كان عمله لغير الله « ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره » يقول : إن كان من أهل الجنّة رأى ذلك الشرّ يوم القيامة ثمّ غفر له .



﴿سورة العاديات مدنية وهي إحدى عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)
 فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَأَنَّهُ لَحَبَّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)
 أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ
 رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربه وحبته الشديد للخير عن علم منه به وهو حجة عليه وسيحاسب على ذلك .

والسورة مدنية بشهادة ما في صدرها من الأقسام بمثل قوله : «والعاديات ضبحاً» الخ الظاهر في خيل الغزاة المجاهدين على ماسيحيي ، وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة ويؤيد ذلك ماورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن السورة نزلت في علي عليه السلام وسريته في غزوة ذات السلاسل ، ويؤيده أيضا بعض الروايات من طرق أهل السنة على ما سنشير إليه في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

قوله تعالى : «والعاديات ضبحاً» العاديات من العدو وهو الجري بسرعة والضح صوت أنفاس الخيل عند عدوها وهو المعهود المعروف من الخيل وإن ادعى أنه يعرض لكثير من الحيوان غير ها ، والمعنى أقسم بالخيل اللاتي يعدون يضحن ضبحاً .

وقيل : المراد بها إبل الحاج في ارتفاعها بركبائها من الجمع إلى منى يوم النحر

وقيل : إبل الغزاة ، وما في الآيات التالية من الصفات لا يلائم كون الإبل هو المراد بالعاديات .

قوله تعالى : « فالموريات قدحا » الإبراء إخراج النار والقذح الضرب والصك المعروف يقال : قدح فأورى إذا أخرج النار بالقذح ، والمراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة والأرض المحصبة .

وقيل : المراد بالإبراء مكر الرجال في الحرب ، وقيل : إيقادهم النار ، وقيل : الموريات السنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ، وهي وجوه ظاهرة الضعف .

قوله تعالى : « فالمغيرات صباحاً » الإغارة والغارة الهجوم على العدو بغتة بالخيل وهي صفة أصحاب الخيل ونسبتها إلى الخيل مجاز ، والمعنى فأقسم بالخيل الهجمات على العدو بغتة في وقت الصبح .

وقيل : المراد بها الآبال ترتفع بركبائها يوم النحر من جمع إلى منى والسنة أن لا ترتفع حتى تصبح ، والإغارة سرعة السير وهو خلاف ظاهر الإغارة .

قوله تعالى : « فأثرن به نقعاً » أثرن من الإثارة بمعنى تهيج الغبار ونحوه ، والنقع الغبار ، والمعنى فهيجن بالعدو والإغارة غباراً .

قيل : لأبأس بعطف «أثرن» وهو فعل على ما قبله وهو صفة لأنه اسم فاعل وهو في معنى الفعل كأنه قيل : أقسم باللاتي عدون فأورين فأغررن فأثرن .

قوله تعالى : « فوسطن به جمعاً » وسط وتوسط بمعنى ، وضمير « به » للصبح والباء بمعنى في أو الضمير للنقع والباء للملابسة .

والمعنى فصرن في وقت الصبح في وسط جمع والمراد به كثيبة العدو أو المعنى فتوسطن جمعاً ملاسين للنقع .

وقيل : المراد توسط الآبال جمع منى وأنت خبير بأن حمل الآيات الخمس بما لمفرداتها من ظواهر المعاني على إبل الحاج الذين يفيضون من جمع إلى منى خلاف ظاهرها جداً .

فالمتمتعين حملها على خيل الغزاة وسياق الآيات وخاصة قوله : « فالمغيرات صبحا » « فوسطن به جمعا » يعطى أنها غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات والفاء في الآيات الأربع تدلّ على ترتب كل منها على ما قبلها .

قوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » الكنود الكفور ، والآية كقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » الحج : ٦٦ ، وهو إخبار عما في طبع الإنسان من اتباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه .

وفيه تعريض للقوم المغار عليهم ، وكأن المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام التي أنعم الله بها عليهم وهي أعظم نعمة أوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبدية الأخرى .

قوله تعالى : « وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ » ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير « إِنَّهُ » للإِنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه علمه بكفران نفسه المذموم وتحمله له .

فالمعنى وإنّ الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية في معنى قوله : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » القيامة : ١٤ .

وقيل : الضمير لله واتساق الضمائر لا يلائمه .

قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » قيل : اللّام في « حبّ الخير » للتعليل والخير المال ، والمعنى وإنّ الإنسان لأجل حبّ المال لشديد أي بخيل شحيح ، وقيل : المراد أنّ الإنسان لشديد الحبّ للمال ويدعوه ذلك إلى الامتناع من إعطاء حقّ الله ، والإنفاق في الله . كذا فسروا .

ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه ويكون المراد أنّ حبّ الخير فطريّ للإِنسان ثمّ إنّه يرى عرض الدنيا وزينتها خيرا فتنجذب إليه نفسه وينسيه ذلك ربه أن يشكره .

قوله تعالى : « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثَ مَا فِي الْقُبُورِ - إلى قوله - لخبير » البعثة كالبعثة البعث والنشر ، وتحصيل ما في الصدور تمييز ما في باطن النفوس من صفة

الإيمان والكفر ورسم الحسنة والسيئة قال تعالى : « يوم نبلى السرائر » الطارق : ٩
وقيل : هو إظهار ما أخفته الصدور لتجاذى على السر كما تجاذى على العلانية .
وقوله : « أفلا يعلم » الاستفهام فيه للإنكار ، ومفعول يعلم جملة قائمة مقام
المفعولين يدلّ عليه المقام . ثمّ استوفى فقيل : إذا بعث ما في القبور الخ تأكيداً
للإنكار ، والمراد بما في القبور الأبدان .

والمعنى -- والله أعلم -- أفلا يعلم الإنسان أنّ لكونه وكفرانه بربه تبعه
ستلحقه ويجازى بها ، إذا أخرج ما في القبور من الأبدان وحصل وميز ما في سرائر
النفوس من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم
بما فيها .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع : قيل : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حمى من كنانة فاستعمل
عليهم المنذر بن عمرو الأنصاريّ أحد النقباء فتأخّر رجوعهم فقال المنافقون : قتلوا
جميعاً فأخبر الله تعالى عنها بقوله : « والعاديات ضبحاً » عن مقاتل .

وقيل : نزلت السورة لمّا بعث النبي ﷺ عليّاً عليه السلام إلى ذات السلاسل فأوقع
بهم وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة فرجع كلّ منهم إلى رسول الله
صلّى الله عليه وآله . وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل .

قال : وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنّه أسّر منهم وقتل وسبي وشدّ
أسراؤهم في الجبال مكتّفين كأنّهم في السلاسل .

ولمّا نزلت السورة خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فضلى بهم الغداة وقرء فيها
« والعاديات » فلمّا فرغ من صلاته قال أصحابه : هذه سورة لم نعرفها فقال رسول الله
صلّى الله عليه وآله : نعم إنّ عليّاً ظفر بأعداء الله وبشّرني بذلك جبريل في هذه الليلة
فقدم عليّ عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى .

﴿سورة القارعة مكيّة وهي إحدى عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ
 مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ
 كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)
 وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠)
 نَارٍ حَامِيَةٍ (١١) .

﴿بيان﴾

إنذار وتبشير بالقيامة يغلب فيه جانب الإيذار ، والسورة مكيّة .
 قوله تعالى : « القارعة ما القارعة » مبتدء وخبر ، والقارعة من القرع وهو
 الضرب باعتماد شديد ، وهي من أسماء القيامة في القرآن . قيل : سميت بها لأنها
 تفرع القلوب بالفرع وتفرع أعداء الله بالعذاب .
 والسؤال عن حقيقة القارعة في قوله : « ما القارعة » مع كونها معلومة إشارة
 إلى تعظيم أمرها وتفخيمه وأنها لا تكتنه علما ، وقد أكد هذا التعظيم والتفخيم
 بقوله بعد : « وما أدراك ما القارعة » .

قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفرش المبثوث » ظرف متعلق بفعل مقدر
 نحو اذكر وتفرع وتأتي ، والفرش على ما نقل عن الفراء الجراد الذي ينفرش
 ويركب بعضه بعضا وهو غوغاء الجراد . قيل : شبه الناس عند البعث بالفرش لأن
 الفرش إذا نار لم يتجه إلى جهة واحدة كسائر الطير وكذلك الناس إذا خرجوا من
 قبورهم أحاط بهم الفرع فتوجهوا إلى جهات شتى أو توجهوا إلى منازلهم المختلفة

سعادة وشقاء . والمبثوث من البثّ وهو التفريق .

قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعن المنفوش » العن الصوف ذو ألوان مختلفة ، والمنفوش من النفس وهو نشر الصوف بندق ونحوه فالعن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة إشارة إلى تلاشي الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة .
قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية » إشارة إلى وزن الأعمال وأنّ الأعمال منها ما هو ثقيل في الميزان وهو ماله قدر ومنزلة عند الله وهو الإيمان وأنواع الطاعات ، ومنها ما ليس كذلك وهو الكفر وأنواع المعاصي ويختلف القسمان أثراً فيستتبع الثقيل السعادة ويستتبع الخفيف الشقاء ، وقد تقدّم البحث عن معنى الميزان في تفسير السور السابقة .

وقوله : « في عيشة راضية » العيشة بكسر العين كالجلسة بناء نوع ، وتوصيفها براضية - والراضي صاحبها - من المجاز العقليّ أو المعنى في عيشة ذات رضى .
قوله تعالى : « وأما من خفّت موازينه فأّمه هاوية » الظاهر أنّ المراد بهاوية جهنّم وتسميتها بهاوية لهويّ من أُلقي فيها أي سقوطه إلى أسفل سافلين قال تعالى : « ثمّ ردّناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا » التين : ٤ .

فتوصيف النار بالهاوية مجاز عقليّ كتوصيف العيشة بالراضية وعدّهاوية أّمّا للدّاخل فيها لكونها مأواه ومرجع الذي يرجع إليه كما يرجع الولد إلى أّمّه .
وقيل : المراد بأّمّه أُمّ رأسه والمعنى فأُمّ رأسه هاوية أي ساقطة فيها لأنّهم يلقون في النار على أُمّ رأسهم ، ويبعده بقاء الضمير في قوله : « ماهيه » بلا مرجع ظاهر .

قوله تعالى : « وما أدراك ماهية » ضمير هي لهاوية ، والهاء في « هيه » للوقوف والجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار وتفخيمه .

قوله تعالى : « نار حامية » أي حارّة شديدة الحرارة وهو جواب الاستفهام في « ماهيه » وتفسير لهاوية .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « كالعهن المنفوش » قال: العهن الصوف ، وفي قوله : « وأما من خفت موازينه » قال : من الحسنات ، وفي قوله : « فأَمّه هاوية » قال : أُمُّ رأسه ، يقذف في النار على رأسه .

وفي الدّال المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي أيّوب الأنصاري أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ نفس المؤمن إذا قبضت يلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون : أنظروا صاحبكم يستريح فأِنَّه كان في كرب شديد ثمّ يسألونه ما فعل فلان وفلانة ؟ هل تزوّجت ؟ فأِذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول : هيهات قد مات ذاك قبلي فيقولون : إنّ الله وإنا إليه راجعون ذُهب به إلى أُمّه الهاوية فبُست الأُم وبُست المربيّة .

اقول : وروى هذا المعنى عن أنس بن مالك وعن الحسن والأشعث بن عبد الله الأعمى عنه ﷺ .



﴿سورة التكاثر مكيّة وهي ثمان آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)
 كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
 الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْتَلْنَّ
 يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

﴿بيان﴾

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال والأولاد والأعضاء وغفلتهم
 عما وراءه من تبعه الخسران: العذاب، وتهديد بأنهم سوف يعلمون ويرون ذلك ويسألون
 عن هذه النعم التي أوتوها ليشكروا فقلتها بها وبدلوا نعمة الله كفرا .

والسورة بمالها من السياق تحتمل المكيّة والمدنيّة ، وسيأتي ماورد في سبب
 نزولها في البحث الروائي إن شاء الله .

قوله تعالى : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » قال في المفردات : اللهو ما
 يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه . قال : ويقال : ألهاه كذا أي شغله عما هو أهمّ إليه
 قال تعالى : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » انتهى .

وقال : والمكاثرة والتكاثر التباري في كثرة المال والعزّ . انتهى وقال : المقبرة -
 بكسر الميم - والمقبرة - بفتحها - موضع القبور وجمعها مقابر قال تعالى : « حَتَّى زُرْتُمُ
 الْمَقَابِرَ » كناية عن الموت انتهى .

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق

في تكثير العدة والعدة عما يهتمكم وهو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم .

وقيل : المعنى شغلكم التباهي والتباري بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر رجالاً وهؤلاء : نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتكم الأموات من رجالكم فتكاثرتكم بأمواتكم .

وهذا المعنى مبني على ما ورد في أسباب النزول أن قبيلتين من الأنصار تفاخرا بالأحياء ثم بالأموات ، وفي بعضها أن ذلك كان بمكة بين بني عبدمناف وبني سهم فنزلت السورة ، وسيأتي القصة في البحث الروائي .

قوله تعالى : «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ردع عن اشتغالهم بما لا يهتمهم عما يعنيهم وتخطئة لهم ، وقوله : «سوف تعلمون» تهديد معناه على ما يفيد المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا وتعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا .

قوله تعالى : «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» تأكيد للردع والتهديد السابقين ، وقيل : المراد بالأول علمهم بها عند الموت وبالثاني علمهم بها عند البعث .

قوله تعالى : «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» ردع بعد ردع تأكيداً واليقين العلم الذي لا يداخله شكٌ وريب .

وقوله : «لو تعلمون علم اليقين» جواب لو محذوف والتقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي والتفاخر بالكثرة ، وقوله : «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» استئناف في الكلام ، واللام للقسمة ، والمعنى أقسم لترون الجحيم التي جزاء هذا التلهي كذا فسروا .

قالوا : ولا يجوز أن يكون قوله : «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» جواب لو الامتناعية لأن الرؤية محقق الوقوع وجوابها لا يكون كذلك .

وهذا مبني على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال : «وبرزت الجحيم لمن يرى» النزاعات : ٣٦ وهو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه

قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين »
 الأنعام : ٧٥ وقد تقدّم الكلام فيها ، وهذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير
 محققة لهؤلاء الممثلين بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم .

قوله تعالى : « ثم لترونها عين اليقين » المراد بعين اليقين نفسه ، والمعنى
 لترونها محض اليقين ، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة ومن الدليل عليه قوله بعد ذلك
 « ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم » فالمراد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة وبالثانية
 رؤيتها يوم القيامة .

وقيل : الأولى قبل الدخول فيها يوم القيامة والثانية إذا دخلوها .

وقيل : الأولى بالمعرفة والثانية بالمشاهدة ، وقيل : المراد الرؤية بعد الرؤية
 إشارة إلى الاستمرار والخلود ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة .

قوله تعالى : « ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم » ظاهر السياق أن هذا الخطاب
 وكذلك الخطابات المتقدمة في السورة للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمة ربه عن ربه
 فأنساهم التكاثر فيها عن ذكر الله ، وما في السورة من التوبيخ والتهديد متوجه إلى عامة
 الناس ظاهراً واقع على طائفة خاصة منهم حقيقة وهم الذين ألهاهم التكاثر .
 وكذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقه وهو كل ما يصدق عليه أنه نعمة
 فالإنسان مسؤول عن كل نعمة أنعم الله بها عليه .

وذلك أن النعمة - وهي الأمر الذي يلائم المنعم عليه ويتضمن له نوعاً من
 الخير والنفعة - إنما تكون نعمة بالنسبة إلى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد
 بها فينتفع وأما لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمة بالنسبة إليه وإن كانت نعمة
 بالنظر إلى نفسها .

وقد خلق الله تعالى الإنسان وجعل غاية خلقته التي هي سعادته ومنتهى كماله
 التقرب العبودي إليه كما قال : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ، الذاريات
 ٥٦ وهي الولاية الإلهية لعبده ، وقد هيأ الله سبحانه له كل ما يسعد وينتفع به في
 سلوكه نحو الغاية التي خلق لها وهي النعم فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

فاستعمال هذه النعم على نحو تبرئ فيه الله وينتهي بالإنسان إلى غايته المطلوبة هو الطريق إلى بلوغ الغاية وهو الطاعة ، واستعمالها بالجمود عليها ونسيان ما وراءها غيً وضلال وانقطاع عن الغاية وهو المعصية ، وقد قضى سبحانه قضاء لا يرد ولا يبدل أن يرجع الإنسان إليه فيسأله عن عمله فيجاسبه ويجزيه ، وعمله هو استعماله للنعم الإلهية قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى » النجم : ٤٢ فالسؤال عن عمل العبد سؤال عن النعم كيف استعمله أشكر النعمة أم كفر بها ؟

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : قيل : نزلت في اليهود قالوا : نحن أكثر من بني فلان ، و بنو فلان أكثر من بني فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضالاً عن قتادة .

وقيل : نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا عن أبي بريدة ، وقيل : نزلت في حنين من قريش : بني عبد مناف بن قصي وبني سهم بن عمرو تكاثروا وعدوا أشرافهم فكثروهم بنو عبد مناف . ثم قالوا : نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم وقالوا : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثروهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية . عن مقاتل والكلبي .

وفي تفسير البرهان عن البرقي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « لو تعلمون علم اليقين » قال : المعينة . أقول : الرواية تؤيد ما قد مناه من المعنى .

وفي تفسير القمي بإسناده عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : « لتسألن يومئذ عن النعم » قال : تسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليها برسوله ثم بأهل بيته .

وفي الكافي بإسناده عن أبي خالد الكابلي قال : دخلت على أبي جعفر عليه السلام فدعا بالغذاء فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً أطيب منه قط ولا أطف فلمّا فرغنا من

الطعام قال : يا أبا خالد كيف رأيت طعامك ؟ أوقال : طعامنا ؟ قلت : جعلت فداك ما أكلت طعاماً أطيب منه قطّ ولا أنظف^(١) ولكن ذكرت الآية التي في كتاب الله عزّ وجلّ « ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم » فقال أبو جعفر عليه السلام : إنّما يسألكم عما أنتم عليه من الحقّ .

وفيه بإسناده عن أبي حمزة قال : كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة فدعا بطعام مالنا عهد بمثله لذاتة وطيباً وأتينا بتمر ننظر فيه أوجهنا من صفائه وحسنه فقال رجل : لتسألنّ عن هذا النعيم الذي تنعمتم به عند ابن رسول الله فقال أبو عبد الله عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ أكرم وأجلّ أن يطعم طعاماً فيسوّغكموه ثمّ يسألكم عنه إنّما يسألكم عما أنعم عليكم بمحمّد وآل محمد عليه السلام .

أقول : وهذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بطرق أخرى وعبارات مختلفة وفي بعضها أنّ النعيم ولايتنا أهل البيت ، ويؤول المعنى إلى ما قدّمناه من عموم النعيم لكلّ نعمة أنعم الله بها بما أنّها نعمة .

بيان ذلك أنّ هذه النعم لو سئل عن شيء منها فليست يسأل عنها بما أنّها لحم أو خبز أو تمر أو ماء بارد أو أنّها سمع أو بصر أو يد أو رجل مثلاً وإنّما يسأل عنها بما أنّها نعمة خلقها الله للإنسان وأوقعها في طريق كماله والحصول على التقرّب العبودي كما تقدّمّت الإشارة إليه وندبه إلى أن يستعملها شكراً لا كفرأ .

فالمسؤول عنها هي النعمة بما أنّها نعمة ، ومن المعلوم أنّ الدالّ على نعيمة النعيم وكيفية استعماله شكراً والمبين لذلك كلّ هو الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله ونصب لبيانه الأئمة من أهل بيته فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين في كلّ حركة وسكون ومن المعلوم أيضاً أنّ السؤال عن النعيم الذي هو الدين سؤال عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده الذين افترض الله طاعتهم وأوجب اتباعهم في السلوك إلى الله الذي طريقه استعمال النعم كما بيّنه الرسول والأئمة .

وإلى كون السؤال عن النعيم سؤالاً عن الدين يشير ما في رواية أبي خالد من قوله : « إنّما يسألكم عما أنتم عليه من الحق » .

وإلى كونه سؤالاً عن النعيم الذي هو النبيّ وأهل بيته يشير ما في روايتي جميل وأبي حمزة السابقتين من قوله : « يسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليها برسوله ثم بأهل بيته » أو ما في معناه ، وفي بعض الروايات ^(١) : « النعيم هو رسول الله ﷺ أنعم الله به على أهل العالم فاستنقذهم من الضلالة » ، وفي بعضها أن النعيم ولايتنا أهل البيت ، والمآل واحد ومن ولاية أهل البيت افتراض طاعتهم واتباعهم فيما يسلكونه من طريق العبوديّة .

وفي المجمع : وقيل : النعيم الصحة والفراغ عن عكرمة ، ويعضده ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ . وفيه : وقيل : هو يعني النعيم الأمان والصحة عن عبدالله بن مسعود ومجاهد ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

أقول : وفي روايات أخرى من طرق أهل السنة أن النعيم هو التمر والماء البارد وفي بعضها غيرهما ، وينبغي أن يحمل الجميع على إيراد المثال . وفي الحديث النبويّ من طرقهم أيضاً : ثلاث لا يسأل عنها العبد : خرقه يوارى بها عورته أو كسرة يسدّ بها جوعته أو بيت يكتنه من الحرّ والبرد . الحديث ، وينبغي أن يحمل على خفة الحساب في الضروريات ونفي المناقشة فيه والله أعلم .



﴿سورة العصر مكّية وهي ثلاث آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا
بِالصَّبْرِ (٣) .

﴿بيان﴾

تلخص السورة جميع المعارف القرآنية وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجزيان ، وهي تحتل المكّية والمدنيّة لكنها أشبه بالمكّية .

قوله تعالى : « والعصر » إقسام بالعصر والأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلا لمن اتّبع الحقّ وصبر عليه وهم المؤمنون الصالحون عملاً ، أن يكون المراد بالعصر عصر النبي ﷺ وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري وظهور الحقّ على الباطل .

و قيل : المراد به وقت العصر وهو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبيّ بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس ، وقيل : المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية ، وقيل الليل والنهار ويطلق عليهما العصران ، وقيل الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على القدرة الربويّة ، وغير ذلك .

وقد ورد في بعض الروايات أنّه عصر ظهور المهديّ ﷺ لما فيه من تمام ظهور الحقّ على الباطل .

قوله تعالى : « إنّ الإنسان لفي خسر » المراد بالإنسان جنسه ، والخسر والخسران والخسار والخسارة نقص رأس المال قال الراغب : وينسب ذلك إلى الإنسان

فيقال : خسر فلان وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارته انتهى والتنكير في « خسر » للتعظيم ويحتمل التنويع أي هو في نوع من الخسر غير الخسارات المالية والجاهية قال تعالى : « الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » الزمر : ١٥ .

قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » استثناء من جنس الإنسان الواقع في الخسر ، والمستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان والأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر .

وذلك أن كتاب الله يبين أن للإنسان حياة خالدة مؤبدة لا تنقطع بالموت وإنما الموت انتقال من دار إلى دار كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « على أن تبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » الواقعة : ٦١ ويبين أن شطراً من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية تتمتع بها صفة الشطر الأخير الذي هو الحياة الآخرة المؤبدة من سعادة وشقاء قال تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » الرعد : ٢٦ وقال : « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ .

ويبين أن مقدمية هذه الحياة لتلك الحياة إنما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل فالاعتقاد الحق والعمل الصالح ملاك السعادة الأخروية والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى و أن سعيه سوف يرى ثم يجزأ الجزاء الأوفى » النجم : ٤١ ، وقال : « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون الروم : ٤٤ ، وقال : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » حم السجدة : ٤٦ ، وقد سمى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء وأجرأ في آيات كثيرة .

ويتبين بذلك كله أن الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتبع الحق في العقد والعمل فقد ربحت تجارته وبورك في مكسبه وأمن الشر في مستقبله ، وإن اتبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته وحرم الخير في عقباه وهو قوله تعالى : « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين

آمنوا وعملوا الصالحات» .

والمراد بالإيمان الإيمان بالله و من الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله والإيمان باليوم الآخر فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله ^(١) أو باليوم الآخر أنه غير مؤمن بالله .

وظاهر قوله : « وعملوا الصالحات » التلبّس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء الفساق بترك بعض الصالحات من المؤمنين ولازمه أن يكون الخسرأعم من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحقّ المخلّد في العذاب ، والخسر في بعض جهات حياته كالؤمن الفاسق الذي لا يخلّد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعته ونحوها .

قوله تعالى : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » التواصي بالحق هو أن يوصي بعضهم بعضاً بالحق أي باتباعه والدوام عليه فليس دين الحق إلا اتباع الحق اعتقاداً وعملاً والتواصي بالحق أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشموله الاعتقادات ومطلق الترغيب والحث على العمل الصالح .

ثمّ التواصي بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره كما أنّ التواصي بالصبر من التواصي بالحق وذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره ، ويؤكّده تكرار ذكر التواصي حيث قال : « وتواصوا بالصبر » ولم يقل : « وتواصوا بالحق والصبر » .

وعلى الجملة ذكر تواصيهم بالحق وبالصبر بعد ذكر تلبّسهم بالإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى حياة قلوبهم وانسراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص واعتناء تامّ بظهور سلطان الحق وانسباطه على الناس حتّى يتبع ويدوم اتباعه قال تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أو لئلك في ضلال مبين » الزمر : ٢٢ .

وقد أطلق الصبر فالمراد به أعمّ من الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ،
والصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله وقدر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» الخ فقال : استثنى أهل صفوته من خلقه .

أقول : وطبق في ذيل الرواية الإيمان على الإيمان بولاية علي عليه السلام ، والتواصي بالحق على توصيتهم ذريّاتهم وأخلافهم بها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : «والعصر إن الإنسان لفي خسر» يعني أبا جهل بن هشام «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات» ذكر علياً وسلمان .



﴿ سورة الهزرة مكّية وهي تسع آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ (١) الَّذِي جَمَعَ
 مَا لَا وَعَدَدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)
 وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى
 الْآفِتَّةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

﴿ بيان ﴾

وعيد شديد للمفرمين بجمع المال المستعجلين به على الناس المستكبرين عليهم
 فيزرون بهم ويعيبونهم بما ليس بعيب ، والسورة مكّية .

قوله تعالى : « وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ » قال في المجمع : الهُمزة الكثير الطعن
 على غيره بغير حق العائب له بما ليس بعيب ، وأصل الهمز الكسر . قال : واللمز العيب
 أيضاً والهزمة واللمزة بمعنى ، وقد قيل : بينهما فرق فإن الهزمة الذي يعيبك بظهر
 الغيب ، واللمزة الذي يعيبك في وجهك . عن الليث .

وقيل : الهزمة الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه ، واللمزة الذي يكسر عينه على
 جليسه ويشير برأسه ويؤمي بعينه . قال : وفعلته بناء المبالغة في صفة من يكثر منه
 الفعل ويصير عادة له تقول : رجل نكحة كثير النكاح وضحكة كثير الضحك وكذا هُمزة
 ولمزة . انتهى .

فالمعنى ويل لكل عيّاب مغتاب ، وفسر بممان آخر على حسب اختلافهم في
 تفسير الهزمة واللمزة .

قوله تعالى : « الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ » بيان لهزمة لمزة

وتكثير «مالاً» للتحقير فإن المال وإن كثر ما كثر لا يغني عن صاحبه شيئاً غير أن له منه ما يصرفه في حوائج نفسه الطبيعية من أكلة تشبعه وشربة ماء ترويه ونحو ذلك و«عدّده» من العد بمعنى الإحصاء أي إنّه لحبّه المال وشغفه بجمعه يجمع المال ويعدّه عدّاً بعد عدّ التذاذاً بتكثيره . وقيل : المعنى جعله عدّة وذخراً لنوائب الدهر .
وقوله : «يحسب أن ماله أخلّده» أي يخلّده في الدنيا ويدفع عنه الموت والفناء فالماضي أريد به المستقبل بقرينة قوله : «يحسب» .

فهذا الإنسان لا يخلّده إلى الأرض وانغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به حوائج حياته القصيرة و ضروريات أيتامه المحدودة بل كلما زاد مالاً زاد حرصاً إلى مالا نهاية له فظاهر حاله أنّه يرى أن المال يخلّده ، ولحبّه الغريزيّ للبقاء يهتمّ بجمعه وتعيّده ، ودعاه ما جمعه وعدّده من المال وما شاهده من الاستغناء إلى الطغيان والاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» العلق : ٧ ويورثه هذا الاستكبار والتعديّ الهمز واللمز .

ومن هنا يظهر أن قوله : «يحسب أن ماله أخلّده» بمنزلة التعليل لقوله : «الذي جمع مالا وعدّده» ، وقوله : «الذي جمع» النخ بمنزلة التعليل لقوله : «ويل لكلّ همزة لمزة» .

قوله تعالى : «كلّا لينبذنّ في الحطمة» ردع عن حساباته الخلود بالمال ، واللام في «لينبذنّ» للقسم ، والنبد القذف والطرح ، والحطمة مبالغة من الحطم وهو الكسر وجاء بمعنى الأكل ، وهي من أسماء جهنّم على ما يفسّرها قوله الآتي : «نار الله الموقدة» .

والمعنى ليس مخلّداً بالمال كما يحسب أقسم ليموتنّ ويقذفنّ في الحطمة .

قوله تعالى : «وما أدراك ما الحطمة» تفخيم وتهويل .

قوله تعالى : «نار الله الموقدة التي تطلّع على الأفتدة» إيقاد النار إشعالها والاطّلاع والطلوع على الشيء الإشراف والظهور ، والأفتدة جمع فؤاد وهو القلب ، والمراد به في القرآن مبدء الشعور والفكر من الإنسان وهو النفس الإنسانية .

وكان المراد من اطلاعها على الأفتدة أنها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيوية التي إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى : «وقودها الناس والحجارة» البقرة : ٢٤ .

قوله تعالى : «إنها عليهم مؤصدة» أي مطبقة لا يخرج لهم منها ولا منجا .
قوله تعالى : «في عمد ممددة» العمدة بفتح الحاء جمع عمود والتمديد مبالغة في المدّ قيل : هي أوتاد الأطباق آتت تطبق على أهل النار ، وقيل : عمد ممددة يؤثقون فيها مثل المقاطر وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص وغيرهم ، وقيل غير ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى : «ويل لكل همزة لمزة» نزل ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في أبي بن خلف ، وعلى ما أخرج عن السدي في أبي بن عمرو والثقفى الشهير بالأخنس بن شريق فإنه كان مغتاباً كثير الوقعة .

وعلى ما قال ابن إسحاق في أمية بن خلف الجمحي وكان يهزم النبي ﷺ .
وعلى ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد في جميل بن عامر وعلى ما قيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ وغضه منه ، وعلى قول في العاص ابن وائل .

أقول : ثم قال : ويجوز أن يكون نازلاً في جميع من ذكر انتهى ولا يبعد أن يكون من تطبيق الرواة وهو كثير في أسباب النزول .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «ويل لكل همزة» قال : الذي يغمز الناس ويستحققر الفقراء ، وقوله : «لمزة» يلوي عنقه ورأسه ويغضب إذا رأى فقيراً أو سائلاً «الذي جمع مالا وعدده» قال : أعدده ووضعه .

وفيه في قوله تعالى : «التي تطلع على الأفتدة» قال : تلتهب على الفؤاد قال

أبوذر رضي الله عنه : بشر المتكبرين بكى في الصدور وسحب على الظهور . قوله : «إنها عليهم موصدة» قال : مطبقة «في عمد مدّة» قال : إذا مدت العمد عليهم أكلت والله الجلود .

وفي المجمع روى العيشي بإسناده عن محمد بن النعمان الأحول عن حران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الكفار والمشركين يعيرون أهل التوحيد في النار ويقولون : ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئاً وما نحن وأنتم إلا سواء قال : فيأنف لهم الرب تعالى فيقول للملائكة : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ثم يقول للنبيين : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ثم يقول للمؤمنين : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ويقول الله : أنا أرحم الراحمين اخرجوا برحمتي فيخرجون كما يخرج الفرائس .

قال : ثم قال أبو جعفر عليه السلام : ثم مدت العمد وأوصدت عليهم وكان والله الخلود .

﴿سورة الفيل مكية وهي خمس آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)
 أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)
 تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) .

﴿بيان﴾

فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، وهي من آيات الله الجليلة التي لا سترة عليها، وقد أرتخوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم ، والسورة مكية .

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحس ، والاستفهام إنكاري ، والمعنى أَلَمْ تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي ﷺ .

قوله تعالى : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكة وإرادتهم تخريب البيت الحرام ، والتضليل والإضلال واحد ، وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالاً لا يهتدي إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم .

قوله تعالى : « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » الأبابيل - كما قيل - جماعات في تفرقة زمرة زمرة ، والمعنى وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من الطير والآية والتي تلوها عطف تفسير على قوله : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » .

قوله تعالى : « ترميهم بحجارة من سجيل » أي ترمي أبايل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وقد تقدّم معنى السجيل في تفسير قصص قوم لوط .

قوله تعالى : « فجعلهم كعصف مأكول » العصف ورق الزرع والعصف المأكول ورق الزرع الذي أكل حبه أو قشر الحبّ الذي أكل لبّه والمراد أنّهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجساداً بلا أرواح أو أنّ الحجر بحرارته أحرق أجوافهم ، وقيل: المراد ورق الزرع الذي وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود فيفسده وفسرت الآية ببعض وجوه آخر لا يناسب الأدب القرآني .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : أجمعت الرواة على أن ملك اليمن الذي قصدهم الكعبة هو أبرهة ابن الصباح الأشرم وقيل: إن كنيته أبويكسوم ونقل عن الواقدي أنّه جدّ النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ﷺ .

ثمّ ساق الكلام في قصّة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال : ثمّ إنّ بني كعبة باليمن وجعل فيها قباباً من ذهب فأمر أهل مملكته بالحجّ إليها يضاهي بذلك البيت الحرام ، وإنّ رجلاً من بني كنانة خرج حتّى قدم اليمن فنظر إليها ثمّ قعد فيها يعني لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال : من اجترء عليّ بهذا ؟ ونصرايتني لأهدمنّ ذلك البيت حتّى لا يحجّه حاج أبدا ودعا بالفيل وأذن قومه بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن ، وكان أكثر من اتبعه منهم عكّ والأشعرون وخثعم .

قال : ثمّ خرج يسير حتّى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس إلى حجّ بيته الذي بناه فتلقاه أيضاً رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حقّاً وحثّ السير والانطلاق .

وطلب من أهل الطائف دليلاً فبعثوا معه رجلاً من هذيل يقال له نفيل فخرج

بهم يهديهم حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال فبعثوا مقدّماتهم إلى مكة فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال وقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادي الباب ثم يقول :

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع جلالك

لا يغلبوا بصليبيهم ومحالهم عدواً محالك

لا يدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدالك

ثم إن مقدّمات أبرهة أصابت نعماً لقريش فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم ، وكان حاجب أبرهة رجلاً من الأشرعين وكان له بمبد المطلب معرفة فاستأذن له على الملك وقال له : أيتها الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحيّ ووحشها في الجبل فقال له : ائذن له. وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً فلما رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته وكره أن يجلسه معه على سريريه فنزل من سريريه فجلس على الأرض وأجلس عبد المطلب معه ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدّماتك فقال أبو يكسوم : والله لقد رأيتك فأعجبني ثم تكلمت فزهدت فيك فقال : ولم أيتها الملك ؟ قال : لأنني جئت إلى بيت عزكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس وشرفكم عليهم ودينكم الذي تعبدون فجئت لا كسره وأصبيت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك ولم تطلب إليّ في بيتكم .

فقال له عبد المطلب : أيتها الملك أنا أكلّمك في مالي ولهذا البيت ربّ هو يمنعه لست أنا منه في شيء فراع ذلك أبا يكسوم وأمر بردّ إبل عبد المطلب عليه ثم رجع وأمسّت ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنّها تكلمهم كلاماً لاقترابها منهم فأحسّت نفوسهم بالعذاب .

إلى أن قال : حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم ، وكل طائر في منقاره حجر وفي رجله حجران وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه ولا عظم إلا أوهاه وثقبه ، وثاب أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده فلما قدما تصدّع صدره وانشق بطنه فهلك ولم يصب من الأشعرين وختم أحد . الحديث .
أقول : وفي الروايات اختلاف شديد في خصوصيات القصة من أراد الوقوف عليها فعليه بمطولات السير والتواريخ .



﴿ سورة لايلاف مكيّة وهي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ (١) لَا يَلَا فِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ
وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (٤)
وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٥) .

﴿ بيان ﴾

تتضمن السورة امتناناً على قريش بـايلافهم الرحلتين وتعقبه بدعوتهم إلى التوحيد وعبادة ربّ البيت ، والسورة مكيّة .

و لمضمون السورة نوع تعلق بمضمون سورة الفيل ولذا ذهب قوم من أهل السنة إلى كون الفيل ولا يلاف سورة واحدة كما قيل بمثله في الضحى وألم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك إلى المشهور بين الشيعة والحق أنّ شيئاً مما استندوا إليه لا يفيد ذلك .

أما القائلون بذلك من أهل السنة فإنهم استندوا فيه إلى ما روي أنّ أبيّ ابن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة ، وبما روي عن عمرو بن ميمون الأزدّي قال : صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ في الركعة الأولى والتين وفي الثانية ألم تر ولا يلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة .

وأجيب عن الرواية الأولى بمعارضتها بما روي أنّه أثبت البسملة بينهما في مصحفه ، وعن الثانية بأنّ من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوي لم يسمع قراءتها أو يكون قرأها سرّاً . على أنّها معارض بما روي عن النبي ﷺ أنّ الله فضل قريشاً بسبع خصال وفيها د وتزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد

غيرهم : لا يلاف قريش». الحديث على أن الفصل متواتر .

وأما القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه إلى ما في المجمع عن أبي العباس عن أحدهما عليه السلام قال : ألم تر كيف فعل ربك ولا يلاف قريش سورة واحدة ، وما في التهذيب بإسناده عن العلاء عن زيد الشحام قال : صلى بنا أبو عبدالله عليه السلام الفجر فقرأ الضحى وألم نشرح في ركعة ، وما في المجمع عن العياشي عن المفضل بن صالح عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سمعته يقول : لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى وألم نشرح وألم تر كيف ولا يلاف قريش ، ورواه المحقق في المعبر نقلاً من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبي نصر عن المفضل مثله .

أما رواية أبي العباس فضعيف لما فيها من الرفع .

وأما رواية الشحام فقد رويت عنه أيضاً بطريقين آخرين : أحدهما ما في التهذيب بإسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال : صلى بنا أبو عبدالله عليه السلام فقرأ بنا بالضحى وألم نشرح ، وثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحام قال : صلى بنا أبو عبدالله عليه السلام فقرأ في الأولى الضحى وفي الثانية ألم نشرح لك صدرك .

وهذه أعني صحيحة ابن أبي عمير صريحة في قراءة السورتين في ركعتين ولا يبقى معها لرواية العلاء ظهور في الجمع بينهما ، وأما رواية ابن مسكان فلا ظهور لها في الجمع ولا صراحة ، وأما حمل رواية ابن أبي عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها : «صلى بنا» فإنه صريح في الجماعة ولا جماعة في نفل .

وأما رواية المفضل فهي أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة حيث قيل : لا تجمع بين سورتين ثم استثنى من السورتين الضحى وألم نشرح وكذا الفيل ولا يلاف .

فالحق أن الروايات إن دلت فإتّما تدل على جواز القران بين سورتي الضحى وألم نشرح وسورتي الفيل ولا يلاف في ركعة واحدة من الفرائض وهو ممنوع في غيرها ، ويؤيده رواية الراوندي في الخرائج والجرائح عن داود الرقي عن أبي

عبدالله ﷺ في حديث قال : فلما طلع الفجر قام فأذّن وأقام وأقامني عن يمينه وقرء في أرل ركعة الحمد والضحي وفي الثانية بالحمد وقل هو الله أحد ثم قنت ثم سلّم ثم جلس .

قوله تعالى : « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » الإلف بكسر الهمزة اجتماع مع التثام كما قاله الراغب ومنه الألفة ، وقال في الصحاح : وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألّفه إلّفاً وآلفه إيتاه غيره ، ويقال أيضاً : آلفت الموضع أوّلّفه إيلافاً انتهى .

وقريش عشيرة النبي ﷺ وهم ولد النضر بن كنانة المسمّى قريشاً ، والرحلة حال السير على الرحلة وهي الناقة القويّة على السير كما في المجمع ، والمراد بالرحلة خروج قريش من مكّة للتجارة وذلك أنّ الحرم وادجديب لازرع فيه ولا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة ، وكانت لهم في كلّ سنة رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة بالصيف إلى الشام ، وكانوا يعيشون بذلك وكان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الآمن .

وقوله : « لا يلاف قريش » اللّام فيه للتعليل ، وفاعل الإيلاف هو الله سبحانه وقريش مفعوله الأوّل ومفعوله الثاني محذوف يدلّ عليه ما بعده ؛ وقوله : « إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » بدل من إيلاف قريش ، وفاعل إيلافهم هو الله ومفعوله الأوّل ضمير الجمع ومفعوله الثاني رحلة النخ ، والتقدير لا يلاف الله قريشاً رحلة الشتاء والصيف .

قوله تعالى : « فليعبدوا ربّ هذا البيت » الفاء في « فليعبدوا » لتوهمّ معنى الشرط أي شيء كان فليعبدوا ربّ هذا البيت لا يلافه أيّام الرحلتين أو لتوهمّ التفصيل أي مهما يكن من شيء فليعبدوا ربّ هذا البيت النخ ، فهو كقوله تعالى : « ولربّك فاصبر » المدّثر : ٧ .

ومحصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش ربّ هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء والصيف وهم عائشون بذلك في أمن .

هذا بالنظر إلى كون السورة منفصلة عما قبلها ذات سياق مستقلّ في نفسها ، وأما على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متممة لها فذكروا أنّ اللام في « لايلاف »، تعليلية متعلّقة بمقدّر يدلّ عليه المقام والمعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منّا على قريش مضافة إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف فكأنّه قال : نعمة إلى نعمة ولذا قيل : إنّ اللام مؤدّية معنى إلى وهو قول الفرّاء .

وقيل : المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكّة و يمكنهم المقام بها أولئولف قريشا فإنّهم هابوا من أبرهة لما قصدوا وهربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكّة ويألفوا بها ويولد محمد ﷺ فيبعث إلى الناس بشيراً و نذيراً هذا ، والكلام في استفادة هذه المعاني من السياق .

قوله تعالى : « الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » إشارة إلى ما في إيلافهم الرحلتين من منّة الواضح ونعمته الظاهرة عليهم وهو الإطعام والأمن فيعيشون في أرض لا خصب فيها ولا أمن لغيرهم فليعبدوا ربّاً يدبر أمرهم أحسن التدبير و هو ربّ البيت .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « لايلاف قريش إيلافهم » قال : نزلت في قريش لأنّه كان معاشهم من الرحلتين رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانوا يحملون من مكّة الأدم واللّب وما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره فيشترون بالشام الثياب والدرمك والحبوب ، وكانوا يتألفون في طريقهم و يثبتون في الخروج في كلّ خرّجة رئيساً من رؤساء قريش وكان معاشهم من ذلك .

فلما بعث الله نبيّه استغفروا عن ذلك لأنّ الناس وفدوا على رسول الله ﷺ
 وحجّوا إلى البيت فقال الله : « فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع ،
 لايحتاجون أن يذهبوا إلى الشام » وآمنهم من خوف ، يعني خوف الطريق .
 أقول : قوله : فلما بعث الله الخ خفيّ الانطباق على سياق آيات السورة ، ولعلّه
 من كلام القمّي أخذته من بعض ما روي عن ابن عباس .



﴿ سورة الماعون مدنية أو مكينة وهي سبع آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ
الَّذِي يَدْعُ الْيتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ
لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ
يَرَأُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

﴿ بيان ﴾

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلفاً بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاة
والرياء في الأعمال ومنع الماعون مما لا يلائم التصديق بالجزاء .

والسورة تحتل المكينة والمدنية، وقيل : نصفها مكينة ونصفها مدنية .

قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ » الرؤية تحتمل الرؤية البصرية
وتحتمل أن تكون بمعنى المعرفة ، والخطاب للنبي ﷺ بما أنه سامع فيتموجه
إلى كل سامع ، والمراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمتكذب بالدين منكر المعاد و
قيل المراد به الدين بمعنى الملة .

قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيتِيمَ » الدع هو الرد بعنف وجفاء ، والفاء
في « فَذَلِكَ » لتوهم معنى الشرط والتقدير أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْجزاء فعرفته
بصفاته اللازمة لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الذي يرد اليتيم بعنف ويجفوه ولا يخاف
عاقبة عمله السيئ ولو لم يكذب به لخافها ولو خافها لرحمه .

قوله تعالى : « وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » الحض الترغيب ، والكلام على
تقدير مضاف أي لا يرغب الناس على إعطاء طعام المسكين قيل : إن التعبير بالطعام دون

الإطعام للإشعار بأنّ المسكين كأنّه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى : « وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم » الذاريات : ١٩ وقيل : الطعام في الآية بمعنى الإطعام .
والتعبير بالحضّ دون الإطعام لأنّ الحضّ أعمّ من الحضّ العمليّ الذي يتحقّق بالإطعام .

قوله تعالى : « فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون » أي غافلون لا يهتمّون بها ولا يبالون أن تفوتهم بالكليّة أو في بعض الأوقات أو تتأخّر عن وقت فضيلتها وهكذا .

وفي الآية تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلّين لمكان فاء التفرّيع و دلالة على أنّهم لا يخلون من نفاق لأنّهم يكذبون بالدين عملا وهم يتظاهرون بالإيمان .

قوله تعالى : « الذين هم يراؤون » أي يأتون بالعبادات لمراآة الناس فهم يعملون للناس والله تعالى .

قوله تعالى : « ويمنعون الماعون » الماعون كلّ ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الحياة كالقرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره ، وإلى هذا يرجع متفرّقات ما فسّره في كلماتهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « رأيت الذي يكذب بالدين » قال : نزلت في أبي جهل وكفّار قريش ، وفي قوله : « الذين عن صلاتهم ساهون » قال : عنى به تاركون لأنّ كلّ إنسان يسهو في الصلاة قال أبو عبد الله عليه السلام : تأخير الصلاة عن أوّل وقتها لغير عذر .

وفي الخصال عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة قال : ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصلاة فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا فإنّ الله عزّ وجلّ

ذمّ أقواماً فقال: «الذين هم عن صلاتهم ساهون» يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها.

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل قال: سألت عبداً صالحاً عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «الذين هم عن صلاتهم ساهون» قال: هو التضييع.

أقول: وفي هذه المضامين روايات أخرى.

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عليّ ابن أبي طالب «الذين هم يراؤن» قال: يراؤن بصلاتهم.

وفيه أخرج أبو نعيم والديلمي وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: «ويمنعون الماعون» قال: ما تعاون الناس بينهم الفاس والقدر والدلو وأشباهه.

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: «و قوله عزّ وجلّ: «ويمنعون الماعون» هو القرض تفرضه والمعروف تصنعه و متاع البيت تعبيره ومنه الزكاة.

أقول: وتفسير الماعون بالزكاة مروى من طرق أهل السنة أيضاً عن عليّ عليه السلام كما في الدر المنثور ولفظه: الماعون الزكاة المفروضة يراؤن بصلاتهم ويمنعون زكاتهم.

وفي الدر المنثور أخرج ابن قانع عن عليّ بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياً بالسلام و يردّ عليه ما هو خير منه لا يمنع الماعون. قلت: يا رسول الله ما الماعون؟ قال صلى الله عليه وآله: الحجر والحديد والماء وأشباه ذلك.

أقول: وقد فسّر صلى الله عليه وآله في رواية أخرى الحديد بقدر النحاس وحديد الفاس والحجر بقدر الحجارة.

﴿ سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

﴿ بيان ﴾

امتنان على النبي ﷺ بإعطائه الكوثر وتطيب لنفسه الشريفة بأن شائه هو الأبر ، وهي أقصر سورة في القرآن وقد اختلفت الروايات في كون السورة مكية أو مدنية ، والظاهر أنها مكية ، وذكر بعضهم أنها نزلت مرتين جمعاً بين الروايات .

قوله تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » قال في المجمع الكوثر فوعل وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة ، والكوثر الخير الكثير ، انتهى .

وقد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافاً عجيباً ف قيل : هو الخير الكثير ، وقيل نهر في الجنة ، وقيل : حوض النبي ﷺ في الجنة أو في المحشر ، وقيل : أولاده وقيل : أصحابه وأشيعه ﷺ إلى يوم القيامة ، وقيل : علماء أمته ﷺ ، وقيل القرآن وفوائده كثيرة ، وقيل : النبوة وقيل : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل : الإسلام ، وقيل التوحيد ، وقيل : العلم والحكمة ، وقيل : فضائله ﷺ ، وقيل المقام المحمود ، وقيل : هو نور قلبه ﷺ إلى غير ذلك مما قيل ، وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال إلى ستة وعشرين .

وقد استند في القولين الأولين إلى بعض الروايات ، وباقى الأقوال لا تخلو من تحكّم ، وكيفما كان ف قوله في آخر السورة : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » - وظاهر الأبر هو المنقطع نسله وظاهر الجملة أنها من قبيل قصر القلب - أن كثرة ذريته ﷺ هي

المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ أو المراد بها الخير الكثير وكثرة الذرية مرادة في ضمن الخير الكثير ولو لا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله : « إن شئتُك هو الأبر » خالياً عن الفائدة .

وقد استفاضت الروايات أن السورة إنما نزلت فيمن عابه ﷺ بالبر بعد ما مات ابنه القاسم وعبد الله ، وبذلك يندفع ما قيل : « إن مراد الشانيء بقوله : « أبر » المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فرد الله عليه بأنه هو المنقطع من كل خير . ولما في قوله : « إنا أعطيناك » من الامتنان عليه ﷺ جيء بلفظ المتكلم مع الغير الدال على العظمة ، ولما فيه من تطيب نفسه الشريفة أكدّت الجملة بأن « وعبر بلفظ الإعطاء الظاهر في التمليك .

والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليها السلام ذريته ﷺ ، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثّر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جوعهم من المقاتل الذريعة .

قوله تعالى : « فصل لربك وانحر » ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان في قوله : « إنا أعطيناك الكوثر » أنه من شكر النعمة والمعنى إذا مننتُ عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر .

والمراد بالنحر على ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ وعن علي عليه السلام وروته الشيعة عن الصادق عليه السلام وغيره من الأئمة هو رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر :

وقيل : معنى الآية صلّ لربك صلاة العيد وانحر البدن ، وقيل : يعني صلّ لربك واستوقائماً عند رفع رأسك من الركوع وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : « إن شئتُك هو الأبر » الشانيء هو المبغض والأبر من لا عقب له وهذا الشانيء هو العاصي بن وائل .

وقيل : المراد بالأبر المنقطع عن الخير أو المنقطع عن قومه ، وقد عرفت أن

روايات سبب نزول السورة لانلائمه وستجيبه .

﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور أخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ «إنا أعطيناك الكوثر» قال النبي ﷺ لجبريل : ما هذه النخيرة التي أمرني بهاربي ؟ قال : إنها ليست بنخيرة ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع ، وإن لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

قال النبي ﷺ : رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : «فما استكانوا ربهم وما يتضرعون» .

أقول : ورواه في المجمع عن المقاتل عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام ثم قال : أورده الثعلبي والواحدي في تفسيريهما ، وقال أيضا : إن جميع عثرته الطاهرة ورواعه عليه السلام أن معنى النحر رفع اليدين إلى النحر في الصلاة .

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي جعفر في قوله : «فصل لربك» قال : الصلاة «وانحر» قال : يرفع يديه أول ما يكبر في الافتتاح .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : «فصل لربك وانحر» قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر .

وفي المجمع في الآية عن عمر بن يزيد قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قوله «فصل لربك وانحر» هو رفع يديك حذاء وجهك .

أقول : ثم قال : وروى عنه عبد الله بن سنان مثله ، وروى أيضا قريبا منه عن جميل عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ثم مات عبد الله فقال العاصي بن وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتى فأترل الله « إن شئت هو الأبتى » .

وفيه أخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : توفي القاسم بن رسول الله بمكة فمر رسول الله ﷺ وهو آت من جنازته على العاصي بن ابن وائل وابنه عمرو فقال حين رأى رسول الله ﷺ : إني لأشئوه فقال العاصي بن وائل : لاجرم لقد أصبح أبتى فأترل الله « إن شئت هو الأبتى » .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كانت قريش تقول - إذا مات ذكور الرجل - بتر فلان فلمّا مات ولد النبي ﷺ قال العاصي بن وائل : بتر والأبتى الفرد .

أقول : وفي بعض الآثار أن الشائي هو الوليد بن المغيرة ، وفي بعضها أبو جهل وفي بعضها عقبة بن أبي معيط ، وفي بعضها كعب بن الأشرف ، والمعتمد ما تقدّم .

ويؤيده ما في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يخاطب فيه العمرو بن العاصي : وإنك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحارث والنضر بن الحارث بن كلدة والعاصي بن وائل كلهم يزعم أنك ابنه فغلبهم عليك من بين قريش الأهم حسباً

وأخبتهم منصّباً وأعظمهم بغية .

ثمّ قمت خطيباً وقلت : أنا شانيءٌ لله وقال العاصي بن وائل : إنّ الله رجلاً
أبتر لاولدله فلو قدمات انقطع ذكره فأنزل الله تبارك وتعالى : « إنّ شأنك هو الأبتر »
الحديث .

وفي تفسير القميّ « إنّنا أعطيناك الكوثر » قال : الكوثر نهر في الجنة أعطى
الله تعالى الله عز وجلّ عوضاً عن ابنه إبراهيم .

أقول : الخبر على إرساله وإضماره معارض لسائر الروايات وتفسير الكوثر
بنهر في الجنة لا ينافي التفسير بالخير الكثير كما تقدّم في خبر ابن جبير .



﴿سورة الكافرون مكيّة وهي ست آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا
تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

﴿بيان﴾

فيها أمره ﷺ أن يظهر للكفار براءته من دينهم ويخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعدّاه إليهم ولادينهم يتعدّاهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبداً ولا يعبدون ما يعبد أبداً فليأسوا من أي نوع من المداهنة والمساهلة .
و اختلفوا في كون السورة مكيّة أو مدنيّة ، و الظاهر من سياقها أنها مكيّة .

قوله تعالى : «قل يا أيّها الكافرون الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر ويدلّ على ذلك أمره صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه .

قوله تعالى : «لا أعبد ما تعبدون» الآية إلى آخر السورة مقول القول ، والمراد بما تعبدون الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ومفعول «يعبدون» ضمير راجع إلى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه ولرعاية الفواصل ، وكذا مفاعيل الأفعال التالية : «أعبد» و«عبدتم» و«أعبد» .

وقوله : لا أعبد، نفى استقباليّ فإنّ «لا» لنفي الاستقبال كما أنّ «ما» لنفي الحال ، والمعنى لا أعبد أبداً ما تعبدونه اليوم من الأصنام .

قوله تعالى : «ولا أنتم عابدون ما أعبد» نفي استقباليّ أيضاً لعبادتهم ما يعبدونه ﷺ وهو إخبار عن امتناعهم عن الدخول في دين التوحيد في مستقبل الأمر .
وبانضمام الأمر الذي في مفتتح الكلام تفيداً لآيتان أن الله سبحانه أمرني بالدوام على عبادته وأن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبداً فلا يقع بيني وبينكم اشتراك في الدين أبداً .

فالأية في معنى قوله تعالى : «لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» يس : ٧ ، وقوله : «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» البقرة : ٦ .

وكان من حقّ الكلام أن يقال : ولا أنتم عابدون من أعبد . لكن قيل : ما أعبد ليطابق ما في قوله : «لا أعبد ما تعبدون» .

قوله تعالى : «ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد» تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزيادة التأكيد ، كقوله : «كلاً سوف تعلمون ثم كلاً سوف تعلمون» التكاثر : ٤ وقوله : «فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر» المدثر : ٢٠ .

وقيل : إن «ما» في «ما عبدتم» و «ما أعبد» مصدرية لاموصولة والمعنى ولا أنا عابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي أي لا أشارككم ولا تشاركونني لافي المعبود ولا في العبادة فمعبودي هو الله و معبودكم الوثن و عبادتي ما شرعه الله لي و عبادتكم ما ابتدعتموه جهلاً وافتراء ، وعلى هذا فالآيتان غير مسوقتين للتأكيد ، ولا يخلو من بعد وسيأتي في البحث الروائي التالي وجه آخر للتكرار لطيف .

قوله تعالى : «لكم دينكم ولي دين» تأكيد بحسب المعنى لما تقدّم من نفي الاشتراك ، واللام للاختصاص أي دينكم وهو عبادة الأصنام يختصّ بكم ولا يتعدّكم إليّ وديني يختصّ بي ولا يتعدّني إليكم ولا محلّ لتوهم دلالة الآية على إباحة أخذ كلّ بما يرضيه من الدين ولأنّه ﷺ لا يتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوة الحقّة التي يتضمنها القرآن تدفع ذلك أساساً .

وقيل: الدين في الآية بمعنى الجزاء والمعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ، وقيل: إن هناك مضافاً مخذوفاً والتقدير لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني ، والوجهان بعيدان عن الفهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأثير في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البخري قال : لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله ﷻ وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، حتى انقضت السورة .

اقول : وروى الشيخ في الأمالى بإسناده عن ميناء عن غير واحد من أصحابه قريباً منه .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير قال : سأل أبو شاهر أبا جعفر الأحول عن قول الله : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابداً عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » فهل يتكلم الحكيم بمثل هذا القول ، ويكرّر مرة بعد مرة ؟ فلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب .

فدخل المدينة فسأل أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: كان سبب نزولها وتكرارها أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فأجابهم الله ﷻ بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا : تعبد آلهتنا سنة : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، وفيما قالوا : نعبد إلهك سنة : ولا أنتم عابدون

ما أعبد ، و فيما قالوا : تعبد آلہتنا سنة : « ولأنا عابد ما عبدتم » و فيما قالوا : نعبد
إلہک سنة : « ولأنتم عابدون ما أعبد لكم دينکم ولي دين » .
قال : فرجع أبو جعفر الأُحول إلى أبي شاکر فأخبره بذلك فقال أبو شاکر :
هذا حملته الإبل من الحجاز .
اقول : مفاد التکرار في کلام قريش الاستمرار على عبادة آلہتهم سنة وعبادة
الله تعالى سنة .



﴿سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ
النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

﴿بيان﴾

وعده ﷺ بالنصر والفتح وأنه سىرى الناس يدخلون في الإسلام فوجاً بعد
فوج وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار ، والسورة مدنية نزلت بعد صلح
الحديبية وقبل فتح مكة على ما سنستظهر .

قوله تعالى : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» ظهور «إذا» المصدرة بها الآية في الاستقبال
يستدعي أن يكون مضمون الآية إخباراً بتحقيق أمر لم يتحقق بعد ، وإذ كان المخبر
به هو النصر والفتح وذلك مما تقر به عين النبي ﷺ فهو وعد جميل وبشرى له
ﷺ ويكون من ملاحم القرآن الكريم .

وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله
فيها نبيه ﷺ على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه و مغازيه وإيمان
الأَنْصَارِ وأهل اليمن كما قيل إذ لا يلائمه قوله بعد : « ورأيت الناس يدخلون في دين
الله أفواجا » .

وليس المراد بذلك أيضاً صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحاً إذ قال «إِنَّا
فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» الفتح : ١ - لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه .

وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكة

الذي هو أُمّ فتوحاته ﷺ في زمن حياته والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب .

ويؤيده وعد النصر الذي في الآيات النازلة في الحديبية «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً» الفتح : ٣ فإن من القريب جداً أن يكون ما في الآيات وعداً بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبية وهو نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش حتى فتح مكة بعد مضي سنتين من فتح الحديبية .

وهذا الذي ذكر أقرب من حمل الآية على إجابة أهل اليمن الدعوة الحقّة ودخولهم في الإسلام من غير قتال ، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر والفتح نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش وفتح مكة ، وأن تكون السورة نازلة بعد صلح الحديبية وتزول سورة الفتح وقبل فتح مكة .

قوله تعالى : «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» قال الراغب : الفوج الجماعة المازّة المسرعة ، وجمعه أفواج . انتهى . فمعنى دخول الناس في دين الله أفواجا دخولهم فيه جماعة بعد جماعة ، والمراد بدين الله الإسلام قال تعالى : «إن الدين عند الله الإسلام» آل عمران : ١٩ .

قوله تعالى : «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» لما كان هذا النصر والفتح إذلالاً منه تعالى للشرك وإعزازاً للتوحيد وبعبارة أخرى إبطالاً للباطل وإحقاقاً للحقّ ناسب من الجهة الأولى تنزيهه تعالى وتسييحه ، وناسب من الجهة الثانية - التي هي نعمة - الثناء عليه تعالى وحمده فلذلك أمره ﷺ بقوله : «فسبح بحمد ربك» .

وهنا وجه آخر يوجّه به الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار جميعاً وهو أنّ للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله ويذكر نفسه بماله من النقص والحاجة ولما كان في هذا الفتح فراغه ﷺ من جلّ ما كان عليه من السعي في إمطة الباطل وقطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التسبيح وبجماله

وهو التحميد وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه ﷺ - وهو مغفور - سؤال إدامة المغفرة فإن الحاجة إلى المغفرة بقاء كالحاجة إليها حدوداً فافهم ذلك ، وبذلك يتم شكره لربه تعالى وقد تقدم ^(١) كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة .

وقوله : «إنه كان نواباً» تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق وتأكيد .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا وسمعها العباس فبكى فقال ﷺ : ما يبكيك يا عم ؟ قال : أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله فقال : إنه لكما تقول فعاش بعدها سنتين ما روي بعدها ضاحكا مستبشرا .

أقول : و روي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة وقيل في وجه دلالتها أن سياقها يلوّح إلى فراغه ﷺ مما عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره ، وعند الكمال يرقب الزوال .

وفيه عن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فسألناه عن ذلك فقال ﷺ : إنني أمرت بها ثم قرء « إذا جاء نصر الله والفتح » .

أقول : وفي هذا المعنى غير واحد من الروايات مع اختلاف ما فيما كان يقوله : صلى الله عليه وآله .

وفي العيون بإسناده إلى الحسين بن خالد قال : قال الرضا عليه السلام سمعت أبي يحدث عن أبيه عليه السلام إن أول سورة نزلت « بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك » وآخر سورة نزلت « إذا جاء نصر الله » .

أقول : لعل المراد به أنها آخر سورة نزلت تامة كما قيل .

وفي المجمع في قصة فتح مكة : لما صالح رسول الله ﷺ قريشاً عام الحديبية كان في أشراطهم أنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ دخل فيه فدخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عقد قريش ، وكان بين القبيلتين شر قديم .

ثم وقعت فيما بعد بين بني بكر وخزاعة مقاتلة ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً ، وكان ممن أعان بني بكر على خزاعة بنفسه عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو .

فركب عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة وكان ذلك ممّا حاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد بين ظهراي القوم وقال :

لاهمّ إنني ناشد^(١) محمداً
حلف أبيتنا وأبيه الأتلد^(٢)
إن قريشاً أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكدا
وقتلونا رگماً وسجداً

فقال رسول الله ﷺ : حسبك يا عمرو ثم قام فدخل دارميمونة وقال : اسكب لي ماء فجعل يغتسل وهو يقول : لانصرت إن لم أنصر بني كعب وهم رهط عمرو بن سالم ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم أنصرفوا راجعين إلى مكة وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس : كأنتكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّ العقد ويزيد في المدة وسيلقى بديل بن ورقاء فلقوا أباسفيان بعسفان وقد بعثته قريش إلى النبي ﷺ ليشدّ العقد .

فلما لقي أبوسفيان بديلاً قال : من أين أقبلت يا بديل قال : سرت في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال : ما أتيت محمداً ؟ قال : لافلمنا راح بديل إلى مكة قال أبو .

(١) الناشد الطالب والمذكر .

(٢) الأتلد القديم .

سفيان : لئن كان جاء من المدينة لقد علّف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته وأخذ من بعرها ففتنه فرآى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمد .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد احقن دم قومك وأجربين قريش وزدنا في المدة فقال: أغدرتم يا أباسفيان؟ قال : لا فقال ﷺ : فنحن على ما كنّا عليه فخرج فلقي أبا بكر فقال : أجربين قريش قال : ويحك وأحد يجير على رسول الله ﷺ؟ ثم لقي عمر بن الخطاب فقال له مثل ذلك ثم خرج فدخل على أمّ حنيفة فذهب ليجلس على الفراش فأهوت إلى الفراش فطوته فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني؟ فقالت : نعم هذا فراش رسول الله ﷺ ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك .

ثم خرج فدخل على فاطمة رضي الله عنها فقال: يا بنت سيد العرب تجيرين بين قريش وتزيدين في المدة فتكونين أكرم سيّدة في الناس؟ فقالت : جوالي جوار رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : أنا أمرين ابنك أن يجيرا بين الناس؟ قالت : والله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس وما يجير على رسول الله ﷺ أحد فقال : يا أبا الحسن إنني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى فقال علي رضي الله عنه : إنك شيخ قريش فقم على باب المسجد وأجربين قريش ثم الحق بأرضك قال: وترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنّ ذلك ولكن لأجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال : يا أيّها الناس إنني قد أجرت بين قريش ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك؟ فأخبرهم بالقصة فقالوا : والله إن زاد عليّ بن أبي طالب على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك .

قال: فأمر رسول الله ﷺ بالجهاز لحرب مكّة وأمر الناس بالتهيئة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش فأنى رسول الله ﷺ الخبر من السماء فبعث علياً رضي الله عنه والزبير حتى أخذوا كتابه

من المرأة وقد مضت هذه القصة في سورة الممتحنة .

ثم استخلف رسول الله ﷺ أباذر الغفاري وخرج عامداً إلى مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان في عشرة آلاف من المسلمين ونحو من أربعمائة فارس ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد .

وقد كان أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة فالتمسا الدخول عليه فلم يأذن لهما فكلّمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمّك وابن عمّتك وصهرك قال لا حاجة لي فيهما أما ابن عمّي فهتك عرضي ، وأما ابن عمّتي وصهرى فهو الذي قال : لي بمكة ما قال فلماً خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنى له قال : والله ليأذن لي أولاً خذني بيد بنى هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً فلماً بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقى لهما فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما .

فلماً نزل رسول الله ﷺ مر الظهران وقد غمت الأخبار عن قريش فلا يأتهم عن رسول الله ﷺ خبر خرج في تلك الليلة أبوسفیان بن حرب و حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسّسون الأخبار وقد قال العباس ليلتذ : يا سوء صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل مكة عنوة إنه لهلك قريش إلى آخر الدهر فخرج على بغلة رسول الله ﷺ وقال : أخرج إلى الأراك لعلّي أرى خطاباً أو صاحب لبن أو داخلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه .

قال العباس فوالله إنّي لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان و حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء و سمعت أباسفيان يقول : والله ما رأيت كالليلة قط نيراناً فقال بديل : هذه نيران خزاعة فقال أبوسفیان : خزاعة ألام من ذلك قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة يعنى أباسفيان فقال : أبو الفضل ؟ فقلت : نعم قال : لبيك فذاك أبي وأمي ما وراءك ؟ فقلت : هذا رسول الله ﷺ وراءك قد جاء بما لا قبل لكم به عشرة آلاف من المسلمين .

قال : فما تأمرني ؟ قلت : تركب عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله ﷺ

فوالله لئن ظفرك ليضربن^١ عنقك فردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ فكلما مررت بناز من نيران المسلمين قالوا : هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله حتى مررت بناز عمر بن الخطاب فقال يعني عمر : يا أباسفيان الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد ثم اشتد^٢ نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبّة وسبقت عمر بما يسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء .

فدخل عمر فقال : يا رسول الله هذا أبوسفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني أضرب عنقه فقلت : يا رسول الله إنني قد أجرته ثم إنني جلست إلى رسول الله ﷺ وأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه اليوم أحد دوني فلما أكثر فيه عمر قلت : مهلاً يا عمر فوالله ما يصنع هذا الرجل إلا أنه رجل من آل بني عبد مناف ولو كان من عدي بن كعب ما قلت هذا قال : مهلاً يا عباس لا سلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم فقال ﷺ : اذهب فقد آمناء حتى تقدوبه علي في الغداة .

قال : فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ فلما رآه قال : ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لا أغنى يوم بدر يوم أحد فقال : ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ فقال : بأبي أنت وأمي أما هذه فإن في النفس منها شيئاً قال العباس : فقلت له : ويحك اشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك فتشهد .

فقال ﷺ للعباس : اصرف يا عباس فاحبسه عند مضيق الوادي حتى يمر عليه جنود الله قال : فحبسته عند خطم^(١) الجبل بمضيق الوادي ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول : من هؤلاء ؟ وأقول : أسلم وجهينة وفلان حتى مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقال : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار فقال : يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقلت : ويحك إنها النبوة فقال : نعم إذا .

وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء رسول الله ﷺ وأسلما وبايعاه فلما بايعاه بعنهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى فريش يدعوانهم إلى الإسلام وقال : من دخل دار أبي سفيان وهي بأعلى مكة فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم وهي بأسفل مكة فهو آمن ، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن .

ولما خرج أبو سفيان وحكيم من عند رسول الله ﷺ عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير بن العوام وأمره على خيل المهاجرين وأمره أن يفرز رايته بأعلى مكة بالحجون وقال له : لا تبرح حتى آتيك ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وضربت هناك خيمته ، وبعث سعد بن عباد في كتيبة الأنصار في مقدمته ، وبعث الخالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاة وبنو سليم وأمره أن يدخل أسفل مكة ويفرز رايته دون البيوت . وأمرهم رسول الله ﷺ جميعاً أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، وأمرهم بقتل أربعة نفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح والحويرث بن نفيل وابن خطل ومقبس بن ضبابه وأمرهم بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وقال : اقتلوهما وإن وجدتموهما متعلقين بأستار الكعبة فقتل علي عليه السلام الحويرث بن نفيل وإحدى القينتين وأفلت الأخرى ، وقتل مقبس بن ضبابه في السوق ، وادرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً فقتله .

قال : وسمى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وأخذ غرزه أي ركابه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي أما تسمع ما يقول سعد إنه يقول :

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبي الحزمة

فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام : أدركه وخذ الراية منه وكن أنت الذي يدخل بها وأدخلها إدخالاً رفيقاً فأخذها علي عليه السلام وأدخلها كما أمر .

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة دخل صناديد فريش الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم وأتى رسول الله ﷺ ووقف قائماً على باب الكعبة فقال : لا إله

إِلَّا اللَّهُ وحده وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده **الْإِنْ** كل مال أو مائة
ودم يدعى فهو تحت قدمي هاتين **إِلَّا** سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإيهما مردودتان
إلى أهلهما ، **أَلَا** **إِنْ** مكة محرمة بتحريم الله لم تحل لأحد كان قبلي ولم تحل لي
إلا ساعة من نهار وهي محرمة إلى أن تقوم الساعة لا يختلي خلاها ، ولا يقطع شجرها
ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد .

ثم قال : **أَلَا** لبس جيران النبي . كنتم لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتهم ثم
مارضيتهم حتى جثمتوني في بلادي تقاتلونني فاذهبوا فأنتم الطلقاء فخرج القوم فكأنما
أنشروا من القبور ودخلوا في الإسلام ، وكان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة فكانوا
له فياً فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء .

وجاء ابن الزبيري إلى رسول الله ﷺ وأسلم وقال :

يا رسول الله **إِنْ** لساني رائق ما فتقت إذ أنا بور^(١)
إذ أباري^(٢) الشيطان في سنن^(٣) الغي ومن مال ميله مشبور
آمن اللحم والعظام لربي ثم نفسى الشهيد أنت النذير

قال : وعن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة
وستون صنما فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول : « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما
يعتيد » « جاء الحق وزهق الباطل **إِنْ** الباطل كان زهوقا » .

وعن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ إلى مكة أبى أن يدخل البيت وفيه
الآلهة فامر بها فأخرجت وصورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزام فقال ﷺ
قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط .

أقول : والروايات حول قصة الفتح كثيرة من أراد استقصاءها فعليه بكتب
السير وجوامع الأخبار وما تقدم كالمخلص منها .

(١) البور الهالك .

(٢) المباراة المباهاة .

(٣) السنن وسط الطريق .

﴿سورة تبت مكيّة وهي خمس آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) .

﴿بيان﴾

وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه وعمله وبنار جهنم ولامرأته ، والسورة مكيّة .

قوله تعالى : «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» التبّ والتباب هو الخسران والهلاك على ما ذكره الجوهري ، ودوام الخسران على ما ذكره الراغب ، وقيل : الخيبة ، وقيل الخلوّ من كل خير والمعاني - كما قيل - متقاربة فيدالّ نسان هي عضوه الذي يتوصّل به إلى تحصيل مقاصده وينسب إليه جلّ أعماله وتباب يديه خسرانها فيمَا تكتسبانه من عمل وإن شئت فقل : بطلان أعماله أتت بعملها بهما من حيث عدم انتهائها إلى غرض مطلوب وعدم انتفاعه بشيء منها وتباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادة دائمة وهو هلاكها المؤبّد .

فقوله : «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» أي أبولهب ، دعاء عليه بهلاك نفسه وبطلان ما كان يأتيه من الأعمال لا إطفاء نور النبوة أو قضاء منه تعالى بذلك .

وأبولهب هذا هو أبولهب بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ كان شديد المعادة للنبي ﷺ مصرّاً في تكذيبه مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل وهو الذي قال للنبي ﷺ : تَبَّالِكَ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ لَأَوَّلَ مَرَّةٍ فَنَزَلَتِ السُّورَةُ وَرَدَّ اللَّهُ التَّبَابَ عَلَيْهِ .

وذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه وإن كان في صورة الكنية ، وقيل : اسمه عبد العزى وقيل : عبد مناف وأحسن ما قيل في ذكره في الآية بكنيته لا باسمه أن في ذلك نهكاً به لأن أبا لهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كما يقال أبو الخير وأبو الفضل وأبو الشر في النسبة إلى الخير والفضل والشر فلما قيل : « سيصلى ناراً ذات لهب » فهم منه أن قوله : « تبت يدا أبي لهب » في معنى قولنا : تبت يدا جهنمي يلزم ليهبها .

وقيل : لم يذكر باسمه وهو عبد العزى لأن عزى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبداً لغير الله وهو عبدالله وإن كان الاسم إنما يقصد به المسمى .

قوله تعالى : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » ما الأولى نافية وما الثانية موصولة ومعنى « ما كسب » الذي كسبه بأعماله وهو أثر أعماله أو مصدريته والمعنى كسبه بيديه وهو عمله ، والمعنى ما أغنى عنه عمله .

ومعنى الآية على أي حال لم يدفع عنه ماله ولا عمله - أو أثر عمله - تباب نفسه ويديه الذي كتب عليه أودعي عليه .

قوله تعالى : « سيصلى ناراً ذات لهب » أي سيدخل ناراً ذات لهب وهي نار جهنم الخالدة ، وفي تنكير لهب تفخيم له وتهويل .

قوله تعالى : « وامراته حمالة الحطب » عطف على ضمير الفاعل المستكن في « سيصلى » والتقدير : وستصلى امرأته الخ و « حمالة الحطب » بالنصب وصف مقطوع عن الوصفية للذم أي أذم حمالة الحطب ، وقيل : حال من « امرأته » وهو معنى لطيف على ما سيأتي .

قوله تعالى : « في جيدها جبل من مسد » المسد جبل مقتول من الليف ، والجملة حال ثانية من امرأته .

والظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستتمثل في النار التي تصلاها يوم القيامة في بيتها التي كانت تلبس بها في الدنيا وهي أنها كانت تحمل أغصان الشوك وغيرها نظر حها بالليل في طريق رسول الله ﷺ تؤذيه بذلك فتعذب بالنار وهي تحمل الحطب وفي

جيدها حبل من مسد .

قال في مجمع البيان : وإذا قيل : هل كان يلزم أبالهب الإيمان بعد هذه السورة وهل كان يقدر على الإيمان ولو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلي ناراً ذات لهب .

فالجواب أن الإيمان يلزمه لأن تكليف الإيمان ثابت عليه وإنما توعدّه الله بشرط أن لا يؤمن انتهى موضع الحاجة .

أقول : مبنى الإشكال على الغفلة من أن تعلّق القضاء الحتمي منه تعالى بفعل الإنسان الاختياري لا يستوجب بطلان الاختيار واضطرار الإنسان على الفعل فإن الإرادة الإلهية - وكذا فعله تعالى - إنما يتعلّق بفعله الاختياري على ما هو عليه أي أن يفعل الإنسان باختياره كذا وكذا فلو لم يقع الفعل اختياريّاً تخلف مراده تعالى عن إرادته وهو محال وإذا كان الفعل المتعلّق للقضاء الموجب اختياريّاً كان تركه أيضاً اختياريّاً وإن كان لا يقع فافهم وقد تقدّم هذا البحث في غير موضع من المباحث السابقة .

فقد ظهر بذلك أن أبالهب كان في اختياره أن يؤمن وينجو بذلك عن النار التي كان من المقضي المحتوم أن يدخلها بكفره .

ومن هذا الباب الآيات النازلة في كفار قريش أنهم لا يؤمنون كقوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » البقرة : ٦ ، وقوله : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » يس : ٧ ، ومن هذا الباب أيضاً آيات الطبع على القلوب .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية سعد رسول الله ﷺ الصفا فقال : يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ؟ فقال : أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم ومسيكم ما كنتم

تصدّقوني؟ قالوا: بلى. قال: فأنتي نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله عزّ وجل «نبت يدا أبي لهب».

اقول: ورواه أيضاً في تفسير السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولم يذكر فيه كون الدعوة عند نزول آية «وأنذر عشيرتك» الآية.

وفيه أيضاً عن طارق المحاربيّ قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها الناس إنّه كذاب فلا تصدّقوه فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد يزعم أنّه نبيّ وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذاب.

وفي قرب الأسناد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه آيات النبي صلى الله عليه وآله قال: من ذلك أنّ أمّ جميل امرأة أبي لهب أبتة حين نزلت سورة نبت ومع النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر بن أبي قحافة فقال: يا رسول الله هذه أمّ جميل محفظة أي مفضضة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به فقال صلى الله عليه وآله: إنّها لا تراني فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله قالت: جثته ولو أراه لرميته فأبته هجائي واللات والعزى إنّني لشاعرة فقال أبو بكر: يا رسول الله لم ترك؟ قال صلى الله عليه وآله: لا. ضرب الله بيني وبينها حجاباً.

اقول: وروي ما يقرب منه بغير واحد من طرق أهل السنة.

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى: «وامرأته حمالة الحطب» قال: كانت أمّ جميل بنت صخر وكانت تنمّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وتنقل أحاديثه إلى الكفّار.



﴿سورة الاخلاص مكيّة وهي أربع آيات﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤).

﴿بيان﴾

السورة تصفه تعالى بأحدية الذات ورجوعه إلى ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شيء لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وهو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم وينبني عليه جميع المعارف الإسلامية .
وقد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين أنها تعدل ثلث القرآن كما سيجيء إن شاء الله .

والسورة تحتل المكيّة والمدنيّة ، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكيّة .

قوله تعالى : «قل هو الله أحد» هو ضمير الشأن والقصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له ، والحق أن لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أن له في غيرها من اللغات اسماً خاصاً به ، وقد تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة .

وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهنياً ولذلك لا يقبل العدد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد فإن له ثانياً وثالثاً وإما خارجاً وإما ذهنياً بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيراً ، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانياً كان هو هولم يزد عليه شيء .

واعتبر ذلك في قولك : ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت : ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر ، ولا فادته هذا

المعنى لا يستعمل في الايجاب مطلقاً إلا فيه تعالى ومن لطيف البيان في هذا الباب قول علي عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيدته تعالى : كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وقد أورد ناطراً من كلامه عليه السلام في التوحيد في ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب .

قوله تعالى : «الله الصمد» الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال : صمده يصمده صمداً من باب نصرأي قصده أو قصده معتمداً عليه ، وقد فسروا الصمد - وهو صفة - بمعاني متعددة مرجع أكثرها إلى أنه السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج ، وإذا أطلق في الآية ولم يقيّد بقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق .

وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواء يحتاج إليه فيقصده كل ماصدق عليه أنه شيء غيره ، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى : «ألا له الخلق والأمر» الأعراف : ٥٤ وقال وأطلق : «وأن إلى ربك المنتهى» النجم : ٢٢ فهو الصمد في كل حاجة في الوجود لا يقصد شيء شيئاً إلا وهو الذي ينتهي إليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته .

ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصمد وأنه لا فائدة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق ، وهذا بخلاف أحد في قوله «الله أحد» فإن أحداً بما يفيد من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق في الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر .

وأما إظهار اسم الجلالة ثانياً حيث قيل : «الله الصمد» ولم يقل : هو الصمد ، ولم يقل : الله أحد صمد فالظاهر أن ذلك للإشارة إلى كون كل من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به ف قيل : الله أحد الله الصمد إشارة إلى أن المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أو قيل كذا .

والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعاً فقوله : «الله أحد» يصفه بالأحادية التي هي عين الذات ، وقوله : «الله الصمد» يصفه بانتفاء كل شيء إليه

وهو من صفات الفعل .

وقيل : الصمد بمعنى المصمت الذي ليس بأجوف فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولا يولد وعلى هذا يكون قوله : «لم يلد ولم يولد» تفسيراً للصمد .

قوله تعالى : «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيأ بتجزّيه في نفسه فينقل عنه شيء سنخه بأيّ معنى أريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح عليه السلام انه ابن الله وكما يقول الوثنيّة في بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه .

وتنفيان عنه أن يكون متولداً من شيء آخر ومشتقاً منه بأيّ معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنيّة ففي آلهتهم من هو إله أبو إله ومن هو إلهة أمّ إله ومن هو إله ابن إله .

وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله ^(١) وهو الإيجاد والتدبير ولم يقل أحد من الملّكين وغيرهم بالكفؤ الذاتي بأن يقول بتعدّد واجب الوجود عزّ اسمه ، وأمّا الكفؤ في فعله وهو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنيّة من البشر كفرعون وتمرود من المدّعين للألوهيّة ، وملاك الكفاءة عندهم استقلال من يرون الألوهيّة في تدبير ما فوّض إليه تدبيره كما أنّه تعالى مستقلّ في تدبير من يدبّره وهم الأرباب والآلهة وهو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

وفي معنى كفاءة هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنّه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كلّ جهة والآية تنفيها .

وهذه الصفات الثلاث المنفيّة وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحدثته تعالى بوجه لكنّ الأسبق إلى الذهن تفرّعها على صفة صمديّته .

أمّا كونه لم يلد فإنّ الولادة التي هي نوع من التجزّي والتبعّض بأيّ معنى

(١) لم نذكر الصفة لأنها إما صفة الذات فهي عين الذات وإما صفة الفعل منتزعة

فسّرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد ، وحاجة المربّ إلى أجزائه ضروريّة والله سبحانه صمد ينتهي إليه كلّ محتاج في حاجته ولا حاجة له ، وأمّا كونه لم يولد فإنّ تولّد شيء من شيء لا يتمّ إلّا مع حاجة من المتولّد الى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له ، وأمّا أنّه لا كفؤ له فلا أنّ الكفؤ سواء فرض كفؤاً له في ذاته أو في فعله لا تتحقّق كفاءته إلّا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كلّ من سواء من كلّ جهة مفروضة .

فقد تبين أنّ ما في الآيتين من النفي متفرّع على صمديّته تعالى وما لذكر من صمديّته تعالى وما يتفرّع عليه إلى إثبات توحّده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى أنّه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه فذاته تعالى بذاته ولذاته من غير استناد إلى غيره واحتياج إلى من سواء وكذا صفاته وأفعاله ، وذوات من سواء وصفاتهم وأفعالهم بإفاضة منه على ما يليق بساحة كبريائه وعظمته فمحصلّ السورة وصفه تعالى بأنّه أحد واحد .

ومما قيل في الآية أنّ المراد بالكفؤ الزوجة فإنّ زوجة الرجل كفؤه فيكون في معنى قوله : « تعالى جد ربّنا ما اتخذ صاحبة » وهو كما ترى .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنّ اليهود سألو رسول الله ﷺ فقالوا : انسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثمّ نزلت « قل هو الله أحد » إلى آخرها .

أقول : وفي الاحتجاج عن العسكري عليه السلام أنّ السائل عبد الله بن صوريا اليهودي ، وفي بعض روايات أهل السنّة أنّ السائل عبد الله بن سلام سأله عليه السلام ذلك بمكّة ثمّ آمن وكتّم إيمانه ، وفي بعضها أنّ أناساً من اليهود سألوه ذلك ، وفي غير

واحد من رواياتهم أن مشركي مكة سألوه ذلك ، وكيف كان فالمراد بالنسبة النعت والوصف .

وفي المعاني بإسناده عن الأصبع بن نباتة عن عليّ عليه السلام في حديث : نسبة الله عز وجلّ قل هو الله .

وفي العلل بإسناده عن الصادق عليه السلام في حديث المعراج أن الله قال له أي للنبي عليه السلام : اقرء قل هو الله أحد كما أنزلت فانها نسبتني ونعتي .

اقول : وروى أيضاً بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام ما في معناه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال قل هو الله أحد ثلث القرآن .

اقول : وقد تكاثرت الروايات من طرقهم في هذا المعنى روه عن عدة من الصحابة كابن عباس وقد مرّ وأبي الدرداء وابن عمر وجابر وابن مسعود وأبي سعيد الخدريّ ومعاذ بن أنس وأبي أيوب وأبي أمامة وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وورد أيضاً في عدة من الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد وجهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوده مختلفة أعدلها أن ما في القرآن من المعارف تنحلّ إلى الأصول الثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد والسورة تتضمن واحداً من الثلاثة وهو التوحيد .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر ليلة فقلت له : علمني شيئاً أنصربه على الأعداء فقال : قل : يا هويّا من لا هو إلّا هو فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي : يا عليّ علمت الاسم الأعظم فكان على لساني يوم بدر .

وإن أمير المؤمنين عليه السلام قرء قل هو الله أحد فلما فرغ قال : يا هو يا من لا هو إلّا هو اغفر لي وانصرني على القوم الكافرين .
وفي نهج البلاغة الأحاد لا يتأويل عدد .

اقول : ورواه في التوحيد عن الرضا عليه السلام ولفظه : أحد لا يتأويل عدد .

وفي أصول الكافي بإسناده عن داود بن القاسم الجعفريّ قال : قلت لأبي

جعفر الثاني عليه السلام : ما الصمد ؟ قال عليه السلام : السيد المصمود إليه في القليل والكثير .

اقول : وفي تفسير الصمد معان أخر مروية عنهم عليه السلام فعن الباقر عليه السلام : الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر وفاء ، وعن الحسين عليه السلام : الصمد الذي لا جوف له والصمد الذي لا ينام ، والصمد الذي لم يزل ولا يزال ، وعن السجاد عليه السلام : الصمد الذي إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أصداداً وأشكالاً وأزواجاً وتفرّد بالوحدة بلا ضد ولا شكل ولا مثل ولا ند .

والأصل في معنى الصمد هو الذي روينا عن أبي جعفر الثاني عليه السلام لما في مادته لغة من معنى القصد فالمعاني المختلفة المنقولة عنهم عليه السلام من التفسير يلزم المعنى فإن المعاني المذكورة لو ازم كونه تعالى مقصوداً يرجع إليه كل شيء في كل حاجة فإليه ينتهي الكل من دون أن تتحقق فيه حاجة .

وفي التوحيد عن وهب بن وهب القرشي عن الصادق عن آبائه عليه السلام أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد فكتب إليهم : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ولا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول : من قال في القرآن بغير علم فليتبوء مقعده من النار ، وإن الله سبحانه فسر الصمد فقال : الله أحد الله الصمد ثم فسره فقال : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وفيه بإسناده إلى ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال : واعلم أن الله تعالى واحد أحد صمد لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك .

وفيه في خطبة أخرى لعلي عليه السلام الذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً .

وفيه في خطبة له عليه السلام : تعالى أن يكون له كفؤ فيشبه به .

اقول : وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى .

﴿ سورة الفلق مكيّة وهي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا
خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبي ﷺ أن يعوذ بالله من كل شرٍّ ومن بعضه خاصّة والسورة مدنيّة
على ما يظهر ممّا ورد في سبب نزولها .

قوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الفلق » العوذ هو الاعتصام والتحرّز من الشرّ
بالالتجاء إلى من يدفعه ، والفلق بالفتح فالسكون الشقّ والفرق ، والفلق بفتحين صفة
مشبهة بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص ، والغالب إطلاقه على الصبح لأنّه
المشقوق من الظلام ، وعليه فالمعنى أعوذ بربّ الصبح الذي يفلقه ويشقّه ومناسبة
هذا التعبير للعوذ من الشرّ الذي يستر الخير ويحجب دونه ظاهر .

وقيل : المراد بالفلق كلّ ما يفطر ويفلق عنه بالخلق والإيجاد فإنّ في الخلق
والإيجاد شقاً للعدم وإخراجاً للموجود إلى الوجود فيكون مساوياً للمخلوق ، وقيل
هو جبّ في جهنّم ويؤيّد به بعض الروايات .

قوله تعالى : « من شرّ ما خلق » أي من شرّ من يحمل شرّاً من الإنس والجنّ
والحيوانات وسائر ماله شرّ من الخلق فإنّ اشتغال مطلق ما خلق على الشرّ لا يستلزم
الاستغراق .

قوله تعالى : « ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب » في الصحاح : الفسق أوّل ظلمة الليل

وقد غسق الليل يفسق إذا أظلم والغاسق الليل إذا غاب الشفق . انتهى ، والقوب الدخول فالمعنى ومن شرّ الليل إذا دخل بظلمته . ونسبة الشرّ إلى الليل إنّما هي لكونه بظلمته يعين الشرير في شرّه لستره عليه فيقع فيه الشرّ أكثر ممّا يقع منه بالنهار ، والإنسان فيه أضعف منه في النهار تجاه هاجم الشرّ ، وقيل : المراد بالغاسق كلّ هاجم يهجم بشرّه كأننا ما كان .

وذكر شرّ الليل إذا دخل بعد ذكر شرّ ما خلق من ذكر الخاصّ بعد العامّ لزيادة الاهتمام وقد اهتمّ في السورة بثلاثة من أنواع الشرّ خاصّة هي شرّ الليل إذا دخل وشرّ سحر السحرة وشرّ الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهنّ .

قوله تعالى : « ومن شرّ النفاثات في العقد » أي النساء الساحرات اللّاتي يسحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد . وخصّت النساء بالذكر لأنّ السحر كان فيهنّ ومنهنّ أكثر من الرجال ، وفي الآية تصديق لتأثير السحر في الجملة ، ونظيره ما قوله تعالى : في قصّة هاروت وماروت : « فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلّا بإذن الله » البقرة : ١٠٢ ونظيره ما في قصّة سحرة فرعون .

وقيل : المراد بالنفاثات في العقد النساء اللّاتي يملن آراء أزواجهنّ إلى ما يريدنّه ويردنه فالعقد هو الرأى والنفث في العقد كناية عن حلّه ، وهو بعيد . **قوله تعالى :** « ومن شرّ حاسد إذا حسد » أي إذا تلبّس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه .

وقيل : الآية تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفسانيّ يتحقّق منه إذا عاين ما يستكره ويتعجّب منه .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال : سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال : إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقراء آية فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال .

أقول : وعن كتاب طب الأئمة بإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل عن الصادق عليه السلام مثله وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنة باختلافات يسيرة ، وفي غير واحد منها أنه أرسل مع علي بن أبي طالب زبيراً وعماراً وفيه روايات أخرى أيضاً من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام .

وما استشكل به بعضهم في مضمون الروايات أن النبي ﷺ كان مصوناً من تأثير السحر كيف ؟ وقد قال الله تعالى : « وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً » الفرقان : ٩ .

يدفعه أن مرادهم بالمسحور المجنون بفساد العقل بالسحر وأما تأثيره عن السحر بمرض يصيبه في بدنه ونحوه فلا دليل على مصونيته منه .

وفي المجمع وروى أن النبي ﷺ كان كثيراً ما يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين .

وفيه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : أنزلت على آيات لم ينزل مثلهن المعوذتان ، أورده في الصحيح .

أقول : وأسندها في الدر المنثور إلى الترمذي والنسائي وغيرهما أيضاً ، وروى ما في معناه أيضاً عن الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ، ولعل المراد من عدم نزول مثلهن أنهما في العوذة فقط ولا يشاركهما في ذلك غيرهما من السور .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبيهقي والطبراني وابن مردويه من طرق صحيحة

عن ابن عباس وابن مسعود أنه كان يحكّ المعوذتين من المصحف ويقول : لا تخطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله إنما أمر النبي أن يتعوّذ بهما ، وكان ابن مسعود لا يقرء بهما .

أقول : ثم قال السيوطي قال البرّار : ولم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قرء بهما في الصلاة وقد اُتبتا في المصحف انتهى .

وفي تفسير القميّ بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام إن ابن مسعود كان يمحو المعوذتين من المصحف . فقال : كان أبي يقول : إنما فعل ذلك ابن مسعود برأيه وهو [هماظ] من القرآن .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين على أن هناك تواتراً قطعياً من عامة المنتحلين بالإسلام على كونهما من القرآن ، وقد استشكل بعض المنكرين لا عجز القرآن أنه لو كان معجزاً في بلاغته لم يختلف في كون السورتين من القرآن مثل ابن مسعود وأجيب بأن التواتر القطعي كاف في ذلك على أنه لم ينقل عنه أحد أنه قال بعدم نزولهما على النبي صلى الله عليه وآله أو قال بعدم كونهما معجزتين في بلاغتهما بل قال بعدم كونهما جزء من القرآن وهو محجوج بالتواتر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : الفلق جبّ في جهنم مغطى .

أقول : وفي معناه غير واحد من الروايات في بعضها : قال ﷺ : باب في النار إذا فتح سعرت جهنم رواء عقبة بن عامر ، وفي بعضها : بئر في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعّر ، رواء عمرو بن عبسة إلى غير ذلك .

وفي المجمع وقيل : الفلق جبّ في جهنم يتعوّذ أهل جهنم من شدة حرّه عن السديّ ورواه أبو حمزة الثماليّ وعليّ بن إبراهيم في تفسيرهما .

وفي تفسير القميّ عن أبيه عن النوفليّ عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر .

اقول : الرواية مروية بلفظها عن أنس عنه رضي الله عنه .

وفي العيون بإسناده عن السلطي عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال : كاد الحسد أن يسبق القدر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الحسد ليأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب .



﴿ سورة الناس مدنيّة وهي ستّ آيات ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢)
إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ
النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبي ﷺ أن يعوذ بالله من شرّ الوسواس الخناس والسورة مدنيّة
كسابقتها على ما يستفاد ممّا ورد في سبب نزولها بل المستفاد من الروايات أنّ السورتين
نزلتا معا .

قوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس » من طبع الإنسان
إذا أقبل عليه شرّ يحذره ويخافه على نفسه وأحسّ من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن
يقوى على دفعه ويكفيه وقوعه والذي يراه صالحاً للعوذ والاعتصام به أحد ثلاثة إمّا
ربّ يلي أمره ويدبره ويربّيه يرجع إليه في حوائجه عامّة ، وممّا يحتاج إليه في بقائه
دفع ما يهدّده من الشرّ ، وهذا سبب تامّ في نفسه ، وإمّا ذوقوّة وسلطان بالغة قدرته
نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشرّ بسلطته كملك من الملوك ، وهذا
أيضاً سبب تامّ مستقل في نفسه .

وهناك سبب ثالث وهو الإله المعبود فإنّ لازم معبوديّة الإله وخاصة إذا كان
واحداً لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلّا إياه ولا يرجع في شيء من
حوائجه إلّا إليه فلا يريد إلّا ما أَراده ولا يعمل إلّا ما يشاؤه .

والله سبحانه ربّ الناس وملك الناس وإله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه
في قوله : « ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو فأنّى تصرفون » الزمر : ٦ وأشار

تعالى إلى سببية ربوبيته وألوهيته بقوله : « ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً ، المزمل : ٩ ، وإلى سببية ملكه بقوله : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، الحديد : ٥ فإن عاذ الإنسان من شرّ يهدّهُ إلى ربّ قاله سبحانه هو الربّ لأربّ سواء وإن أراد بعوذه ملكاً قاله سبحانه هو الملك الحقّ له الملك وله الحكم ^(١) وإن أراد لذلك إلهاً فهو إلا إله لا إله غيره .

فقوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الناس » الخ أمر لنبيه ﷺ أن يعوذ به لأنّه من الناس وهو تعالى ربّ الناس ملك الناس إله الناس .

ومما تقدّم ظهر أوّلاً وجه تخصيص الصفات الثلاث : الربّ والملك والإله من بين سائر صفاته الكريمة بالذكر وكذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الربّ أوّلاً لأنّه أقرب من الإنسان وأخصّ ولاية ثمّ الملك لأنّه أبعد منلاً وأعمّ ولاية يقصده من لاوليّ له يخصّه ويكفيه ثمّ الإله لأنّه وليّ يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادّي .

وثانياً وجه عدم وصل قوله : « ملك الناس إله الناس » بالعطف وذلك للإشارة إلى كون كلّ من الصفات سبباً مستقلاً في دفع الشرّ فهو تعالى سبب مستقلّ لكونه ربّاً لكونه ملكاً لكونه إلهاً فله السببية بأيّ معنى أريد السبب وقد مرّ نظير الوجه في قوله : « الله أحد الله الصمد » .

وبذلك يظهر أيضاً وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال : ربّهم وإلههم فقد أُشير به إلى أن كلّاً من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلّق بها العوذ وحدها من غير ذكر الآخرين لاستقلالها والله الأسماء الحسنی جميعاً ، وللقوم في توجيه اختصاص هذه الصفات وسائر ما مرّ من الخصوصيّات وجوه لا تغني شيئاً .

قوله تعالى : « من شرّ الوسواس الخناس » قال في المجمع : الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفيّ انتهى فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره وذكروا أنّه سماعيّ والقياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعيّ المجرّد وكيف كان فالظاهر

كما استظهر أن المراد به المعنى الوصفي مبالغة ، وعن بعضهم أنه صفة لا مصدر .
والخناس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل : سمي
الشیطان خناساً لأنه يوسوس للإنسان فإذا ذكر الله تعالى رجع وتأخر ثم إذا
غفل عاد إلى وسوسته .

قوله تعالى : « الذي يوسوس في صدور الناس » صفة للوسواس الخناس ،
والمراد بالصدور هي النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدء الإدراك من الإنسان وهو
نفسه وإنما أخذت الصدور مكاناً للوسواس لما أن الإدراك ينسب بحسب شيوع
الاستعمال إلى القلب والقلب في الصدر كما قال تعالى : « ولكن تعمى القلوب التي
في الصدور » الحج : ٤٦ .

قوله تعالى : « من الجنة والناس » بيان للوسواس الخناس وفيه إشارة إلى
أن من الناس من هو ملحق بالشیاطين و في زمرة هم كما قال تعالى : « شياطين الانس
والجن » الانعام : ١١٢ .

وأما ما قيل : إن الناس يطلق على جماعة الجن كما يطلق على الانس ، وقوله
« من الجنة والناس » بيان للناس بهذا المعنى الأعم فتحكم لا يصغى إليه .
وكذا ما قيل : إن قوله : « والناس » معطوف على « الوسواس » والمعنى من
شر الوسواس الخناس من الجنة ومن شر الناس بعيد عن الفهم كما لا يخفى .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : أبو خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء جبرئيل إلى النبي
صلى الله عليه وآله وهو شاك فرقاه بالمعوذتين وقل هو الله أحد وقال : بسم الله أرفيك
والله يشفيك من كل داء يؤذيك خذها فلتتهنيك فقال : بسم الله الرحمن الرحيم قل
أعوذ برب الناس إلى آخر السورة .

أقول : وتقدم بعض الروايات الواردة في سبب نزول السورة .

وفيه روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعَ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ وَإِذَا نَسِيَ التَّقَمَّ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ .
وفيه وروى العياشيُّ بإِسْنَادِهِ عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :
قال رسول الله ﷺ : ما من مؤمن إلَّا ولقلبه في صدره أذنان أذن ينفث فيها الملك وأذن ينفث فيها الوسواس الخَنَّاسُ فيؤيِّدُ اللهَ المؤمنَ بالملك ، وهو قوله سبحانه :
« وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ » .

وفي أمالي الصدوق بإِسْنَادِهِ إِلَى الصَّادِقِ ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » صَعِدَ إِبْلِيسُ جَبَلًا بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ ثَوْبِرٌ فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِعَفَارِيَّتِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا : يَا سَيِّدَنَا لِمَ دَعَوْتُنَا ؟ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَمَنْ لَهَا ؟ فَقَامَ عَفْرِيْتُ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَقَالَ : أَنَا لَهَا بِكَذَا وَكَذَا . قَالَ : لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك فقال لست لها .

فقال الوسواس الخَنَّاسُ : أَنَا لَهَا . قَالَ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : أَعْدَهُمْ وَأُمْنِيَهُمْ حَتَّى يَوَاقِعُوا الْخَطِيئَةَ فَإِذَا وَاقِعُوا الْخَطِيئَةَ أُنْسِيَتْهُمْ الْاسْتِغْفَارُ فَقَالَ : أَنْتَ لَهَا فَوَكَّلْهُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

أقول : تقدّم بعض الكلام في الشيطان في أوائل الجزء الثامن من الكتاب .



تمّ الكتاب والحمد لله واتَّفَقَ الفراغ من تأليفه في ليلة القدر المباركة الثالثة والعشرين من ليالي شهر رمضان من شهور سنة ائمتين وتسعين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة والحمد لله على الدوام ، والصلاة على سيّدنا محمد وآله والسلام .

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب .

السورة	الموضوع	نوع البحث	المحيفة
سورة الجن	كلام في الجن	قرآني	١١٢
د المدثر	ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق	»	١٧٢
د الدهر	كلام في هوية الانسان على ما يفيدہ القرآن	»	٢٣٠
سورة العرسلات	كلام في اقسامه تعالى في القرآن .	»	٢٤١
سورة النباء	كلام فيما هو الروح في القرآن	»	٢٧٢
سورة النازعات	كلام في انّ الملائكة وسائط في التدبير .	»	٢٨٣